الفرقان

في تفسير القرآن بالقرآن

الجزء التاسع

آیة الله العظمی الدکتور محمد الصادقی الطهرانی

[www.hakim-elahi.mihanblog.com](http://www.hakim-elahi.mihanblog.com)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 7

الجزء التاسع‏

[بقية سورة المائدة]

[سورة المائدة (5): الآيات 48 الى 58]

وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (48) وَ أَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَ احْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفاسِقُونَ (49) أَ فَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (50) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصارى‏ أَوْلِياءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (51) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشى‏ أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلى‏ ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ (52)

وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَ هؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خاسِرِينَ (53) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (54) إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ (55) وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ (56) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَ لَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ الْكُفَّارَ أَوْلِياءَ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (57)

وَ إِذا نادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوها هُزُواً وَ لَعِباً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ (58)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 9

وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (48).

... بعد إنزال الكتاب إلى الرسولين العظيمين موسى و المسيح عليهما السلام‏ «وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ» بجمعية الصفات المفيضة عليك يا خاتم النبيين ذلك «الكتاب» القرآن الناطق بالحق المطلق المطبق و التعبير عن القرآن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 10

ب «الكتاب» كأنه يستغرق كل كتابات الوحي فإنه مستغرق كلما أراد اللّه أن يقوله للمكلفين إلى يوم الدين، دون «القرآن» أو «هذا الكتاب- و- هذا القرآن»، ذلك ليدل على أنه هو الكتاب الجامع لكل كتاب، كما أن رسوله يجمع في نفسه ميزات الرسل كلهم و زيادة.

«أنزلنا» حال كونه‏ «مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ» النازل على الرسولين و من قبلهما من الرسل‏ «وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ» فالتصديق لكتب السماء لا يحمل إلّا تصديقا لنزولها بالوحي، ثم الهيمنة عليه- التي لا تحملها إلّا هذه الآية، اللّهم إلا آية الحشر للَّه «المهيمن» (23) هي الحيطة الحفيظة الرقيبة الشهيدة الكتابية، فكما اللَّه مهيمن على خلقه كلهم، كذلك كتابه الأخير مهيمن على كتبه كلها حيطة و شهادة و رقابة أمّاهيه من أبعاد الهيمنة.

فمن هيمنته عليها الحفاظ على أصولها الثابتة التي لا تتغير في أية شرعة، و منها نسخ ما يجب نسخه حكما يناسب كل الأجيال إلى يوم القيامة فإنه نسخ للأحكام المؤقتة، أو نسخ إلى مثل المنسوخ أو خير منه «ليبلوكم»: «ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها» (2: 106) «1» .. و كما منها تبيين ما حرف منها: «قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتابِ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ...» (5: 15)-

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 638 في كتاب الاحتجاج عن معمر بن راشد قال سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: قال رسول الله (ص) و قد ذكر الأنبياء صلوات الله عليهم، «و ان الله عز و جل جعل كتابي المهيمن على كتبهم الناسخ لها ..» و فيه في روضة الكافي بسند متصل عن علي بن عيسى رفعه قال: «ان موسى (ع) ناجاه ربه تبارك و تعالى فقال في مناجاته أوصيك يا موسى وصية الشقيق المشفق بابن البتول عيسى ابن مريم و من بعده بصاحب الجمل الأحمر الطيب الطاهر المطهر فمثله في كتابك إنه مؤمن مهيمن على الكتب كلها ...».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 11

«إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى‏ بَنِي إِسْرائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ. وَ إِنَّهُ لَهُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ» (27:) 76).

و في جملة مختصرة «إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ...» (17: 9)

فمهما كانت كتب السماء كلها قيّمة، و لكنها ليست إلّا لردح خاص من الزمن و أهليه، لا تصلح لإقامة المكلفين إلى يوم الدين، لكلّ قوامة معينة لهم من رب العالمين.

و ترى حين يكون كيان القران- العام- الهيمنة الطليقة على كل كتابات السماء، أ فلا يكون مهيمنا على نفسه بيانا و تبيانا، أم لا يكون مهيمنا على ما يروى عن الرسول (ص) و الأئمة المعصومين من آله عليهم السلام.

أجل، و كما اللَّه مهيمن على الكائنات كلها دون شريك و لا معين، كذلك قرآنه العظيم له الهيمنة الطليقة المطبقة العميقة على الوحي كله دونما ندّ و لا شريك، و ما السنة المحمدية (ص) إلّا شرحا هامشيا منه دونما استقلال له و لا استغلال، فضلا عما سواها إذا یعارضها من شهرة أو عقلية أو إجماع، فضلا عن قياس التمثیل أو استحسان أو استصلاح فإنها كلها بجنب القرآن هباء منثور، فلا حجة قيّمة معصومة إلّا القرآن، أو ما وافقه من المروي عن معصوم.

أجل، فالهيمنة القرآنية هي الوحيدة غير الوهيدة بين كتب السماء، كما أن هيمنة اللَّه هي الوحيدة بين كل الكائنات، لا توازى و لا تسامى.

ذلك، و من لزامات الهيمنة القرآنية عدم تحرّفه بجنب خاتميته، و عدم غموضه في ظواهره و رموزه، فإنه بيان للناس و نور مبين، فلا هيمنة طليقة على الوحي كله إلّا للوحي الأخير، الثابت كما أنزل بلا تحوير أو تغيير، حيث المحرّف بحاجة إلى هيمنة فلا يكون- إذا- مهيمنا لما سواه.

و قضيته الهيمنة الطليقة القرآنية فالحاكم بالقرآن مهيمن على الحكم كله و على الحكام كلهم: «فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 12

جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ» المطلق المهيمن المطبق‏ «فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ» و هم كل الملل الكتابية و المسؤولون أمام كتب السماء «بِما أَنْزَلَ اللَّهُ» في هذا القرآن، فإنه يحمل كل ما أنزله من قبل و ما يحتاجه المكلفون إلى يوم الدين.

«وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ»: تجاوزا عما جاءك من الحق إلى أهواءهم، و تراه بالإمكان أن يتبع أهواءهم عما جاءه من الحق؟

كلّا و لكن لتستأصل أهواءهم فيه بمحاولة استهوائه بما و عدوه.

و هنا «عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ» تحقق له أن يحكم لهم بما أنزل اللَّه في شرعته و منهاجه، فلئن اختلف حكم التوراة عما فيها لم يحكم إلّا بما أنزل اللَّه فيها دون التوراة، و إذا توافقا فالحكم متوافق بين الشرعتين و المنهاجين.

ذلك، «فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ» يحلّق حكمه الرسالي على الملل الخمس أن يحكم بينهم‏ «بِما أَنْزَلَ اللَّهُ» من شرعته و منهاجه، فلم يخير من ذي قبل بين الحكم و تركه: «فَإِنْ جاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ» إلّا تخيّرا بين الحكم بما أنزل اللَّه عليه أو تركه إطلاقا حين لا يصدقونه، ثم‏ «وَ إِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ» و ليس القسط هناك إلّا «ما أنزل الله» هنا، لا سيما و أن حكم الرجم أم سواه كان متحدا بين التوراة و شرعة القرآن.

فليس للرسول (ص) أن يحكم في التحاكم إليه بين غير المسلمين بحكم يخالف شرعته و منهاجه لمكان النسخ.

فأنت أنت الحاكم المطلق بين الكتابيين أجمعين، فان شرعتك هي الدين كله: «لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً» «لكلّ» من المذكورين و هم اهل الملل الثلاث اليهود و النصارى و المسلمين، و من غير المذكورين و هم أمة نوح و إبراهيم عليهما السلام، فالمخاطبون هنا هم كافة المكلفين على مدار الزمن الرسالي كله في مثلث الزمان، ان تحكم على كل ملة رسالية شرعة واحدة في مجالتها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 13

اجل ليس المخاطبون الفرق الكتابية في زمان واحد، فإن كل شرعة من الخمس تحلق على كافة المكلفين في زمنها، دون أن تعدوا شرعة إلى زمن أخرى اختلاقا للاختلاف المرفوض في دين اللَّه حيث‏ «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى‏ وَ عِيسى‏ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ...» (42: 13).

و مهما كان الدين في أصله واحدا و لكن شرائع الدين تختلف في بعض الطقوس و الشكليات، فلو أن شرائع الدين كانت متحكمة في كل زمان لكان الاختلاف لزاما للديّنين، رغم أن الوحدة هي المقصودة دون خلاف: «وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ ...» (11: 119).

و لو صح تقارن الشرائع لبطلت الدعوة القرآنية الموجهة إلى أهل الكتاب بل و سواهم لو كانوا مؤمّرين بشرعة الدين المحكّمة عليهم من ذي قبل، و بطلت الدعوة الإنجيلية الموجهة إلى اليهود و سواهم، و بطلت الدعوة التوراتية.

فالشرائع الخمس على مدار الزمن الرسالي في ولاية العزم الرسولي، كلّ متحكم لردح من الزمن دون أي تقارن.

لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً ...

و هل ان ضمير الجمع المكرر مرات تسع يعني كل واحد من المكلفين؟ «وَ لَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها» (32: 13) تحيله!.

أم يعني الأمم الكتابية الحاضرة زمن الخطاب؟ و لا أممية كتابية في زمان واحد، و ليس الجعل الرباني لكل شرعة و منهاج إلّا لردح خاص من الزمن إلّا الشرعة الأخيرة!.

أم يعنيهم على مدار الزمن الرسالي خطابا على وجه القضايا الحقيقية؟

و خطاب الماضين من الأمم لا طائل تحته!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 14

و الصحيح أن الخطاب موجه إلى الأمم الحاضرة و إلى يوم الدين، نبهة على أن شرعة كلّ تختص بردح خاص من الزمن، فليؤمنوا كلهم بهذه الشرعة القرآنية المهيمنة على السالفة، دون جمود على شرائعهم المجعولة كلّ منها لردح خاص من الزمن.

فالأمم الكتابية الخمس، و هم كافة المكلفين في الأدوار لخمسة الرسالية، لكلّ جعل اللَّه شرعة و منهاجا، و لو شاء اللَّه لجعلهم كلهم منذ آدم إلى يوم الدين أمة واحدة لهذه الشرعة القرآنية الجامعة لها كلها، و لكن ليبلوكم فيما آتاكم من الشرائع.

هذا و ليست صدفة غير قاصدة توافق عديد النص في مختلف صيغ:

«الناس» ال 241 مرة و «الإنسان» 65 و «الإنس» 18 و «أناس» 5 و «أناسي» 1 و «انسيّا» 1 و «بشر» 26 و «بشرا» 10 و «بشرين» 1- و الجمع (368) مرة، مع مختلف النصوص في الرسل فانها ايضا (368) مرة!.

و الشرعة هي الأحكام الأصيلة الشارعة إلى الدين الواحد، تحملها كتاب الوحي لولي العزم الرسولي، و المنهاج يحمل السنة المنهجية الهامشية الشارحة للشرعة، فلكل صاحب شرعة بيان رسالي بما أراه اللَّه على ضوء كتاب وحيه الأصيل فالشرعة و المنهاج سبيل و سنة «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 639 في أصول الكافي بسند متصل عن أبي جعفر عليهما السلام حديث طويل يقول فيه (ع) فلما استجاب لكل نبي من استجاب له من قومه من المؤمنين جعل لكل منهم شرعة و منهاجا و قال اللَّه لمحمد (ص): إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح و النبيين من بعده، و أمر كل نبي بالأخذ بالسبيل و السنة و كان من السبيل و السنة التي امر اللَّه عزّ و جل بها موسى (ع) «ان جعل عليهم السبت» و فيه عن علل الشرائع حنان بن سدير قال قلت لأبي عبد اللَّه (ع) لأي علة لم يسعنا إلّا أن نعرف كل امام بعد النبي (ص) و يسعنا ان لا نعرف كل امام قبل النبي (ص)؟ قال: لاختلاف الشرائع.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 15

فالسبيل هي أصل الشرعة و هي كتاب الوحي الأصيل، و المنهاج هو الرسول بسنته، و ذلك المثلث يشكل هندسة الشرعة، فمادة الدعوة الأصيلة الشرعة هي رأس الزاوية، و الداعية الرسولية بسنته الشارحة هما الزاويتان الأخريان.

فليس في ميادين الدين الخمسة إلّا شرعة و منهاج، و أما الطريقة المختلقة ادعاء أنها باطن الشرعة و المنهاج، فهي خارجة عن الشرعة و المنهاج، فإنهما هما الكافلان لبيان الدين المتين دون حاجة إلى اختلاق طريقة أو شرعة أو منهاج مختلقة، ويكأن اللَّه قصر أو قصّر في تبين الدين فاحتاج إلى اختلاق طريقة هي أعمق من شرعة الدين و منهاجه! و لا سيما الطريقة التي تجتاح الشريعة زعم انها قشور غير محتاج إليها لأهل الطريقة!.

أجل و ليست كل شرعة ربانية إلّا شرعة من الدين: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ» و شريعة من الأمر: «ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى‏ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ» (45: 18).

إذا فالدين: الطاعة، و الدين: الأمر، واحد لا اختلاف فيه أصليا، فإنما الشرائع إلى الدين قد تختلف شكليا و ابتلائيا، فالواجبات الأصلية كما المحرمات الأصلية و أصول الدين كلها ثابتة كضابطة في شرايع الدين كلها، فإنما الاختلاف في الشكليات ابتلاء و امتحانا:

«وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً» في الشرعة و المنهاج كما أنتم امة واحدة في أصل الدين، فقد كان من الممكن أن يشرع اللَّه شرعة واحدة للدين و يفرضها على كل المكلفين منذ البداية إلى يوم الدين، و لكي لا يختلفوا و يحتاروا: «وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ ...» (11: 118) فالاختلاف‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 16

في الدين تخلّف عنه في حقل الابتلاء بمختلف الشرائع و هو الهادي و الضال في ذلك الحقل تخييرا دون تسيير: «وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (16: 93) «وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ» (42: 8).

ذلك، فليست عدّة الأمم إلّا عدّة لبالغ الابتلاء، حفاظا صارما بليغا على وحدة الدين بعب‏ء المحاولة الدائبة في التسليم للَّه، فهذه الأمم هي في الحق أمة واحدة لرسالة واحدة مهما اختلفت طقوس ظاهرية و مظاهر أحكامية: «إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ» (21: 92) و «... فاتقون» (23: 52).

و لكن تعدد الشرائع إلى الدين ابتلاء، كما الدين أصله ابتلاء، فقد أراد اللَّه مثنّى الابتلاء في حقل الدين استكمالا للبلية:

«وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ» بلوى مستمرة على مدار الزمن الرسالي‏ «فِي ما آتاكُمْ» كلّا في زمنه، هل أنتم تصبغون شرعة اللَّه بصبغة الطائفية و القومية و الإقليمية و العادة أماهيه؟ كما فعله الكثير من اليهود و النصارى المتعصبين المتصلبين على ما آتاهم اللَّه.

فكما التدين بشرعة من الدين في البداية ابتلاء، كذلك الانتقال منها إلى شرعة أخرى ناسخة لها ابتلاء، بل و النقلة أبلى من الابتذاء و لا سيما إلى نبي من غير قومه، فقد تختصر الحكمة الربانية في عديد الشرايع من الدين و تحتصر في:

«وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ» فكما يبلو المولى عبده ليختبره في مدى طاعته له بمختلف أوامره، فقد يأمره أوّلا بأمر يأتمره فيه، ثم يظل فيه متعودا، و من ثم يأمره بأمر ثان علّه إمر أكثر مما كان، و هو في نفسه إمر حيث يخالف‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 17

تعوّده على الأوّل، فإن ائتمره في كل أوامره عرف تسليمه له دون أن تؤمره عادته و هواه، و إن جمد على أمره دون نقلة إلى ثان و سواه عرف عدم تسليمه، و أنه ممن يؤمن ببعض و يكفر بعض، و أنه متبع هواه دون مولاه.

كذلك الأمر «لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً ... لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ» من شرعة سابقة و لاحقة، فالجامد على السابقة تركا للّاحقة و هما من دين واحد و إله واحد، إنه ليس متشرعا بالسابق كما اللّاحق، فإنما هو متبع هواه مهما اتبع من قبل ظاهريا هدى اللَّه، و هكذا نرى الدنيا بحذافيرها ابتلاء في خيرها و شرها «1».

ثم الأحكام على صنوف عدة، منها ما تكون مصالحها في أنفسها أمرا أو نهيا دون أي تطبيق كأمر إبراهيم الخليل بذبح إسماعيل، و أخرى بتطبيق دون مصلحة خارجية أخرى إلّا هو، و ثالثة تتبع مصالح واقعية مقررة من عند اللَّه، و كلّها حق لا بمعنى أن اللَّه يتبع فيها حقا هو أمر ثالث بعده‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ذلك و عالم التكليف في كل مظاهره تكوينا و تشريعا بلوى و امتحان: «وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَ السَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (7: 168) «وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ» (21: 35) «وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ الصَّابِرِينَ وَ نَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ» (47: 31) «وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْ‏ءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ وَ نَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَ الْأَنْفُسِ وَ الثَّمَراتِ وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ» (2: 155) «وَ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ» (6: 165).

و بصورة جامعة: «إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» (18: 7) «الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» (67: 2) «فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَ أَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ. كَلَّا ..» (89: 76).

فقد نعيش ابتلاءات بأشكالها و لكلّ حساب فثواب أو عقاب قدر ما ابتلي و لا يظلمون نقيرا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 18

و بعد خلقه، بل الحق هو الذي يقرره بأية صورة من هذه الثلاث، و الثابت منها هو الموافقة للمصالح الواقعية بسيرتها أم و بصورتها دون الأخريين.

و هكذا يكون دور الابتلاء بمختلف الأحكام في مختلف الشرائع:

«لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ».

دون ما اشتهر في خطابات و مؤلفات أن هذه الشرائع الخمس كالصفوف الخمس الدراسية تتدرج حسب تدرج القابليات! فإن شرائع اللَّه في أصولها العقيدية و فروعها الأحكامية ليست من العلوم الصلاحية التي تتدرج في صفوفها للدراسين، فأصولها الثلاثة يكفي فيها- فقط- عقل التكليف في أية درجة، ثم الفروع متلقاة بالقبول على أساس الأصول دونما حاجة إلى أية عبقرية عقلية أو علمية، فأي فرق بين واجب عقيدة التوحيد و المعاد بين شرعة نوح و شرعة الإسلام، اللهم إلّا أن اللَّه بين أكمل مدارج التوحيد هنا لأنها شرعة المكلفين منذ بزوغها إلى يوم الدين، ثم الأحكام الفرعية نازلة فيها كما تحتاجها الأمة الاسلامية على مدار زمنها.

و لو أن الحكمة في تعدد الشرائع كما يقولون لما كان لعديدها و مديدها حد تقف عنده، فأين العقلية الجامدة الخامدة للجاهليين العرب، و العقلية المتحضرة في القرن الرابع العشر الحاضر، فهل من المفروض أن تأتينا شرعة جديدة تناسب هذه العقلية الحاضرة.

ثم المكلفون في كل الأدوار الرسالية الخمسة هم درجات في قابلياتهم، فالمفروض- إذا- في كل دور شرائع عدة لمختلف صنوف المكلفين دون شرعة واحدة تحكمهم على اختلاف قابلياتهم العقلية و العلمية.

فكما لا تصلح أية دراسة خاصة لمختلف الدارسين على حد سواء، كذلك شرعة واحدة لمختلف المتشرعين على حد سواء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 19

فهذه هرطقة حمقاء ان مختلف الشرائع هي لحكمة مختلف القابليات، إنما هو كما قال اللَّه: «لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ».

فإنما الدين هو التسليم لرب العالمين في كل قليل و جليل، تناسيا كافة الأهواء إلّا هدى اللَّه‏ «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ، فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَ مَنِ اتَّبَعَنِ وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَ الْأُمِّيِّينَ أَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ» (3: 20) «وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ» (3: 85) «أَ فَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» (3: 83) «وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ» (4: 125) «بَلى‏ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ» (2: 112) «وَ مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى‏» (31: 22) «قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ» (6: 14) «ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَ لا نَصْرانِيًّا وَ لكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (3: 67) «وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي قالُوا آمَنَّا وَ اشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ» (5: 111).

فإنما الدين الحق: الطاعة للَّه الحق، إنه واحد هو الإسلام للَّه في كل شرايع الدين المتين، «لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ» (2: 134) في دعواتهم بشرائعهم من الدين إلى أصل واحد هو الدين الطاعة و التسليم الواحد لرب العالمين.

ذلك، ففي كل شرعة، و في حقول الشرائع كلها، ليس المفروض إلّا التسليم‏ «فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ» دون الطائفيات و العنصريات و الإقليميات أمّا هو آت من غير التسليم الخاص للَّه رب العالمين.

و الخير الأخير المنقطع النظير بين كل بشير و نذير هو الشرعة الإسلامية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 20

السامية فاجعلوها في سباقاتكم السابغة، حيث الجمود على شرعة سابقة منسوخة هو شر حيث يتخلف عن شرعته الحاضرة المحكمة.

صحيح أن كل شرعة في زمنها الخاص خير، و لكنها بعد نسخها ليس خيرا، إلّا النقلة إلى ناسخها لمكان التسليم الطليق للَّه.

ذلك، و «إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً» أيها المتشرعون المختلفون، إلى إله واحد شرع لكم كل شرعة من الخمس‏ «فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ» إنباء علميا صارما بعد ما تجاهلتم في أولاكم، ثم إنباء عملي بعقوبات تستحقونها «بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ».

«فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ»: بادروا فعل الخيرات إن كنتم على غير أمان من حضور الأجل و تضييق الأمل، و ذلك يشبه سباق الخيل فإن كل واحد من فرسانها يشاحّ غيره على بلوغ الغاية المقصودة و ينافسه في الإسراع إلى البغية المطلوبة.

و إن شرائع اللَّه كلها خيرات، و في كل شرعة خيرات و خيرات، و لمكان التفاضل في هذه الخيرات، على الخيّرين أن يستبقوا الخيرات، لا أن يستبقوا خيرا يجمدون عليه و قد نسخ في شرعة اللَّه، أم فيها خير منه، و هكذا نجد اللَّه تعالى يستقطب مساعينا كلنا بكلها للحصول على أفضل الخيرات، فالبقاء على خير و هنا خير منه شر، و البقاء على خير منسوخ هو أشر، و الخير المأمور به دوما المحجور هو استباق الخيرات، طلبا للسابق السابغ في الخير سبقا في الخير في أصله دون سبق المكان أو الزمان.

فالخير للمكلفين أجمعين في شريعة اللَّه هو اجتماعهم على شرعته الأخيرة، ثم استباقهم فيها، دون أن يظل كلّ على شرعته ثم التسابق في الجدال، أو محاولة التوحيد بين هذه الشرائع بفرض المشاركات و رفض‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 21

المتخالفات، محاولة فاشلة و تعلّة باطلة قاحلة تخالف كل شرائع اللَّه، فشرعة اللَّه لا تقبل العدول أو التعديل من غير اللَّه قيد شعرة، لا لصالح التوحيد المزعوم بين الأمم، و لا سائر المصلحيات المزعومة المناحرة لما أراه اللَّه رسله، و لقد تبين هنا الفرق بين الدين و الشرعة و المنهاج، فالدين واحد هو طاعة اللَّه بإسلام الوجه في كل الوجوه للَّه، و الشرعة هي الشارعة إلى اصل الدين الطاعة، و ما اختلاف الشرائع في أصل الدين، إنما هو في بعض الطقوس و الشكليات، ثم المنهاج هو الذي ينتهجه حامل الشرعة الرسولي بوحي هامشي على وحي الشرعة، كما الشرعة متفرعة على أصل الدين، و هذه الثلاثة متحدة في كونها دينا و طاعة للَّه.

ذلك، فالصوفيات المختلقة، زعم أنها باطنيات الشرائع و الشرائع إنّما تتكفل ظاهريات، تلكم الصوفيات هي مبتدعات بكل زور و غرور، و «منهاجا» بعد «شرعة» هو من مجعولات اللَّه كما الشرعة، دون حاجة إلى تلكم الاختلافات الاختلاعات.

و علماء كل أمة و ربانيوها هم حملة شرعتهم و منهاجهم على درجاتهم، فالأوصياء هم استمرارية لدعوات النبوات، كما العلماء هم استمرارية لدعوات الأوصياء، كلّ في مكانته كما سعى و قرره اللَّه.

و ختاما للبحث حول آية الشرعة و المنهاج، لأن شرعة محمد (ص) هي المهيمنة على الشرائع كلها، نجد «شرعة» مرة كما هنا و «شريعة» في ثلاث أخرى، و كما نجد محمدا أربع مرات، إضافة إلى روح القدس و الملكوت و السراج فان كلا منها ايضا اربع، فقد تعني خماسية المربعات شرعة محمد و محمد الشرعة فهما الملكوت و هما روح القدس و هما السراج!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 22

وَ أَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَ احْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفاسِقُونَ (49):

ترى إلى م عطفت‏ «وَ أَنِ احْكُمْ ..»؟ علّها معطوفة على‏ «أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ» فهناك «فاحكم» تفريعا على إنزال الكتاب، و هنا «أن أحكم» بيانا للمسؤولية المحمّلة عليك في إنزال الكتاب.

و «ما أَنْزَلَ اللَّهُ» هنا هو النازل عليه في القرآن و السنة دون سائر الوحي، و كما يؤيده‏ «وَ احْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ» فإنه يعم الافتتان عنه إلى سائر الوحي المنسوخ أم أهواء خارجة عن الوحي.

فاتباع أهواءهم له محظور، سواء أ كانت أهواء لوحي الكتابين المنسوخ بالقرآن، أم سائر الأهواء، مهما اختلفت هوى عن هوى، حيث الفتنة عن الوحي الناسخ هوى، مهما كان إلى الوحي المنسوخ أم إلى غير وحي، فلا تطع أمرهم، و لا تجب داعيهم فإن أهواءهم داعية إلى الردى هادية إلى العمى.

و هنا تحذير الرسول (ص) أن يفتنوه عن بعض ما أنزل اللَّه إليه تأييس لهؤلاء المفتنين تلك المحاولة اليائسة البائسة حيث «أبي ذلك و انزل الله هذه الآية» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 290- اخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن أبي حاتم و البيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: قال كعب بن اسد و عبد اللَّه بن صوريا و شاس بن قيس اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه فأتوه فقالوا: يا محمد انك عرفت أنّا أحبار يهود و اشرافهم و سادتهم و أنا ان اتبعناك اتبعتنا يهود و لم يخالفونا و ان بيننا و بين قومنا خصوصة فنحاكمهم إليك فتقضي لنا عليهم و نؤمن لك و نصدقك فأبى ذلك و أنزل اللَّه عزّ و جل فيهم: «وَ أَنِ احْكُمْ ... الى قوله: لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 23

«فَإِنْ تَوَلَّوْا» عن حق الوحي و عن حكمك بما أنزل اللَّه إليك‏ «فَاعْلَمْ أَنَّما يُرِيدُ اللَّهُ» ذلك التولي المخيّر غير المسيّر «أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ» بتلك الإصابة، ذنبا يستجرّ ذنبا ثم اللَّه لا يوفقهم لتركه‏ «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» و هنا «فاعلم» نبهة أن محاولاتهم الفاسقة و جاه ما أنزل اللَّه إليه ليست خارجة عن حول اللَّه و قوته، بل هو الذي يذرهم- هكذا- في طغيانهم يعمهون‏ «وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ» (8: 59) فلا يحملنك تولّيهم عنك يا حامل الرسالة الأخيرة أن تحزن، و لا تجعل إعراضهم تغلبا لهم عليك أو على اللَّه ربك، و لا أن يفتّ عضدك أو يحوّلك عن موقفك، فهم أولاء فقط الذين يصيبهم السوء بذلك الإعراض، لا أنت كرسول و لا ربك كمرسل، و لا الصف المسلم، فإنما عليك البلاغ و علينا الحساب.

و بذلك يغلق كل منافذ الشيطنات و العرقلات و مداخلها إلى النفوس المؤمنة.

ذلك، و قد يعني تكرار «احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ» تكرّر دعواهم اليه (ص) حيث احتكموا إليه أولا في زنى المحصن ثم احتكموا إليه في قتيل كان بينهم‏ «1».

ذلك‏ «وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفاسِقُونَ» فلا يبقى إلّا قليل‏ «وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ» و ذلك الكثير دركات حسب دركات الفسوق، فكما المؤمنون في الأصل قلة بين الكافرين، كذلك العدول فيما بينهم قلة بجنب فساقهم.

هذه هي المفاصلة بين كتلتي الكفر و الإيمان دون أية مواصلة،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المجمع و هو المروي عن أبي جعفر عليهما السلام.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 24

فالحكم اثنان: حكم اللَّه و حكم الجاهلية دون وسط في البين بجعل البلد بلدين أو أخذ العصا من وسطها:

أَ فَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (50).

«إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ» (6: 57) أصلا و فصلا، ردحا قصيرا من الزمن أو كثيرا، فكما أن أحكام الأهواء غير الصادرة عن اللَّه هي من أحكام الجاهلية، كذلك أحكام اللَّه السابقة المنسوخة باللّاحقة، هي أحكام جاهلية في الالتزام بها- لا في أصلها لزمنها- لتخلفها عما حدده اللَّه و مدّده نسخا لها

«الحكم حكمان حكم الله و حكم الجاهلية فمن أخطأ حكم الله حكم بحكم الجاهلية» «1»

و القصد من حكم اللَّه أمام حكم الجاهلية هو الحكم الفعلي لا السابق المنسوخ إذ لا يرضى به اللَّه، فمن الجاهلية تطبيق حكم لا يرضى به اللَّه.

أجل، فالحكم غير المصبوغ بصبغة الإسلام للَّه هو من حكم الجاهلية مهما كان من أحكام اللَّه السابقة، لأنه تخلّف عن حاضر حكم اللَّه مهما كان هو حكم اللَّه فيما مضى.

إذا فالتسليم لحاضر حكم اللَّه المحكّم على المكلفين هو خط المواصلة بين المؤمنين باللَّه، و عدم التسليم له مهما كان تسليما لغابر حكم اللَّه فضلا عن حكم غير اللَّه، هو خط المفاصلة بين قبيلي الإسلام و الكفر، مهما سمى الكافر نفسه يهوديا أو نصرانيا أو مسلما!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 640 عدة من أصحابنا عن احمد بن محمد بن خالد عن أبيه رفعه عن أبي عبد اللَّه (ع) قال: و فيه عن أبي جعفر عليهما السلام مثله سنادا إلى الآية بزيادة: و اشهد على زيد بن ثابت لقد حكم في الفرائض بحكم الجاهلية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 25

فالإسلام للَّه في زمن الشرعة الأولى هو التسليم لها، ثم الإسلام الثاني الإبراهيمي و الثالث الموسوي و الرابع المسيحي، كل محدّد بالشرعة الحاكمة في دورها الخاص، و من ثم الإسلام منذ بزوغ الشرعة القرآنية هو التسليم لها إلى يوم الدين.

فهنا ثالوث منحوس من حكم الجاهلية، قد تتمثل في وثنية الشرك و أخرى في انحراف كتابي و ثالثة بين المسلمين، و قد تشملها «حكم الجاهلية» المناحرة لحكم اللَّه.

وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ‏:

لقد نظر اللَّه إلى كل الحاجيات الحاضرة و المستجدّة لكل أمة فشرع لكلّ شرعة من دينه دون أية نقيصة جليلة أو قليلة، ثم نظر إلى كافة المكلفين إلى يوم الدين فحاسب حسابات كافة المستجدّات و الملابسات لهم جماعات و فرادى، فشرع شرعة القرآن من الدين، حافلة لكافة المستجدات، كافلة لكل الحاجات.

و الغلطة الشهيرة بين الناس أن توالي الشرائع هي من قضايا تقدم المكلفين في تفهّم حقائق الدين، الفاسحة لمجال الخيال أن البشرية- و بعد أربعة عشر قرنا- بحاجة إلى شرعة جديدة تصلح للقمة العقلية و العلمية التقدمية لها.

إن هذه الغلطة ترد إلى أصحابها بنص القرآن: «لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً ... لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ» لا ليقدمكم فيما فيه تتقدمون و إلّا لم يكن لتتابع الشرائع من أمد تقف عنده!.

ذلك، و لأن الجانب الأحكامي من الشرائع لا يفرق بين العالم و الجاهل في تلقيها و تطبيقها، فليس التكامل العلمي و العقلي بالذي يسبب تكامل هذه الأحكام العملية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 26

ثم الجانب العقيدي موزع على كافة الاستعدادات، كلّ قدره و إمكانيته، و ترى أن الفلاسفة الأولين قبل نزول الكتب الثلاثة و بينها و قبل نزول القرآن هم ما كانوا يأهلون لتفهم الجانب العقلي العقيدي من شرعة اللَّه.

ذلك، و الأصول الثلاثة العقيدية واضحة في أصولها، مسبّلة في الحصول عليها و «لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها».

صحيح أن الشرعة القرآنية أكمل من كل شرائع الدين قبلها، و لكنها قضية خلودها، و كفالتها لكافة الحاجيات على مدار الزمن إلى يوم الدين، لا أن القوم اللّدّ من العرب الجاهلي كانوا يستحقون ذلك الكمال الخالد من شرعة اللَّه و لم يكن يستحقه النبيون من ذي قبل، و لا أمثال أفلاطون و أرسطو من أساطين العقل و العلم!.

فما ذلك القول في تكامل الشرائع إلّا غولا فاغتيالا للشرعة القرآنية أنها لا يمكن أن تبقى خالدة في عصور التقدم و الرقي التي لا نسبة بينها و بين القوم الذين نزل فيهم القرآن.

ذلك، فما هذا التوجيه غير الوجيه إلّا من أحكام الجاهلية على شرائع اللَّه، و ما الحكم هنا كما في غيره إلّا للَّه‏ «لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ‏ ... أَ فَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ..»؟ فالقوم الذين لا يوقنون باللَّه و بشرعته هم حكم الجاهلية يبغون، ثم الموقنون لا يبغون إلّا حكم اللَّه:

«وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» فما طنطنة تبديل بعض الأحكام الإسلامية إلى ما يناسب عصر التقدم و الرقي- كما يزعم- إلّا من القوم الذين لا يوقنون، كما الأحكام المصلحية! المعارضة لأحكام اللَّه الخالدة، هي أيضا من أحكام الجاهلية، مهما نقبوها بنقاب المصالح الحكومية الإسلامية أمّاهيه من أغطية، فإنها شرعة مختلقة خليعة تحكم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 27

على أصحابها بالكفر و الفسق و الظلم، ثالوث منحوس يتبنى الحكم بغير ما أنزل اللَّه!.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصارى‏ أَوْلِياءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (51):

هنا نقف متسائلين أمام هذه و الثلاث التالية لها، هل إنها نزلت في حجة الوداع كسائر المائدة؟ و «أن يأتي بالفتح» في التالية قد لا تناسبه حيث «الفتح» هو فتح مكة و لم يكن بعد فتح حتى يترجى! كما و أن شطرا مما ورد في أسباب النزول ينحي نزول هذه الأربع عن حجة الوداع إلى بداية العهد المدني حيث الحروب الأولية كبدر و أحد و ما أشبه!.

ذلك، و كما أن «نخشى أن تصيبنا دائرة» لا تناسب بعد الفتح و قد اضمحلت كل الدوائر المتربصة بالمسلمين و اكتسحت كل العراقيل.

فقد لا تتصل هذه الأربع- كآية التبليغ- نزولا مع السابقة عليها و اللاحقة بها، فآية التبليغ نازلة قبل آية إكمال الدين و إتمام النعمة و نراها بعدها بعشرات، مما يدل على اختلاف ترتيب التأليف في المائدة ترتيب تنزيلها، و لكنه لا ينصدم به أن المائدة هي آخر ما نزلت، ناسخة غير منسوخة، حيث القصد الأصيل هنا إلى خصوص الآيات الأحكامية، و لكن «لا تتخذوا ..» كذلك من الأحكامية، أو يقال: إن المائدة برمتها الأحكامية ناسخة فيما خالفت غيرها، غير منسوخة بغيرها، حتى في آياتها التي نزلت قبل حجة الوداع.

و على أية حال فالأصل الدلالي بالنسبة لكيان الآيات هو الآيات أنفسها دون شؤون نزولها المتعارضة مع بعضها البعض أحيانا، و انها من باب الجري و التطبيق أخرى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 28

فالفتح الموعود في التالية «أن يأتي بالفتح» هو فتح مكة حيث يستأصل كل دوائر السوء عن الكتلة المؤمنة الفاتحة للعاصمة، المستسلمة معهم جموع الكفار المعارضين.

إذا فهذه الآيات الأربع هي متصلة الأجزاء مع بعضها البعض، منقطعة عما احتفت بها من قبل و من بعد، جعلت في التأليف هنا لهامة تقتصيه و كما في سائر التأليف القرآني.

و من هذه الهامة صالح الصرخة الأخيرة القرآنية قرب ارتحال الرسول (ص) إلى جوار رحمة ربه، حيث تحذر المسلمين عن بأس اليهود و النصارى و بؤسهم، وعدا لفتح أو أمر من عنده ليسا ليختصا بفتح مكة مهما كان هو الأول، بل و هناك فتوح متواترة للمسلمين ما قاموا بشرائط الإيمان دون خشية عن الدوائر كيفما كانت.

فهنا «لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصارى‏» تحمل صارم التحذير عن اتخاذهم أولياء كضابطة تحلّق على الطول التأريخي و العرض الجغرافي الإسلامي إلى يوم الدين.

و الولاية المنهي عنها طليقة كأصل، تشمل ولاية السلطة و ولاية التناصر و التحالف و ولاية الحب، اللّهم إلّا ما يستثنى من ولاية دون الحب و السلطة عند التقية: «إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً» قدر قضية التقية في دوران الأمر بين الأهم و المهم، أم مع غير المحاربين منهم في ولاية لها جاذبية التوجيه إلى إيمانهم أم صد العداء المتطرف الجارف‏ «لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّما يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَ ظاهَرُوا عَلى‏ إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 29

فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» (60: 9) «1».

فضابطة «لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصارى‏ أَوْلِياءَ» تحلّق على كل الأحوال و لا يستثنى منها فيهم إلّا «الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ ..» و للمؤمنين‏ «إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً» و لا ثالث كأن: «نَخْشى‏ أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ ..»:

فلقد كانت ولاية المناصرة قضية المصالح و الأواصر المتشابكة بينهم و بين أهل الكتاب في العهد المدني و لا سيما في بدايته، و كما كانت قبل الإسلام، فنهاهم اللَّه عنها قضية الرزية العقيدية و ما أشبه نتيجة هذه الولاية.

صحيح أن الإسلام هو شرعة السماحة مع أهل الكتاب، بل و مع المشركين أيضا، و لكنها ليست لحد الولاية حبا و مخالطة و مناصرة و محالفة، إنما هي في حقل الملاطفة في العشرة مع غير المعاندين منهم.

و من البساطة و الغفلة أن نظن بهم مواصلة معنا في خط واحد أمام سائر الكفار و الملحدين، و لقد جربناهم طول التاريخ إذا كانت المعركة ضد المسلمين أهم معهم أم مع سائر الكافرين.

صحيح أن اللَّه يأمرهم بالمواصلة في خط التوحيد الوحيد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدرر المنثور 2: 290 عن عبادة بن الوليد ان عبادة بن الصامت قال: لما حاربت بنو قينقاع رسول اللَّه (ص) تشبث بأمرهم عبد اللَّه بن سلول و قام دونهم و مشى عبادة بن الصامت الى رسول اللَّه (ص) و تبرء إلى اللَّه و رسوله من حلفهم و كان أحد بني عوف بن الخزرج و له من حلفهم مثل الذي كان لهم من عبد اللَّه بن أبي فخلعهم إلى رسول اللَّه (ص) و قال: أتولى اللَّه و رسوله و المؤمنين و أبرأ إلى اللَّه و رسوله من حلف هؤلاء الكفار و ولايتهم، و فيه و في عبد اللَّه بن أبي نزلت الآيات في المائدة: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا- إلى قوله- فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 30

«تَعالَوْا إِلى‏ كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ..» (3: 64).

و لكن هل وجدنا لهم أذنا صاغية اللّهم إلّا قليلا منهم و فى لرعاية الحق فآمن أم كان على حياد، و لكن الضابطة في اليهود و النصارى، الثابتة معهم، أنهم لا يحبّذون شرعة بعد الكتابين مهما تظاهروا بالمحاباة، و إن كان النصارى أقرب مودة من اليهود حين المقايسة بينهما.

كيف و هم أولاء الذين يقولون للمشركين‏ «هؤُلاءِ أَهْدى‏ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا» و هم الذين كانوا يناصرون المشركين ضد المسلمين منذ البداية، ثم شنّو الحروب الصليبية طوال عامين، و ارتكبوا فضائع الأندلس، و شردوا المسلمين أخيرا من فلسطين و من كل مكان لهم بالإمكان.

و هنا «بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ» هي قضية حقيقية لا تختص بزمان دون زمان أو مكان دون مكان، أو جيل منهم دون جيل، إنها قضية المفاصلة العقيدية منهم الخليطة بتحريفات و تجديفات، فهم منذ ولد الإسلام أصبحوا أوّل المحاربين إياه حتى نهوا: «وَ لا تَكُونُوا أَوَّلَ كافِرٍ بِهِ» فهم يلي بعضهم بعضا ضد المسلمين في كل فجاج الأرض، و قد تلمّح اسمية الجملة «أولياء»- دون «يتولون»- على اسمية الحملة المتواصلة دونما انقطاع، و رسميتها على مدار التاريخ.

ذلك‏ «وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ» ضابطة عامة تحلّق على تولي الخير إلى تولي الشر،

«من تولى آل محمد (ص) و قدّمهم على جميع الناس بما قدمتهم من قرابة رسول اللَّه (ص) فهو من آل محمد بمنزلة آل محمد عليهم السلام، لا أنه من القوم بأعيانهم، و إنما هو منهم بتولّيه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 31

إليهم و اتباعه إياهم و كذلك حكم اللّه في كتابه‏ «وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ» «1».

و لا فحسب، بل و «من رضي بفعل قوم فهو منهم» كما في آيات عدة تعني و روايات تمضي بطيّات الفرقان.

فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشى‏ أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلى‏ ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ (52):

فمن هؤلاء الذين في قلوبهم مرض عبد اللّه بن أبي حيث‏

قال له (ص) في ذلك الموقف‏ «إني رجل أخاف الدوائر لا أبرء من ولاية مواليّ» «2»

و كذلك أضرابه من المنافقين الذين قالوا ما قالوه بعد وقعة أحد «3»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 640 في تفسير العياشي عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد اللّه (ع) قال:

(2)

المصدر اخرج ابن أبي شيبة و ابن جرير عن عطية بن سعد قال‏ جاء عبادة بن الصامت من بني الحارث بن الخزرج إلى رسول اللّه (ص) فقال يا رسول اللّه (ص) إن لي موالي من يهود كثير عددهم و إني أبرأ إلى اللّه و رسوله و من ولاية يهود و أتولى اللّه و رسوله فقال عبد اللّه بن أبي اني رجل أخاف الدوائر لا أبرء من ولاية موالي فقال رسول اللّه (ص) لعبد اللّه بن أبي يا أبا حباب أ رأيت الذي نفست به من ولاء يهود على عبادة فهو ذلك دونه، قال:؟؟؟ إذن أقبل فأنزل اللّه: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا ..» إلى قوله: «وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ».

(3) المصدر اخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم عن السدي قال: لما كانت وقعة احد اشتد على طائفة من الناس و تخوفوا أن يدال عليهم الكفار فقال رجل لصاحبه أما أنا فالحق بفلان اليهودي فآخذ منه أمانا و أتهود معه فاني أخاف ان يدال على اليهود و قال الآخر أما أنا فالحق بفلان النصراني ببعض ارض الشام، فآخذ منه أمانا و أتنصّر معه فأنزل اللّه فيه‏ «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ...».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 32

و أضرابهم على مدار التأريخ الرسالي.

و «الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» تعم المنافقين الرسميين إلى ضعفاء الإيمان، ففيما ذكروا مع المنافقين فهم الآخرون: «وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً» (33: 12)- «إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ» (8: 49)، و فيما يذكرون دون مقابل فقد يعمهما كما هنا، و قد يعنى منهم فقط

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و

فيه عن عكرمة في الآية- في بني قريظة إذ غدروا و نقضوا العهد بينهم و بين رسول اللّه (ص) في كتابهم إلى أبي سفيان بن حرب يدعونه و قريشا ليدخلوهم حصونهم فبعث النبي (ص) أبا لبابة بن عبد المنذر إليهم ان يستنزلهم من حصونهم فلما أطاعوا له بالنزول أشار إلى حلقه بالذبح و كان طلحة و الزبير يكاتبان النصارى و أهل الشام و بلغني أن رجالا من اصحاب النبي (ص) كانوا يخافون العوز و الفاقة فيكاتبون اليهود من بني قريظة و النضير فيدسون إليهم الخبر من النبي (ص) يلتمسون عندهم القرض و النفع فنهوا عن ذلك،

و فيه أخرج ابن أبي حاتم و البيهقي 3 في شعب الايمان عن عياض أن عمر أمر أبا موسى الأشعري ان يرفع إليه ما أخذ و ما أعطى في أزيم واحد و كان له كاتب نصراني فرفع إليه ذلك فعجب عمر و قال:

ان هذا لحفيظ هل أنت قارئ لنا كتابا في المسجد جاء من الشام؟ فقال: انه لا يستطيع ان يدخل المسجد، قال عمر أجنب هو؟ قال: لا بل نصراني فانتهرني و ضرب فخذي ثم قال أخرجوه ثم قرء: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا ..».

و في تفسير الفخر الرازي 12: 16 روى عن أبي موسى الأشعري أنه قال: قلت لعمر ابن الخطاب إن لي كاتبا نصرانيا فقال: مالك قاتلك اللّه ألا اتخذت حنيفا أما سمعت قول اللّه تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصارى‏ أَوْلِياءَ» قلت: له دينه ولي كتابته، فقال: لا أكرمهم اللّه إذ أهانهم اللّه و لا أعزهم اللّه إذ أذلهم اللّه و لا أدناهم اللّه إذ ابعدهم اللّه، قلت: لا يتم امر البصرة إلّا به فقال:

مات النصراني و السلام، يعني هب انه قد مات فما تصنع بعده فما تعمله بعد موته فاعمله الآن و استغن عنه بغيره.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 33

المنافقون كما «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ ما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ‏ ... فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً ..» (7: 20).

فالقلوب الميتة بأسرها هي القلوب المنافقة رسمية، و القلوب المريضة هي الحية التي ابتليت بشكّ، فإذا زاد الشك لحد الموت تمحضت في النفاق، «الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» يشمل المنافقين و سائر المرضى، و إن كان ظاهر المرض حياة مّا، فالمنافق الرسمي- بطبيعة الحال- هو المصداق الأخفى، و المسارعون في اليهود و النصارى يعمهما، و المنافق الرسمي بينهما هو الفرد الأجلى حيث المسارعة لهم أجلى و أنكى.

إذا فبين المنافقين و الذين في قلوبهم مرض عموم مطلق، كل منافق في قلبه مرض و ليس كل مريض القلب منافقا إلّا إذا كان مرض النفاق حيث يموت القلب بذلك المرض.

لقد سارعوا فيهم من ذي قبل و يسارعون لجوء إليهم أو مناصرة لهم و تحببا، اعتذارا بما «يَقُولُونَ نَخْشى‏ أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ» و هي حالة سيئة دائرة من قبلهم عليهم من سلطة دائرة، كأن لا يتم أمر محمد (ص) فيدور الأمر كما كان، أو يتم أمره فدائرة الفقر البائرة إذ نحن فقراء و هم أغنياء، أم أية دائرة مصيبة هي مصيبة علينا فتسمح لنا أن نسارع فيهم تقية!.

و هنا ندرس أن خشية «دائرة» كافرة على المؤمنين من قبل المعاندين لا تسمح لهم مسارعة فيهم في ولاية، لا سيما و أن اللّه واعد لهم النصرة، و لا تستثني‏ «إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً» إلّا أهم الأمرين الأمرين في ظاهر الولاية دون أية موادة أم ولاية السلطة: «لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْ‏ءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ» (3: 28).

ذلك، و أما خشية إصابة «دائرة» دون يقين، فمسارعة إليهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 34

انحلالا عن شروط الإيمان، و قد وعدهم اللّه بالنصرة من عنده، فذلك نقض لليقين بالشك، ثم و لا تقتضي «تقاة» منهم تلك المسارعة المتحللة عن الإيمان، فإنما الضرورات تقدر بقدرها دونما فوضى جزاف.

فما دام «عسى‏ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ» فلا مجال لتقية فضلا عن المسارعة فيهم.

و «الفتح» هنا- في عساه- عساه فتح مكة لمكان التعريف، فإن كان فتحا قبله لكان «بفتح» أو أنه جنس الفتح، و أبرزه في حاضر حياة الرسول (ص) فتح مكة، ثم و ما قبله من فتح و ما بعده، و أبرز الفتوح المستقبلة فتح صاحب العصر و ولي الأمر عجّل اللّه تعالى فرجه الشريف، فقد يكون مثلث الفتح معنيا بالفتح من عنده و القدر المعلوم هو فتح مكة المتأيد ب «نَخْشى‏ أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ» و لا خشية حاضرة بعد فتح مكة على الذين في قلوبهم مرض، الحضور حينذاك!.

ثم «و عسى» هنا من اللّه حتم و لنا ترجّ، عدة للمؤمنين، و وعيدا للذين في قلوبهم مرض حتى يرجعوا حاسرين عادمين‏ «فَيُصْبِحُوا عَلى‏ ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ»!.

ذلك «الفتح» فما هو «أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ»؟ ذلك أمر يقضي على إمر «دائرة» مخشية تصيب المؤمنين، أو يقضي على مسارعة الذين في قلوبهم مرض في الكافرين، أو يفضح هؤلاء المنافقين، فالفتح أبرز مصاديق‏ «أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ» اختص قبله بالذكر لكي تحيل موقعه من قلوب المؤمنين، ثم فتوح و ما أشبه قبله أو بعده و منها فتح بدر.

فهنا «الفتح أو أمر من عنده» هما من عند اللّه وعدا صارما، تلطفا بالمؤمنين و تعطفا، فلا شغل لهم فيها إلّا إعدادات إيمانية تستجلب هذه الوعود الخارقة للعادة من اللّه لهم و هم قلة و أعداءهم كثرة كثيرة و كما في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 35

حرب أحد، حيث يشمله‏ «أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ».

وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَ هؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خاسِرِينَ (53):

«الَّذِينَ آمَنُوا» هنا قبال‏ «الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» توغل مرضى القلوب في التعميم، و تجعل المنافقين منهم المصداق الأجلى، كما المسارعة في اليهود و النصارى تفعله.

و هنا «أ هؤلاء» قد تعني‏ «الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» حيث‏ «أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ» أنتم المؤمنين، أم إن «هؤلاء» هم اليهود و النصارى‏ «أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ» أنتم الذين في قلوبكم مرض، و ظاهر النص يحتملهما فهما- إذا- معنيّان، و «لمعكم» في الثاني ظاهر و هي في الأول خطاب للمؤمنين في أنفسهم بعضهم بعضا، و لكن‏ «حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خاسِرِينَ» قد ترجح الأوّل، فإن اليهود و النصارى كانوا حابطي الأعمال و خاسرين على أية حال دون اختصاص بذلك الموقف العضال.

و هذه المقالة المؤمنة لا تختص بما بعد الفتح أو أمر من عند اللّه حتى ترجح قراءة النصب في «و يقول» خلافا لنص المتواتر في كتب القرآن، بل هي قضية الإيمان قبل الفتح و بعده حيث يقولون بعد مقالة الذين في قلوبهم مرض: «نَخْشى‏ أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ» إن هذه القولة تناحر إقسامهم جهد ايمانهم إنهم لمعكم، فما هذه المعية المقسم لها و تلك القالة القالة و المسارعة فيهم إلّا منافقة بارزة من الذين في قلوبهم مرض، يقول ... و يقول: «حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خاسِرِينَ» في صفقتهم الحاسرة، و قد تحتمل‏ «حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ»- إلى كونها من مقالة المؤمنين- أنها جملة معترضة من اللّه استكمالا لمقالة المؤمنين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 36

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (54):

«الَّذِينَ آمَنُوا» هنا يعم كل من أقر بلسانه و لمّا يدخل الايمان في قلبه، أم دخل و لمّا يتم في عمله، أم هو منافق كافر بقلبه مقر بلسانه أم و بعمله، فالارتداد عن الدين هنا يشمل مثلثه، بل الذي يرتد عن إقرار دون إيمان هو أظهر مصاديق المرتدين عن الدين و أكثرهم حيث المؤمن بقلبه ليس ليرتد عن دينه اللّهم إلّا شذرا نزرا بشبهة دخلت في قلبه قد تعذره عن ارتداده.

ثم و من الارتداد هنا المسارعة إلى اليهود و النصارى بعاذرة «نَخْشى‏ أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ» أمّا أشبه أم دون أية عاذرة، فالمحور المعني من الارتداد هنا ليس هو الردة الجاهرة مهما كانت معنية ضمنيا، بل هي الردة المعنية من موالاة اليهود و النصارى مسارعة فيهم، مهما كانت الجاهرة أردى و أنكى.

إذا فهي- بصورة طليقة- الردة عن الإسلام المحض الشاملة كأصل لتلك الموالاة، دون محض الإسلام الخاص بالمرتدين الرسميين عن الإسلام.

«مَنْ يَرْتَدَّ ... فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ ..» تهديد شديد بالمرتدين عن الدين ألّا حاجة للّه فيهم و لا كرامة، و بشارة للصامدين على الدين أنه «سوف‏ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ» لهم مواصفاتهم المسرودة هنا، يستبدلهم بهؤلاء المرتدين، عزا للدين و الدينين.

هنا «فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ» تلمح صارحة صارخة أن هؤلاء الموصوفين لمّا يأت بهم اللّه عند ذلك الخطاب، أم و لا يأتي بهم عاجلا، و لا آجلا قريبا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 37

لمكان «سوف» المسوفة إلى بعيد من الزمن، فقد لا ينطبق «بقوم» على كثير ممن يدعى و يروى أنهم أولاء المعنيون‏ «1».

و بالنظر الدقيق الحر، المتحلل عن المذهبيات، إلى المواصفات المذكورة هنا لهؤلاء، و إلى آيات أخرى كالتي تلي، نتمكن من معرفتهم، عرفانا من سماتهم بأسمائهم أم كيانهم: «فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ» (6: 89) سلبا عن أية دركة من دركات الكفر في كل حقوله و حلقاته، ثم و في آيتنا مواصفات ست بين إيجابية و سلبية:

1- «فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ» و الذين يحبهم اللّه لا تخلج فيهم خالجة كفر أو فسوق لمكان الحب الطليق دون طليق الحب،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كأبي بكر و أصحابه كما يروى و قد كانوا مع الرسول (ص) فكيف سوف يأتي اللّه بهم، ثم و أبو بكر الذي لم ينزل اللّه سكينته عليه مع الرسول إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن ان اللّه معنا فأنزل اللّه سكينته عليه و أيده بجنود لم تروها فهل ان أبا بكر الحزين على ذلك الحدث الهائل كان أحوج إلى السكينة أو الرسول الذي يقول له: «لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا» فكيف‏ «أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ»- فقط- على الرسول و «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً» (48: 4) «فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً» (48: 18) «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى‏ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» (48: 26) «ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى‏ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» (9: 26).

فهل كان أبو بكر فوق الرسول و المؤمنين حتى لا يحتاج إلى سكينة اللّه، أم كان دون المؤمنين كما هو دون الرسول فلم يأهل لنزول السكينة التي نزلت على الرسول و على المؤمنين؟ ما يدريني إلّا كلام اللّه القائل هنا «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ» و هناك‏ «عَلى‏ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ».

ذلك أبو بكر فكيف يكون- إذا- حال أبي موسى الأشعري رغم ما أخرجه في الدر المنثور 3: 92- نزلت هذه الآية قال عمر انا و قومي هم يا رسول اللّه (ص) قال:

بل هذا و قومه يعني أبا موسى الأشعري.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 38

فقد تقدم حبّه إياهم على حبهم إياه، مما يدل على بالغ الحب.

ذلك، و في أخرى‏ «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ» (3: 31).

فلا نجد في سائر القرآن يجتمع الحبّان و يتقدم فيهما حب اللّه، اللهم إلّا في‏ «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ» (58: 22) و لكنهم كانوا مع النبي (ص) حين نزلت آيتنا و قد سوّف اللّه الإتيان بهذا القوم الذين يحبهم و يحبونه، فهم- إذا- أفضل منهم.

أجل‏ «يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ» يحبونه كما يحب أن يحبوه، و حب اللّه- هكذا- لعبد أو قوم أمر لا يقدر على إدراكه أحد إلّا العارف باللّه على عظمه و غناه، و العارف بقمة العبودية التي تستجلب مستقطبة حبّ اللّه قبل أن يذكر حبهم إياه، و ذلك اتجاههم في سلوكهم إلى اللّه و مع اللّه.

و أما مع المؤمنين باللّه و الكافرين به ف 3- «أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ 4- أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ» فهم على عزتهم في أنفسهم «أدلة على المؤمنين» و هنا «على» تلمح برحمة عالية للعزيز في نفسه على المؤمنين باللّه خفضا لجناحه لهم و تليّنا معهم، فهم من أفاضل الذين مع الرسول (ص) فيما اللّه يقول: «أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ» (48: 29) فحيث لا تعني «معه» معية في لغة أو قرابة أو زمان، بل هي المعية المتحللة عن كل هذه و تلك، مجرد المعية الرسالية في أي زمان أو مكان، من قريب إليه في لغة أو نسب أو سبب أو مكان أو زمان، أم غريب.

إذا «أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ»- «رحماء أعزة على الكافرين» «أشداء» هم أفاضلهم الذين سوف يأتي اللّه بهم، مهما كان زمن الرسول (ص) منهم اشخاص، إلّا أن «قوم» هم جماعة خاصة.

و قد تكون «أذلة» هنا جمع الذّل و هو اللطافة و الليونة و السماح كما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 39

الأرض الذلول هي التي ذلت بعد شماس و استسلمت بعد ارتكاس، فهؤلاء الأكارم المحبوبون للّه المحبون اللّه، الأذلّاء مع اللّه ذلا و ذلا، هم‏ «أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» باللّه ذلّا و ليونة «أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ» باللّه فما في ذلهم على المؤمنين من مذلة و لا مهانة، إنما هي الأخوة الإيمانية التي ترفع الحواجز من ترفّع و تكلّف، و تخلط النفس بالنفس فلا يبقى فيها ما يستعصي و يحتجز دون الآخرين.

إن حساسية الفرد و تفرعنه بذاته و إنياته متحوصلة متحيزة، هي التي تجعله شموسا عصيّا شحيحا على أخيه لا ذلّ له معه و لا ظل منه عليه، فأما حين يخلط نفسه بنفوس المؤمنين معه فلن يجد فيها ما يمنعه و ما يستعصي به، فما ماذا يبقى له في نفسه دونهم و قد اجتمعوا في اللّه إخوانا متحابين، و يحبهم و يحبونه، و يشيع ذلك الحب العلوي السامق بينهم فيتقاسمونه.

«أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ» دون ذلّ معهم و لا ذلّ، فهم عليهم في شماس و إباء، عزة للعقيدة و استعلائة للراية التي يقفون تحتها في مواجهة الكافرين، ثقة بما عندهم من خير الإيمان فلهم- إذا- تطويع الكافرين لخيرهم، فهم الأعلون أمامهم مهما انهزموا في بعض المعارك.

5- «يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» فحياتهم في كل حلقاتها جهاد في سبيل اللّه بالقال و المال و النفس و الحال على أية حال، فقد كرّست حياتهم ذلك الجهاد و مهّدت حياتهم ذلك المهاد، فالوسط الذي يعيشونه ليس إلّا سبيل اللّه، لا سبيل الشهوات و الرغبات و لا أية طلبات إلّا مرضات اللّه.

6- «لا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ» و لا قومة قائم ضدهم، و لا أية دوائر تتربص بهم، إنما يخافون اللّه ليس إلّا إياه، و فيما الخوف من لوم الناس و لؤم النسناس و هم قد ضمنوا حب رب الناس و ملك الناس و إله الناس، فهم عائذون به من شر الوسواس الخنّاس الذين يوسوس في صدور الناس من الجنة و الناس.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 40

و لماذا الوقوف عند شهوات الناس و رغباتهم و هم أولاء الأكارم حياتهم مكرسة في سبيل اللّه، فإنما يخاف لومة لائم من يستمد مقاييسه من أهواء الناس و يستمد حياته من حياة الناس.

و أما الراجع في مقاييسه إلى اللّه لتسيطر على هواءه و أهواء الناس، و يستمد قوته و عزته من قوة اللّه و عزته، فما يبالي- إذا- بما يلوم الناس.

ذلك، و هذا التعبير: «لا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ» منقطع النظير في القرآن بحق المجاهدين في سبيل اللّه فلا تجده إلّا هنا.

«ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ» فضل فضيل لهؤلاء القوم الذين سوف يأتي اللّه بهم، ثم و رذل رذيل لمن يقابلهم في جهادهم و سبيلهم إلى اللّه.

فمن هؤلاء القوم الخصوص الذين سوف يأتي اللّه بهم جبرا لكسر المؤمنين أمام المرتدين عن الدين، و انجبارا لخاطر الرسول (ص) الخطير؟.

فهل إنهم شواذّ من أشخاص خصوص كانوا مع الرسول و قد تربوا بتربيته الخاصة الخالصة الراسّة كالإمام علي (ع) «1» و أتباعه مثل سلمان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير البرهان 1: 479 في نهج البيان المروي عن الباقر و الصادق عليهما السلام ان هذه الآية نزلت في علي (ع).

و من طريق إخواننا في كتاب العمدة لابن بطريق ص 151 عن الثعلبي في تفسير الآية قال: علي بن أبي طالب (ع)، و

روى الحاكم في المستدرك 3: 132 بسند متصل عن عمرو بن ميمون قال: اني لجالس عند ابن عباس إذ أتاه تسعة رهط فقالوا يا ابن عباس إما أن تقوم معنا و إما ان تخلو بنا من بين هؤلاء قال فقال ابن عباس بل أنا أقوم معكم- الى أن قال-: فجاء ينفض ثوبه و يقول: أف و تف في رجل له بضع عشرة فضائل ليست لأحد غيره وقعوا في رجل قال له النبي (ص)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 41

و أبي ذر و المقداد و أضرابهم؟ و «فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ» ينافي أنهم حضور، و أنهم ليسوا قوما بل هم أشخاص!.

إنهم أركان الدولة المهدوية العالمية بقيادة القائم بأمر اللَّه عجّل اللَّه تعالى فرجه الشريف، حيث الثلاثمائة و الثلاثة عشر من أصحاب ألويته هم أخلص المخلصين من أصحاب النبيين، كما و أن العشرة آلاف من جنوده البواسل هم الخلصاء المتبلورة على مدار الزمن الرسالي، و قد يقودهم الرسول (ص) بعد صاحب الأمر، و أئمة الهدى عليهم السلام بعده إلى يوم القيامة، و هذا هو المعني من قولهم «دولتنا آخر الدول و لن يبق أهل بيت لهم دولة إلّا ولوا قبلنا حتى لا يقول أحد إنا لو ولّينا لعدلنا مثل هؤلاء» و هم المعنيّون من‏ «الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» و «وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ، إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ. وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ» (21: 107)- «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى‏ لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ» (24: 55).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

لأبعثن رجلا لا يخزيه اللَّه أبدا يحب اللَّه و رسوله و يحبه اللَّه و رسوله فاستشرف لها مستشرف فقال: اين علي فقالوا انه في الرحى يطحن قال: و ما كان أحدهم ليطحن، قال: فجاء و هو أرمد لا يكاد يبصر، قال: فنفث في عينيه ثم هز الراية ثلاثا فأعطاها إياه فجاء علي بصفية بنت حي قال ابن عباس ثم بعث رسول اللَّه (ص) فلانا بسورة التوبة فبعث عليا خلفه فأخذها منه و قال: لا يذهب إلّا رجل هو مني و أنا منه إلى آخر الحديث‏ أقول: و ممن اخرج حديث الراية النيسابوري في تفسيره 6: 143 بهامش الطبري و أبو حيان الأندلسي في تفسير المحيط 3: 511 و المتقي الهندي في كنز العمال 5: 428.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 42

أجل، فلا تنطبق هذه المواصفات الست ب «فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ» إلّا على ذلك القوم القائمين في آخر الزمان بأمر اللَّه بقيادة القائم المهدي من آل محمد عليهم السلام، و منهم المعصومون من هذه الرسالة قائدين، و المخصوصون بكرامة اللَّه مقودين.

ذلك، و

قد يروى عن الرسول (ص) في تفسير هذه المواصفات معنويا مثل قوله «لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمر الله فيه يقال فلا يقول فيه مخافة الناس فيقال إياي كنت أحق أن تخاف» «1».

و مصداقيا مثل الإمام علي (ع) و القائم المهدي (ع) بأصحابه و زمرته الحاكمة في دولته‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 2: 293 و فيه عن أبي ذر قال‏ امرني رسول اللَّه (ص) بسبع بحب المساكين و ان ادنوا منهم و ان لا أنظر إلى من هو فوقي و ان اصل رحمي و ان جفاني و ان اكثر من قول لا حول و لا قوة إلّا باللَّه فإنها من كنز تحت العرش و ان أقول الحق و إن كان مرا و لا أخاف في اللَّه لومة لائم و أن لا أسأل الناس شيئا

و

فيه عن عبادة بن الصامت قال‏ بايعنا النبي (ص) على السمع و الطاعة في العسر و اليسر و المنشط و المكروه، و على اثرة علينا و أن لا ننازع الأمر أهله و على أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في اللَّه لومة لائم،

و

فيه أخرج احمد عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللَّه (ص) ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول الحق إذا رآه و تابعه فانه لا يقرب من اجل و لا يباعد من رزق ان يقول بحق أو ان يذكر بعظيم.

(2)

نور الثقلين 1: 641 في تفسير القمي في الآية قال: هو مخاطبة لأصحاب النبي (ص) «الذين غصبوا آل محمد حقهم و ارتدوا عن دين اللَّه فسوف يأتي اللَّه بقوم يحبهم و يحبونه نزلت في القائم و أصحابه الذين يجاهدون في سبيل اللَّه و لا يخافون لومة لائم»

و

في المجمع عن علي (ع) أنه قال يوم البصرة: و اللَّه ما قوتل أهل هذه الآية حتى اليوم و تلا هذه الآية،

و

روى أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره بالإسناد عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة ان رسول اللَّه (ص)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 43

ذلك، و من لطيف الوفق القاصد بين الجهاد و المسلمين بمختلف صيغهما أن كلّا ذكر في الذكر الحكيم (41) مرة، مما يلمح أن الإسلام للَّه هو الجهاد في اللَّه، و كما وصف المسلمون هنا- كأهم وصف- ب «يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»!.

إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ (55) وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ (56):

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

قال: يرد علي يوم القيامة رهط من اصحابي فيجلون عن الحوض فأقول يا رب اصحابي فيقال: انك لا علم لك بما أحدثوا بعدك انهم ارتدوا على ادبارهم القهقرى.

أقول: علّ «لا علم لك» سؤال تقرير انه كان يعلم و يقول هذا ليبرز الحق بلسان الحق.

و

في تفسير البرهان 1: 478 محمد بن إبراهيم النعماني بسند متصل عن سليمان بن هارون العجلي قال سمعت أبا عبد اللَّه (ع) يقول: ان صاحب هذا الأمر محفوظ له لو ذهب الناس جميعا أتى اللَّه بأصحابه و هم الذين قال اللَّه عزّ و جل: «فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ» و هم الذين قال اللَّه: «فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ ..».

و

فيه عن تفسير العياشي عن سليمان بن هارون قال‏ قلت له ان بعض هؤلاء العجلة يزعمون ان سيف رسول اللَّه (ص) عند عبد اللَّه بن الحسن فقال و اللَّه ما رأى هؤلاء و لا أبوه بواحدة عن عينيه إلّا أن يكون أراه أبوه عند الحسين (ع) و ان صاحب هذا الأمر محفوظ له فلا تذهبن يمينا و لا شمالا فان الأمر واضح و اللَّه و لو ان اهل السماء و الأرض اجتمعوا على ان يحولوا هذا عن موضعه الذي وضعه اللَّه فيه استطاعوا و لو ان الناس كفروا جميعا حتى لا يبقى أحد لجاء اللَّه لهذا الأمر بأهل يكونون من أهله ثم قال: أما تسمع اللَّه يقول: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ..»

و قال في آية أخرى: «فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ» ثم قال: ان هذه الجماعة هم أهل هذه الآية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 44

هذه الآية هي من عداد الآيات البينات التي يستدل بها على الولاية الرسالية للإمام علي أمير المؤمنين (ع) بعد الرسول (ص) فإن خلافته المعصومة و ولايته استمرارية للرسالة القدسية المحمدية (ص).

و نحن في هذا الفرقان لسنا لنفسر الآيات بالصبغة المذهبية الخاصة تحميلا على القرآن ما لا يتحمله، إنما نستنبط من القرآن بصورة مجردة ما يعنيه، وافق مذهبنا أم خالفه في أي حقل من حقول المعرفة القرآنية.

هنا «إنما» تحصر الولاية المعنية من «وليكم» و المخاطبون هم كل المرسل إليهم في هذه الرسالة السامية، فولاية اللَّه معلومة أنها طليق الولاية تكوينية و تشريعية و شرعية أماهيه، و ولاية الرسول هي الولاية الطليقة الشرعية حسب ما تحدده آيات ولايته (ص) ك «النَّبِيُّ أَوْلى‏ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ..» (33: 6) و «أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» (4: 59) و ما أشبه، فليست له ولاية تكوينية و لا تشريعية لاختصاصهما بساحة الربوبية القدسية.

و أما «الَّذِينَ آمَنُوا» فتراهم كل المؤمنين المأمورين- فيمن أمروا- بهذه الولاية؟ و كيف يوالي المؤمن نفسه إلّا حبا لنفسه هو طبيعة الحال لحد محبور، و لا يحتاج إلى امر و تحريض، بل الأوامر تترى على حدّ يحدد تلك المحبة بما ليس من المحظور، إضافة إلى أن مواصفة أهل الولاية هنا ب «الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ» لا تختص هذه الولاية المنحصرة بهؤلاء الموصوفين، فالمؤمن الأعرف الأتقى ممن يؤتي الزكاة راكعا إن لم تتفق له هذه الزكاة فزكى ساجدا أم قائما أم في غير صلاة، هو خارج عن هذه الولاية المنحصرة التي تضاهي ولاية الرسول (ص) أو تساويها!.

من هنا نتبين صراحا أن ليست لهذه المواصفات موضوعية تأهل منحصرة لهذه الولاية، فلتكن من العناوين المشيرة إلى شخص خاص أو أشخاص‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 45

خصوص هم من أهل هذه الولاية الخاصة لا- فقط- لصلاتهم و زكاتهم حالة الركوع، بل لصلاحية أخرى كصلاح الرسول (ص) لم يكشف عنها النقاب هنا صراحا، و قد نعرف أنها صلاحية تتلو الرسالة لحد يتحمل صاحبها ولاية الرسالة.

إن الولاية العامة بين المؤمنين بالنسبة لبعضهم البعض تحملها أمثال:

«الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» (8: 71) و هي ولاية المحبة و المناصرة، و من قضاياهما الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و الولاية الشرعية بينها- و هي لمدراء الشريعة- ليست ولاية مطلقة.

أما الولاية الخاصة و هي الشرعية المطلقة فهي محصورة في الرسول (ص) بعد اللَّه، ثم الذين يحملون رسالة العصمة بعد رسول اللَّه (ص) و هم الخلفاء المعصومون عليهم السلام.

فلننظر في ذلك العنوان المشير في آيتنا أنه إلى من يشير، بعد ما نعرف أن المشار إليه هو من المخصوصين بولاية العصمة، غير المنطبقة على أحد من الأمة الإسلامية بعد الرسول (ص) إلّا المتفق بينهم على أنه لم يخطأ و لن.

إنه حسب متواتر الحديث عن الرسول (ص) و أئمة أهل بيته عليهم السلام هو الإمام علي عليه السلام و الأئمة من ولده المعصومين عليهم السلام في التأويل‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 643 في أصول الكافي بسند متصل عن أبي عبد اللَّه (ع) في هذه الآية قال: إنما يعني أولى بكم و أحق بكم و بأموركم من أنفسكم و أموالكم اللَّه و رسوله و الذين آمنوا يعني عليا و أولاده الأئمة عليهم السلام الى يوم القيامة ثم وصفهم اللَّه عزّ و جلّ فقال الذين يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة و هم راكعون و كان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 46

و هو شخصه في التنزيل‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أمير المؤمنين في صلاة الظهر و قد صلى ركعتين و هو راكع و عليه حلة قيمتها الف دينار و كان النبي (ص) أعطاه إياها و كان النجاشي أهداها له في رسائل فقال:

السلام عليك يا ولي اللَّه و أولى بالمؤمنين من أنفسهم تصدق على مسكين فطرح الحلة اليه و آوى بيده أن احملها فأنزل اللَّه عزّ و جلّ فيه هذه الآية و صيره نعمة أولاده بنعمته و كل من بلغ من أولاده مبلغ الامامة يكون بهذه النعمة مثله فيتصدقون و هم راكعون و السائل الذي سأل امير المؤمنين (ع) من الملائكة و الذين يسألون الأئمة من أولاده يكونون من الملائكة.

و

فيه 646 عن زرارة عن أبي جعفر عليهما السلام‏ في الآية يعني الأئمة منا،

أقول: و قد تواترت الرواية عنهم عليهم السلام أن المعني من‏ «الَّذِينَ آمَنُوا» هم الأئمة عليهم السلام كلهم.

(2)

الدر المنثور 3: 293- اخرج الخطيب في المتفق عن ابن عباس قال: تصدق علي (ع) بخاتمه و هو راكع فقال النبي (ص) للسائل من أعطاك هذا الخاتم؟

قال: ذاك الراكع فأنزل اللَّه‏ «إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ ..»

و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: نزلت في علي بن أبي طالب (ع)، و

اخرج الطبراني في الأوسط و ابن مردويه عن عمار بن ياسر قال‏ وقف بعلي سائل و هو راكع في صلاة تطوع فنزع خاتمه فأعطاه السائل فأتى رسول اللَّه (ص) فأعلمه ذلك فنزلت على النبي (ص) هذه الآية فقرأها رسول اللَّه (ص) على أصحابه ثم قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه و عاد من عاداه» و أخرجه أبو الشيخ و ابن مردويه عن علي بن أبي طالب (ع) و فيه مثله عن سلمة بن كهيل و مجاهد،

و

فيه أخرج ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال‏ أتى عبد اللَّه بن سلام و رهط معه من اهل الكتاب نبي اللَّه (ص) عند الظهر فقالوا يا رسول اللَّه (ص) ان بيوتنا قاصية لا نجد من يجالسنا و يخالطنا دون هذا المسجد و ان قومنا لما رأونا قد صدقنا اللَّه و رسوله و تركنا دينهم أظهروا العداوة و أقسموا أن لا يخالطونا و لا يؤاكلونا فشق ذلك علينا فبينا هم يشكون ذلك الى رسول اللَّه (ص) إذ نزلت هذه الآية على رسول اللَّه (ص)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 47

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

«إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ ..» و نودي بالصلاة صلاة الظهر و خرج رسول اللَّه (ص) فقال:

أعطاك أحد شيئا؟ قال: نعم، قال: من؟ قال: ذاك الرجل القائم، قال:

على أي حال أعطاكه؟ قال: و هو راكع، قال: و ذاك علي بن أبي طالب فكبر رسول اللَّه (ص) عند ذلك و هو يقول: «وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ»

و

فيه أخرج الطبراني و ابن مردويه و ابو نعيم عن أبي رافع قال: دخلت على رسول اللَّه (ص) و هو نائم يوحى إليه فإذا حية في جانب البيت فكرهت أن أبيت عليها فأوقظ النبي (ص) و خفت أن يكون يوحى إليه فاضطجعت بين الحية و بين النبي (ص) لئن كان منها سوء كان في دونه فمكث ساعة فاستيقظ النبي (ص) و هو يقول: «إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ ..» الحمد للَّه الذي أتم لعلي نعمه و هيّأ لعلي بفضل اللَّه إياه.

ذلك و قد اخرج المرجع الديني السيد شهاب الدين المرعشي النجفي في ملحقات إحقاق الحق ج 2: 399: 408 نزول هذه الآية في الإمام علي (ع) عن واحد و ثلاثين مصدرا قائلا ان هذه ما حضرتنا من المصادر و هنالك شي‏ء كثير مما ليس عندنا، و المصادر المذكورة كالتالية:

رواه جامع الأصول 9: 478 عن الجامع بين الصحاح الست للشيخ أبي الحسن رزين بن معاوية بن عمار العيدري الأندلسي السرقسطي، و محب الدين الطبري في ذخائر العقبى 88 و الآلوسي في روح المعاني 6: 149 قائلا: و غالب الأخباريين على انها نزلت في علي كرم اللَّه وجهه، و الشوكاني في فتح القدير 3: 50 و ابن حيان في البحر المحيط 3: 513 و الواحدي النيسابوري في أسباب النزول 148 و السيوطي في لباب النقول 90 و ابن الجوزي في التذكرة 18 و

الثعلبي مسندا الى أبي ذر الغفاري‏ خرج رسول اللَّه (ص) و علي قائم يصلي و معه خاتم، و في المسجد سائل فقال رسول اللَّه (ص) هل أعطاك أحد شيئا؟ فقال: نعم ذلك المصلي هذا الخاتم و هو راكع فكبر رسول اللَّه (ص) و نزل جبرائيل (ع) يتلو هذه الآية

فقال حسان بن ثابت:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| من ذا بخاتمه تصدق راكعا |  | و أسرها في نفسه اسرارا |
| من كان بات على فراش محمد |  | و محمد أسرى يوم الغارا |

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 48

فليست هذه الولاية- المختصة بعد الرسول (ص) بالذين آمنوا هنا- تشمل كل المؤمنين، و لا كل هؤلاء الذين يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة و هم راكعون، فقد يروى أن عمر بن الخطاب قال: «و الله لقد تصدقت بأربعين خاتما و أنا راكع لينزل في ما نزل في علي بن أبي طالب فما نزل» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| من كان في القرآن سمي مؤمنا |  | في تسع آيات تلين غزارا |

و الشبلنجي في نور الأبصار 105 و في كتاب المباهلة نقلا عن كتاب كفاية الطالب للكنجي الشافعي 106 و 122 نزول الآية في علي (ع) و من قوله فيه: هكذا ذكره حافظ العراقين في مناقبه و تابعه الخوارزمي و رواه الحافظ محدث الشام بطريقين و البيضاوي في أنوار التنزيل 120 و الطبري في التفسير 6: 165 و الخطيب البغدادي في تفسيره 1: 475 و النسفي المطبوع بهامش تفسير الخازن 1: 484 و القندوزي الحنفي في ينابيع المودة 1: 114 و الزمخشري في الكشاف 1: 347 قائلا: فان قلت كيف صح ان يكون لعلي رضي اللَّه عنه و اللفظ لفظ جماعة؟ قلت: جي‏ء به على لفظ الجمع و ان كان السبب فيه رجلا واحدا ليرغب الناس في مثل فعله فينالوا مثل ثوابه و لينبه ان سجية المؤمنين يجب ان تكون على مثل هذه الغاية من الحرص على البر و الإحسان و تفقد الفقراء حتى إن لزمهم امر لا يقبل التأخير و هم في الصلاة لم يؤخروه الى الفراغ منها، و ابن حجر العسقلاني في الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف 56 و فخر الدين الرازي في تفسيره 12: 26 و منهم السيد رشيد رضا في المنار 6: 442 و نظام الدين النيسابوري الأعرج في تفسيره بهامش تفسير الطبري 6: 145 و إسماعيل بن كثير في تفسيره الشهير 2: 71 و ابن بطريق في العمدة 59 و أبو بكر الرازي في احكام القرآن 3: 543 و القرطبي في الجامع لأحكام القرآن 6: 221 و الشيخ اسعد بن ابراهيم بن الحسني الأربلي في الأربعين حديثا و الترمذي في مناقب المرتضوي.

أقول: هذا طرف من أقوال إخواننا من محدثين و مفسرين و سائر المؤلفين، و اما من طرق أصحابنا فكثير كثير نشير الى طرف منها يسير في طيات البحث عن الآية.

(1).

نور الثقلين 1: 647 في امالي الصدوق عن أبي جعفر عليهما السلام في سرد-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 49

ذلك! و لا تقبل هذه الولاية الخاصة من معاني الولاية العامة إلّا الأولوية، حيث المحبة و المناصرة هما ولاية عامة بين المؤمنين ككل.

و لماذا هنا «الَّذِينَ آمَنُوا» بصيغة عامة و القصد إلى شخص خاص أم أشخاص خصوص؟ حيث القصد جمع خاص هم في القمة العليا من الإيمان و هم ولاة الأمر المعصومون الاثنى عشر بعد النبي (ص)، و لأن الحاضر منهم لم يكن إلّا علي (ع) معدا للولاية بعده (ص) لذلك أشير إليه بذلك العنوان المشير: «الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ» و لكي يعرف منهم أوّلهم بذلك النص الجلي و الحث العلي، كما و أن إيتاء الزكاة حال الركوع دليل باهر لا حول عنه على مدى سماحته و حنانه للفقراء لحد لا ينساهم في معراج ربه، نفسية علية عظيمة تجمع بين كامل الاتجاه إلى اللَّه و كافل الرعاية لعباد اللَّه، و هي مقام جمع الجمع الخاص بالخصوص من عباد اللَّه، حيث يجمع في حضنه كافة المعصومين الرساليين.

ذلك، و كما أنه ترغيب لرعاية السائلين و إجابتهم في كافة الأحوال حتى الصلاة التي لا مدخل فيها لغير اللَّه.

فالداخلون في هذه الولاية المثلثة- الموحدة في أصلها، المتعددة في فصلها- أولئك هم حزب اللَّه الغالبون‏ «وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ» فلأن‏ «وَ هُمْ راكِعُونَ» كعنوان مشير دلت على المعنيين من هذه الولاية الخاصة، فلا تتكرر هنا، اكتفاء ب «الَّذِينَ آمَنُوا»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

القصة الى أن قال: فكبر النبي (ص) و كبر اهل المسجد فقال النبي (ص) علي بن أبي طالب (ع) وليكم بعدي، قالوا: رضينا باللَّه ربا و بالإسلام دينا و بمحمد نبيا و بعلي بن أبي طالب (ع) ولينا فأنزل اللَّه عزّ و جلّ: «وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ»

فروي عن عمر بن الخطاب ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 50

تدليلا على أن حملة هذه الولاية بعد الرسول (ص) هم جمع أشير إلى أولهم و لمّا يأت الآخرون.

فالقول إن وقوع الآية بعد آية النهي عن ولاية اليهود و النصارى قد تحوّل تلك الولاية إلى عامتها بين عامة المؤمنين، معاكسة للولاية المحظورة بالولاية المحبورة، إنه مردود أوّلا بأن السياق- إن كان- ليس ليعارض النص المقيّد للولاية هنا بغير النصرة و المحبة، و أن وقوع هذه بعد تلك في ترتيب التأليف لا يدل على أنها واقعة بعدها- كذلك- في ترتيب التنزيل.

ذلك، و الولاية المنهي عنها في السابقة تعم سائر الولاية إلى ولاية السلطة، بل هي المقصودة العليا من سلبية الولاية، فإن ولاية الحب هنا منفية بقضية الإيمان، و ولاية النصرة هي عوان بينهما.

هذا، و حتى إن كانت هذه الآية نازلة بعد الناهية عن ولاية الكفار، فقد أريد بهذه الولاية خصوص السلطة و الأولوية الحفيظة على كيان المؤمنين كيلا يتفلتوا إلى الكفار في أية ولاية، حيث السلطة المعصومة المستمرة منذ الرسول (ص) إلى ما بعد ارتحاله هي العاصمة عن أمثال هذه الفلتات المدمرة المزمجرة الهدامة لصرح الإيمان فرديا و جماعيا.

فالمؤمنون- طول التاريخ- هم بحاجة إلى تحزب صامد دفعا عن كل سلطة كافرة عليهم و «مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا» هكذا «فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ» على سائر الأحزاب التي ليست فيها ولاية اللَّه الموحدة المثلثة، و ذكر «وليكم» هناك‏ «وَ مَنْ يَتَوَلَّ» هنا مرة واحدة، دليل وحدة هذه الولاية المثلثة الزوايا.

ذلك، و كما القول إن لفظ الجمع لا يناسب عناية الفرد منه و هنا «الَّذِينَ آمَنُوا ...» فكيف تعني شخصا واحدا عليا (ع) أم سواه، و قد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 51

قدمنا وجها له و كما نجد جموعا في القرآن عني منها الفرد بحسب المصداق كآية المباهلة في‏ «نِساءَنا وَ نِساءَكُمْ وَ أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَكُمْ» و «تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ» (60: 1) و القصد إلى حاضر مصداقها و هو حاطب بن أبي بلتعة في مكاتبته قريشا، و «يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ» (63: 8) و القائل هو عبد اللَّه بن أبي سلول، و «يَقُولُونَ نَخْشى‏ أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ» كما مضت قريبا و القصد- حسب ما في أسباب النزول- هو القائل نفسه.

ذلك، و من السر في جمعية التعبير هنا و هناك أن القصد في الكل هو إعطاء حكم كلي مهما كان حاضر المصداق واحدا، و حيث المعني من هذه الولاية الخاصة هم جمع المعصومين عليهم السلام، فقد كان من المفروض عنايتهم بصيغة الجمع، مهما كان العنوان المشير له مصداقا واحدا اتفق النقل عليه أنه هو علي أمير المؤمنين (ع).

و لو كان التعبير بصيغة الجمع في أمثال هذه الموارد خلاف اللغة أو الفصاحة- و ليس- فكيف اتفق أهل النقل على نقله دون أي نقد من القدامى، اللّهم إلّا شذاذ من المتأخرين و المتحذلقين المتذوقين بذوقية المذهبية و العصبية العمياء!.

و هكذا قيلتهم إن الصدقة بالخاتم لا تسمى زكاة؟ و الزكاة في مصطلح القرآن هي كل ما ينفق في سبيل اللَّه حالا و مالا، فرضا أو ندبا و أفضلها ندبها في أهم حالات الصلاة.

فالزكاة بصورة طليقة هي ما تزكي الحال و المال، تزكي الفرد و المجتمع، تزكي القلب و القالب، و قد جمعها كلها هذه الزكاة المؤتاة في ركوع الصلاة كما و كيفا و حالة و هالة قدسية.

ذلك كله في نصوح البيان و نصوعه العيان، و لكي لا يخفى على‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 52

الخفافيش و المؤولين تلك الولاية الخاصة، يؤمر الرسول (ص) بتبليغها يوم الغدير و قد بلّغ بصراح القول:

«أ لست أولى بكم من أنفسكم قالوا بلى قال فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم وال من والاه و عاد من عاداه و انصر من نصره و اخذل من خذله ..» «1»

و قد مضى شطر من البحث عنها على‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 642 في كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده إلى سليم بن قيس الهلالي عن امير المؤمنين (ع) انه قال‏ في أثناء كلام له في جمع من المهاجرين و الأنصار في المسجد أيام خلافة عثمان: فأنشدكم اللَّه عزّ و جلّ أ تعلمون حيث نزلت‏ «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» و حيث نزلت‏ «وَ لَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لا رَسُولِهِ وَ لَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً» قال الناس يا رسول اللَّه (ص) هذه خاصة في بعض المؤمنين ام عامة لجميعهم؟ فأمر اللَّه عزّ و جلّ نبيه (ص) ان يعلمهم ولاة أمرهم و ان يفسر لهم من الولاية ما فسر لهم من صلاتهم و زكاتهم و صومهم و حجهم فنصبني للناس بغدير خم ثم خطب فقال: ايها الناس ان اللَّه أرسلني برسالة ضاق بها صدري و ظننت ان الناس يفتتنون بها فأوعدني لأبلغنها أو ليعذبني ثم أمر فنودي الصلاة جامعة ثم خطب الناس فقال:

ايها الناس أ تعلمون ان اللَّه عزّ و جل مولاي و مولى المؤمنين و أنا أولى بهم من أنفسهم؟ قالوا: بلى يا رسول اللَّه، قال: قم يا علي فقمت فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه ... فقام سلمان فقال: يا رسول اللَّه (ص) ولاء كماذا؟

فقال (ص): ولاء كولائي من كنت أولى به من نفسه فعلي أولى به من نفسه فأنزل اللَّه تبارك و تعالى: اليوم أكملت لكم ... و كبر رسول اللَّه (ص) و قال: اللَّه اكبر تمام نبوتي و تمام ديني دين اللَّه عزّ و جلّ و ولاية علي بعدي فقام أبو بكر و عمر فقالا يا رسول اللَّه (ص) هذه الآيات خاصة في علي (ع) فقال: بلى خاصة فيه و في اوصيائي الى يوم القيامة قالا يا رسول اللَّه بينهم لنا، قال (ص): علي اخي و وزيري و وارثي و وصيي و خليفتي في امتي و ولي كل مؤمن بعدي ثم ابني الحسن ثم ابني الحسين ثم تسعة من ولد الحسين واحد بعد واحد القرآن معهم و هم مع القرآن لا يفارقونه و لا يفارقهم حتى يردوا على حوضي، قالوا: اللهم نعم قد سمعنا ذلك و شهدنا كما قلت سواء و قال بعضهم: قد حفظنا جلّ ما قلت و لم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 53

ضوء آية تكميل الدين و إتمام النعمة و يأتي شطر آخر على ضوء آية التبليغ.

و في رجعة أخرى إلى الآية فقد نجد «وليكم» دون «أولياءكم» تعني ولاية واحدة ثم «اللَّه» و معه‏ «رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا» هم حملة هذه الولاية الواحدة المنحصرة فيهم ب «إنما» و حيث لا يصح الحصر لولاية المحبة و النصرة فيهم، فإنما هي ولاية الأولوية بالأنفس و الأموال، فقد نتبين أنهاهيه مهما كانت ولاية اللَّه هي الأولى الأصيلة المفيضة إلى الآخرين، و المزيدة على ولايتهم في التكوين و التشريع و سائر الولايات الربانية.

فلو كانت الولاية المشتركة هنا مختلفة المعنى في المشتركين لكان المفروض إما «أولياءكم» أن تفرد الولاية للَّه ثم للآخرين تأمينا عن اللبس في معناها و المقام مقام الحصر.

فما أفصحه تعبيرا و أبلغه تفسيرا إفراد الولاية بالذكر ثم عطف الرسول و الذين آمنوا به دون فصل، و ليست عناية غير ولاية اللَّه للآخرين إلّا ثلمة في صرح الفصاحة و فتّا في عضد البلاغة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

نحفظه كله و هؤلاء الذين حفظوا أخيارنا و أفاضلنا فقال علي (ع) صدقتم ليس كل الناس يتساوون في الحفظ.

و

فيه في اصول الكافي بسند متصل عن احمد بن عيسى قال حدثني جعفر بن محمد عن جده عليهم السلام‏ في قوله عزّ و جل‏ «يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها» قال (ع): لما نزلت‏ «إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ ..» اجتمع نفر من اصحاب رسول اللَّه (ص) في مسجد المدينة فقال بعضهم لبعض: ما تقولون في هذه الآية؟ فقال بعضهم: ان كفرنا بهذه الآية نكفر بسائرها و ان آمنا فان هذا ذل حين يسلط علينا ابن أبي طالب فقالوا: قد علمنا ان محمدا (ص) صادق فيما يقول و لكنا نتولاه و لا نطيع عليا فيما أمرنا، قال: فنزلت هذه الآية «يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها» يعرفون ولاية علي (ع) و أكثرهم الكافرون بالولاية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 54

و من الاحتضار بعد الإياس عن تلك الاحتمالات المختلفة المتخلفة عن شؤون الفصاحة و البلاغة القول إن‏ «وَ هُمْ راكِعُونَ» لا يعني غاية الخضوع و التسلم للَّه، حيث الركوع في مصطلح القرآن و السنة هو الهيئة الخاصة لركن خاص من الصلاة، و لا يعبر عن غاية الخضوع و التسليم إلّا بها أم بالسجود حيث هو في وجه عام غاية الخضوع.

ثم‏ «وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا» هنا هم‏ «الَّذِينَ آمَنُوا» كما هناك، فهم المعهودون في آية الولاية، «فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ» و هم المتولون اللَّه و الآخرين‏ «هُمُ الْغالِبُونَ» على كافة الأحزاب المختلفة عن هذه الولاية الخاصة المنحصرة المفروضة على حزب اللَّه.

ذلك، فكل خبر أو نظر يخالف المعنى الظاهر من هذه الآية معروض عرض الحائط «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في الاحتجاج للطبرسي في رسالته أبي الحسن الثالث علي بن محمد الهادي عليهما السلام الى اهل الأهواز حين سألوه عن الجبر و التفويض قال: اجتمعت الأمة قاطبة لا اختلاف بينهم في ذلك ان القرآن حق لا ريب فيه عند جميع فرقها فهم في حالة الاجتماع عليه مصيبون و على تصديق ما انزل اللَّه مهتدون لقول النبي (ص) لا تجتمع امتي على ضلالة فأخبر ان ما اجتمعت عليه الأمة و لم يخالف بعضها بعضا هو الحق، فهذا معنى الحديث لا ما تأوله الجاهلون و لا ما قاله المعاندون من ابطال حكم الكتاب و اتباع احكام الأحاديث المزورة و الروايات المزخرفة و اتباع الأهواء المردئة المهلكة التي تخالف نص الكتاب و تحقيق الآيات الواضحات النيرات و نحن نسأل اللَّه أن يوفقنا للصلاة و يهدينا إلى الرشاد، ثم قال: فإذا شهد الكتاب بصدق خبر و تحقيقه فأنكرته طائفة من الأمة عارضته بحديث من هذه الأحاديث المزورة فصارت بإنكارها و دفعها الكتاب ضلالا،

و أصح خبر مما عرف تحقيقه من الكتاب مثل الخبر المجمع عليه من رسول اللَّه (ص) قل:

اني مخلف فيكم خليفتين كتاب اللَّه و عترتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي و انهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض‏

و اللفظة الأخرى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 55

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

عنه في هذا المعنى بعينه‏

قوله (ص): اني تارك فيكم الثقلين كتاب اللَّه و عترتي اهل بيتي و انهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض ما إن تمسكتم بهما لن تظلوا

وجدنا شواهد هذا الحديث نصا في كتاب اللَّه مثل قوله: «إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ» ثم اتفقت روايات العلماء في ذلك لأمير المؤمنين (ع) انه تصدق بخاتمه و هو راكع فشكر اللَّه ذلك له و انزل الآية فيه ثم وجدنا رسول اللَّه (ص) قد أبانه من أصحابه بهذه اللفظة

«من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه و عاد من عاده»

و

قوله (ص): «علي يقضي ديني و ينجز موعدي و هو خليفتي عليكم بعدي»

و

قوله (ص): حين استخلفه على المدينة فقال يا رسول اللَّه (ص) أ تخلفني على النساء و الصبيان؟ فقال (ص):

أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي؟

فعلمنا ان الكتاب شهد بتصديق هذه الأخبار و تحقيق هذه الشواهد فيلزم الأمة الإقرار بها إذا كانت هذه الأخبار وافقت القرآن فلما وجدنا ذلك موافقا لكتاب اللَّه و وجدنا كتاب اللَّه موافقا لهذه الأخبار و عليها دليلا، كان الاقتداء فرضا لا يتعداه إلّا أهل العناد و الفساد و

فيه عن علي امير المؤمنين (ع) قال‏ المنافقون لرسول اللَّه (ص) هل بقي لربك علينا بعد الذي فرض علينا شي‏ء آخر يفترضه فتذكر فتسكن أنفسنا إلى انه لم يبق غيره؟ فأنزل اللَّه في ذلك‏ «قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ» يعني الولاية فانزل اللَّه‏ «إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا ..» و ليس بين الأمة خلاف انه لم يؤت الزكاة يومئذ و هو راكع غير رجل واحد ...

و

عن تفسير الثعلبي بسند متصل عن عباية بن الربعي قال حدثنا عبد اللَّه بن عباس و هو جالس بشفير زمزم يقول: قال رسول اللَّه (ص): إذ أقبل رجل معتم بعمامة فجعل ابن عباس لا يقول: قال رسول اللَّه (ص) إلّا و قال الرجل: قال رسول اللَّه (ص) فقال له ابن عباس سألتك باللَّه من أنت؟ قال: فكشف العمامة عن وجهه و قال: ايها الناس من عرفني فقد عرفني و من لم يعرفني فأنا جندب بن جنادة البدري أبو ذر الغفاري سمعت رسول اللَّه (ص) بهاتين و إلّا صمّتا و رأيته بهاتين و إلّا فعميتا يقول: علي قائد البررة و قاتل الكفرة منصور من نصره مخذول من خذله فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد فرفع السائل يده الى السماء و قال: اللهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 56

فقيلة البعض من المتعصبين‏ «1» إن نزول الآية في علي مختلق لإجماع العلماء على أنه من الموضوعات، إنها قيلة عليلة خانقة مختلقة من مختلق، فالعين العوراء لا ترى إلّا عوجا و الرجل العوجاء لا تعرج معراجا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

اشهد اني سألت في مسجد رسول اللَّه فلم يعطني أحد شيئا و كان علي راكعا فأومأ إليه بخنصره اليمنى و كان يتختم فيها فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره و ذلك بعين النبي (ص) فلما فرغ من صلاته رفع رأسه إلى السماء و قال: اللهم موسى سألك فقال: «رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي، وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي. وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي. يَفْقَهُوا قَوْلِي. وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هارُونَ أَخِي. اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي. وَ أَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي» فأنزلت عليه قرآنا ناطقا: «سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَ نَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما بِآياتِنا، اللهم و انا محمد نبيك و صفيك اللهم و اشرح لي صدري و يسر لي أمري و اجعل لي وزيرا من اهلي عليا اشدد به ظهري، قال أبو ذر: فما استتم رسول الله (ص) الكلمة حتى نزل عليه جبرائيل الظهر فسأل سائل في المسجد فلم يعطه احد فرفع السائل يده إلى السماء و قال:

اللهم اشهد أني سألت في مسجد رسول الله فلم يعطني أحد شيئا و كان علي راكعا فأومأ إليه بخنصره اليمنى و كان يتختم فيها فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره و ذلك بعين النبي (ص) فلما فرغ من صلاته رفع رأسه إلى السماء و قال:

اللهم موسى سألك فقال: رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي. وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي، وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي. يَفْقَهُوا قَوْلِي. وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي. هارُونَ أَخِي. اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي. وَ أَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي» فأنزلت عليه قرآنا ناطقا: «سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَ نَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما بِآياتِنا» اللهم و انا محمد نبيك و صفيك اللهم و اشرح لي صدري و يسّر لي أمري و اجعل لي وزيرا من اهلي عليا اشدد به ظهري، قال أبو ذر: فما استتم رسول اللَّه (ص) الكلمة حتى نزل عليه جبرائيل من عند اللَّه تعالى فقال: يا محمد اقرأ، قال: و ما اقرأ؟ قال: اقرأ: «إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ ...».

(1). هو المسمى بشيخ الإسلام ابن تيمية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 57

كقيلة الآخر بعد تصديق متواتر الحديث على نزولها في علي (ع) حيث يترجرج و يتمجمج في لجج غامرة من حجاجه الثمان اللجاج و لم يفضح بعد إلّا نفسه، و لا يرجى من إمام المشككين إلّا هذا «1» و هؤلاء هم المضطربون كالأرشية في الطوى البعيدة، بعيدة عن الصراط المستقيم و الحجج البالغة، فأولئك هم من حزب الشيطان‏ «وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ».

و لا بد أن يرأس حزب اللَّه أعرفهم باللَّه و أعبدهم للَّه، و هو الرسول (ص) في زمنه و من‏ «الَّذِينَ آمَنُوا ...» الخصوص هنا بعده (ص) ولي بعد ولي يلي أمور حزب اللَّه في مجمع القيادتين الروحية و الزمنية، و كما

يروى عن أمير المؤمنين (ع): «و الذين آمنوا في هذا الموضع هم المؤتمنون على الخلائق من الحجج و الأوصياء في عصر بعد عصر» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هو الفخر الرازي في تفسيره 12: 26: 31 فانه بعد سرد الحجج على نزول الآية في علي (ع) يذكر حججا ثمان على عدم دلالة الآية على امامة علي (ع) بعد النبي و منها الحجة السادسة: هب انها دالة على امامة علي لكنا توافقنا على انها عند نزولها ما دلت على حصول الامامة في الحال لأن عليا ما كان نافذ التصرف في الأمة حال حياة الرسول (ص) فلم يبق إلّا أن تحمل الآية على أنها تدل على أن عليا سيصير اماما بعد ذلك و متى قالوا ذلك فنحن نقول بموجبه و نحمله على إمامته بعد أبي بكر و عمر و عثمان إذ ليس في الآية ما يدل على تعيين الوقت أقول: هذه الولاية على اية حال ولاية منحصرة فيمن نزلت الآية بحقه أيا كان وقت حصولها، فكيف شاركه فيها متقدما عليه هؤلاء الثلاثة، فهل ان اللَّه نسيهم فاختص الولاية بشخص واحد ام هو نسوا ربهم فنسبوه الى الجهل و النسيان؟!.

(2)

نور الثقلين 1: 648 في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن امير المؤمنين (ع) حديث طويل و فيه: و الهداية هي الولاية كما قال اللَّه عزّ و جل‏ «وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ»

و

فيه في كتاب التوحيد باسناده الى عمار

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 58

و هكذا يعد اللَّه حزب اللَّه، الموالين له و للرسول و لهؤلاء المؤمنين الخصوص، البالغين أعلى قمم الإيمان بعد الرسول، يعد من يتولاهم الانطلاق من كافة العوائق و البوائق الساحقة الماحقة، مضمونة لهم الغلبة مهما غلبوا ظاهريا حيث الحرب سجال.

أجل و قد «كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ. لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَ يُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (58: 22).

و لمكان المشابهة بين حزب اللَّه هنا في‏ «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ» و بين‏ «بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ» هناك، فكما أن أصحاب ألوية المهدي و جنوده هم من حزب اللَّه حيث هم تحت راية ولي اللَّه صاحب العصر و حجة الدهر عجّل اللَّه تعالى فرجه الشريف، كذلك أصحاب الامام علي (ع) العائشين تحت رايته في ولايته، و كما نزلت‏ «يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ» في شأنهما.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أبي اليقظان عن أبي عبد اللَّه (ع) قال: يجي‏ء رسول اللَّه (ص) يوم القيامة آخذا بحجزة ربه و نحن آخذون بحجزة نبينا و شيعتنا آخذون بحجزتنا فنحن و شيعتنا حزب اللَّه و حزب اللَّه هم الغالبون و اللَّه ما يزعم أنها حجزة الإزار و لكنها أعظم من ذلك يجي‏ء رسول اللَّه (ص) آخذا بدين اللَّه و نجي‏ء نحن آخذين بدين نبينا و تجي‏ء شيعتنا آخذين بديننا.

و

فيه في تفسير العياشي عن صفوان قال: قال ابو عبد اللَّه (ع) لقد حضر الغدير اثنى عشر الف رجل يشهدون لعلي بن أبي طالب فما قدر على أخذ حقه و ان أحدكم يكون له المال و له شاهدان فيأخذ حقه فإن حزب اللَّه هم الغالبون في علي (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 59

مسئوليات الأئمة الولاة:

الأئمة الولاة المعصومون يحملون مسئوليات الرسول (ص) طبقا عن طبق دونما حول عنها و لا تحويل أو تبديل، فإنما هم الرواة المؤتمنون عن الرسول (ص)

«اعلموا أنكم إن اتبعتم الداعي لكم سلك بكم منهاج الرسول، و كفيتم مؤونة الاعتساف، و نبذتم الثقل الفادح عن الأعناق» «1»

، «... فلما أفضت إلي- الخلافة- نظرت إلى كتاب الله و ما وضع لنا و أمرنا بالحكم به فاتبعته، و ما استن النبي (ص) فاقتديته ..» (203/ 397).

«إنه ليس على الإمام إلّا ما حمّل من أمر ربه: الإبلاغ في الموعظة، و الاجتهاد في النصيحة، و الإحياء للسنة، و إقامة الحدود على مستحقيها، و إصدار السّهمان على أهلها» (103/ 201)

-

«و لكم علينا العمل بكتاب اللَّه تعالى و سيرة رسول اللَّه (ص) و القيام بحقه، و النّعش لسنته» (167/ 304).

ذلك، و أولئك هم الذين‏

«هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، و باشروا روح اليقين و استلانوا ما استوعره المترفون، و أنسوا بما استوحش منه الجاهلون، و صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء اللَّه في أرضه و الدعاة إلى دينه» (147 ح/ 595).

مواصفاتهم:

«هم موضع سره، و لجأ أمره، و عيبة علمه، و موئل حكمه، و كهوف كتبه، و جبال دينه، بهم أقام انحناء ظهره، و أذهب ارتعاد فرائصه» (3/ 37).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة الخطبة 164/ 301.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 60

و «لا يقاس بآل محمد (ص) من هذه الأمة أحد، و لا يسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبدا، هم أساس الدين و عماد اليقين، إليهم يفي‏ء الغالي، و بهم يلحق التالي، و لهم خصائص حق الولاية، و فيهم الوصية و الوراثة، الآن إذ رجع الحق إلى اللَّه، و نقل إلى منتقله» (2/ 38).

«اين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا كذبا و بغيا علينا ..

بنا يستعطى الهدى، و يستجلى العمى» (142/ 255).

ف «نحن الشعار و الأصحاب، و الخزنة و الأبواب، و لا تؤتى البيوت إلّا من أبوابها، فمن أتاها من غير أبوابها سمّي سارقا، فيهم كرائم القرآن، و هم كنوز الرحمان، إن نطقوا صدقوا، و إن صمتوا لم يسبقوا» (152/ 270).

و «هم عيش العلم و موت الجهل، يخبركم حلمهم عن علمهم، و ظاهرهم عن باطنهم، و حكمتهم عن حكم منطقهم، لا يخالفون الحق و لا يختلفون فيه، و هم دعائم الإسلام، و ولائج الاعتصام، بهم عاد الحق إلى نصابه، و انزاح الباطل عن مقامه، و انقطع لسانه عن منيته، عقلوا الدين عقل وعاية و رعاية، لا عقل سماع و رواية، فإن رواة العلم كثير، و رعاته قليل» (237/ 439)- و «إن اللَّه تبارك و تعالى طهّرنا و عصمنا و جعلنا شهداء على خلقه، و حججا على عباده، و جعلنا مع القرآن و جعل القرآن معنا، لا نفارقه و لا يفارقنا» (مستدرك 183).

«ألا إن مثل آل محمد (ص) كمثل نجوم السماء، إذا خوى نجم طلع نجم، فكأنكم قد تكاملت من اللَّه فيكم الصنائع، و أراكم ما تأملون» (98/ 194).

ثم «إنّ الأئمة من قريش، غرسوا في هذا البطن من هاشم، لا تصلح على سواهم، و لا تصلح الولاة من غيرهم» (142/ 255).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 61

فهم عترة الرسول (ص) من أفضل قريش ف «عترته خير العتر، و أسرته خير الأسر، و شجرته خير الشجر، نبتت في حرم، و بسقت في كرم، لها فروع طوال، و ثمر لا ينال» (92/ 186).

ف «أنظروا أهل بيت نبيكم، فالزموا سمتهم، و اتّبعوا أثرهم، فلن يخرجوكم من هدى، و لن يعيدوكم في ردى، فإن لبدوا فالبدوا، و إن نهضوا فانهضوا، و لا تسبقوهم فتضلوا، و لا تتأخروا عنهم فتهلكوا» (95/ 190).

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَ لَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ الْكُفَّارَ أَوْلِياءَ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (57):

فلقد توسطت آية الولاية الحقة- تلك- بين آيتي الولاية الباطلة هناك لليهود و النصارى، و هنا «الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَ لَعِباً ..» و بينهما متوسطات الولايات الخليطة من حق و باطل.

فعلى حزب اللَّه، المؤمنين باللَّه، التركيز على ولاية اللَّه وحده في ربوبيته للمحلّقة على كافة الشؤون، و على ضوءها ولاية الرسول (ص) الشرعية الموحدة، و على الضوء ولاية القادة المعصومين عليهم السلام بعده (ص) و ليعيش الأمة الإسلامية قيادات معصومة موحدة زمنهم، و في زمن الغيبة الشورى العليا من الرعيل الأعلى من رباني الأمة حيث‏ «أَمْرُهُمْ شُورى‏ بَيْنَهُمْ».

فكما لا ولاية شرعية في القيادة الروحية و الزمنية لأهل الكتاب و سائر الكفار على المؤمنين، كذلك هؤلاء المسيطرين على الحكم الإسلامي بالسيف و النار، غير المنطبق عليهم شروطات الولاية، لا أصيلة معصومة و لا فرعية ربانية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 62

و هنا «الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَ لَعِباً» تعم كل من يحملون هذه الرذيلة و من أبرز مصاديقهم‏ «الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ» ثم «و الكفار» بعدهم هم غير الكتابيين مشركين أو ملحدين، و الولاية المنفية هنا هي كافة معانيها محبة و مناصرة و سلطة «وَ اتَّقُوا اللَّهَ» من تلك الولاية النجسة البئيسة «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» باللَّه غير تجار فجار مصلحيين.

وَ إِذا نادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوها هُزُواً وَ لَعِباً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ (58):

فلو أنهم عقلوا الدين بصلاته و سائر صلاته باللَّه، عقلوه عقل دراية و رعاية، لم يكونوا ليتخذوه هزوا و لعبا، و هم‏ «إِذا نادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ»- و هي الأذان حيث لا يعرف للصلاة كأصل نداء إلّا الأذان و الإقامة بحيعلاتها الثلاث‏ «1»- «اتَّخَذُوها هُزُواً وَ لَعِباً» و ضمير التأنيث راجع إلى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 2: 294- اخرج عبد الرزاق في المصنف عن عبيد بن عمير قال‏ ائتمر النبي (ص) و أصحابه كيف يجعلون شيئا إذا أرادوا جمع الصلاة اجتمعوا لها فائتمروا بالناقوس فبينا عمر بن الخطاب يريد ان يشتري خشبتين للناقوس إذ رأى في المنام ان لا تجعلوا الناقوس بل أذنوا بالصلاة فذهب عمر الى رسول اللَّه (ص) ليخبره بالذي رأى و قد جاء النبي (ص) الوحي بذلك فما راع عمر إلّا بلال يؤذن فقال النبي (ص) قد سبقك بذلك الوحي حين أخبره بذلك عمر

أقول: كيف يأتمر رسول اللَّه (ص) أصحابه في امر تعبدي يختص بالوحي و هو القائل كما في قول اللَّه تعالى: «إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى‏ إِلَيَّ» فما هذا الحديث إلّا مختلقا يعني مضاهاة عمر في وحي المنام الرسول (ص) في وحي اليقظة! و لقد كان النداء الى الصلاة منذ فرضت الصلاة كما في متظافر السنة.

و فيه أخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن شهاب الزهري قد ذكر اللَّه الأذان في كتابه فقال: «وَ إِذا نادَيْتُمْ ..» و فيه عن ابن عباس في الآية قال: كان منادي رسول اللَّه (ص) إذا نادى بالصلاة فقام المسلمون الى الصلاة قالت اليهود قد قاموا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 63

الصلاة و إلى النداء إليها، حيث كانوا يتخذونهما هزوا و لعبا.

و من هنا نعرف المعني من مثل قوله تعالى: «إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى‏ ذِكْرِ اللَّهِ وَ ذَرُوا الْبَيْعَ ..» (62: 9) أنها الحيعلات ضمن الأذانات و الإقامات فانها هي النداء للصلاة، و كما ليس لها موضوعية لوجوب الصلاة، فإنما هي إعلانات لحضور وقت الصلاة كذلك النداء للصلاة من يوم الجمعة لا تعني إلّا حضور وقت الجمعة، فلا يشترط وجوب الجمعة بنداء لها خاص إذ لا نداء يخصها، و لا بإقامتها فإنها ليست نداء لها، و إنما إذا حضر وقت صلاة الجمعة و هو زوال الشمس عن وسط السماء «فاسعوا» أئمة و مأمومين‏ «إِلى‏ ذِكْرِ اللَّهِ» و هو مجموع الخطبتين و الركعتين‏ «1».

ذلك، و مما يقال في‏ «اتَّخَذُوها هُزُواً وَ لَعِباً» أن أهل الكتاب قالوا: يا محمد لقد أبدعت شيئا لم يسمع فيما مضى فإن كنت نبيا فقد خالفت فيما أحدثت جميع الأنبياء فمن أين لك صياح كصياح العير فأنزل اللَّه هذه الآية، و كان المنافقون يتضاحكون عند القيام إلى الصلاة تنفيرا للناس، و سائر الكفار حالهم معلومة بطبيعة الحال، فذلك ثالوث من الهزء بالصلاة و أذانها.

و هنا «نادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ» تدل على مشروعية النداء إلى الصلاة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

«لا قاموا فإذا رأوهم ركعا و سجدا استهزءوا بهم و ضحكوا منهم» و فيه أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ عن السدي في الآية قال كان رجل من الأنصار بالمدينة إذا سمع المنادي ينادي اشهد ان محمدا رسول اللَّه (ص) قال: احرق اللَّه الكاذب فدخل خادمه ذات ليلة من الليالي بنار و هو قائم و اهله نيام فسقطت شرارة فأحرقت البيت و احترق هو و أهله‏

(1). تفصيل البحث بحق الجمعة تجده عند تفسير آية الجمعة في الفرقان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 64

بالحيعلات أذانا و إقامة كأصل، في الأوقات المقررة للصلوات اليومية، سواء أ كانت الصلاة المنادى إليها في اوّل وقتها أم لا، و قد يستثنى نداء الحيعلات عن صلاة الآيات و الأموات بقاطع السنة انها فيها «الصلاة الصلاة» فقد تختص النداء إسلاميا بهما ثم لا نداء ثالثة إلّا فالسة كالسة إذ لم يدلّ دليل على غيرهما.

و هل الأذان و الإقامة اليومية مفروضان فرادى و جماعات؟ أم هما مختصان بالجماعات لمكان «ناديتم إلى الصلاة»؟ أم هما مندوبان ام فيهما تفصيل؟ قد تلمح «ناديتم» لاختصاصها بالجماعات، حيث الفارد لا ينادي غيره، و نداءه نفسه ليس إلّا قيامه نفسه إلى الصلاة.

و قد يعني النداء إلى الصلاة بأذان و إقامة أيا كان، حيث يجمع الشعار إلى استعداد المصلي الصلاة، ك «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» فإنها شعار مع الإقرار أنني أقولها فليقلها غيري، فقد توافق جمعية النداء جماعات إلى فرادى السنة القطعية حيث تدل عليهما دون اختصاص بالجماعات؟

و على أية حال فلا تدل الآية على وجوب النداء إلى الصلاة، و المستفاد من السنة تاكّد استحباب الأذان في الجماعة و استحبابه في الفرادى، و رواية إعادة الفريضة إذا نسيهما «1» معارضة بأخرى‏ «2» في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و هي‏

صحيحة الحلبي عن أبي عبد اللَّه (ع) قال: «إذا افتتحت الصلاة فنسيت ان تؤذن و تقيم ثم ذكرت قبل ان تركع فانصرف و أذن و أقم و استفتح الصلاة و ان كنت ركعت فأتم على صلاتك» (الوسائل أبواب الأذان ب 29 ج 3).

(2)

كصحيحة زرارة قال: سألت أبا جعفر عليهما السلام عن رجل نسي الأذان و الاقامة حتى دخل في الصلا؟؟ قال: «فليمض في صلاته فانما الأذان سنة» (المصدر ح 1)

و

صحيحة داود بن سرحان عن أبي عبد اللَّه (ع) في رجل نسي الأذان و الإقامة حتى دخل في الصلاة؟ قال: «ليس عليه شي‏ء» (المصدر ح 7)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 65

ترك الإعادة و هذه موافقة للقرآن‏ «لا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ» (47: 33) و تلك مخالفة له، و على فرض تصديق القائلة «فانصرف» فهي دالة على سماح الانصراف إذا نسيهما و لا تدل على وجوبهما، اللهم إلّا تأكد الاستحباب حيث يسمح عند النسيان بالانصراف عن الصلاة، و لكن الانصراف على أية حال منصرف عنه لمكان حرمة إبطال الأعمال، و أن النسيان يسقط التكليف فكيف يجوز ابطال الصلاة لجبران المنسي منهما، فحتى إذا تركهما عمدا و هما واجبان لا يسمح ذلك للانصراف عن الفريضة، و لا دليل على وجوب الإقامة إلّا الروايات الدالة على الانصراف، فلا حجة- إذا- لوجوبهما و لا سيما الأذان من كتاب أو سنة و إن كان الأحوط الإتيان بالإقامة إذ لا نجد أمثال هذه الأسئلة حول ترك الأذان و الإقامة إلّا لمورد النسيان مما قد يلمح أن موارد الذكر مفروغ عنها للوجوب، و القدر المعلوم منه الإقامة، و قد تشهد له أخبار و لكنها لا نص فيها على الوجوب و لا سيما الأذان و إن كان الأحوط الإتيان بها لكرور التأكيدات المتواترة فيها.

[سورة المائدة (5): الآيات 59 الى 66]

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَ أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ (59) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ وَ جَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَ الْخَنازِيرَ وَ عَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَ أَضَلُّ عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ (60) وَ إِذا جاؤُكُمْ قالُوا آمَنَّا وَ قَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما كانُوا يَكْتُمُونَ (61) وَ تَرى‏ كَثِيراً مِنْهُمْ يُسارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (62) لَوْ لا يَنْهاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَ الْأَحْبارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانُوا يَصْنَعُونَ (63)

وَ قالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِما قالُوا بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَ كُفْراً وَ أَلْقَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (64) وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ لَأَدْخَلْناهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (65) وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ (66)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أقول: و قد يدل «انما الأذان سنة» على عدم فرض الأذان و لا اقامة فإنهما معا مورد السؤال في الرواية، و

كصحيحة محمد بن مسلم عن أبي عبد اللَّه (ع) قال: في الرجل ينسى الأذان و الإقامة حتى يدخل في الصلاة؟ قال: «إن كان ذكر قبل ان يقرء فليصل على النبي (ص) و ليقم و إن كان قد قرء فليتم صلاته» (المصدر ح 4).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 67

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَ أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ (59).

هنا «تنقمون» منا تتبنّى ككلّ فسقهم عن الايمان باللَّه في مثلث‏ «أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ» و أنتم غير مؤمنين باللَّه، لا إيمانا به إلها واحدا حيث الصبغة الشركية المتخلفة المختلفة الحاكمة فيكم، و لا إيمانا به تسليما و إلّا فلما ذا تكفرون بشرعته الأخيرة المبينة ببراهين الصدق أكثر من كل شرعة.

2- «وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْنا» من القرآن حيث ينسخ ما أنزل من قبل في بعض الطقوس، و هو نازل على رسول غير إسرائيلي.

3- «وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ» حيث الايمان بما أنزل من قبل لزامه الإيمان بهذه الشرعة الأخيرة بما يحمل من بشارات في تصريحات و إشارات لها و لرسولها و كتابها.

فثالوث النقمة علينا بمثلث الايمان يجعل منكم فاسقين في هذه الثلاث، فإذا كانت هنا نقمة فلتكن لنا منكم لفسقكم عن شرعة اللَّه و ايماننا.

و قد يعني الكثير و جاه «أكثركم» الذين هم مؤمنون بهذه الشرعة،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 68

و معهم المستضعفون الذين لا يعلمون الكتاب إلّا أماني، قاصرين عن ذلك الإيمان الإسلامي الذي هو قضية الإيمان الكتابي السليم‏ «1».

و النقمة هي الإنكار بقال أم حال أم أعمال، و لقد جمع أهل الكتاب ثالوث النقمة منا، و قد تندد «ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ» بديلة عن «ما أنزل إليكم» تندّد بهم كأنه ما أنزل إليهم إذ عاملوا كتبهم معاملة النكران بكفر أو كفران و لأن كلا من أهل الكتابين لهم تفرقات بين رسل اللَّه و شرائعه، فالجمع بين الإيمان باللَّه و رسله و كتبه ككل، يناحر سيرتهم المتخلّفة، إضافة إلى انحرافهم في كلّ من زوايا الإيمان الثلاث، فهم- إذا- كافرون بها جمعا و إفرادا، فلو كانوا يؤمنون باللَّه إيمانا سليما لكانوا مؤمنين بكل رسالاته و كتاباته دون تفريق، و لو كانوا يؤمنون بما أنزل إليهم لكانوا- بأحرى- مؤمنين بهذا القرآن العظيم، فإن سلسلة الرسالات الربابية بكتاباتها سلسلة واحدة موحدة، رسالة واحدة من إله واحد لاتّجاه واحد يحملها كل رسل اللَّه مهما اختلفت شرائعهم في بعض الطقوس ابتلاء «لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ ..» (5: 48).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 294- اخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال‏ أتى رسول اللَّه (ص) نفر من يهود فيهم أبو ياسر بن أخطب و نافع بن أبي نافع و غازي بن عمرو و زيد بن خالد بن أبي إزار و أسقع فسألوه عمن يؤمن به من الرسل قال: «آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ ما أُنْزِلَ إِلى‏ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ ما أُوتِيَ مُوسى‏ وَ عِيسى‏ وَ ما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته و قالوا: لا نؤمن بعيسى فأنزل اللَّه‏ «قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 69

قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ وَ جَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَ الْخَنازِيرَ وَ عَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَ أَضَلُّ عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ (60):

«بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ» الفسق بثالوثه‏ «مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ ..» و كيف «مثوبة» و هي عقوبة مغلّظة تخطت الآخرة إلى الدنيا؟ المثوبة هي من أصل الثوب و هو رجوع الشي‏ء إلى حالته الأولى التي كان عليها، أو إلى الحالة المقدرة المقصودة، و لأن جزاء الأعمال ليس إلّا ظهور الأعمال فحقائقها فهو مثوبة في خيرها و شرها، مهما غلب استعمالها في خيرها حيث المثوبة الخيّرة هي المقصودة، كما أن سببها هي الحالة السليمة الفطرية.

و قد تعني «مثوبة» هنا- إضافة إلى أصل الرجوع إلى الحالة الأولى- التعريض بهؤلاء أن ثوابهم هو أشد العقاب حيث تخلفوا عن الايمان باللَّه معاندين.

ذلك، كما و أن‏ «حُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ» (3: 148) تقتسم الثواب إلى حسن و سوء و الثاني هو العقاب، و كذلك‏ «وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً» (28: 80) تنحو منحى ذلك التقسيم و هذا مثل البشارة الخاصة في أصلها بالخيرات و تأتي تهكما للشر ك «فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ» حيث تعني لو أن لهم بشارة فليست إلّا العذاب الأليم فضلا عن الإنذار.

و قد تعني‏ «بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ» شرا من مثلث الإيمان مجاراة و تنازلا بتهكم، إلى شر فسقهم بثالوثه، فلئن كان ذلك الإيمان شرا عندكم‏ «مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَ ..» أشر من ذلك، و إن صدقتم أن فسقكم ذلك شر «مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَ ..» أشر من ذلك، و المعنيان معنيّان حيث يحملان كلا الحقيقة و المجاراة، و لكن الأصل هنا هو المجاراة حيث المقام مقام النكران.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 70

و من عجيب التماثل بين ثالوثهم السالف ذلك الثالوث الذي هو شر منه: «مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ- وَ غَضِبَ عَلَيْهِ- وَ جَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَ الْخَنازِيرَ وَ عَبَدَ الطَّاغُوتَ»! و هنا «عَبَدَ الطَّاغُوتَ» معطوفة على‏ «مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ» بفاصل- و جعل ..- أم على «جعل ..» أي جعل منهم من عبد الطاغوت كما جعل منهم القردة و الخنازير.

و لا يرد على الثاني أنه يقتضي كون عبادة الطاغوت من جعل اللَّه حيث يعني الإذن تكوينيا بما اختاروا عبادة الطاغوت، لا تسييرا عليها و لا تشريعا لها، و ذلك مثل‏ «نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ» و الكل من باب‏ «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ».

ثم المعنى الأوّل و هو أسلم منه، لا يرد عليه ذلك الفصل فإن «غضب عليه- إلى- و الخنازير» مواصفة ل «مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ»، ثم‏ «وَ عَبَدَ الطَّاغُوتَ» معطوفة على‏ «مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ»، و قد يعني العطف كليهما عناية لهما و هو أجمع و أجمل دلالة و مدلولا.

ذلك، فمن‏ «لَعَنَهُ اللَّهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ» جماعة من اليهود حيث تغلّب عليهم غضب اللَّه مهما شمل غيرهم كما في آيات‏ «1».

و أما من جعل منهم قردة فهم المتخلفون من أصحاب السبت‏ «فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ» (7: 166).

و قد يرجح من جعل منهم خنازير أنهم من النصارى و كما هدّدهم اللَّه تعالى في إجابة دعاء المائدة:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كالآية 16: 109 و 42- 16 و 7: 171 و 20: 81 و 8: 16 و 4: 13، حيث تجعل غضب الله على كل من يستحقونه من كافة الملل و النحل دون اختصاص.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 71

«قالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ» (5: 115) و لا يحمل ذلك الجعل إلّا هذه الآية، فحيث المقام هو مقام التنديد بكفرة أهل الكتاب فليكن للنصارى نصيب كما لليهود، أم إنهم كالقردة من اليهود و «عَبَدَ الطَّاغُوتَ» من النصارى، أم كل هذه منقسمة على كل من هو شر مكانا و أضل عن سواء السبيل من جمع أهل الكتاب، اللهمّ إلّا القردة الخاصة باليهود حسب النص‏ «1» و «من عبد الطاغوت» هم كل هؤلاء الذين استسلموا للطواغيت حيث‏ «اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ..» (9: 31).

و هل إن كل القردة و الخنازير هي من أنسال هؤلاء الذين جعلهم اللَّه قردة و خنازير؟ كلّا، فقد خلقت القردة و الخنازير قبل هؤلاء و تستمر، و

«إن الله لم يهلك قوما أو يمسخ قوما فيجعل لهم نسلا و لا عاقبة و إن القردة و الخنازير قبل ذلك» «2»

، «و لكن ذا خلق فلما غضب الله على اليهود فمسخهم جعلهم مثلهم» «3».

و هذه قضية العدالة الربانية أن يعذب من يستحقه أن يجعل قردا أو خنزيرا دون نسله حيث‏ «لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى‏» و من جعل قردا أو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في تفسير الفخر الرازي 12: 36 قال أهل التفسير عني بالقردة اصحاب السبت و بالخنازير كفار مائدة عيسى و روي ايضا ن المسخين كانا في أصحاب السبت لأن شبابهم مسخوا قردة و مشايخهم مسخوا خنازير.

(2) الدر المنثور 2: 295- اخرج مسلم و ابن مردويه عن ابن مسعود قال سئل رسول اللَّه (ص) عن القردة و الخنازير أ هي مما مسخ اللَّه فقال: ...

(3)

المصدر اخرج الطيالسي و احمد و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن مسعود قال: سألنا رسول اللَّه (ص) عن القردة و الخنازير أ هي من نسل اليهود؟ فقال: لا إن اللَّه لم يلعن قوما قط فمسخهم فكان لهم نسل و لكن ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 72

خنزيرا إنما يجعل جسمه مثلهما دون روحه حتى يتحقق العذاب بما يشعر أنه إنسان بصورة قرد أو خنزير.

«أُولئِكَ شَرٌّ مَكاناً» منكم، أو و منا لو كنا من الأشرار «و أضل» منا و منكم‏ «عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ» فيا اخوان القردة و الخنازير الذين لعنهم اللَّه و غضب عليهم و عبدوا الطاغوت هل نحن المسلمين المؤمنين باللَّه و ما أنزل إلينا و ما أنزل من قبل شر مكانا أم أنتم؟.

ذلك و ليست النقمة اليهودية و النصرانية من المسلمين تقف لحد، بل انها في شدّ و مدّ ما شد الإسلام و مدّ، فهم يحاربون المسلمين هذه الحرب الشعواء العشواء التي لم تضع أوزارها قط و لن، منذ أن قام للمسلمين كون و كيان في المدينة و تميزت لهم شخصية.

فهم يشنّون عليهم مختلف الحروب الباردة الدعائية و الحارة الحارقة لا لشي‏ء إلّا لأنهم مسلمون للَّه مستسلمون، و لا تطفأ هذه النار عنهم إلّا أن يرتدوا عن دينهم فيتبعونهم رغم ظاهر إسلامهم الفاضي عن الحقيقة و الحيوية «لَنْ تَرْضى‏ عَنْكَ الْيَهُودُ وَ لَا النَّصارى‏ حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى‏» (2: 120).

فالإسلام الفائض بمثلث الإيمان باللَّه و ما أنزل من القرآن و ما أنزل من قبل، ذلك الإسلام ينقم منه و من المسلمين له ما طلعت الشمس و غربت من قبل اليهود و النصارى، إلّا أن يصبح فاضيا عن حقيقته تابعا للاستعمار اليهودي و النصراني كما نراه في الأكثرية المطلقة من الدول الإسلامية حيث يساندها الاستعمار و لا يحاربها.

وَ إِذا جاؤُكُمْ قالُوا آمَنَّا وَ قَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما كانُوا يَكْتُمُونَ (61):

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 73

«وَ إِذا جاؤُكُمْ» أنتم المؤمنين هؤلاء الناقمون منكم‏ «قالُوا آمَنَّا» نفاقا عارما و شقاقا خارما، تجسسا فيكم لا تحسسا لكم‏ «وَ قَدْ دَخَلُوا» هكذا في ظاهر الإيمان الإقرار «بالكفر» كما «وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ» فدخولهم في ظاهر الإيمان كخروجهم ليس إلّا «بالكفر» مهما كانوا يكتمون‏ «وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما كانُوا يَكْتُمُونَ» كما و يعلمكم بحالهم حتى تأخذوا منهم حذركم و ترقبوهم داخلين و خارجين‏ «1».

و ذلك النفاق العارم من أهل الكتاب كان و يكون على مر الزمن يقصد من وراءه إضافة إلى التجسس عن خبايا المسلمين البلبلة فيهم و كما يقولون‏ «آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَ اكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (3: 72) بسبب ذلك التشكيك اللئيم.

وَ تَرى‏ كَثِيراً مِنْهُمْ يُسارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (62):

«ترى» أنت الرسول (ص) و «ترى» أنت المخاطب بالقرآن أيا كنت من المسلمين و أيان‏ «تَرى‏ كَثِيراً مِنْهُمْ» أولاء الناقمين منكم‏ «يُسارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ» ثالوث من العصيان الجاهر المائر «لَبِئْسَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ».

فالإثم هو كل ما يبطئ عن الخير و الثواب، فالمسارعة فيه و السباق إليه سباق و مسارعة في سد أبواب الثواب و فتح أبواب التبات.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 2: 295- اخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن قتادة في الآية «وَ إِذا جاؤُكُمْ ..» قال أناس من اليهود و كانوا يدخلون على النبي (ص) فيخبرونه انهم مؤمنون راضون بالذي جاء به و هم متمسكون بضلالهم و بالكفر فكانوا يدخلون بذلك و يخرجون به من عند رسول اللَّه (ص).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 74

و العدوان هو العداء في ثالوثه المنحوس ضد المسلمين للَّه و للقرآن و ما أنزل من قبل، مسارعة في حروبهم الباردة و الحارة طول تاريخهم المنحوس المركوس.

و أكلهم السحت و الباطل من مختلف مجاريه و مؤتلف مهاويه و مساويه‏ «لَبِئْسَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ».

و إنها صورة ترسم للتبشيع و التشنيع حيث النفوس ألبئيسة التعيسة يستشرى فيها الفساد و تسقط القيم، من سائقين متسابقين في الإثم و العدوان و أكلهم السحت، و آخرين منساقين في تياره، و هكذا تكون كل المجتمعات الهابطة الى دركات البهيمة النهماء، حيث يشمل الفساد عاليهم و سافلهم، و في ذلك الموقف المزري البئيس:

لَوْ لا يَنْهاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَ الْأَحْبارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانُوا يَصْنَعُونَ (63):

«لو لا» و «هلا» هما بمعنى التوبيخ و التحضيض و التخفيض لموقف الموجه إليهم.

و ذلك صوت قرآني صارخ على مدار الزمن في رسالته العالمية ان على العلماء الربانيين تكفل الأمر و النهي في أوساطه الأمة، فلا بد من حافظين لحدود اللَّه في كل امة هم ربانيوها كرعيل أعلى من علماءها، ثم أحبارها حيث المكانة التالية للربانيين.

فليس الأمر و النهي فوضى جزاف يتكفلهما أيّ كان، فشرط الربانية علميا و عمليا شرط اصيل بمراتبها في حقل الأمر و النهي، مع سائر الشروط الفرعية المسرودة في الكتاب و السنة.

إذا فسمة السكوت لمدراء الشرعة و الربانية عما يقع في الأمة من اثم و عدوان و أكل السحت- و هي رؤوس المحرمات في أية شرعة- هي وصمة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 75

المجتمعات التي كسدت و فسدت آذنة بالانهيار.

فالمجتمع الذي يسوده الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر من قبل الصالحين هو المجتمع الراقي الحبيب، و الذي لا يسودانه هو مجتمع الباغي الكئيب.

و هنا سوط اللائمة على الربانيين و الأحبار لتركهم المتخلفين عن قولهم الإثم و أكلهم السحت، إنه سوط على كافة العلماء و المؤمنين الذين لهم ذلك المنصب، صوت النذير بذلك السوط لكلّ و دونما اختصاص بالربانيين و الأحبار، و هو أشد و الم لرباني الأمة الاسلامية حيث الشرعة كلما نضجت و ارتقت و أخلدت و توسعت اكثر فالمسئوليات أمامها لحملتها و سائر متشرعيها اكثر، و الخروج عن عب‏ء هذه المسؤوليات أعسر.

«يا ايها الناس إنما هلك من هلك قبلكم بركوبهم المعاصي و لم ينههم الربانيون و الأحبار فلما تمادوا في المعاصي و لم ينههم الربانيون و الأحبار اخذتهم العقوبات فمروا بالمعروف و انهوا عن المنكر فإن الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر لا يقطع رزقا و لا يقرب أجلا» «1».

«و إن عندكم الأمثال من بأس الله و قوارعه، و أيامه و وقائعه، فلا تستبطؤوا وعيده جهلا بأخذه، و تهاونا ببطشه، و يأسا من بأسه، فان الله سبحانه لم يلعن القرن الماضي بين أيديكم إلا لتركهم الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر فلعن الله السفهاء لركوب المعاصي و الحلماء لترك التناهي» (الخطبة 190/ 4/ 372).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 2: 296- اخرج ابن أبي حاتم عن علي رضي اللَّه عنه انه قال في خطبته، و في نور الثقلين 1: 648 رواها عن الكافي بسند متصل عن يحيى بن عقيل عن حسن قال خطب امير المؤمنين (ع) ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 76

فيا

«أيها الناس إنما يجمع الناس الرضا و السّخط و إنما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمهم اللَّه بالعذاب لما عموه بالرضا فقال سبحانه: فعقروها فأصبحوا نادمين- فما كان إلّا أن خارت أرضهم بالخسفة خوار السكة المحماة في الأرض الخوّارة» (الخطبة 199/ 395).

و

«لا تتركوا الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر فيولى عليكم شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم» (الخطبة 286/ 512).

«و الجهاد على أربع شعب: على الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و الصدق في المواطن و شنآن الفاسقين، فمن أمر بالمعروف شد ظهور المؤمنين، و من نهى عن المنكر أرغم أنوف الكافرين، و من صدق في المواطن قضى ما عليه، و من شنئ الفاسقين و غضب للَّه غضب اللَّه له و أرضاه يوم القيامة» (30 ح/ 570).

ذلك و الناس على أقسام‏

«فمنهم المنكر للمنكر بيده و لسانه و قلبه فذلك المستكمل لخصال الخير، و منهم المنكر بلسانه و قلبه و التارك بيده فذلك متمسك بخصلتين من خصال الخير و مضيّع خصلة، و منهم المنكر بقلبه و التارك بيده و لسانه فذلك الذي ضيع أشرف الخصلتين من الثلاث و تمسك بواحدة، و منهم تارك لإنكار المنكر بلسانه و قلبه و يده فذلك ميّت الأحياء و ما أعمال البر كلها و الجهاد في سبيل اللَّه عند الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر إلّا كنفثة في بحر لجّي، و إن الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر لا يقرّبان من أجل و لا ينقصان من رزق، و أفضل من ذلك كله كلمة عدل عند إمام جائر» (374 ح/ 642).

ذلك واجب ربّانيّ الأمة، و عليهم أن يصغوا إليهم و يعوا ما يصدرونه عن كتاب اللَّه‏

«اين تذهب بكم المذاهب و يستر بكم الغياهب و تخدعكم الكواذب و من اين تؤتون و أنى تؤفكون و لكل أجل كتاب و لكل غيبة إياب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 77

فاستمعوا من ربانيكم و أحضروه قلوبكم و استيقظوا أن يهتف بكم» «1».

فالربانيون التاركون للنهي عن المنكر، «لَبِئْسَ ما كانُوا يَصْنَعُونَ» و الآثمون العادون الآكلون للسحت‏ «لَبِئْسَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» و الصنع أركز وقيعة من العمل، حيث الصنع هو الذي يصنع العمل، فالمنكر الواقع في مجتمع له عامل هو عامله، و له صانع هو تارك النهي عنه.

و قد عبر عن كلا «الْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ» هنا ب «قول الإثم» لأنه غول في توغل الإثم من القائل و ممن يسمعه متقبلا من المستضعفين، فقد يعمل بالإثم دون أن يحمل إشاعة له و تحريضا للآخرين، و لكن القول الإثم- و هو بطبيعة الحال مع فعل الإثم، إنه إشاعة و تشجيع للإثم‏

«ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل من المعاصي هم أعز منه و أمنع أن يغيروا إلا أصابهم الله منه بعذاب» «2».

ذلك، و من قولهم الإثم الذي يتهدم به الايمان من أصله:

وَ قالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِما قالُوا بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَ كُفْراً وَ أَلْقَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (64):

«يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ»؟! .. «يد اللَّه» هي قدرته و رحمته و علمه، أم بصيغة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 649 في نهج البلاغة قال (ع) في خطبة له و هي من خطب الملاحم: ...

(2) الدر المنثور 3: 296- اخرج ابو داود و ابن ماجه عن جرير سمعت رسول اللَّه (ص) يقول: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 78

واحدة كل قدراته رحمانية و رحمية على علمه الطليق، كما أن قدرته طليقة، فهذه اليد المغلولة تعني تحديدها عن طلاقتها، مغلولة بما غلّها هو نفسه بخلا، أم بما غلّها غيره سلطة عليه، أم بما كانت مغلولة منذ الأزل قصورا ذاتيا! و الجمع هو ثالوث الغل، في تكوين و تقدير و تشريع، فقد كانوا يحيلون النسخ على اللَّه و هذا غل ليده في التشريع.

و ذلك الثالوث تشمله‏ «يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ» مهما تشعبت الآراء المعلولة المغلولة فيما بينها.

و هنا «يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ» تختص غلها بحقل الإنفاق كما في‏ «لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى‏ عُنُقِكَ» و علّ المعني من‏ «يَداهُ مَبْسُوطَتانِ» يد الرحمة و الغضب، أنه ليس مسيّرا فيها فله الخيار حسب الحكمة الربانية في البسط و الإقتار، فلا بسطه في الإنفاق دليل أنّه مجبر و لا إقتاره دليل الغل المسيّر.

لقد قيل في اللَّه كثير من القيلات الغيلات و لم يسد أبوابها تسييرا عن نفسه تعالى و تقدس فكيف يسده عن خلقه اللّهم إلّا فضحا لأصحابها بقيلاتهم أنفسهم الويلات فإنه لا يفلح الظالمين «إن يحيى بن زكريا سأل ربه فقال يا رب اجعلني ممن لا يقع الناس فيه فأوحى الله يا يحيى هذا شي‏ء لم أستخلصه لنفسي كيف أفعله بك اقرأ في المحكم تجده: و قالت اليهود عزير ابن الله و قالت النصارى المسيح ابن الله و قالوا يد الله مغلولة و قالوا و قالوا» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 296- اخرج الديلمي في مسند الفردوس عن انس مرفوعا ان يحيى ...

و

فيه أخرج أبو نعيم في الحلية عن جعفر بن محمد عليهما السلام قال: إذا بلغك عن أخيك شي‏ء يسوءك فلا تغتم فانه إن كان كما يقول كانت عقوبة أجلت و إن كانت على‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 79

ذلك و يداه المبسوطتان في الإنفاق يقضي على قيلة «فرغ من الأمر» «1» أنه خلق ما خلق ثم أمسك حيث خول أمر التدبير إلى خلقه أم جعل أمرهم فوضى جزاف.

ثم الفراغ من الأمر قد يكون بعد خلقه الخلق ألّا تدبير له فيهم كما في قيلة اليهود، و لكنه هو الخالق للخلق كله، أم و أفضح منه أنه خلق الخلق الأول ثم سائر الخلق يخلقه الخلق الأول و الثاني كما في خرافة العقول العشرة سنادا إلى قاعدة بائدة متفلسفة: «الواحد لا يصدر منه إلّا واحد» فلأن اللَّه واحد بحقيقة الوحدة فلا يصدر منه إلّا خلق واحد!.

رغم أن هذه القاعدة فاشلة في العلل الخلقية فضلا عن الخالق.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

غير ما يقول كانت حسنة لم تعملها قال و قال موسى يا رب احبس عني كلام الناس فقال اللَّه عزّ و جل: لو فعلت هذا بأحد لفعلته بي.

(1).

نور الثقلين 1: 649 في عيون الأخبار في باب مجلس الرضا (ع) مع سليمان المروزي بعد كلام طويل له (ع) في اثبات البداء و قد كان سليمان ينكر ثم التفت إلى سليمان فقال: أحسبك ضاهيت اليهود في هذا الباب؟ قال: أعوذ باللَّه من ذلك و ما قالت اليهود؟ قال: قالت اليهود يد اللَّه مغلولة، يعنون ان اللَّه قد فرغ من الأمر فليس يحدث شيئا فقال عزّ و جلّ: «غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِما قالُوا»

و

في كتاب التوحيد باسناده إلى إسحاق بن عمار عمن سمعه عن أبي عبد اللَّه (ع) انه قال‏ في قول اللَّه عزّ و جلّ:

«وَ قالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ» لم يعنوا انه هكذا و لكنهم قالوا: قد فرغ من الأمر فلا يزيد و لا ينقص و قال اللَّه جلّ جلاله تكذيبا لقولهم: «غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ..» الم تسمع اللَّه عزّ و جل يقول: «يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ».

و في الدر المنثور 2: 296 عن ابن عباس قال رجل من اليهود يقال له النباش بن قيس ان ربك بخيل لا ينفق فأنزل اللَّه‏ «وَ قالَتِ الْيَهُودُ ..».

و

في تفسير القمي قال: قالوا قد فرغ اللَّه من الأمر لا يحدث غير ما قدره في التقدير الأول فرد اللَّه عليهم فقال: «بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ» أي يقدم و يؤخر و يزيد و ينقص و له البداء و المشيئة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 80

فهب إن النار لا تصدر منها إلّا الحرارة النارية، فهل لو كانت مريدة مختارة لكانت- بعد- هكذا و الفاعل بالإرادة يفعل ما يشاء دون حد إلّا في المحدود الإرادة.

فالعلل المادية التي هي مولدات لمعاليلها، هي مسانخة لها لا محالة فلا تلد إلّا ما في ذواتها، و لكنها إذا كانت ذات إرادة و تصميم بإمكانها أن تولد ما تشاء من ذاتها أم من ذوات أخرى، و أما اللَّه تعالى و هو تجردي الذات فليس خلقه ولادة حتى يشابه خلقه ذاته، إنما هو خلق بالمشيئة و لا حد لها و لا حدود، فكيف تنطبق عليه «الواحد لا يصدر منه إلّا واحد»؟!.

ذلك، فيهود هذه الأمة القائلين هذه المقالة هم أهود من سائر اليهود إذ هم ما غلّوا يد اللَّه تعالى عما سوى الخلق الأوّل مهما غلوها عن التدبير دائما أو أحيانا.

أو قد عنت اليهود الأغبياء فقر اللَّه في المال و كما «لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِياءُ ..» (3: 181) فعلّهم عنوا هنا نفس المعنى، و هو في نفس الوقت تعريض بالمسلمين الفقراء في البداية إن إلههم فقير، لا أن اللَّه الذي هم يعتقدونه فقير.

فقد بان البون بين قيلة اليهود «إن الله فقير- يد الله مغلولة» و بين قيلة يهود هذه الأمة إن «الواحد لا يصدر منه إلّا واحد» حيث غلّوا يدي اللَّه عن كل خلق إلّا الخلق الأوّل الذي هو واحد كما أنه نفسه واحد لانطباق هذه القاعدة و قاعدة مسانخة العلة و المعلول!.

لقد قالت اليهود أمثال هذه القولة «إن اللَّه فقير» بمناسبات عدة منها فقر المسلمين الأولين، و منها أمثال قوله تعالى‏ «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً» (2: 245) قائلين إن اللَّه الذي يستقرض من عباده الفقراء هو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 81

فقير- بطبيعة الحال- بل هو أفقر من هؤلاء الفقراء، و كل ذلك تعريض جانبي بخصوص المسلمين نقمة منهم أنهم مسلمون، فقد أخرجوا هذا القول مخرج الاستبخال للّه سبحانه بسائر مخارجه، و قد بلغ من غلظ حسهم الحيواني البغيض، و جلافة قلوبهم ألّا يعبروا عن المعنى الفاسد الكاذب الذي أرادوه تعريضا و هو البخل بلفظه المباشر الجانبي ك «ربكم بخيل» فقالوا: «يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ»- «إن اللَّه فقير» فانه أشد وقاحة و تهجما و كفرا.

و هنا «غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ» إخبار و ليست دعاء حيث اللَّه لا يدعوا، فممن يطلب طلبه حين يدعوا، اللّهم إلّا طلبا من نفسه أن يغل أيديهم أو طلبا من مؤمني عباده أن يتطلبوا منه غل أيديهم!.

و قد تعني‏ «غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ» مثلث المعنى، فهم مغلولو الأيدي أولا بمعنى ما لسائر الخلق من غل الأيدي، إذ لا يد طليقة لأي من خلق في أيّ من الأعمال إلّا بما يطلقها اللَّه، و لا يطلقها طلاقة طليقة كما له تعالى و سبحانه عما يشركون.

ثم هم مغلولو الأيدي لمكان الفقر الجبلي لهم مهما كانوا أغنياء حيث‏ «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ» فهم أبخل بخلاء البشر طول تاريخهم، كما غلت أيديهم عن أن يمسوا من كرامة اللَّه و رسل اللَّه إلّا و هم مفضوحون فيما يعملون.

اجل‏ «غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ» أنفسهم دون يد اللَّه‏ «وَ لُعِنُوا بِما قالُوا» كما «لَعَنَهُ اللَّهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ وَ جَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَ الْخَنازِيرَ وَ عَبَدَ الطَّاغُوتَ».

«بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ» و هنا «يداه» دون «يده» المنقولة في قيلتهم، لتدل على واسع قدرته، ف «يده» قد تلمح لبسط جانبيّ ليد الرحمة أم يد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 82

العذاب أماهيه، و لكن «يداه» هي عبارة أخرى عن قدراته كما يقال: فلان مبسوط اليدين.

صحيح أن اليد تستعمل في اليد الجارحة، و لكنها مستعملة اكثر منها بكثير في اليد القدرة المديدة، و لأن اللَّه ليست له يد جارحة فلتجرد اليد و اليدان له عن أية جارحة، إلى سائر اليد علما و قدرة و رحمة، يد الألوهية و الربوبية الطليقة الواسعة لكل شي‏ء.

فقد يعبر عن كل ذلك بصيغة الإفراد ك «بِيَدِكَ الْخَيْرُ» (3: 26) و «بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ» (36: 83) و «بِيَدِهِ الْمُلْكُ» (67: 1) و «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» (48: 10) فيما يراد بها الربوبية الموحدة.

و أخرى بصيغة التثنية كما هنا «بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ» و «أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ» (38: 75) و «لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ» (49: 1) فيما يراد بيان كامل الربوبية في بعدي صفات جلاله و جماله، و على أية حال «كلتا يديه يمين» القدرة علما و رحمة رحمانية و رحيمية أماهيه.

فقد يعنى من يديه: يد الخلق و التدبير، أو يد التكوين خلقا و تدبيرا و يد التشريع بدء و نسخا، أو يد النعمة الدنيوية و الأخروية، أو يد العذاب و النقمة، أو يد النقمة الظاهرة و الباطنة، و على الجملة يد السلب و الإيجاب في ربوبياته كلها حسب المصالح الواقعية أو الابتلائية، و قد تعني «يداه» كل هذه المثنيات على البدل، و معها بسط اليدين بمعنى طليق اليد في كافة الشؤون الربانية «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 2: 297- اخرج من عدة طرق عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه (ص): ان يمين اللَّه مل‏ء لا يغيضها نفقة سحاء الليل و النهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات و الأرض فإنه لم يغض ما في يمينه قال و عرشه على الماء و في يده الأخرى القبض يرفض و يخفض.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 83

ذلك و قد تجمع القيلة اليهودية بين هذه القيلات، فمن فسلفتهم التي تسربت إلى الفلسفة الإسلامية فترسبت قاعدة «الواحد لا يصدر منه إلّا واحد» و من مهزلتهم و جاه المسلمين أن إلهكم فقير و إلّا فلما ذا أنتم المسلمون فقراء و لماذا يسألكم قرضا حسنا، و من قسمتهم الضيزى للربوبية أن له الخلق و لخلقه التدبير فقد فرغ من الأمر، و منه قولهم باستحالة النسخ فقد غلت يده في التشريع كما في التكوين و ما أشبه هذه من غلّ و هي كلها غلّ و انحراف تجمع بينها العقيدة اليهودية و هي متفرقة بين سائر الأمم و «البداء» المتواتر في إثباته براهين الكتاب و السنة يعني بسط يدي اللَّه في كافة ربوبياته دون فراغ من الأمر و فراق عن الربوبية، فالبداء يعني استمرارية الربوبية دون وقفة في أي من شؤونها، دون الظهور بعد الخفاء فان اللَّه لا يخفى عليه شي‏ء في الأرض و لا في السماء.

ذلك، و منه البداء في القضاء بعد القدر، فلا يعني البداء أنه قضي الأمر كما أراده اللَّه فلا خيرة في أمر لأحد من الخلق، إبطالا للتكليف فبطلانا للحساب و الثواب و العقاب!.

بل يعني أن اللَّه يقضي فيما قدر إذا قضى المكلف ما قدر له في القدر، ف «لا جبر و لا تفويض بل أمر بين أمرين».

«بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ» و لكنه ليس بسطا كما يهواه خلقه بل‏ «يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ» توسعة و تقتيرا: «يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ» «وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَ لكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ».

ذلك، و ليس ما كتب على نفسه من الرحمة غلا ليده في طليق القدرة، حيث القصد من‏ «يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ» صفة نقص و مذمة و مذلة و الرحمة كمال و خلافها خلافه، ثم و ليس غلا ليده من عند نفسه حيث الغلّ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 84

هو اللّااختيار و ربنا هو المختار بذاته مهما كتب على نفسه الرحمة و حرم على نفسه خلافها.

«وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَ كُفْراً» كما و أن قولهم‏ «يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ» هي من تلك الزيادة، قولا غولا باستحالة النسخ، غلا ليد التشريع الربانية، و قولا ساخرا بأنه فقير فإن عباده المسلمين فقراء.

و ترى أن زيادة طغيانهم و كفرهم بما أنزل إلى الرسول (ص) تحكم بعد إنزاله حفاظا على حالتهم الأولى كما يهرفه خارف يسمي نفسه مفسرا للقرآن؟ كلّا! إذ ليس القصد من ذلك الانزال تلك الزيادة حتى تنسب إلى اللَّه فيقال لا تعني أفعاله تعالى مصلحة و حكمة «1».

ثم و إذا دار الأمر بين صالح إنزال القرآن بطالح المزيد من طغيانهم و كفرهم، و بين صالح البقاء على قليل كفرهم و طالح ترك إنزال القرآن فأيهما أصلح؟! فإذا كانت رعاية الأقل مصلحة أولى من الأكثر مصلحة فلا أولوية لمصلحة إرسال الرسل و إنزال الكتب حيث سبّبا مزيد الطغيان و الكفر للطاغين و الكافرين: «وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً» (17: 82).

«وَ أَلْقَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ» و تراهم باقين زمن دولة المهدي القائم من آل محمد (ص) و هي تشمل العالم كله؟ أجل و لكن لا دور لغير الإسلام سلطة روحية و زمنية، فغير المسلمين- إذا- كلّهم أهل ذمة في تلك الدولة السعيدة، لا دور لهم إلّا كور.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). يقول الفخر الرازي في 12: 44 من تفسيره: قال أصحابنا: دلت الآية على أنه تعالى لا يراعى مصالح الدين و الدنيا لأنه تعالى لما علم أنهم يزدادون عند إنزال تلك الآيات كفرا و ضلالا فلو كانت أفعاله معللة برعاية المصالح للعباد لامتنع عليه إنزال تلك الآيات!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 85

و تلك العداوة و البغضاء الملقاة بينهم أولاء اليهود، ثم العداوة و البغضاء المغراة بين النصارى كما في آية اخرى، هي من نتائج كيدهم و ميدهم ضد دين اللَّه و الدينين المؤمنين باللَّه.

«كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ» و هنا «ناراً لِلْحَرْبِ» استعارة لطيفة حيث شبهت بواعث الحرب بالنار لاحتدام قراعها وجد مصاعها و أنها تأكل أهلها كما تأكل النار حطبها، و القصد من نار الحرب هي التي ضد المسلمين القائمين بشرائط الإيمان، «لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً وَ إِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ» (3: 111) و نارا للحرب قد تعني الحرب الباردة الدعائية ضد الإسلام‏ «أَطْفَأَهَا اللَّهُ» هنا بارزة بحجة القرآن البالغة التي تذود عن ساحته كل وصمة و كل دعاية مضللة، ثم الحرب الحارة دينيا و كذلك الأمر، و أما العسكرية فهنا الحرب سجال، و ثالوث حربهم مطفية بما أطفأها اللَّه، اللهم إلّا الحروب التي تشن على المسلمين غير القائمين بشرائط الإيمان.

«وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ» و ذلك صبغة يهودية عالمية أينما وجدوا، و لا سيما بعد ما شكّلوا دويلة أو دولة بما احتلوا فلسطين و القدس، و يحاولون أن يوسعوا نطاق الاحتلال الصهيوني، و قد أخبرنا اللَّه بقضائه إليهم و عليهم: «وَ قَضَيْنا إِلى‏ بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَ لَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً .. فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وَ كانَ وَعْداً مَفْعُولًا ...

فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ لِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً» (17: 7) «1» و من لطيف الوفق العددي بين الحرب و الأسرى بمختلف صيغهما ان كلا يذكر في القرآن (6) مرة مما تلمح بان الحرب الاسلامية قضيتها الأولى الأسرى من الكفار!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لتفصيل البحث حول الآية راجع الفرقان 15.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 86

ذلك، و ليست وصمة العداوة و البغضاء على اليهود و النصارى لازبا لهم لزاما لأنهم- فقط- أهل الكتاب و لمّا يسلموا، إنّما هي لكفرهم و تكذيبهم بآيات اللَّه و كيدهم على شرعة اللَّه:

وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ لَأَدْخَلْناهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (65) وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ (66):

«لو» هنا و هناك تحيل مدخلوها واقعيا لا إمكانيا، فالواقع الأكثري من أهل الكتاب عدم الإيمان و التقوى و إقامة الكتاب، «وَ لَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتابِ» بكتابهم «و اتقوا» مخالفة الكتاب إلى ما يهوون‏ «لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ» التي عملوها «وَ لَأَدْخَلْناهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ».

و ليس الإيمان بالكتاب- فقط- هو قراءته و الإعتقاد به، بل هو إقامته عمليا كما يقام عقيديا و لفظيا، إذ ليس الكتاب الرباني إلّا لإصلاح واقع الحياة دون تصورها فقط و الإعتقاد بذلك التصور.

فإقامة التوراة و الإنجيل هي بعد الانتساب إليهما و الإقرار بهما، عبارة عن تحقيق محتوياتهما في ميادين العمل و التبشير، فقد يذهب العلم بالكتاب حين لا ينتفع به كما

يروى عن النبي (ص) «يوشك أن يرفع العلم .. حين تركوا أمر الله» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 2: 297- اخرج ابن أبي حاتم عن جبير بن نفير ان رسول اللَّه (ص) قال: يوشك أن يرفع العلم قلت كيف و قد قرأنا القرآن و علمناه أبناءنا؟ فقال ثكلتك أمك يا ابن نفير ان كنت لا أراك من افقه أهل المدينة أو ليست التوراة و الإنجيل بأيدي اليهود و النصارى فما اغنى عنهم حين تركوا امر اللَّه ثم قرأ «وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ ..»

و

فيه عن زياد بن لبيد قال‏ ذكر النبي (ص) فقال و ذلك عند ذهاب أبنائنا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 87

هنا إقام التوراة و الإنجيل يقتسمان بين أهليهما و لا سيما أهل الإنجيل إذ يؤمنون بالتوراة تلقائيا، مهما كان إيمان أهل التوراة بالإنجيل تكليفا ربانيا، و كما أن من إقامهما بتمحيصهما عن كل زيادة و تأويل عليل، كذلك تطبيقهما عمليا على ضوء الإيمان بهما، و من ثم الإيمان بالمبشّر به فيهما و هو القرآن و رسوله، فمثلث إقام التوراة و الإنجيل مطوي في إقامهما.

ثم‏ «ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ» قد تعني إلى كل كتابات السماء- بين الكتابين حيث توضّح الدخيل فيهما عن الأصيل، و تبين منهما كل إدغال و تدجيل- تعني القرآن فإن الإيمان به و إقامه هما من القضايا الرئيسية لإقامهما، و ليست «إليهم» لتختص النازل إليهم بالكتابات الإسرائيلية، حيث الواجهة القرآنية لأهل الكتاب هي قبل غيرهم، فهم الركيزة الأولى من وحي القرآن لمعرفتهم بطبيعة الوحي أكثر من سواهم.

فكما أن من قضية إقام التوراة هي تصديق الإنجيل فإقامه، كذلك إقام القرآن هو رأس القضايا لإقامهما، إذ لا يختص إقام كتاب الوحي بمواصلة التطبيق لأحكامه- فقط- بل و من إقامه النقلة إلى كتاب آخر يؤمر بها في الكتاب.

إذا فالانتقال من هذين الكتابين إلى القرآن إقام لهما و للقرآن، و في الترسب فيهما دون نقلة إلى القرآن ترك لإقامهما.

فاليهودي و المسيحي الحقيقي هما اللذان يقيمان الكتابين بالإيمان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

قلنا يا رسول اللَّه (ص) و كيف يذهب العلم و نحن نقرء القرآن و نقرؤه أبناءنا و يقرءه أبناءنا أبناءهم إلى يوم القيامة؟ قال: ثكلتك أمك يا ابن لبيد ان كنت لأراك من افقه رجل بالمدينة أو ليس هذه اليهود و النصارى يقرءون التوراة و الإنجيل و لا ينتفعون مما فيهما بشي‏ء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 88

بالقرآن لمكان البشارات المتظافرة فيهما بحق القرآن و نبيه.

و ليس يختص هنا وعد الرحمة على ضوء إقام الكتاب بالمذكورين، فليس ذكرهم إلّا لأنهم أهم الكتابيين الموجودين زمن نزول القرآن، و إلّا فقد تعم الرحمة الموعودة أهل القرى كلهم على ضوء الإيمان و التقوى:

«وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى‏ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ» (7: 96).

فتواتر الرحمة الربانية من السماء و الأرض هو طبيعة الحال بما وعد اللَّه للذين آمنوا باللَّه و اتقوا، «لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ» حيث تعني لباس الرحمة من كل الجوانب لهم، و الأكل هنا يعني كل الحاجات المعيشية فهو سعة الرزق و رفاهة العيش كما يقال: فلان مغمور في النقمة من قرنه إلى قدمه.

كما و أن‏ «ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ» (42: 30) فقد «ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (30: 42) معاكسة النتيجة عند معاكسة الأعمال‏ «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏».

ذلك و «مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ» حيث يقيمون كتابات السماء دونما تدجيل و تأويل‏ «وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ» حيث يعيشونها في أهواءهم و رغباتهم بكل تأويل و تدجيل.

و هنا يجمع اللَّه بين بركات الآخرة و الدنيا على ضوء الإيمان و التقوى لأهليهما كتابيين أو مسلمين، فللآخرة «لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ لَأَدْخَلْناهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ» و للدنيا كما تلائم الآخرة: «لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ» و هكذا يدعو عباد اللَّه الصالحين: «وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَ قِنا عَذابَ النَّارِ. أُولئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 89

كَسَبُوا وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ» (2: 201).

فقد يبدوا أن الإيمان و التقوى لا يعنيان- فقط- حسنى الآخرة، بل و كذلك معها حسنى الدنيا، فالمنهج الإيماني للحياة لا يجعل الدين بديلا عن الدنيا، و لا يجعل سعادة الآخرة بديلة عن سعادة الدنيا، فلا يجعل طريق الآخرة غير الطريق في الدنيا فإنما «الدنيا مزرعة الآخرة» كلّ يمسك على الآخر، إذا فليس في تحصيل الآخرة إهمال الدنيا، و لا في تحصيل الدنيا إهمال الآخرة، حيث المؤمن دنياه آخرة حين يتذرع بها إليها، فحياته فيها حسنة مهما كانت الآخرة هي الحسنى.

فخلاف ما يزعم ليس العداء بين الحياتين و النشأتين عداء لازبا أصيلا، بل هو طارى‏ء من انحراف أهل الدنيا حيث يؤصّلونها فيستأصلون الحياة الأخرى، فلا استئصال بينهما كأصل، و كما نجد في وعد اللَّه أن تواتر البركات الدنيوية قبل الأخروية هو من قضايا الإيمان الصادق و التقوى، فكيف ينافيان تعمير الحياة الدنيا، اللّهم إلّا التركيز عليها كأصل أخير.

فكما المنهج الإيماني يقرر أن الصلاة و الصوم و الحج عبادة، كذلك العمل للحصول على عيشة راضية هنا عبادة محسوبة على الآخرة كما هي محسوبة على الدنيا.

كيف لا و قد استعمرنا اللَّه في الأرض دونما استهدام‏ «هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيها فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ» (11: 61).

فاستعمار الأرض المطلوب من ربنا لنا هو الذي لا يستهدم الآخرة بل و يستعمرها جمعا بين الاستعمارين الصالحين و هو للكادحين الصالحين، «يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى‏ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ» (84: 6) كدحا في كلا الاستعمارين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 90

فليس المنهج الإسلامي ليفوّت على ناهجيه دنياه لنيل الآخرة، و لا آخرته لنيل الدنيا، إذ ليستا- في الأصل- نقيضين أو بديلين في ذلك المنهج، و إلّا لم تستخدم الدنيا كمدرسة و مزرعة للآخرة.

و ما مذمة الحياة الدنيا في القرآن و السنة إلّا جانبية تعني التي تفوّت الآخرة، فهي على حدّ تعبير الأمير عليه السلام تبصرة للآخرة:

«من أبصر بها بصرته و من أبصر إليها أعمته».

فالمذاهب الروحية التي تحاول استبقاء الدين عقيدة و عملية بعيدة عن نظام الحياة، كما المذاهب المادية التي تحاول استئصال الدين كأنه يناحر مصالح الحياة، أو أن الدين للَّه و الحياة للناس، إنها مذاهب بين إفراطية و تفريطية بحق الدين و الحياة، حيث لم تعرف الدين و لا الحياة، فالدين الحق هو الذي يكفل صالح الحياة الدنيوية إلى جانب صالح الحياة الأخروية، دون تفدية لإحداهما للأخرى اللّهم إلّا تأصيلا للأخرى لأنها الحياة الدائمة و هذه هي الفانية.

ذلك، و ليس الرخاء الظاهرة في الأمم المتحلّلة عن الإيمان و التقى مما تبقى حيث تبغى، إنما هي جولات عابرات، و هي مع الوصف حافلة بكل شقاء و خوف و عناء.

فمن ذلك سوء التوزيع في هذه الأمم مما يجعلها حافلة بالشقاء و بالأحقاد و المخاوف من الثورات و الانقلابات المتوقّعة حينا بعد حين، نتيجة الأحقاد الكظيمة و المظلمات العظيمة، فهي بلاء رغم ظاهر الرخاء بالنعماء.

ذلك و على حد التعبير القرآني العبير «مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى‏» (20: 124).

و لقد نلمس مختلف مظاهر الضنك في المعيشة خلقية و سياسية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 91

و اقتصادية حيث الانهيار محلّق على كل حلقاتها مهما كانت الظواهر و المظاهر برّاقة.

ذلك، و لكن الصلة باللَّه في كل زوايا الحياة تجعل الحياة طيبة في الفقر و الغنى، في الضيق و السعة و على أية حال، و تنمي محاولة النماء في مختلف جنبات الحياة، مادية إلى روحية، و روحية إلى مادية، تعيشان مع بعضهما البعض فتعيّشان الإنسان كما يرضاه الرحيم الرحمان‏ «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»؟!.

و لقد نسمع تلك القدسية

في حديث قدسي يرويه الرسول (ص) عن اللَّه مخاطبا لعباده في بلاده: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي و جعلته بينكم محرما فلا تظالموا .. يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم .. يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم .. يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم .. يا عبادي إنكم تخطؤون بالليل و النهار و أنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم .. يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني و لن تبلغوا نفعي فتنفعوني .. يا عبادي لو أن أولكم و آخركم و إنسكم و جنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا .. يا عبادي لو أن أولكم و آخركم و إنسكم و جنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئا .. يا عبادي لو أن أولكم و آخركم و إنسكم و جنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر .. يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم فيها فمن وجد خيرا فليحمد الله و من وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). رواه مسلم عن أبي ذر عن النبي (ص) عن اللَّه تبارك و تعالى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 92

[سورة المائدة (5): الآيات 67 الى 86]

يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (67) قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لَسْتُمْ عَلى‏ شَيْ‏ءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَ كُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (68) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ الصَّابِئُونَ وَ النَّصارى‏ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (69) لَقَدْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّما جاءَهُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى‏ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَ فَرِيقاً يَقْتُلُونَ (70) وَ حَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَ صَمُّوا ثُمَّ تابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَ صَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ (71)

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَ قالَ الْمَسِيحُ يا بَنِي إِسْرائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَأْواهُ النَّارُ وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ (72) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلاَّ إِلهٌ واحِدٌ وَ إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (73) أَ فَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَهُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (74) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآياتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (75) قُلْ أَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً وَ اللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (76)

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَ لا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ أَضَلُّوا كَثِيراً وَ ضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ (77) لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى‏ لِسانِ داوُدَ وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ (78) كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعَلُونَ (79) تَرى‏ كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ فِي الْعَذابِ هُمْ خالِدُونَ (80) وَ لَوْ كانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ النَّبِيِّ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِياءَ وَ لكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فاسِقُونَ (81)

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى‏ ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهْباناً وَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (82) وَ إِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى‏ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ (83) وَ ما لَنا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ ما جاءَنا مِنَ الْحَقِّ وَ نَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنا رَبُّنا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (84) فَأَثابَهُمُ اللَّهُ بِما قالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ (85) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (86)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 95

يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (67):

آية التبليغ هذه هي من معتركات الآراء بين الفريقين المسلمين، هل هي تبليغ ما أنزل إلى الرسول (ص) ككل؟ أم كبعض مما أنزل إليه و نحن لا نعرفه؟ أم هي تحمل أمر التبليغ لولاية الأمر بعد الرسول (ص) «1».

و هذه الآية نفسها، و دون النظر إلى ملابسات نزولها- العدة- تدلنا إلى المعنيّ منها صارحة صارخة، حين تكون النظرة مجردة عن ملابسات متعوّدة و قضايا مذهبية و زوايا العصبية، فكما اللَّه مستقل بذاته في ألوهيته، كذلك كتابه مستقل في دلالته في دعوته.

فترى ماذا يعنى هنا من‏ «ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ» و هي من أخريات ما نزلت في المائدة و قد نفض الرسول (ص) يديه عن تبليغ الرسالة الإسلامية بكل أصولها و فروعها، فلم يبق إلّا أن يرتحل إلى جوار رحمة ربه، نافضا يديه عن كل ما كان عليه؟ اللهم إلّا ..

عناية كل‏ «ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ» برمتها تحوّل الآية إلى تهديد السلب بالسلب: «و إن لم تبلغ ما أنزل إليك فما بلغت ما أنزل إليك» توضيح‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ذكر الفخر الرازي وجوها عشرة عاشرها الذي لم يرض بها تماما هو انها نزلت بحق الامام علي (ع) رغم أن الوجوه التسعة قبلها لا تناسب دلالة الكتاب و السنة، بل هي وجوه مخترعة لتسد عن الوجه الوجيه لمنزل الآية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 96

فضيح للواضح وضح النهار، أن كل تارك لشي‏ء تارك له! ذلك، و لم يسبق لذلك التعبير من نظير لهذا البشير النذير.

ثم و تراه أمر بتبليغ كل ما أنزل إليه دفعة واحدة؟ و لم ينزل إليه دفعة واحدة حتى يبلغها دفعة واحدة! كيف و قد نزل ما نزل إليه نجوما تدريجية: «وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى‏ مُكْثٍ وَ نَزَّلْناهُ تَنْزِيلًا» (17: 106)- «وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِيلًا» (25: 32).

و من ثم فما هو الحكم النازل عليه منذ بزوغ رسالته حتى الآن لم يبلغه؟ و الأحكام القرآنية معروفة، كلما نزلت آية أو آيات كان يقرءها مباشرة و دون مكث، فلم يكن مكثه إلّا حسب مكث نزولها ليس إلّا و كما أمر دون أي تباطئ.

إذا فهو بعض ما أنزل إليه، فما هو ذلك البعض الذي لو لم يبلغه لم يبلغ شيئا من رسالته؟ فإن «رسالته» تعني كلها دون البعض منها و إلّا لكانت العبارة «لم تبلغ ما أنزل إليك» أو «لم تبلغه» و النص‏ «وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ» ككلّ، فقد كانت رسالته هذه مربوطة النياط بتبليغ‏ «ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ» و هو النازل الخاص إليه الذي يضمن في حضنه كل النازل عليه من رسالة اللَّه من حيث المحتد و المنزلة.

فما هو «ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ» الذي‏ «إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ» و هو تعبير منقطع النظير في سائر القرآن يحمل حكما منقطع النظير يبلغه ذلك البشير النذير تحقيقا لبلاغ رسالة اللَّه هذه الخالدة إلى يوم الدين؟.

و من سمات‏ «ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ» هنا المسماة تلويحا فوق كل تصريح أنه «من ربك» دون «اللَّه» أو «رَبِّ الْعالَمِينَ» مما يلمح صارحا صارخا أن‏ «ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ» يجمع في حضنه كل الربوبية الربانية الخاصة بهذه الرسالة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 97

السامية! فهو في وحدته يحمل كل رسالات اللَّه! «إِنْ لَمْ تَفْعَلْ» تبليغ‏ «ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» و أنت في حالة الارتحال إلى ربك بين آونة و أخرى‏ «فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ» المتمثلة فيما ربّاك به ربك رسولية و رسالية.

ذلك، لأن «من ربك» تجمع تلك التربية الرسولية و الرسالية القمة المنقطعة النظير عن كل بشير و نذير، و هي الشرعة الخالدة القرآنية بمن ينذر بها و يبشر إلى يوم الدين كما «فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ».

أ تراها بعد أنها التوحيد؟ و قد بزغت به الرسالة و حتى النفس الأخير، أم هو من سائر الأصول الاسلامية؟ فكذلك الأمر! فضلا عن فرع من الفروع أم و سائر الفروع! إضافة إلى أن الفروع غير مترابطة لحد لا يصح بعض دون أخرى و هكذا الأصول.

هنا نتأكد أن‏ «ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» ليس لا من هذه الأصول و لا من هذه الفروع، حيث الرسول (ص) عاش حياته الرسالية بلاغا لها كلها فور نزول كلّ منها دونما أي إبطاء، ثم‏ «وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ» حيث نجد ها هنا و لمرة يتيمة في القرآن كله، هذه لا تناسب أهم الأصول و هو التوحيد و قد أعلنه منذ البداية حتى النهاية إعلانا و إعلاما دائما دونما تخوّف من جوّ الإشراك، و لا الرسالة الجديدة الجادّة التي كانت تحاربها الشرعة الكتابية مع سائر الطوائف ملحدين و مشركين، فضلا عن الفروع الأحكامية المخاطب بها المؤمنون بهذه الرسالة!.

و هذه عساكر من البراهين المجنّدة لتبيين أن‏ «ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» لا تعني الوجوه غير الوجيهة المسرودة في بعض الكتابات التفسيرية المشككة، إنما هي نفس الرسالة المحمدية باستمراريتها إلى يوم الدين، فهي هي الخلافة العاصمة لها المعصومة كنفس الرسالة، لأنها استمرارية صالحة لهذه الرسالة السامية، فمهما صرح القرآن بخلوده- في آيات عدة- كقانون، كان مكان التصريح بالقيادة المعصومة الحاكمة بالقرآن خاليا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 98

و ترى‏ «ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» هو النازل عليه بلغة القرآن أم بلغة السنة؟ علّة بلغة القرآن و على ضوءه السنة في آيات الولاية الرسالية «1» و رواياتها حيث الأهمية الكبرى لمادة ذلك البلاغ تقتضي أن تذكر في القرآن و السنة بصيغ مختلفة، و لكنها لمّا تبلّغ بصورة رسمية واضحة لا تقبل التأويل، فللجمع بين نصوص الولاية بتفسير بليغ في ذلك الحشد العام الهائم أهميته المنقطعة النظير لهذا البشر النذير.

و لذلك نرى في خطبة البلاغ تركيزا بارزا على هذه الآيات و تلكم الروايات، تبليغا بليغا فائق التصور، بالغ التصديق الحقيق، و أهم الآيات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و تلكم الآيات أمثال آية: 5- التطهير 2- و المباهلة و 3-: آية الولاية «إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ» و آية: 4- الطاعة: «أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» و آيات 5- المودة في القربى و آية: 6- ميراث الكتاب‏ «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ» مكية 7- و أولوا الأرحام، و آت ذا القربى حقه و المسكين و ابن السبيل، 8- و آية «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي ..» 9- و يوم يعض الظالم 10- و اني جاعلك للناس اماما 11- و يتلوه شاهد منه 12- و من عنده علم الكتاب و 13- آية النصب‏ «فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ» و هي بين مكيات و مدنيات تدل بمختلف الدلالات على خلافة العصمة بعد الرسول (ص) و من الأحاديث حديث الثقلين و الوزارة و الباب و الأخوة.

و المصرحة من هذه الآيات هي آية الولاية «إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ ..» النازلة في نفس المائدة و آية الطاعة و آية الميراث و آية النصب، ثم من بينها آية الولاية تبيينا لمعناها انها الأولوية و كما يظهر من «أ لست أولى بكم من أنفسكم ..».

فآية التبليغ تحمل واجب البلاغ العام الجماهيري ببيان واضح ناصح عن هذه الخلافة المعصومة حيث الأفضلية الروحية قد لا تكفي سدا لثغر الاغتصاب فقد يقال إن القيادة الزمنية أمر غير القيادة الروحية و هما و إن اجتمعا في شخص الرسول (ص) و لكنهما بعده قد يقتسمان، و لكن الولاية بمعنى الأولوية الطليقة الشرعية الشاملة للقيادة الزمنية و الروحية تكفي بيانا عن هذه المهمة الكبرى، فآية ميراث الكتاب و العض و ذا القربى مكيات و بقية الثلاث عشر مدنيات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 99

في مادة البلاغ هي آية النصب في الانشراح و آية الولاية في نفس المائدة، فان سائر الآيات إنما تثبت الأفضلية الروحية، و قد يذب عنها بأن القيادة الزمنية قد تنفصل عن الروحية، و بلاغ آية الولاية تبيين لمعناها الأولوية كما الرسول أولى بالمؤمنين من أنفسهم‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و هذا أهم الوجوه التي اعتمد عليها الرازي في تفسيره بين الوجوه العشرة، حيث رفض وجه ولاية الأمر و اختار البقية و ركز على مخافة أهل الكتاب لاحتفاف الآية بآيتي التنديد بهم قائلا: و اعلم أن هذه الروايات- التي تعني نزول الآية بشأن الغدير- و إن كثرت إلّا أن الأولى حملها على أنه تعالى آمنه من مكر اليهود و النصارى!.

و بقية الوجوه كالتالية: 1- انها نزلت في قصة الرجم و القصاص! و هل كان يخاف اليهود و هم كانوا تحت ذمته؟ 2- نزلت في عيب اليهود و استهزاءهم بالدين و النبي سكت عنهم فنزلت! و متى كان يسكت عن ذلك و لم يكن يسكت عن هزء المشركين في العهد المكي؟ 3- لما نزلت آية التخيير «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ» فلم يعرضها عليهن خوفا من اختيارهن الدنيا فنزلت! و لا خوف عن قراءة آية التخيير إذ لم تكن مهمته المقام معهن و هن يردن الحياة الدنيا! 4- انها نزلت في امر زيد و زينب؟ و لم يكتم الرسول (ص) اصل زواجه بها اللهم إلّا هواه فيها كما امر اللَّه و قالت عائشة من زعم ان رسول اللَّه (ص) كتم شيئا من الوحي فقد أعظم الفردية على اللَّه و اللَّه تعالى يقول: «بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ» و لو كتم رسول اللَّه شيئا من الوحي لكتم قوله‏ «وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ». 5- انها نزلت في الجهاد فان المنافقين كانوا يكرهونه فكان يمسك أحيانا عن حثهم على الجهاد! و كيف هابهم و لم يكن يهاب المشركين الرسميين أن بقاتلهم؟ 6- لما نزل قوله تعالى: «وَ لا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ» سكت الرسول (ص) عن عيب آلهتهم فنزلت هذه الآية! و هل نزلت بسبهم و عصمه عن ان يسبوا اللَّه عدوا بغير علم؟ 7-

نزلت في حقوق المسلمين و ذلك لأنه قال في حجة الوداع لما بين الشرايع و المناسك هل بلغت؟ قالوا: نعم قال (ص) اللهم اشهد! و هلا بيّن الشرائع حتى بينها في حجة الوداع و ما هي الشرائع التي لما يبنيها؟

8-

روى‏ انه (ص) نزلت تحت شجرة في بعض أسفاره و علق سيفه عليها فأتاه اعرابي و هو نائم فأخذ سيفه و اخترطه و قال يا محمد من يمنعك مني؟ فقال: اللَّه فرعدت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 100

إذا ف «بلغ» أمر ببلاغ ما أنزل عليه في العهدين: المكي و المدني كتابا و سنّة، فمن المكي‏ «فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ. وَ إِلى‏ رَبِّكَ فَارْغَبْ» و من المدني آية الولاية «إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ ...» و كما نسمع الرسول (ص) في تبليغه الهام يوم الغدير يجمع بين هامتها ما نزل عليه في العهدين، شارحا لها كما يجب بشأن الأولوية الزمنية و الروحية لأئمة أهل البيت عليهم السلام.

فليس ذلك لأن آيات الولاية و رواياتها لم تكن لتدل على هذه الهامة الرسالية، فقد دلت واضحة وضح النهار! و لكن «بلغ» تعني بعدي الإيضاح البارع الذي لا يقبل أي تأويل، و الإفصاح على رؤوس الأشهاد في حشد عامّ هامّ تمد إليه الأعناق، و يعرف هامة بلاغه خاص و عام، و لا يقدر على إخفاءه أصلا و دلالة أي مسلم، خلاف النصوص الخاصة من السنة التي قد تخفي، أم آيات قد تؤول، اللهم إلّا آية الولاية في نفس السورة، و قد أمر بتبليغها تفسيرا لها يوم الغدير.

لذلك نراه صميما على كتابة الوصية بذلك البلاغ حتى يتم اللفظ إلى الكتب، و لكنه حصل ما حصل!.

فلقد حصحص الحق المعنيّ من‏ «ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ» أنها البلاغ الذي لولاه فكأنما لم يكن الرسول مبلغا لرسالة اللَّه، فسواء ألم يبلغ رسالة اللَّه بأسرها أم بلغها و لم يبلغ استمراريتها فيمن يمثلها رسولا و رسالة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

يد الأعرابي و سقط السيف من يده و ضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه؟ و ترى ما هو الذي أنزل اليه و لم يبلغها حتى حصل ما حصل و هكذا يضطرب مثل الرازي كالأرشية في الطوى البعيدة و يرجح ما لا يناسب تخوفه عن بلاغ ما انزل إليه، فان هذه الأمور هي كلها ادنى تخوفا بكثير من اصل الدعوة التوحيدية في جموع المشركين و هذا القوم اللد!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 101

فكما أن القانون الصالح دون من يطبّقه صالحا هو غير صالح، و القانون غير الصالح مع يطبقه من الصالحين غير صالح، فلا بدّ لإصلاح المجتمع من صالح القانون و صالح من يطبقه و يحكم به.

كذلك القرآن حيث يحمل الشرعة الأخيرة الخالدة لا يصلح شرعة أبدية لو لا الرسول (ص) و من يحذو محذاه و ينحو منحاه بعده دعوة به و تطبيقا له.

فدور الرسول (ص) زمن حياته هو دور الوحي قرآنيا و بسنته كأصل و ضابطة، و أما التفسير الصالح المعصوم لذلك القانون المعصوم، بيانا لكل ما تحتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة، فهو بحاجة إلى دور الخلافة المعصومة طوال قرونها الظاهرة حتى تنضم كامل التبصرة إلى كمال القانون، و من ثم- في زمن الغيبة- فالنواب العامون من الرعيل الأعلى من ربانيّ الأمة في شوراتهم الصالحة، هم مدراء الشرعة الذين يحق لهم أن يحكموا بالكتاب و السنة، ثم و في دولة صاحب الأمر عجّل اللَّه تعالى فرجه يرجع دور الحكم إلى مدار العصمة كما كانت زمن الرسول (ص) و الأحد عشر الأئمة قبله عليهم السلام.

و هذه الأدوار المتتالية التي رسمها يوم الغدير ببلاغ‏ «ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ» هي التي تكمّل الدين و تتم النعمة حيث‏ «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً». و هي التي تؤيس الذين كفروا من نقض أو انتقاص ذلك الدين المتين.

فلا يعني يوم الغدير- فقط- يو تأمير الأمير (ع) فإنما هو كنقطة بداية و انطلاق لتثبيت الاستمرارية الرسولية و الرسالية فيمن يحملها و ما يحملها من القرآن المعصوم و القوّاد المعصومين عليهم السلام.

فحقا يقال دونما مجازفة أو مبالغة «وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 102

فحق الرسالة و حاقّها كما استمراريتها بمن يمثّل الرسول المعصوم (ص) دعوة بالكتاب المعصوم.

و هنا يحق القول‏ «الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً».

ذلك، و كلما كان الدين و القوانين أتم و أبقى، كانت الخلافة المعصومة للحفاظ عليه أوجب و أحرى، فكيف يظن برسولنا الأعظم (ص) أن يهمل الأمة بعده بلا راع يرعاها حق رعايتها رسوليا و رساليا.

فلقد كان (ص) إذا يخرج في غزوة أو غيرها يخلّف مكانه و بمكانته رجلا يدير رحى المجتمع الإسلامي حتى يرجع، كما خلف عليا (ع) قائلا: «إن المدينة لا تصلح إلّا بي أو بك».

فمن كان هذا دينه و هاتيك قوانينه و سيرته في حياته الرسولية المحدودة فما تظن به يفعل في حياته الرسالية بعده و إلى يوم القيامة؟ فهل تظنه يهمل الأمة حيارى بعد ارتحاله تعصف بهم عواصف الضلالة دون ممثل له يمثله في قيادتهم الروحية و الزمنية، مع أن الضرورة إلى ذلك أشد و الحاجة إليه آكد!.

ذلك، و ترى العصمة المضمونة للرسول (ص) حتى يبلغ ما أنزل إليه هي العصمة عن بأس المشركين و قد فتحت عاصمة التوحيد من ذي قبل و استسلمت جموع الإشراك أمامه طوعا أو كرها؟!.

أو ترى أن ضمان العصمة هو- فقط- عن بأس أهل الكتاب؟ و قد أسست دولة الإسلام في المدينة و الرسول (ص) يعيش قمة قوتها و شوكتها و هو في أخريات أيام حياته الرسولية؟! و ما احتفاف الآية بعصمتها بآيتي التنديد بأهل الكتاب- و لا سيما في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 103

ترتيب التأليف الذي قد يختلف عن ترتيب التنزيل- ليس احتفاقها هكذا مما يبرهن على أنه كان يخاف منهم في ذلك البلاغ، فإن دل ذلك على شي‏ء فإنما هو إنباءهم أن هذه الرسالة خالدة بكتابها و من يبشر بها من القمة العليا العاصمة المعصومة «الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً».

فمهما لم يكن ترتيب التنزيل قاصدا أحيانا حيث ينزل حسب الحاجات و الطلبات غير المترابطة أحيانا، فترتيب التأليف قاصد دون ريب، و علينا التدبر للحصول على تلك القصود الربانية في ترتيب التأليف، و هو هنا كما بينا من بين الرباط بينها و بين الآيتين، و ما أبلغه رباطا و أفصحه ترتيبا.

ذلك، و كيف يخاف أهل الكتاب في أخريات أيامه و هو في قمة القوة و الشوكة التي كان يهابها الملوك و الرؤساء، و لم يكن يخاف المشركين الذين هم ألدّ منهم و أخطر منذ بزوغ رسالته.

و ما ذلك الاحتفاف الخاص بآيتي أهل الكتاب إلّا لأنهم هم الذين كانوا يأملون ختام هذه الرسالة بختام حياة الرسول (ص) و يعملون لإنهائها بحيل كتابية أكثر مما يحتاله المشركون.

ذلك، فالعصمة الموعودة هنا ليست إلّا عن هؤلاء الناس الناقمين من ولي الأمر بعده (ص) مهما شملت عصمته عن كل المخاوف بصورة طليقة ما كانت من ذي قبل كما ورد في أسباب النزول.

إذا فما ذا تراه كان يخافه الرسول (ص) إن بلغ هاتيك الرسالة ببلاغ‏ «ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» إلّا الخلافة المرموقة الممدودة إليها أعناق جموع نعرفهم.

فليس الناس في‏ «وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ» إلّا هؤلاء النسناس‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 104

الناقمين ممن تحق له ولاية الأمر و الإمرة بعد الرسول (ص) حيث كان يخاف تهريجهم و تحريجهم على أصل الرسالة تكذيبا له (ص) و هو بين ظهرانيهم، و لا يعنى الكفر هنا إلّا الكفر بذلك البلاغ الرسالي الخاص.

أجل، إن الرسول (ص) ما كان يخاف أن يقتل في يوم من أيام رسالته، و لا في العهد المكي الهرج المرج الحرج، فهل كان يخاف في قمة القوة و السيادة أواخر العهد المدني!.

«الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَ كَفى‏ بِاللَّهِ حَسِيباً» (33: 39) تسلب كل مخافة في الدعوة الرسالية عن كل الرسل، فضلا عن سيد المرسلين و خاتم النبيين و أفضل الخلق أجمعين، و في قمة الشوكة و السلطة الروحية و الزمنية!.

و حتى إن كان يخشى الناس أحيانا لم يكن يخشاهم على حياته، بل كان يخشاهم على رسالته أن تهتك أو يفتك بها كما في قصة زواجه بزوجة زيد بعد أن قضى منها وطرا، لأنه خلاف سنة جاهلية عريقة، و لكنه طبّق أمر اللَّه على خشيته تلك التي هي في الحق خشية على رسالة اللَّه.

و أما هنا فقد استمهل- دون إهمال- أمر ذلك البلاغ نظرة أمر جديد جادّ أو طمأنة عن بأس الناس حتى نزلت‏ «وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ» فقام يوم الغدير بذلك البلاغ، إنه كان يخاف إن بلغ هاتيك الرسالة الهامة المرموقة الممدودة إليها الأعناق أن يكذبه نفر ممن آمن به جهارا متهمين إياه استغلاله في بلاغ الخلافة فتنفصم بها عرى دعوته الرسالية فيكفرون و يكفر معهم آخرون، فيتزلزل أركان رسالته العالمية الخالدة بينما هو يغادرهم إلى جوار رحمة ربه.

لذلك، و لأن الأمر: «بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» ما كان محددا بوقت، كان يرى ترجيحا مؤقتا لأهم الأمرين أن يبطي تأجيلا لذلك البلاغ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 105

نظرة أمر يتلو لعل اللَّه يحدث بعد ذلك أمرا لا يكون هكذا إمرا، و يبدله من بعد عسره يسرا حتى نزلت آية البلاغ مرة ثالثة بهذه التآكيد القيمة الحادّة الجادّة، مطمئنة إياه عصمته عن بأس الناس فقد نزلت في الأولى: «يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» و زيد عليها في الثانية «وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ» ثم في الثالثة «وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

ابن الفتال الشيرازي في روضة الواعظين عن الامام الباقر في حديث مفصل‏ قال اللَّه لرسوله: فأقم يا محمد (ص) عليا علما و خذ عليهم البيعة و جدد عهدي و ميثاقي لهم الذي واثقتهم عليه فإني قابضك إلي فخشي رسول اللَّه (ص) من قومه و أهل النفاق و الشقاق ان يتفرقوا و يرجعوا إلى الجاهلية لما عرف من عداوتهم و لما ينطوي عليه أنفسهم لعلي من العداوة و البغضاء و سئل جبرائيل أن يسأل ربه العصمة من الناس و انتظر أن يأتيه جبرائيل بالعصمة من الناس من اللَّه عز و جل فأخر ذلك إلى أن بلغ مسجد الخيف فأتاه جبرائيل و أمره ان يعهد عهده و يقيم حجته عليا للناس و لم يأته بالعصمة من اللَّه عزّ و جلّ الذي أراد حتى بلغ كراع الغميم بين مكة و المدينة فأتاه جبرائيل و أمره بالذي أمر به من قبل و لم يأته بالعصمة فقال يا جبرائيل اني لأخشى قومي أن يكذبوني و لا يقبلوا قولي في علي فرحل فلما بلغ غدير خم قبل الجحفة بثلاث أميال أتاه جبرائيل على خمس ساعات مضت من النهار بالزجر و الانتهار و العصمة من الناس فقال يا محمد: ان اللَّه عزّ و جل يقرئك السلام و يقول لك: «يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ» فأمر رسول اللَّه (ص) عند ما جاءته العصمة- و ذكر قصة البلاغ يوم الغدير على تفصيله إلى أن قال (ص) في خطبة الغدير: معاشر الناس ما قصرت عن تبليغ ما أنزله اللَّه تعالى إلي و أنا مبين لكم سبب نزول هذه الآية: ان جبرائيل هبط إليّ مرارا ثلاثة يأمرني عن السلام ربي و هو السلام ان أقوم في هذا المشهد فأعلم كل ابيض و اسود ان علي بن أبي طالب اخي و وصيي و خليفتي و هو الامام بعدي الذي مني محل هارون من موسى إلّا أنه لا نبي بعدي، هو وليكم بعد اللَّه و رسوله- إلى آخر الخطبة الطويلة و قد طالت في الرمضاء زهاء ساعتين في ذلك الملإ العام من المسلمين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 106

ذلك، و لقد اصفقت الأمة الاسلامية بأسرها من الصحابة و التابعين و تابعي التابعين و من المفسرين و سائر المؤلفين على نزول هذه الآية بشأن بلاغ الأمر لعلي أمير المؤمنين (ع) لحد نسمع ابن مسعود «1» ينقل قراءتها بزيادة- ان عليا مولى المؤمنين- مما خيل إلى بعض البسطاء أنها كانت في الآية فأسقطت و لم تسقط إلّا عقليته الإسلامية!.

و لقد ورد نزولها فيه (ع) بشأن قصة الغدير عن ثلاثين مصدرا من إخواننا «2» و رواته من الصحابة مائة و عشرون صحابيا و من التابعين اربع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الحافظ ابن مردويه ص 108 اخرج باسناده ابن مسعود انه قال: كنا نقرأ على عهد رسول اللَّه (ص): يا أيها الرسول بلغ ما انزل إليك من ربك- إن عليا مولى المؤمنين- و ان لم تفعل فما بلغت رسالته و اللَّه يعصمك من الناس، و قد رواه في الدر المنثور 3: 298 و الشوكاني في فتح القدير و الأربلي في كشف الغمة عنه عن زر عن ابن مسعود.

(2)

يذكرها المغفور له العلامة الاميني في 1: 214- 223 هكذا: نزلت هذه الآية الشريفة يوم الثامن عشر من ذي الحجة سنة حجة الوداع (10 ه) لما بلغ النبي (ص) غدير خم فأتاه جبرائيل بها على خمس ساعات مضت من النهار فقال:

يا محمد (ص) إن اللَّه يقرؤك السلام و يقول لك: «يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» في علي‏ «وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ ..» و كان أوائل القوم- و هم مائة الف أو يزيدون- قريبا من الجحفة فأمره أن يرد من تقدم منهم و يحبس من تأخر عنهم في ذلك المكان و ان يقيم عليا (ع) علما للناس و يبلغهم ما انزل اللَّه فيه و أخبره بان اللَّه عزّ و جل قد عصمه من الناس،

و ما ذكرناه من المتسالم عليه عند أصحابنا الامامية غير انا نحتجّ في المقام بأحاديث أهل السنة في ذلك فإليك البيان:

1-

الحافظ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في كتاب الولاية عن زيد بن أرقم قال: لما نزل النبي (ص) بغدير خم في رجوعه عن حجة الوداع و كان في وقت الضحى و حرّ شديد أمر بالدوحات فقمّت و نادى الصلاة جامعة فاجتمعنا فخطب خطبة بالغة ثم قال:

إن اللَّه تعالى انزل إلي: «بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ‏ ... وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 107

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و قد أمرني جبرائيل عن ربي أن أقوم في هذا المشهد و أعلم كل ابيض و أسود ان علي بن أبي طالب اخي و وصيي و خليفتي و الامام بعدي فسألت جبرائيل ان يستعفي لي ربي لعلمي بقلة المتقين و كثرة المؤذين لي و اللائمين لكثرة ملازمتي لعلي و شدة إقبالي عليه حتى سموني أذنا فقال تعالى: «وَ مِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ» و لو شئت ان اسميهم و أدل عليهم لفعلت و لكني بسترهم قد تكرمت فلم يرضى اللَّه إلا بتبليغي فيه فاعلموا معاشر الناس ذلك، فان اللَّه قد نصبه لكم وليا و إماما و فرض طاعته على كل احد ماض حكمه جائز قوله، ملعون من خالفه، مرحوم من صدقه، اسمعوا و أطيعوا فان اللَّه مولاكم و علي إمامكم، ثم الإمامة في ولدي من صلبه إلى القيامة لا حلال إلّا ما أحله اللَّه و رسوله و لا حرام إلّا ما حرمه اللَّه و رسوله و هم فما من علم إلّا و قد أحصاه اللَّه فيّ و نقلته إليه فلا تضلوا عنه و لا تستنكفوا منه فهو الذي يهدي إلى الحق و يعمل به، لن يتوب اللَّه على أحد أنكره و لن يغفر له، حتما على اللَّه ان يفعل ذلك أن يعذبه عذابا نكرا ابد الآبدين فهو أفضل الناس بعدي ما نزل الرزق و بقي الخلق، ملعون من خالفه، قولي عن جبرائيل عن اللَّه فلتنظر نفس ما قدمت لغد.

افهموا محكم القرآن و لا تتبعوا متشابهه، و لن يفسر ذلك لكم إلّا من أنا آخذ بيده و شائل بعضده، و معلمكم: ان من كنت مولاه فهذا علي مولاه و موالاته من اللَّه عزّ و جلّ انها أنزلها علي، ألا و قد أديت، ألا و قد بلغت، ألا و قد أسمعت، ألا و قد أوضحت، لا تحل إمرة المؤمنين بعدي لأحد غيره، ثم رفعه إلى السماء حتى صارت رجله مع ركبة النبي (ص) و قال: معاشر الناس! هذا أخي و وصيي و واعي علمي و خليفتي على من آمن بي و على تفسير كتاب ربي، اللهم وال من والاه و عاد من عاداه و العن من أنكره و اغضب على من جحد حقه، اللهم إنك أنزلت عند تبيين ذلك في علي: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» بإمامته فمن لم يأتم به و بمن كان من ولدي من صلبه إلى يوم القيامة فأولئك حبطت اعمالهم و في النار هم خالدون، ان إبليس أخرج آدم (ع) من الجنة مع كونه صفوة اللَّه بالحسد فلا تحسدوا فتحبط أعمالكم و تزل أقدامكم، في علي نزلت سورة «وَ الْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ».

معاشر الناس! آمنوا باللَّه و رسوله و النور الذي أنزل معه من قبل ان نطمس وجوها فنردها على ادبارهم أو نلعنهم كما لعنّا اصحاب السبت، النور من اللَّه فيّ ثم في علي ثم في النسل منه إلى القائم المهدي (ع) معاشر الناس سيكون من بعدي أئمة يدعون إلى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 108

و ثمانون تابعيا و طبقات رواته من أئمة الحديث و حفاظه مائتان و ستون نسمة و المؤلفون فيه من الفريقين ستة و عشرون، مما يجعل نزول هذه الآية بشأن غدير الأمير (ع) من قمة المتواترات الإسلامية، فلا محيد عن القول به إلّا لمن يكفر بهذه الآية و «إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ» و لقد بلغت من عصمته تعالى رسوله (ص) من بأس الناس في ذلك البلاغ المبين إلى أن هنأ الامام عليا (ع) في ولايته الشيخان و هما أرأس الرؤوس في النقمة من إمرته (ع) يذكرها إخواننا عن ستين مصدرا و لا ينبيك مثل خبير إذ قالا له:

بخ بخ لك يا علي أصبحت مولاي و مولى كل مؤمن و مؤمنة «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

النار و يوم القيامة لا ينصرون، و ان اللَّه و أنا بريئان منهم، انهم و أنصارهم و اتباعهم في الدرك الأسفل من النار و سيجعلونها ملكا اغتصابا فعندها يفرغ لكم ايها الثقلان و يرسل عليكما شواظ من نار و نحاس فلا تنتصران- الحديث، ثم نقل قصة الغدير هذه عن بقية الثلاثين مصدرا.

(1). لقد روى حديث التهنئة فيمن رواه الحافظ أبو بكر عبد اللَّه بن محمد بن أبي شيبة بإسناده عن البراء بن عازب، و الامام احمد في مسنده 4: 281 عنه و الحافظ أبو العباس الشيباني بالإسناد عنه و الحافظ أبو يعلى عنه و الحافظ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تفسيره 3: 428 بالإسناد عن ابن عباس و البراء بن عازب و محمد بن علي و الحافظ احمد بن عقدة في كتاب الولاية بالإسناد عن سعد بن أبي وقاص و الحافظ أبو عبد اللَّه المرزباني عن أبي سعيد الخدري و الدار قطني و ابن بطة عن البراء بن عازب و الباقلاني في التمهيد في اصول الدين 171 و الخركوشي النيسابوري في شرف المصطفى عنه و ابن مردويه في تفسيره عن أبي سعيد الخدري و الثعلبي في تفسيره و ابن سمان الرازي عن ابن عازب و البيهقي عنه و الخطيب البغدادي بسندين صحيحين عن أبي هريرة 232- 233 و ابن المغازلي في المناقب و العاصي في زين الفتى و السمعاني في فضائل الصحابة عن ابن عازب و الغزالي في سر العالمين 9 و الشهرستاني في الملل و النحل و الخوارزمي في مناقبه 94 و ابن الجوزي عن ابن عازب و فخر الدين الرازي في تفسيره الكبير و ابن الأثير الشيباني في النهاية 4: 246 و النطنزي في الخصائص العلوية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 109

فما أظلمه من ينكر نزول آية التبليغ بشأن تأمير الأمير (ع) يوم الغدير و قد أضفقت الآية نفسها بمتواتر الرواية بشأن نزولها على ذلك، أو ليس نكرانه كفرا بكتاب اللَّه و سنة رسول اللَّه (ص)؟ و «إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ».

لقد طالت المحاولات الناقمة من الامام علي (ع) أن تجمد دلالة الآية و الولاية المصرح بها في رواية الغدير عن دلالتها الواضحة على الأولوية الطليقة للإمام علي (ع) بإمرة المؤمنين، و لكنها في حقل البرهان جامدة خامدة لا ترجع إلّا بفضح محاوليها و المحتالين فيها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و ابن الأثير و الكنجي الشافعي في كفاية الطالب ص 16 و سبط بن الجوزي و عمر بن محمد الملا في وسيلة المتعبدين و الطبري في الرياض النضرة و الحمويني في فرائد السمطين و 9 النيسابوري و ولي الدين الخطيب في مشكاة المصابيح 557 و ابن كثير في البداية و النهاية 5: 209- 210 و المقريزي المصري في الخطط 3: 223 و ابن الصباغ المالكي في الفصول المهمة و القاضي نجم الدين الأذرعي في بديع المعاني 75 و الميبدي في شرح الديوان و السيوطي في جمع الجوامع و السهمودي في وفاء الوفاء باخبار دار المصطفى 3: 173 و القسطلاني في المواهب اللدنية 3: 13 في معنى المولى و البخاري و ابن حجر العسقلاني في الصواعق المحرقة 26 و السيد علي بن شهاب الدين الهمداني في مودة القربى و السيد محمود الشيخاني القادري في الصراط السوي في مناقب آل النبي و المناوي في فيض القدير 6: 218 و با كثير المكي في وسيلة المآل في عد مناقب الآل و الزرقاني المالكي في شرح المواهب 7: 13 و حسام الدين بن محمد با يزيد السهارنيوري في مرافض الرافض و البدخشاني في كتابيه مفتاح النجا في مناقب آل العباد و نزل الأبرار بما صح في أهل البيت الأطهار و الشيخ محمد صدر العالم في معارج العلى في مناقب المرتضى و العمري الدهلوي و السيد محمد الصنعاني في الروضة الندية شرح التحفة العلوية و الكهنوي في مرآت المؤمنين في مناقب اهل بيت سيد المرسلين و محمد محبوب العالم في تفسير شاهي و السيد احمد زيني حلان في الفتوحات الإسلامية 3: 306 و الشيخ محمد حبيب اللَّه الشنقيطي المدني في حياة علي بن أبي طالب 28 عن ابن عازب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 110

و كيف ينكر أو يتجاهل ما أصفقت الأمة الإسلامية بنقله من المؤرخين‏ «1» و المحدثين‏ «2» و المفسرين‏ «3» و المتكلمين و اللغويين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فمن المؤرخين البلاذري في أنساب الأشراف و ابن قتيبة في المعارف و الامامة و السياسة و الطبري في كتاب مفرد و ابن زلاق الليثي في تأليفه و الخطيب البغدادي في تاريخه و ابن عبد البر في الاستيعاب و الشهرستاني في المل و النحل و ابن عساكر في تاريخه و ياقوت الحموي في معجم الأدباء 18: 84 و ابن الأثير في أسد الغابة و ابن أبي الحديد في شرح النهج و ابن خلكان في تاريخه و اليافعي في مرآت الجنان و ابن الشيخ البلوي في ألف باء و ابن كثير في البداية و النهاية و ابن خلدون في مقدمة تاريخه و الذهبي في تذكرة الحفاظ و النويري في نهاية الأرب في فنون الأدب و العسقلاني في الاصابة و تهذيب التهذيب و ابن الصباغ في الفصول المهمة و المقريزي في الخطط و السيوطي في جمع من كتبه و القرماني في أخبار الدول و نور الدين الحلبي في السيرة الحلبية و غيرهم.

(2) و من المحدثين الكبار الامام الشافعي كما في نهاية ابن الأثير و الامام احمد بن حنبل في مسنده و مناقبه و ابن ماجه في سننه و الترمذي في صحيحه و النسائي في الخصائص و أبو يعلي الموصلي في مسنده و البغوي في السنن و الدولابي في الكنى و الأسماء و الطحاوي في مشكل الآثار و الحاكم في المستدرك و ابن المغازلي في المناقب و ابن مندة الأصبهاني بعدة طرق في تأليفه و الخطيب الخوارزمي في المناقب و مقتل الامام السبط (ع) و الكنجي في كفاية الطالب و محب الدين الطبري في الرياض النضرة و ذخائر العقبى و الحمويني في فرائد السمطين و الهيثمي في مجمع الزوائد و الذهبي في التلخيص و الجزري في أسنى المطالب و القسطلاني في المواهب اللدنية و المتقي الهندي في كنز العمال و الهروي القاري في المرقاة في شرح المشكاة و تاج الدين المناوي في كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق و فيض القدير و الشيخاني القادري في الصراط المستقيم في مناقب آل النبي و با كثير المكي في وسيلة المآل في مناقب الآل و الزرقاني في شرح المواهب و ابن حمزة الدمشقي في كتاب البيان و التعريف و غيرهم.

(3) و من أئمة التفسير الطبري و الثعلبي و الواحدي في أسباب النزول و القرطبي و أبو السعود و الفخر الرازي و ابن كثير و النيشابوري و جلال الدين السيوطي و الخطيب الشربيني و الآلوسي و كثير غيرهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 111

ذلك و رواة الغدير من الصحابة مائة و عشر «1» و من التابعين أربعة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و أولئك هم حسب حروف الهجاء: 1- أبو هريرة 2- أبو ليلى الأنصاري 3- أبو زينب بن عوف الأنصاري 4- أبو فضالة الأنصاري 5- أبو قدامة الأنصاري 6- ابو عمرة بن عمرو بن محصن الأنصاري 7- أبو الهيثم بن التيهان 8- أبو رافع القبطي 9- ابو ذويب خويلد بن خالد بن محرث الهذلي 10- أبو بكر بن أبي قحافة 11- أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي 12- أبي بن كعب الأنصاري 13- أسعد بن زرارة الأنصاري 14- أسماء بنت عميس الخثعمية 15- أم سلمة 16- أم هاني بنت أبي طالب 17- أبو حمزة انس بن مالك الأنصاري 18- براء بن عازب الأنصاري الأوسي 19- بريدة بن الحصيب أبو سهل الأسلمي 20- أبو سعيد ثابت بن وديعة الأنصاري 21- جابر بن سمرة بن جنادة أبو سليمان السوائي 22- جابر بن عبد اللّه الأنصاري 23- جبلة بن عمرو الأنصاري 24- جبير بن مطعم بن عدي القرشي 25- جرير بن عبد اللَّه بن جابر البجلي 26- أبو ذر جندب بن جنادة الغفاري 27- أبو جنيدة جندع بن عمرو بن مازن الأنصاري 28- حبة بن جوني أبو قدامة العرني 29- حبش بن جنادة السلولي 30- حبيب بن بديل بن ورقاء الخزاعي 31- حذيفة بن أسيد أبو شريحة الغفاري 32- حذيفة بن اليمان 33- حسان بن ثابت 34- الامام الحسن المجتبى (ع) 35- الامام الحسين الشهيد (ع) 36- أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري 37- أبو سليمان خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي 38- خزيمة بن ثابت الأنصاري 39- أبو شريح خويلة ابن عمر الخزاعي 40- رفاعة بن عبد المنذر الأنصاري 41- زبير بن العوام 42- زيد بن أرقم الأنصاري 43- ابو سعيد زيد بن ثابت 44- زيد بن يزيد بن شراحيل الأنصاري 45- زيد بن عبد اللَّه الأنصاري 46- أبو إسحاق سعد بن أبي وقاص 47- سعد بن جنادة العوفي 48- سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي 49- أبو سعيد الخدري 50- سعيد بن زيد القرشي 51- سعيد بن سعد بن عبادة الأنصاري 52- ابو عبد اللَّه سلمان الفارسي 53- أبو مسلم سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي 54- أبو سليمان سمرة بن جندب الفزاري حليف الأنصار 55- سهل بن حنيف الأنصاري 56- أبو العباس سهل بن سعد الأنصاري 57- أبو أمامة الأنصاري 58- ضميرة الأسدي 59- طلحة بن عبيد اللَّه التميمي 60- عامر بن عمير النميري 61- عامر بن ليلى بن حمزة 62- عامر بن ليلى الغفاري 63- أبو الطفيل عامر بن واثلة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 112

و ثمانون‏ «1» و من العلماء الرواة عن الصحابة و التابعين من القرن الثاني‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الليثي 64- عائشة بنت أبي بكر 65- عباس بن عبد المطلب 66- عبد الرحمن بن عبد رب الأنصاري 67- أبو محمد عبد الرحمن بن عوف 68- عبد الرحمن بن يعمر الديلمي 69- عبد اللَّه بن أبي عبد الأسد المخزومي 70- عبد اللَّه بن بديل بن ورقاء 71- عبد اللَّه بن بشير 72- عبد اللَّه بن ثاب الأنصاري 73- عبد اللَّه بن جعفر بن أبي طالب الهاشمي 74- عبد اللَّه بن حنطب القرشي المخزومي 75- عبد اللَّه بن ربيعة 76- عبد اللَّه بن عباس 77- عبد اللَّه بن أبي اوفى علقمة الأسلمي 78- أبو عبد الرحمن عبد اللَّه بن عمر بن الخطاب العدوي 79- عبد اللَّه بن مسعود 80- عبد اللَّه بن ياميل 81- عثمان بن عفان 82- عبيد بن عازب الأنصاري 83- عدي بن حاتم 84- عطية بن بسر المازني 85- عقبة بن عامر الجهني 86- علي بن أبي طالب أمير المؤمنين (ع) 87- عمار بن ياسر 88- عمارة الخزرجي الأنصاري 89- عمر بن أبي سلمة بن عبد الأسد 90- عمر بن الخطاب 91- عمران بن حصين الخزاعي 92- عمرو بن الحمق الخزاعي 93- عمرو بن شراحبيل 94- عمرو بن العاص 95- عمرو بن مرة الجهني 96- الصديقة الطاهرة عليها السلام 97- فاطمة بنت حمزة 98- قيس بن ثابت الأنصاري 99- قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري 100- كعب بن عجرة الأنصاري 101- مالك بن الحويرث الليثي 102- المقداد بن عمرو الكندي 103- ناجية بن عمرو الخزاعي 104- أبو برزة فضلة بن عتبة الأسلمي 105- نعمان بن عجلان الأنصاري 106- هاشم المرقال ابن عتبة بن أبي وقاص الزهري 107- أبو وسمة وحشي بن حرب الحبشي الحمصي 108- وهب بن حمزة 109- أبو جحيفة وهب بن عبد اللَّه الموائي 110- أبو مرازم يعلى بن مرة بن وهب الثقفي.

فهؤلاء مائة و عشرة من أعاظم الصحابة الذين وجدنا روايتهم لحديث الغدير و لعل هؤلاء الذين ما وجدناهم اكثر بكثير كما هو قضية جمع الغدير الكثير الكثير.

(1). التابعون حسب حروف التهجي: 1- أبو راشد الجراني 2- أبو سلمة 3- أبو سليمان المؤذن 4- أبو صالح السمان ذكوان 5- أبو عنفوانة المازني 6- أبو عبد الرحيم الكندي 7- ابو القاسم إصبع بن نباتة 8- أبو ليلى الكندي 9- إياس بن نذير 10- جميل بن عمارة 11- حارثة بن نصر 12- حبيب بن أبي ثابت 13- الحرث بن مالك 14- الحسين بن مالك بن الحويرث 15- حكم بن عتيبة الكوفي 16- حميد بن عمارة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 113

إلى القرن الرابع عشر (360) شخصا «1» و المؤلفون حول الغدير (36) من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الخزرجي 17- حميد الطويل 18- خيثمة بن عبد الرحمن الجعفي 19- ربيعة الجرشي 20- أبو المثنى رياح بن الحارث النخعي 21- أبو عمرو زاذان بن عمر الكندي 22- أبو مريم زرّ بن حبيش 23- زياد بن أبي 24- زيد بن يثيع الهمداني 25- سالم بن عبد اللَّه بن عمر بن الخطاب 26- سعيد بن جبير الأسدي 27- سعيد بن أبي حدان 28- سعيد بن المسيب 29- سعيد بن وهب 30- أبو يحيى سلمة بن كهيل 31- سليم بن قيس الهلالي 32- سليمان بن مهران 33- سهم بن الحصين الأسدي 34- شهر بن حوشب 35- الضحاك بن مزاحم 36- طاووس بن كيسان 37- طلحة بن المصرف الأيامي 38- عامر بن سعد بن أبي وقاص 39- عائشة بنت سعد 40- عبد الحميد بن المنذر 41- عبد بن خير 42- عبد الرحمن بن أبي ليلى 43- عبد الرحمن بن سابط 44- عبد الرحمن بن اسعد بن زرارة 45- عبد اللَّه بن شريك 46- عبد اللَّه بن زياد الأسدي 47- عبد اللَّه بن محمد بن عقيل 48- عبد اللَّه بن يعلى بن مرة 49- عدي بن ثابت الأنصاري 50- عطية بن سعد بن جنادة 51- علي بن زيد بن جدعان 52- عمارة بن جوين العبدي 53- عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي 54- عمر بن عبد الغفار 55- عمر بن علي امير المؤمنين (ع) 56- عمرو بن جعدة بن هبيرة 57- عمرو بن مرة الكوفي 58- عمرو بن عبد اللَّه السبيعي 59- عمرو بن ميمون 60- عميرة بن سعد 61- عميرة بنت سعد بن مالك 62- عيسى بن طلحة 63- فطر بن خليفة المخزومي 64- قبيضة بن ذئيب 65- أبو مريم قيس الثقفي 66- محمد بن عمر بن علي أمير المؤمنين (ع) 67- مسلم بن صبيح 68- مسلم الملائي 60- مصعب بن سعد بن أبي وقاص 70- مطلب بن عبد اللَّه القرشي المخزومي 71- مطرق الدراق 72- معروف بن خربوذ 73- منصور بن ربعي 74- موسى بن اكتل 75- مهاجر بن مسمار 76- ميمون البصري 77- نذير الضبي 78- هاني بن هاني 79- أبو بلج يحيى بن مسلم الفزاري 80- يحيى بن جعدة 81- يزيد بن أبي زياد 82- يزيد بن حيان التيمي 83- يزيد بن عبد الرحمن بن الأودي 84- أبو نجيح يسار الثقفي، نذكرهم حسب ترتيب وفياتهم.

(1). فمن القرن الثاني:- عمرو بن دينار (115) 2- محمد بن مسلم بن عبيد اللَّه القرشي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 114

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الزهري (124) 3- عبد الرحمن التيمي (126) 4- بكر بن سوادة (128) 5- عبد اللَّه بن أبي نجيح (131)- مغيرة بن مقسم (133) 7- خالد بن زيد الجمحي (139) 8- الحسن بن الحكم النخعي (140) 9- إدريس بن يزيد الأودي لا 10- يحيى بن سعيد بن حيان التيمي (145) 11- عبد الملك بن أبي سليمان العرزمي (145) 12- أوف بن أبي جميلة العبدي (146) 13- عبيد اللَّه بن عمر بن حفص (147) 14- نعيم بن الحكيم (148) 15- طلحة بن يحيى (148) 16- كثير بن زيد (150) 17- محمد بن إسحاق (151) 18- معمر بن راشد (153) 19- مسعر بن كدام (153) 20- الحكم بن ابان (154) 21- عبد اللَّه بن شوذب (157) 22- شعبة بن الحجاج (160) 23- كامل بن العلا (160) 24- سفيان بن سعيد الثوري (161) 45- إسماعيل بن يونس (162) 2- جعفر بن زياد (165) 27- مسلم بن سالم النهدي 28- قيس بن الربيع (165) 29- حماد بن سلمة (167) 30- عبد اللَّه بن لهيعة (174) 3- الوضاح بن عبد اللَّه (175) 32- شريك بن عبد اللَّه (177) 33- عبيد اللَّه بن عبد الرحمن (182) 34- نوح بن قيس الحدّاني (183) 35- المطلب بن زياد (185) 36- حسان بن ابراهيم الغزي (186) 37- جرير بن عبد الحميد (188) 38- الفضل بن موسى (192) 39- محمد بن جعفر المدني (193) 40- إسماعيل بن علية (193) 41- محمد بن إبراهيم السلمي (194) 42- محمد بن خازم العزير (195) 43- محمد بن فضيل (195) 44- الوكيع بن الجراح (196) 45- سفيان بن عيينة (198) 46- عبد اللَّه بن نمير (199) 47- خنش بن الحرث 48- موسى بن يعقوب 49- العلاء بن سالم العطار 50- الأزرق بن علي بن مسلم 51- هاني بن أيوب 52- فضيل بن مرزوق الأغر (160) 53- سعد بن عبيدة 54- موسى بن مسلم الحزامي 55- يعقوب بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري 56- عثمان بن سعد.

من القرن الثالث: 57- ضمرة بن ربيعة (202) 58- محمد بن عبد اللَّه الزبيري (203) 59- مصعب بن المقدام (203) 60- يحيى بن آدم (203) 61- زيد بن الحباب الخراساني (203) 62- محمد بن إدريس الشافعي (204) 63- أبو عمرو شبابة بن سوار الفزاري (206) 64- محمد بن خالد الحنفي 65- خلف بن تميم الكوفي (306) 66- أسود بن عامر شاذان (208) 67- حسين بن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 115

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الحسن الأشقر الفزاري (208) 68- حفص بن عبد اللَّه بن راشد (209) 69- عبد الرزاق بن همام الصنعاني (211) 70- الحسن بن عطية (213) 71- عبد اللَّه بن يزيد العدوي (313) 72- حسين بن محمد بن بهرام (213) 73- عبيد اللَّه بن موسى العبسي (312) 74- علي بن قادم الخزاعي (213) 75- محمد بن سليمان الحراني (213) 76- عبد اللَّه بن داود (213) 77- أبو عبد الرحمن بن دينار العبدي (2151) 78- يحيى بن حماد الشيباني (215) 79- حجاج بن منهال السلمي (217) 80- الفضل بن دكين (218) 81- عفان بن مسلم (219) 82- علي بن عياش الألهاني (219) 83- مالك بن إسماعيل بن درهم النهدي (219) 84- قاسم بن سلام الهروي (223) 85- محمد بن كثير (223) 86- موسى بن إسماعيل المنقري (223) 87- قيس بن حفص بن القعقاع (227) 88- سعيد بن منصور (227) 89- يحيى بن عبد الحميد الحمّاني (228) 90- ابراهيم بن الحجاج السامي (231) 91- علي بن حكيم بن ذيبان (231) 92- خلف بن سالم المهبلي (231) 93- علي بن محمد الطنافسي (233) 94- هدبة بن خالد القيسي (235) 95- عبد اللَّه بن محمد العبسي (235) 96- عبيد اللَّه بن عمر الجشمي (235) 97- احمد بن عمر بن حفص الجلاب (235) 98- ابراهيم بن المنذر الحزامي (236) 99- يحيى بن سليمان الكوفي (237) 100- ابن راهويه الحنظلي (237) 101- عثمان بن محمد العبسي (239) 102- الحسن بن حماد سجادة (241) 106- هارون بن عبد اللَّه (243) 107- حسين بن حريث المروزي (244) 108- هلال بن بشر الأحدب (346) 109- أبو الجوزاء احمد بن عثمان (246) 110- محمد بن العلاء (248) 115- يوسف بن عيسى بن دينار المروزي (249) 114 112- نصر بن علي بن نصر الجهضمي (251) 113- محمد بن بشار الشهير ب (بندار) (252) 114- محمد بن المثنى العنزي (252) 115- يوسف بن موسى القطان (253) 116- محمد بن عبد الرحيم صاعقة (255) 117- محمد بن عبد اللَّه العدوي المقري (256) 118- محمد بن إسماعيل البخاري (256) صاحب الصحيح 119- الحسن بن عرفة (357) 12- عبد اللَّه بن سعيد الكندي (257) 121- محمد بن يحيى النيسابوري الدهلي (258) 122- حجاج بن يوسف الثقفي (259) 123- عثمان بن حكيم الأودي (361) 124- عمر بن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 116

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

شبّه (362) 125- 125 حمدان احمد بن يوسف السلمي (364) 126- عبيد اللَّه بن عبد الكريم المخزومي (364) 127- احمد بن منصور بن سيار أبو بكر البغدادي صاحب المسند (265) 128- إسماعيل بن عبد اللَّه بن مسعود العبدي (267) 129- الحسن بن علي بن عفان (270) 130- حمد بن عوف الطائق الحمصي (272) 131- سليمان بن سيف الطائي الحراني 132- محمد بن يزيد القزويني (273) 133- عبد اللَّه بن مسلم بن قتيبة الدينوري (276) 134- عبد الملك بن محمد ابو قلابة الرقاشي (276) 135- احمد بن حازم الغفاري (276) 136- محمد بن عيسى الترمذي (279) 137- احمد بن يحيى البلاذري (279) 138- ابراهيم بن الحسين الكسائي (280) 139- احمد بن عمرو ابو بكر الشيباني (287) 140- زكريا بن يحيى السجزي (289) 141- عبد اللَّه بن احمد بن حنبل (290) 142- احمد بن عمرو ابو بكر البزار (292) 143- ابراهيم بن عبد اللَّه الكجي صاحب السنن (292) 144- صالح بن محمد جرزة (293) 145- احمد بن عثمان العبسي (297) 146- القاضي علي بن محمد المصّيصي 147- ابراهيم بن يونس المؤدب حرمي 148- أبو هريرة محمد بن أيوب الواسطي.

القرن الرابع: 149- عبد اللَّه بن الصفر السكري (302) 150- احمد بن شعيب النسائي صاحب السنن (303) 151 بن الحسن بن سفيان النسوي البالوزي صاحب المسند الكبير (303) 152- احمد بن علي الموصلي صاحب المسند الكبير (307) 153- احمد بن جرير الطبري صاحب التفسير و التاريخ (310) 154- احمد بن محمد الضبعي الأحول (311) 155- محمد بن جمعة القهستاني صاحب المسند الكبير (313) 156- عبد اللَّه بن محمد البغوي (317) 157- محمد بن احمد الدولابي (320) 158- احمد بن عبد اللَّه المعروف بابن النيري (320) 159- أبو جعفر احمد بن محمد الازدي الطحاوي (321) 160- ابراهيم بن عبد الصمد الهامشي (325) 161- محمد بن علي الترمذي 162- عبد الرحمن ابن أبي حاتم محمد بن إدريس التميمي الحنظلي (327) 163- احمد بن عبد ربه القرطبي (328) 164- الفقيه أبو عبد اللَّه الحسين بن إسماعيل المحاملي (330) 165- حبشون بن موسى الخلال (331) 166- أبو العباس احمد بن عقدة (333) 167- محمد بن علي بن خلف العطار 168- الهيثم بن كليب ابو سعيد الشاشي (335) 169- محمد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 117

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

بن صالح بن هاني الوراق النيسابوري (340) 170- محمد بن يعقوب (344) 171- يحيى بن محمد الغبري البغياني (344) 172- المسعودي علي بن الحسين البغدادي (346) 173- محمد بن احمد بن تميم الخياط القنطري (340) 174- جعفر بن محمد بن نصير (347) 175- محمد بن علي الشيباني 176- دعلج بن احمد السجستاني (341) 177- محمد بن الحسن بن محمد النقاش المفسر الموصلي (351) 178- محمد بن عبد اللَّه الشافعي البزاز (354) 179- محمد بن حبان التيمي البستي (354) 180- سليمان بن احمد بن أيوب اللخمي الطبراني (360) 181- احمد بن حنبل صاحب المسند الكبير (365) 182- احمد بن جعفر القطيعي (367) 183- الزبير بن عبد اللَّه التوزي (370) 184- محمد بن احمد بن بالويه النيسابوري (374) 185- علي بن عمر بن أحمد الدار قطني (385) 186- الحسن بن ابراهيم ابن رولاق (387) 187- عبيد اللَّه بن محمد العكبري ابن بطة (387) 188- محمد بن عبد الرحمن الذهبي (388) 189- احمد بن سهل الفقيه البخاري 190- النسائي 191- يحيى بن محمد الأخباري القرن الخامس: 192- أبو بكر الباقلاني (403) 193- محمد بن عبد اللَّه ابن اليشع النيسابوري (405) 194- احمد بن محمد بن موسى (405) 195- الخركوشي (407) 196- احمد بن عبد الرحمن الشيرازي (407) 197- محمد بن احمد بن محمد (412) 19- ابن مردويه الأصبهاني (416) 199- احمد بن محمد بن يعقوب مسكويه (421) 200- القاضي احمد بن الحسين ابن السماك (424) 201- الثعلبي النيسابوري المفسر الشهير (427) 202- عبد اللَّه بن علي بن محمد بن بشران (429) 203- الثعالبي النيسابوري (429) 204- أبو نعيم الأصبهاني (430) 205- الحسن بن علي بن محمد التيمي ابن المذهّب (444) 206- ابن السمان (445) 207- البيهقي (458) 28- القرطبي (463) صاحب الاستيعاب 209- الخطيب البغدادي (463) 210- الواحدي النيسابوري (468) 211- مسعود بن ناصر بن عبد اللَّه السجزي (477) 212- ابن المغازلي (483) 213- علي بن الحسن القاضي الخلعي (492) 214- ابن الحداد الحسكاني (490) 215- احمد بن محمد بن علي العاصمي.

القرن السادس: 216- حجة الإسلام الغزالي (505) 21- محمد بن علي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 118

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الكوفي الرسبي (510) 218- ابن منده (512) 219- البغوي (516) 220- عبد الواحد الشيباني (525) 221- علي بن عبد اللَّه بن نصر بن السرى الزاغوني (527) 222- رزين بن معاوية العبدري الأندلسي (535) 223- جار اللَّه محمود بن عمر الزمخشري (538) 224- القاضي عياض اليحصبي السبتي (544) 225- الشهرستاني الشافعي (548) 226- النطنزي 227- السمعاني الشافعي (562) 228- يحيى بن سعدون بن تمام الأزدي القرطبي (567) صاحب التفسير الكبير 229- موفق بن احمد ابو المؤيد اخطب الخطباء الخوارزمي (568) 230- الأربيلي المعروف بملّا 231- علي بن الحسن بن هبة اللَّه أبو القاسم الدمشقي ثقة الدين الشهير بابن عساكر (571) صاحب التاريخ الكبير 232- محمد بن أبي بكر عمر بن أبي عيسى الاصبهاني (581) 233- أبو بكر الحازمي (584) 234- ابن الجوزي البكري (597) 235- الفقيه اسعد بن أبي الفضائل محمود بن خلف العجلي أبو الفتوح (600).

القرن السابع: 236- فخر الدين الرازي (606) صاحب التفسير الكبير 237- ابن الأثير الشيباني الجزري (606) 238- أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوي المالكي الشهير بابن الشيخ (605) 239- تاج الدين زيد بن الحسن بن زيد الكندي (613) 240- الشيخ علي بن حمية القرشي (621) 241- أبو عبد اللَّه ياقوت الحموي (626) 242- علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري (630) صاحب التاريخ الكامل و اسد الغابة 243- حنبل بن عبد اللَّه بن الفرج البغدادي الرصافي (640) 244- ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي (643) 245- محمد بن طلحة القرشي النصيبي 246- أبو المظفر يوسف الأمير حسام الدين قزاوغلي (654) 247- ابن أبي الحديد المعتزلي (655) 248- الكنجي الشافعي (658) صاحب كفاية الطالب 249- عبد الرزاق بن عبد اللَّه بن أبي بكر عز الدين الرسغي (661) 250- فضل اللَّه بن أبي سعيد الحسن الشافعي النوربشتي 251- يحيى الدين يحيى بن شرف النووي (676) 252- الشيخ مجد الدين عبد اللَّه بن محمود بن مورود الحنفي الموصلي (683) 253- القاضي ناصر الدين عبد اللَّه عمر ابو الخير البيضاوي (685) صاحب الطوالع و المصباح في أصول الدين و مختصر الكشاف في التفسير و تأليفات اخرى 254- احمد بن عبد اللَّه فقيه الحرم محب الدين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 119

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أبو العباس الطبري (694) 255- ابراهيم بن عبد اللَّه الرصابي اليمني 256- محمد بن احمد الفرغاني (700).

القرن الثامن: 357- شيخ الإسلام ابو إسحاق ابراهيم بن سعد الدين محمد بن المؤبد الحمويه (722) 258- علاء الدين احمد بن محمد بن احمد السمناني (736) 259- يوسف بن عبد الرحمن الدمشقي المزّي 260- شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان الذهبي الشافعي (748) 361- نظام الدين النيسابوري صاحب التفسير الكبير 262- ولي الدين محمد بن عبد اللَّه الخطيب العمري التبريزي صاحب مشكاة المصابيح 263- ابو محمد القيس الحنفي النحوي (749) 264- ابن الوردي (749) 365- جمال الدين محمد بن يوسف بن الحسن بن محمد الزرندي (750) 266- القاضي عبد الرحمن بن احمد الإيجي (756) 267- الكازروني (758) 268- أبو السعادات عبد اللَّه بن اسعد بن علي اليافعي الشافعي (768) 269- عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القيسي (774) 270- عمر بن حسن بن مزيد بن أميله المراغي (778) 271- شمس الدين أبو عبد اللَّه محمد بن احمد بن علي الهواري ابن جابر الأندلسي (780) 272- السيد علي بن شهاب بن محمد الهمداني (786) 273- المقدسي المعروف بالصامت (789) 274- سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد اللَّه الهروي (791).

القرن التاسع: 375- علي بن أبي بكر بن سليمان أبو الحسن الهيثمي (807) 276- ابن خلدون الحضرمي الأشبيلي المالكي (808) 277- السيد الشريف الجرجاني (618) 278- خواجة پارسا (822) 279- محمد بن خليفة الوشتاني المالكي (827) 280- محمد بن محمد بن محمد ابو الخير الدمشقي المقري المعروف بابن الجوزي (833) 281- المقريزي الحنفي (845) 282- الدولت‏آبادي (849) 283- العسقلاني (852) 284- ابن الصباغ المالكي (855) 285- العيني الحنفي (885) 286- ابن عجلون (876) 287- القوشجي صاحب شرح التجريد 288- الإيجي الشافعي 289- السنوسي التلمساني (895) 290- ابن روزبهان الشيرازي خواجه ملّا.

القرن العاشر: 291- الميبدي شارح الديوان المنسوب الى امير المؤمنين (ع) (870) 292- السيوطي (911) 293- السهودي الشافعي (911)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 120

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

294- القسطلاني المصري (926) 295- السيد عبد الوهاب بن محمد رفيع الدين احمد الحسيني البخاري (932) 296- ابن الدبيع الشيباني (944) 297- ابن حجر الهيثمي (974) 298- المتقي الهندي (975) 299- الشربيني القاهري (977) 300- ضياء الدين أبو محمد احمد بن محمد الوتري (980) 301- ملك المحدثين الهندي الفتني (986) 302- ميرزا مخدوم بن عبد الباقي (995) 303- الصفوري الشافعي مؤلف نزهة المجالس 304- الشيرازي صاحب الأربعين (1000).

القرن الحادي عشر: 305- الهروي المعروف بالقاري الحنفي (1014) 306- ابن سان القرماني (1019) 307- المناوي القاهري (1031) 308- الفقيه شيخ بن عبد اللَّه العيدروس الحسيني (1041) 309- الشيخاني القادري 310- علي بن ابراهيم صاحب السيرة النبوية (1044) 311- ابن باكثير المكي (1047) 312- الحسين بن الامام المنصور باللَّه القاسم بن محمد بن علي اليمني (1050) 313- شهاب الدين الخفاجي (1069)- عبد الحق بن سيف الدين الدهلوي البخاري (1052) 315- محمد بن محمد المصري 316- محمد بن محبوب صاحب تفسير الشاهي.

القرن الثاني عشر: 317- البزرنجي الشافعي (1103) 318- الشيرخيتي المصري (1106) 319- الصنعاني (1108) 320- ابن حمزة الحراني (1120) 321- الزرقاني المصري (1122) 322- السهارينوري صاحب مرافض الروافض 323- ميرزا محمد بن معتمد خان البدخشي 324- محمد صدر العالم 325- العمادي (1171) 336- العمري الدهلوي (1176) 32- محمد بن سالم بن احمد المصري الحنفي (1181) 328- الصنعاني الحسيني (1182) 329- شهاب الدين احمد بن عبد القادر الحفظي احد شعراء الغدير.

القرن الثالث عشر: 330- الزبيدي الحنفي (1205) مؤلف تاج العروس 331- الشيخ محمد بن علي الصبّان الشافعي (1206) 332- رشيد الدين خان الدهلوي 333- المولوي محمد مبين اللكهنوي 334- المولوي محمد سالم البخاري الدهلوي 335- المولوي ولي اللَّه الكهنودي 436- المولوي حيدر علي الفيض‏آبادي 337- الشوكاني الصنعاني (1250) 338- الآلوسي (1270) 339- الشيخ محمد بن درويش الحوت البيروتي (1276) 340- خواجه كلان (1293) 341- السيد احمد بن مصطفى القادين خاني.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 121

الأعاظم‏ «1» و صدّق صحته و تواتره القاطع ثلاثة و أربعون من العلماء.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

القرن الرابع عشر: 342- السيد احمد زيني دحلان (1304) 343- الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني مؤلف منتخب الصحيحين من كلام سيد الكونين 344- السيد مؤمن ابن حسن مؤمن الشبلنجي 345- الشيخ محمد عبده (1323) مفتي الديار المصرية 346- السيد عبد الحميد بن السيد محمود الآلوسي الضرير (1324) 347- الشيخ محمد حبيب اللَّه بن عبد اللَّه اليوسفي 348- القاضي بهلول بهجت قاضي رنكة زور 349- الكاتب الشهير عبد المسيح الأنطاكي 530- الدكتور احمد فريد رفاعي 351- الأستاذ احمد زكي العدوي 352- الأستاذ احمد نسيم المصري 353- الأستاذ حسين علي الأعظمي البغدادي 354- السيد علي جلال الدين الحسيني المصري 355- الأستاذ محمد محمود الرافعي المصري 356- الأستاذ محمد شاكر الخياط النابلسي الأزهري المصري 357- الأستاذ عبد الفتاح عبد المقصود المصري 358- الأستاذ الشيخ محمد سعيد دحدوح 359- الأستاذ صفا خلوص 360- العالم المجتهد ناصر السنة شهاب الدين أبي الفيض احمد بن محمد بن الصديق.

كل هؤلاء نقلنا أسماءهم عن «الغدير» للمغفور له العلامة الأمينين ج 1: 73- 151 بصورة مختصرة و التفصيل راجع إليه.

(1). و هم: 1- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري الآملي (310) 2- أبو العباس احمد بن محمد المعروف بابن عقدة 3- الواسطي 4- الجعابي (355) 5- ابو غالب الرازي (368) 6- محمد بن عبد اللَّه الشيباني (372) 7- علي بن عمر الدار قطني (385) 8- الشيخ محسن بن الحسين النيسابوري 9- علي بن عبد الرحمن القناتي (413) 10- الحسين بن عبيد اللَّه الغضائري (411) 11- ابو سعيد مسعود بن ناصر السجستاني (477) 12- أبو الفتح الكراجكي (449) 13- علي بن بلال 14- الشيخ منصور اللائي الرازي 15- الشيخ علي بن الحسن الطاطري 16- عبيد اللَّه بن عبد اللَّه الحسكاني 17- محمد بن احمد الذهبي (748) 18- محمد بن محمد الجزري (833) 19- عبد اللَّه بن شاه منصور القزويني 20- السيد سبط الحسن الجايسي 21- السيد مير حامد حسين (1306) صاحب العبقات 22- السيد مهدي بن السيد علي الغريفي (1343) 23- الحاج الشيخ عباس القمي (1359) 24- السيد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 122

و كما أن آية التبليغ بالغة الدلالة على قصة الغدير، كذلك حديث الغدير

«من كنت مولاه فهذا علي مولاه» حيث فرّعه الرسول (ص) على «أ لست أولى من أنفسكم قالوا بلى، قال: فمن كنت مولاه ...»

فالولاية العلوية المتفرعة على الأولوية المحمدية (ص) لا شك و أنها هيه دون مجرد المحبة التي هي الولاية بين المؤمنين حيث‏ «الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ».

و لقد ناشد الإمام علي أمير المؤمنين (ع) بحديث الغدير مناوئين لإمرته‏ «1» كما ناشد آخرون، منهم فاطمة الصديقة الطاهرة سلام اللَّه عليها في حديث الفواطم عنها «2» و الإمام الحسن (ع) «3» و الإمام‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

مرتضى حسين الخطيب فتحيورى الهندي 25- الشيخ محمد رضا بن الشيخ طاهر آل فرج اللَّه النجفي 26- الحاج السيد مرتضى الخسرو شاهي التبريزي المعاصر.

(1). منها منا شدته يوم الشورى سنة 23 ه كما عن أبي الطفيل و أيام عثمان و يوم الرحبة و يوم الجمل و في حديث الركبان و يوم صفين، أخرجها عنه (ع) جماعة من الكبار.

(2) كما

اخرج شمس الدين أبو الخير الجزري في كتابه أسنى المطالب في مناقب علي بن أبي طالب (ع) من قوله عليه السلام: أنسيتم قول رسول اللَّه (ص) يوم غدير خم: من كنت مولاه فعلي مولاه؟

و هكذا أخرجه الحافظ الكبير أبو موسى المدايني في كتابه المسلسل بالأسماء و قال: هذا الحديث مسلسل من وجه و هو ان كل واحدة من الفواطم تروي عن عمة لها فهو رواية خمس بنات أخ كل واحدة منهن عن عمتها هكذا في إخراج شمس الدين حدثنا به شيخنا ... الى قوله- حدثنا بكر بن احمد القعري حدثتنا فاطمة و زينب و أم كلثوم بنات موسى بن جعفر قلن حدثتنا فاطمة بنت جعفر بن محمد العملاق حدثتني فاطمة بنت محمد بن علي حدثتني فاطمة بنت علي بن الحسين حدثتني فاطمة و سكينة ابنتا الحسين بن علي عن ام كلثوم بنت فاطمة بنت النبي (ص) عن فاطمة بنت رسول اللَّه (ص) قالت: أنسيتم ...

(3) كما

أخرجه الحافظ ابن عقدة ان الحسن بن علي عليهما السلام لما اجتمع على صلح معاوية قام خطيبا و احتج لخلافة علي (ع) بحجج منها: «و قد رأوه و سمعوه حين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 123

الحسين (ع) «1» و غيرهم عليهم السلام‏ «2» و منهم الخليفة عمر بن عبد العزيز «3» و الخليفة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أخذ بيد أبي بغدير خم و قال لهم: من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه و عاد من عاداه ثم أمرهم ان يبلغ الشاهد الغائب».

(1). كما

أخرجه سليم بن قيس الهلالي في كتابه جملا ضافية ان الامام الحسين (ع) حج مع جماعة و اجتمع عليه بمنى من أصحاب رسول اللَّه (ص) و التابعين اكثر من سبعمائة فقام فيهم فحمد اللَّه و اثنى عليه و قال فيما قال: أما بعد فان هذا الطاغية- يعني معاوية و هو قبل سنتين من موته- قد صنع بنا و بشيعتنا ما علمتم و رأيتم و شهدتم و بلغكم و اني أريد أن أسألكم عن شي‏ء فإن صدقت فصدقوني و إن كذبت فكذبوني و اسمعوا مقالتي و اكتبوا قولي ثم ارجعوا إلى أمصاركم و قبائلكم و من ائتمنتموه من الناس و وثقتم به فادعوه إلى ما تعلمون من حقنا فانا نخاف أن يدرس هذا الحق و يذهب و يغلب و اللَّه متم نوره و لو كره الكافرون و ما ترك شيئا مما انزل اللَّه في القرآن فيهم إلّا تلاه و فسره و لا شيئا مما قال رسول اللَّه (ص) في أبيه و أمه و نفسه و أهل بيته إلّا رواه و كل ذلك يقولون اللهم نعم قد سمعنا و شهدنا و يقول التابعون اللهم نعم قد حدثني به من أصدقه و أئتمنه من الصحابة- إلى أن قال- قال: أنشدكم اللَّه أ تعلمون ان رسول اللَّه (ص) نصبه يوم غدير خم فنادى له بالولاية و قال: ليبلغ الشاهد الغائب؟ قالوا: اللهم نعم-

و فيه طرف مما تواترت أسانيده من فضائل امير المؤمنين (ع) فراجع.

(2) منها احتجاج عبد اللَّه بن جعفر على معاوية و احتجاج عمرو بن العاص على معاوية و احتجاج برد على عمرو و احتجاج عمار بن ياسر يوم صفين على عمرو بن العاص و احتجاج إصبع بن نباتة في مجلس معاوية و مناشدة شاب أبا هريرة بحديث الغدير بمسجد الكوفة و احتجاج قيس بن سعد على معاوية و احتجاج دارمية الحجونية عليه و احتجاج عمرو الأودي على مناوئي أمير المؤمنين (ع).

(3) و من احتجاج عمر بن عبد العزيز ما رواه الحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء 5: 364 عن أبي بكر محمد التستري عن يعقوب و عن عمرو بن محمد السرى عن ابن أبي داود قالا حدثنا عمر بن شبه عن عيسى عن يزيد بن عمر بن مورق قال: كنت بالشام و عمر بن عبد العزيز يعطي الناس فتقدمت اليه فقال لي: ممن أنت؟ قلت: من قريش، قال:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 124

مأمون الرشيد «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

من أي قريش؟ قلت: من بني هاشم، قال: فسكت فقال: من أي بني هاشم؟

قلت: مولى علي، قال: من عليّ؟ فسكتّ قال: فوضع يده على صدره فقال: و أنا و اللَّه مولى علي بن أبي طالب كرم اللَّه وجهه ثم قال: حدثني عدة انهم سمعوا

النبي (ص) يقول: من كنت مولاه فعلي مولاه‏

ثم قال: يا مزاحم كم تعطي أمثاله؟

قال: مائة أو مأتي درهم، قال: أعطه خمسين دينارا و قال ابن أبي داود ستين دينارا لولايته علي بن أبي طالب ثم قال: الحق ببلدك فسيأتيك مثل ما يأتي نظراءك، و أخرجه أبو الفرج في الأغاني و ابن عساكر في تاريخه و الحمويني في فرائد السمطين و الزرندي في نظم در السمطين و السهمودي في جواهر العقدين.

(1).

روى ابو عمر ابن عبد ربه في العقد الفريد 3: 42 عن إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل بن حماد بن زيد قال بعث الي يحيى ابن أكثم والى عدة من اصحابي و هو يومئذ قاضي القضاة فقال‏ ان امير المؤمنين أمرني ان أحضر معي غدا مع الفجر أربعين رجلا كلهم فقيه يفقه ما يقال له و يحسن الجواب فسموا من تظنونه يصلح لما يطلب امير المؤمنين فسمّينا له عدة و ذكر هو عدة حتى تم العدد الذي أراد و كتب تسمية القوم و أمر بالبكور في السحر و بعث من يحضر فأمره بذلك فغدونا عليه قبل طلوع الفجر فوجدناه قد لبس ثيابه و هو جالس ينتظرنا فركب و ركبنا معه حتى صرنا الى الباب فإذا بخادم واقف فلما نظر إلينا قال يا أبا محمد؟ أمير المؤمنين ينتظر فأدخلنا فأمرنا بالصلاة فأخذنا فيها فلم نستتمها حتى خرج الرسول فقال: ادخلوا فدخلنا فإذا امير المؤمنين جالس على فراشه- الى أن قال-: ثم قال: إني لم أبعث فيكم لهذا و لكنني أحببت ان ابسطكم ان امير المؤمنين أراد مناظرتكم في مذهبه الذي هو عليه و الذي يدين اللَّه به. قلنا فليفعل امير المؤمنين وفقه اللَّه فقال: ان امير المؤمنين يدين اللَّه على ان علي بن أبي طالب خير خلق اللَّه بعد رسول اللَّه (ص) و أولى الناس بالخلافة له، قال إسحاق فقلت يا امير المؤمنين إن فينا من لا يعرف فاذكر امير المؤمنين في علي و قد دعانا امير المؤمنين للمناظرة فقال يا إسحاق اختر إن شئت سألتك اسأل و إن شئت ان تسأل فقل، قال إسحاق: فاغتنمتها منه فقلت بل اسألك يا أمير المؤمنين، قال: سل، قلت: من أين قال امير المؤمنين ان علي بن أبي طالب أفضل الناس بعد رسول اللَّه (ص) و أحقهم بالخلافة بعده؟ قال: يا إسحاق خبّرني عن الناس بم يتفاضلون حتى يقال: فلان أفضل من فلان؟ قلت: بالأعمال الصالحة قال: صدقت، قال: فأخبرني عمن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 125

ذلك هو الغدير في الكتاب و السنة و قد غرق فيه عالم كثير و نجى الكثير ممن و فى لرعاية الحق حيث ركبوا سفينة نجاة الولاية الكبرى المحمدية (ص) لعلي أمير المؤمنين عليه صلوات المصلين.

و ما النقاش في المعنيّ من ولايته إلّا كنقش على الماء و الهواء فإنه هباء و خواء و اللَّه منه براء.

فتلكما آيتا الغدير من التبليغ و تكميل الدين، و هاتيك روايات الغدير، فتراهما تعنيان ذلك الحشد الكبير في بلاغ منقطع النظير ما تشترك فيه كافة المؤمنين أم جماعة منهم خصوص؟ و ليس في الدور إلّا علي أمير

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فضل صاحبه على عهد رسول اللَّه (ص) ثم ان المفضول ان عمل بعد وفاة رسول اللَّه (ص) بأفضل من عمل الفاضل على عهد رسول اللَّه (ص) أ يلحق به؟ قال:

فأطرقت فقال لي: يا إسحاق؟ لا تقل: نعم، فانك إن قلت نعم أوجدتك في دهرنا هذا من هو اكثر منه جهادا و حجا و صياما و صلاة و صدقة، فقلت: أجل يا أمير المؤمنين لا يلحق المفضول على عهد رسول اللَّه (ص) الفاضل أبدا، قال: يا إسحاق! هل تروي حديث الولاية؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، قال: اروه، ففعلت، قال يا إسحاق أ رأيت هذا الحديث هل أوجب على أبي بكر و عمر ما لم يوجب لهما عليه؟

قلت: إن الناس ذكروا ان الحديث انما كان بسبب زيد بن حارثة لشي‏ء جرى بينه و بين علي و أنكر ولاية علي فقال رسول اللَّه (ص): من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه و عاد من عاداه، قال: في أي موضع قال هذا؟ أ ليس بعد منصرفه من حجة الوداع؟ قلت: اجل، قال: فانّ قتل زيد بن حارثة قبل الغدير كيف رضيت لنفسك بهذا، اخبرني لو رأيت ابنا لك قد أتت عليه خمسة عشر سنة يقول: مولاي مولى ابن عمي ايها الناس فاعلموا ذلك، أ كنت منكرا ذلك عليه تعريفه للناس ما لا ينكرون و لا يجهلون؟ فقلت: اللهم نعم، قال: يا إسحاق أ فتنزه ابنك عما لا تنزه عنه رسول اللَّه (ص) ويحكم لا تجعلوا فقهاءكم أربابكم ان اللَّه جلّ ذكره قال في كتابه:

اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أربابا من دون اللَّه، و لم يصلوا لهم و لا صاموا و لا زعمو أنهم ارباب و لكن امروهم فأطاعوا أمرهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 126

المؤمنين و ولده المعصومون عليهم السلام؟.

فلا دور- إذا- للبحث اللغوي حول المولى تشكيلا في المعني منها، فحتى لو لم نعرف معنى المولى، فأمر المولى نبيه هكذا، و سؤال النبي «أ لست أولى بكم من أنفسكم» تقرران معنى الأولى للمولى دونما ريب.

فمهما كان للمولى معاني عدة «1» كل يعنى حسب ما يعنى بقرائنها، فهنا القرائن القاطعة متصلة و منفصلة «2» دالة على الأولوية الرسالية التي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و هي حسب موارد استعمالها سبعة و عشرون: الرب- العم- ابن العم- الابن- ابن الأخت- المعتق- المعتق- العبد المالك- التابع- المنعم عليه- الشريك- الحليف- الصاحب- الجار- النزيل- الصهر- القريب- المنعم- الفقير- الولي- الأولى بالشي‏ء- السيد غير المالك و المعتق- المحب- الناصر- المتصرف في الأمر- المتولي في الأمر، و عناية هذه المعاني إلّا الأولى هنا في المولى بين كفر و كذب و غلط و توضيح واضح.

(2) هنا بعد القرينة الأولى تفريعا ل «هذا علي مولاه» على «الست أولى بكم من أنفسكم» قرائن أخرى حالية كحشد الغدير و تأكيد آية البلاغ، و مقالية كالتالية: 1- قول الشيخين في تهنيتهما له (ع) بخ بخ لك أصبحت مولاي و مولى كل مؤمن و مؤمنة. 2-

قوله (ص) عقيب لفظ الحديث: اللَّه اكبر على إكمال الدين و إتمام النعمة و رضى الرب برسالتي و الولاية لعلي بن أبي طالب (ع).

3-

قوله (ص) بعد بيان الولاية لعلي (ع) هنئوني هنئوني ان اللَّه تعالى خصني بالنبوة و خص اهل بيتي بالامامة.

4-

قوله (ص) بعد ذلك‏ «فليبلغ الشاهد الغائب».

5-

قوله (ص) ان اللَّه أرسلني برسالة ضاق بها صدري و ظننت أن الناس مكذبي فأوعدني لأبلغها أو ليعذبني، و تراه ولاية الحب و النصرة فقط و هي عامة للمؤمنين كلهم!

6- في لفظ عمر بن الخطاب: نصب رسول اللَّه (ص) عليا علما، و

في لفظ علي (ع): أمر اللَّه نبيه ان ينصبني للناس، و: نصبني علما،

و

في لفظ الامام الحسن (ع): أ تعلمون ان رسول اللَّه (ص) نصبه يوم غدير خم‏

و أمثالها. 7- احتجاجات مضت بحديث‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 127

كانت للرسول نفسه (ص) و كل معاني المولى مختصرة محتصرة في ثلاثة هي الحب و النصرة و الأولوية فاعلة و مفعولة.

ذلك، و هذا المقطع من خطبة الغدير ينقله أربع و ستون من علماء الفريقين:

«أ لست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى، قال: فمن كنت مولاه فعلي مولاه» «1»

مما يختص المولى بالأولى كما الرسول (ص) دون ريب.

و نكران معنى الأولى للمولى نكران لرأس الزاوية من معانيها اللغوية الثلاثة، و استنكار لاستعمالها فيها في القرآن كرارا عدة «2» نقمة لاغية من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الغدير لو لا المولي فيها هو الأولى لما صحت هذه الاحتجاجات و قوبلت بالاعتراض أو التشكيك و إلى غير هذه من قرائن متصلة و منفصلة.

(1). و هم احمد بن حنبل- ابن ماجة- النسائي- الشيباني- أبو يعلي- الطبري- الترمذي- الطحاوي- ابن عقدة- العنبري- أبو حاتم- الطبراني- القطيعي- ابن بطة- الدار قطني- الذهبي- الحاكم- الثعلبي- أبو نعيم- ابن السمان- البيهقي- الخطيب- السجستاني- ابن المغازلي- الحسكاني- العاصمي- الخلعي- السمعاني- الخوارزمي- البيضاوي- الملّا- ابن عساكر- أبو موسى- أبو الفرج- ابن الأثير- ضياء الدين- قزاوغلي- الكنجي- التفتازاني- محب الدين- الرصابي- الحمويني- الإيجي- ولي الدين- الزرندي- ابن كثير- الشريف- شهاب الدين- الجزري- المقريزي- ابن الصباغ- الهيثمي- الميبدي- ابن حجر- اصيل الدين- السهمودي- كمال الدين- البدخشي- الشيخاني- السيوطي- الحلبي- ابن باكثير- السهارنيوري- ابن حجر المكي.

(2) جاء لفظ الولي و المولي في آيات عدة بمعنى الأولى منها قوله تعالى: «فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَ لا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْواكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ» (5: 55) حيث المولى هنا لا تتحمل المحب و المحبوب- أو الناصر و المنصور، انما هي الأولى بهم و كما نص عليه من المفسرين و الأدباء جمع غفير، فسبعة و عشرون منهم حصر معناها هنا بالأولى، و خمسة عشر منهم جعلها المعنى الأولى، و منها «إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 128

اللغة، بغية النقمة من صاحب الولاية الكبرى بعد الرسول (ص) مهما اقتضت لاغية القول من الله و من الرسول (ص)!.

هذه عساكر القرائن القطعية متصلة و منفصلة، و إليكم تفسير النبي (ص) نفسه لمعنى المولى حين سئل عن معنى‏

قوله: «من كنت مولاه فعلي مولاه»

قال: الله مولاي أولى بي من نفسي لا أمر لي معه و أنا مولى المؤمنين أولى بهم من أنفسهم لا أمر لهم معي و من كنت أولى به من نفسه لا أمر له معي فعلى مولاه أولى به من نفسه لا أمر له معه‏ «1»:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ» حيث الحصر دليل حصر الولاية في الأولوية لأن الحب و النصر غير محصورين في شخص أو اشخاص خصوص، و منها «وَ إِذا تَوَلَّى سَعى‏ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ» (3: 205) فانها دون ريب تولى القيادة الزمنية، و منها «فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ» (47: 22) و منها «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ» (2: 257) حيث الإخراج هنا هو إخراج السلطة الربانية، و منها «قُلْ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ (6: 14) و منها «أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا» (7: 155) و منها «أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ» (2: 282).

ذلك و هكذا لفظة المولى مثل‏ «يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلى‏ وَ لَبِئْسَ الْعَشِيرُ» (22: 13) و «وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلى‏ وَ نِعْمَ النَّصِيرُ» (22: 78) و «بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَ هُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ» (3: 150) «أَحَدُهُما أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلى‏ شَيْ‏ءٍ وَ هُوَ كَلٌّ عَلى‏ مَوْلاهُ» (16: 76).

(1). أخرجه القرشي علي بن حميد في شمس الأخبار ص (38) نقلا عن سلوة العارفين للموفق باللَّه الحسين بن إسماعيل الجرجاني باسناده عن النبي (ص) ... و

في حديث احتجاج عبد اللَّه بن جعفر على معاوية قوله: يا معاوية اني سمعت رسول اللَّه (ص) يقول‏ على المنبر و أنا بين يديه و عمر بن أبي سلمة و أسامة بن زيد و سعد بن أبي وقاص و سلمان الفارسي و أبو ذر و المقداد و الزبير بن العوام و هو يقول: الست اولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ فقلنا: بلى يا رسول اللَّه؟ قال: أ ليس أزواجي أمهاتكم؟ قلنا: بلى يا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 129

«ولاء كولائي» «1»

«من كان اللَّه و أنا مولاه فهذا علي مولاه يأمركم و ينهاكم مالكم عليه من أمر و لا نهي» «2»

و لقد صدق هذه الأولوية المعنية من المولى هنا صراحا جمع كثير منهم أربعة عشر من الأعلام‏ «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

رسول اللَّه؟ قال: من كنت مولاه فعلي مولاه أولى به من نفسه و ضرب بيده على منكب على فقال: اللهم وال من والاه و عاد من عاداه أيها الناس انا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ليس لهم معي امر و علي من بعدي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ليس لهم معه امر ..

(1). و

في احتجاج امير المؤمنين (ع) أيام عثمان كما أخرجه شيخ الإسلام الحمويني قوله: ثم خطب رسول اللَّه (ص) فقال: أيها الناس أ تعلمون ان اللَّه عزّ و جلّ مولاي و أنا مولى المؤمنين و أنا اولى بهم من أنفسهم؟ قالوا: بلى يا رسول اللَّه (ص) قال: قم يا علي فقمت فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه .. فقال سلمان يا رسول اللَّه ولاء كماذا؟ قال: ولاء كولائي من كنت أولى به من نفسه فعلي أولى به من نفسه و

هكذا في مناشدته (ع) يوم صفين‏

«ولاء كولائي»

و

روى الحافظ العاصمي في زين الفتى قال‏ سئل علي (ع) عن قول النبي (ص) «من كنت مولاه فعلي مولاه» فقال: نصبني علما إذ أنا قمت فمن خالفني فهو ضال.

(2) و

روى السيد الهمداني في مودة القربى: فقال رسول اللَّه (ص) معاشر الناس أ ليس اللَّه أولى بي من نفسي يأمرني و ينهاني مالي على اللَّه أمر و لا نهي؟ قالوا: بلى يا رسول اللَّه؟

قال: من كان اللَّه و أنا مولاه فهذا علي مولاه يأمركم و ينهاكم ما لكم عليه من امر و لا نهي ..

(3) هم: 1-

ابن زولاق الحسن بن ابراهيم ابو محمد المصري (387) في تاريخ مصر ان رسول اللَّه (ص) عهد الى امير المؤمنين علي بن أبي طالب فيه و استخلفه‏ «و حكاه عنه المقريزي في الخطط 3: 222.

2- الامام أبو الحسن الواحدي (468) بعد ذكر حديث الغدير 3- حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (505) في سر العالمين بعد ذكر الخلاف في معنى المولى ... لكن أسفرت الحجة وجهها و اجمع الجماهير على متن الحديث من خطبته يوم الغدير باتفاق الجميع و هو

يقول‏ «من كنت مولاه فعلي مولاه»

فقال عمر: بخ بخ يا أبا الحسن؟ لقد أصبحت مولاي و مولى كل مؤمن و مؤمنة، فهذا تسليم و رضى و تحكيم، ثم بعد هذا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 130

تتويج الأمير يوم الغدير بتاج إمرة المؤمنين:

من ألقاب الرسول (ص) «صاحب التاج» و هو تاج الرسالة الكبرى بين كافة المرسلين و كما في «نبوءت هيّلد» باللغة الأنقلوسية و هي العبرانية الرمزية «محمد كآيا إعا بايا د يطمع هو يا ويهي كليليا»: محمد هو كبير

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

غلب الهوى لحب الرياسة و حمل عمود الخلافة و عقود البنود و خفقان الهوى في قعقعة الرايات و اشتباك ازدهام الخيول و فتح الأمصار سقاهم كأس الهوى فعادوا الى الخلاف الأول فنبذوه وراء ظهورهم و اشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون» 4- قال شمس الدين سبط ابن الجوزي (654) و المراد من الحديث الطاعة المحضة و هو الأولى و معناه: من كنت أولى به من نفسه فعلي اولى به و قد صرح بهذا المعنى الحافظ يحيى بن سعد الثقفي في مرج البحرين 5- و قال كمال الدين ابن طلحة الشافعي (654) في مطالب السئول ص 16 ... و هذا صريح في تخصيصه لعلي (ع) بهذه المنقبة العلمية و جعل لغيره كنفسه بالنسبة الى من دخلت عليهم كلمة «من» التي هي للعموم بما لا يجعله لغيره و ليعلم أن هذا الحديث هو من اسرار قوله تعالى في آية المباهلة .. و المراد نفس علي 6- و قال صدر الحفاظ الكنجي في كفاية الطالب حديث غدير خم دليل على التولية و هي الاستخلاف 7- و قال سعيد الدين الفرغاني ... كان هذا البيان بالتأويل بالعلم الحاصل بالوصية من جملة الفضائل التي لا تحصى خصه بها رسول اللَّه (ص) 8- و قال علاء الدين أبو المكارم السمعاني (736) في العروة الوثقى: ... فصار- علي (ع)- سيد الأولياء و كان قلبه على قلب محمد (ص) 9- و قال الطيبي حسن بن محمد (743) في الكاشف ... و لذا هنأ عمر بقوله: يا بن أبي طالب أصبحت و أمسيت مولى كل مؤمن و مؤمنة 10- و قال شهاب الدين دولت أبادي (1049) في هداية السدراء مثله 11- ابو شكور السالمي 12- ابن باكثير المكي 13- السيد الأمير محمد اليمني (1182) 14- الشيخ احمد العجيلي في ذخيرة المآل.

أقول: كل هذه المسانيد نقلناها عن كتاب الغدير للمغفور له العلامة الأميني ج 1 بكامله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 131

قدير، الشجرة الرفيعة الطيبة، مأمول لإفناء ما كان و إطفاء النائرة و هو الكل و التاج‏ «1».

لذلك، و أن العمائم تيجان العرب‏ «2»، لقد عمم الرسول (ص) الأمير (ع) يوم الغدير بعمة خاصة تعرب عن العظمة و الجلال، و توجّه بيده الكريمة بعمامته (السحاب) في ذلك الحشد العظيم تدليلا على أن المتوّج بها يومذاك مقيّض بإمرة المؤمنين كإمرته (ص) فهو يبلغ المسلمين بخطبته تلك الهامة و يتوجه بمثل عمته تلك السحاب، و كما

قال (ع): عمني رسول اللّه (ص) يوم غدير خم بعمامة فسد لها خلفي، و أن اللّه أمدني يوم بدر و حنين بملائكة يعتمون هذه العمة» «3» و لمّا عمّمه (ص) قال له:

يا علي العمائم تيجان العرب‏ «4».

أجل، فقد عممه (ع) عمّته السحاب حيث وهبها لعلي (ع) فربما طلع علي فيها فيقول (ص): «أتاكم علي في السحاب» «5».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ذلك وحي الطفل لحمان حطوفاه نزل عليه قبل مبعث الرسول (ص) بسبعين سنة أوردناه في كتابنا رسول الإسلام في الكتب السماوية، وعده الشنبلجي في نور الأبصار 25 من ألقابه (ص).

(2) رواه القضاعي و الديلمي و صححه السيوطي في الجامع الصغير 3: 155 و أورده ابن الأثير في النهاية عنه (ص).

(3) رواه الحافظ عبد اللّه ابن أبي شيبة و أبو داود الطيالسي و ابن منيع البغوي و أبو بكر البيهقي في كنز العمال 8: 60 عنه (ع) و رواه من طريق السيوطي عن الاعلام الأربعة السيد احمد القشاشي في السمط المجيد و

في كنز العمال عن مسند عبد اللّه بن الشنحير عن عبد الرحمن بن عدي البحراني عن أخيه عبد الأعلى‏ ان رسول اللّه (ص) دعا علي بن أبي طالب فعممه و أرخى عذبة العمامة من خلفه.

(4) رواه الحافظ الديلمي عن ابن عباس قال: لما عمم رسول اللّه (ص) عليا بالسحاب ..

(5) قال الغزالي في البحر الزخار 1: 215 كانت له عمامة تسمى السحاب فوهبها ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 132

و هكذا يتوجه الرسول (ص) بتاجه السحاب ليسحب أمته من بعده إليه كما كانوا مسحوبين اليه (ص) تكملة لبيان الخلافة الكبرى بعده فلا يرتاب احد إلّا الذين هم حاقدون فاقدون للإيمان.

فتلك مصارح للأولوية الطليقة في إمرة المؤمنين لعلي أمير المؤمنين (ع) في مسارح من خطبة الغدير و هذا تاج الإمرة في ختامها، و هاتيك القرائن العشرون أو تزيد متصلة و منفصلة، كتابا و سنة في عناية الأولوية من المولى، و رواة الغدير المائة و عشرة عن الرسول (ص)، و المؤلفون حولها الستة و العشرون و التابعون الأربعة و ثمانون، و العلماء طيلة القرون الاسلامية الراوون إياه عن الصحابة و التابعين الثلاثمائة و الستون، و المصدقون لقاطع تواتره الثلاثة و الأربعون، و المناشدون به من علي و فاطمة و الحسنان عليهم السلام و معهم كثيرون، و المهنئون بإمرته (ع) و منهم الشيخان و كثير سواهما!.

ذلك و قد أورد قصة الغدير كل المؤرخين عن بكرتهم، و من كبراءهم خمسة و عشرون مؤرخا «1».

تلك قصة الغدير، فهل ترى أصرح منها في تأمير الأمير، فما لها من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و

قال الحلبي في السيرة 3: 369 كان له (ص) عمامة تسمى السحاب كساها علي بن أبي طالب كرم اللّه وجهه فكان ربما طلع عليه علي كرم اللّه وجهه فيقول (ص): أتاكم علي في السحاب يعني عمامته التي وهبها له.

(1). كالبلاذري و ابن قتيبة و الطبري و ابن زولاق و الخطيب البغدادي و ابن عبد البر و الشهرستاني و ابن عساكر و ياقوت الحموي و ابن الأثير و ابن أبي الحديد و ابن خلكان و اليافعي و ابن الشيخ البلوي و ابن كثير و ابن خلدون و شمس الدين الدبسي و النويري و ابن حجر العسقلاني و ابن الصباغ و المقريزي و السيوطي و القرماني و نور الدين الحلبي و غيرهم (الغدير 1: 6).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 133

نكير إلّا نكير عقله أو إيمانه و لا ينبئك مثل خبير.

و لئن سئلنا: فلما ذا لم يجر ذكر الإمام علي (ع) في القرآن و لا مرة يتيمة حين يكون أمر إمرته بهذه الأهمية الكبرى؟.

فالجواب أن القصد من ذكر الاسم ليس إلّا تسجيل المكانة لصاحبه و قد سجل هكذا، و قد يتطرق إلى صراح الاسم تأويلات أن يسمى سواه باسمه، و لكنه ليس من الممكن أن يتسمى بسمته و ولده المعصومين سواه و سواهم، حيث الحقيقة لا تقبل التأويل و الاختلاق مهما تحمّلها الأسماء.

فحتى إذا كانت صراحة الاسم لحد لا يقبل أي تأويل، فقد كان يخلق هزازات و نكرانات للأكثرية الطليقة من هؤلاء المسلمين و النتيجة هي الحكم بخروجهم عن الإسلام جهارا بذلك الإنكار لجلي النص من القرآن، فترجع المشكلة الشائكة التي كان يخافها الرسول (ص) على رسالته من ذلك البلاغ فالجمع بين الحفاظ على ظاهر الإسلام لكل من يدعيه، و واقع الحجة البالغة لمن يريد صالح الإيمان، فحق العقاب على ناكريها مهما تظاهر بالإيمان و تمجمج في دلالة آيات الولاية و أحاديثها.

ذلك الجمع يقتضي نفس الواقع الذي نعيشه بين الكتاب و السنة من قصة الخلافة.

و ترى- بعد- أن عدم التصريح باسم ولاة الأمر بعد الرسول (ص) ينقص أو ينتقض من دلالة الكنايات الكتابية التي هي أبلغ من التصريح، و من التصريحات الوفيرة في السنة و هناك كثير من الأحكام الثابتة بالسنة القطعية و لا دليل لها من الكتاب إلّا عمومات أو إطلاقات.

و لما يصدق الخليفة عمر في صراح القول ولاية الإمام بأولويته الطليقة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 134

فما بال أتباع له ينكرونها و يتشككون فيها، و من ألفاظه، لما قيل له:

إنك تصنع بعلي- أي من التعظيم- شيئا لا تصنع مع أحد من أصحاب النبي (ص)؟ فقال: إنه مولاي‏ «1».

و ختاما للكلام حول آية التبليغ تعالوا معنا نسمع الامام (ع) ما ذا يقول عن رباطه بالرسول (ص) ما يثبت جدارته القمة بإمرة المؤمنين:

«أنا وضعت في الصغر بكلاكل العرب، و كسرت نواجم قرون ربيعة و مضر، و قد علمتم موضعي من رسول اللّه (ص) بالقرابة القريبة و المنزلة الخصيصة، وضعني في حجره و أنا وليد، يضمني إلى صدره، و يكنفني في فراشه، و يمسّني جسده، و يشمني عرفه، و كان يمضغ الشي‏ء ثم يلقمنيه، و ما وجد لي كذبة في قول و لا خطلة في فعل.

و لقد قرن اللّه به (ص) من لدن أن كان فطيما أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، و محاسن أخلاق العالم ليله و نهاره، و لقد كنت أتبعه إتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). أخرجه الطبراني، و في الفتوحات الإسلامية 3: 307 حكم عليّ مرة على أعرابي بحكم فلم يرض بحكمه فتلببه عمر بن الخطاب و قال له: ويلك انه مولاك و مولى كل مؤمن و مؤمنة،

و أخرج الحافظ ابن السمان كما في الرياض النضرة 3: 170 و في ذخائر العقبى للمحب الطبري 68 و وسيلة المآل للشيخ احمد بن باكثير المكي و مناقب الخوارزمي 97 و الصواعق 107 عن الحافظ الدار قطني عن عمر و قد جاءه أعرابيان يختصمان فقال لعلي (ع) اقض بينهما، فقال أحدهما: هذا يقضي بيننا؟ فوثب اليه عمر و أخذ بتلبيبه و قال: ويحك ما تدري من هذا؟ هذا مولاي و مولى كل مؤمن و من لم يكن مولاه فليس بمؤمن، و عنه و قد نازعه رجل في مسألة فقال: بيني و بينك هذا الجالس- و أشار إلى علي بن أبي طالب (ع)- فقال الرجل: هذا الأبطن؟ فنهض عمر عن مجلسه و أخذ بتلبيبه حتى شاله من الأرض ثم قال: أ تدري من صغرت؟ هذا مولاي و مولى كل مسلم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 135

علما و يأمرني بالاقتداء به، و لقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه و لا يراه غيري، و لم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول اللّه (ص) و خديجة و أنا ثالثهما، أرى نور الوحي و الرسالة و أشم ريح النبوة.

و لقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه (ص) فقلت يا رسول اللّه (ص) ما هذه الرنّة؟ فقال: هذا الشيطان قد أيس من عبادته، إنك تسمع ما أسمع و ترى ما أرى إلّا أنك لست بنبيّ و لكنك وزير، و انك لعلى خير» «1».

«كنت أيام رسول اللّه (ص) كجزء من رسول اللّه (ص) ينظر إلي الناس كما ينظر إلى الكواكب في أفق السماء، ثم غضّ الدهر مني فقرن بي فلان و فلان، ثم قرنت بخمسة أفضلهم عثمان فقلت وا ذفراه، ثم لم يرض الدهر لي بذلك حتى ارذلني فجعلني نظيرا لابن هند و ابن النابغة، لقد استنت الفصال حتى القرعى» «2».

«أما و اللّه لقد تقمصها ابن أبي قحافة و إنه ليعلم أن محلّي منها محل القطب من الرحى، ينحدر عني السيل و لا يرقى إليّ الطير ... فرأيت ان الصبر على هاتا أحجى، فصبرت و في العين قذى و في الحلق شجى، أرى تراثي نهبا .. حتى إذا مضى الأول لسبيله جعلها في جماعة زعم أني أحدهم، فيا للّه و للشورى، متى اعترض الريب فيّ مع الأول منهم حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر» «3».

«فو اللّه ما زلت مدفوعا عن حقي، مستأثرا عليّ، منذ قبض اللّه نبيه (ص) حتى يوم الناس هذا» (الخطبة 6/ 49).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة الخطبة 190/ 4/ 373.

(2) شرح النهج لأبن أبي الحديد 733.

(3) خطبة الشقشقية 4/ 47.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 136

«لقد علمتم أني أحق الناس بها من غيري، و و الله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين، و لم يكن فيها جور إلا علي خاصة، التماسا لأجر ذلك و فضله، و زهدا فيما تنافستموه من زخرفه و زبرجه» (72/ 129).

«فو الله إني لأولى الناس بالناس، لم تكن بيعتكم إياي فلتة، و ليس أمري و أمركم واحدا، إني أريدكم لله و أنتم تريدونني لأنفسكم» (134/ 247).

«اللهم إني أستعديك على قريش و من أعانهم، فإنهم قد قطعوا رحمي، و أكفؤوا إنائي، و أجمعوا على منازعتي حقا كنت أولى به من غيري ..» (215/ 413)- «فلما مضى (ص) تنازع المسلمون الأمر من بعده، فو اللّه ما كان يلقى في روعي، و لا يخطر ببالي، أن العرب تزعج هذا الأمر من بعده (ص) عن أهل بيته، و لا أنهم منحوه عني من بعده، فما راعني إلّا انثيال الناس على فلان يبايعونه، فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد (ص) فخشيت إن لم أنصر الإسلام و أهله أن أرى فيه ثلما أو هدما تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم التي إنما هي متاع أيام قلائل، يزول منها ما كان كما يزول السراب، أو كما يتقشّع السحاب، فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل، فإن أعطيناه و إلّا ركبنا أعجاز الإبل و إن طال السرى» (21 ح/ 568).

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لَسْتُمْ عَلى‏ شَيْ‏ءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَ كُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (68):

إن احتفاف آية التبليغ بآيتي التنديد بأهل الكتاب احتفاف قاصد يعني فيما يعنيه أن شريعة القرآن خالدة بما بلغ الرسول (ص) كأصل في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 137

استمرارية الدعوة القرآنية بدعاتها الربانيين، فلييأس أهل الكتاب- و معهم أضرابهم- من هذا الدين المتين أن يزول أو يذبل، فعليهم إقام التوراة و الإنجيل و ما أنزل إليهم من ربهم حتى يظلوا تحت ظل الإسلام ليكونوا على شي‏ء من المكنة و المكانة الحيوية، «وَ لَيَزِيدَنَ‏ ... فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ».

و هكذا يرسم اللّه للداعية الواعية المحمدية بهذه التوجيهات منهج الدعوة و منهاجها، اطلاعا له على حكمة اللّه و تسلية لقلبه عما يصيب الكافرين، و أنه لن يصيب منهم هذا الدين المتين أية إصابة، و لقد نزلت هذه الآية دبر حوادث و كوارث منها ما حاجّ به أهل الكتاب الرسول الأقدس (ص) فحاجهم اللّه‏ «1».

و هنا «لَسْتُمْ عَلى‏ شَيْ‏ءٍ» تذرو الإيمان بالكتاب دون إقامته في الحياة ذرو الرياح، فالإيمان دون إقامته هو صورة للإيمان و ليس سيرة له، فإن قضية صادق الإيمان إقامته، فقد أمروا أن يأخذوا الكتاب بقوة: «خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (2: 63) «فَخُذْها بِقُوَّةٍ وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها» (7: 145) و كما «يا يَحْيى‏ خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ» (19: 12) و هكذا بأحرى‏ «إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا» (: 5) و «لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى‏ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ» (59: 21).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 299- اخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال‏ جاء رافع بن حارثة و سلام بن مشكم و مالك بن الصيف و رافع بن حرملة قالوا: يا محمد أ لست تزعم أنك على ملة ابراهيم و دينه و تؤمن بما عندنا من التوراة و تشهد أنها من حق اللّه؟ فقال النبي (ص) بلى و لكنكم حدثتم و جحدتم ما فيها مما أخذ عليكم من الميثاق و كتمتم منها ما أمرتم أن تبينوا للناس فبرئت من أحداثكم، قالوا: فانا نأخذ مما في أيدينا فإنا على الهدى و الحق و لا نؤمن بك و لا نتبعك فأنزل اللّه‏ «قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 138

فإقامة الدين هي المهمة المأمور بها، دون الإعتقاد الجاف به و كما «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى‏ وَ عِيسى‏ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ» (42: 13) فكما أن غير المؤمن بأسره ليس على شي‏ء، كذلك المؤمن غير المقيم إيمانه ليس على شي‏ء.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ الصَّابِئُونَ وَ النَّصارى‏ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (69):

هذه الآية و أضراب لها تمحور الإيمان و العمل الصالح للعاقبة الحسنى مهما كان المؤمن من‏ «الَّذِينَ آمَنُوا» المسلمين، أو «الَّذِينَ هادُوا وَ الصَّابِئُونَ وَ النَّصارى‏» فالمؤمنون منهم العاملون صالحا «فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» فعلى المسلم المتخلف أن يخاف و يحزن، و ليس على الكتابي و لا الصابئي الصالح أن يخاف و يحزن، حزنا على عاجله و خوفا عن آجله، حيث المحور الأصيل للنجاة هو سيرة الإيمان جانحة و جارحة، دون اسمه و صورته الفاضية عن أصله، بل هو الفائضة على الأعمال كما الأقوال و لقد مضى القول الفصل حول الآية على ضوء آية البقرة (62) و الحج (17) و هنا يبقى سؤال: كيف اختص «الصابئون» هنا بالرفع دون الأخريين، و قضية العطف على‏ «الَّذِينَ آمَنُوا» كما فيهما النصب؟

«الصابئون» هنا عطف على محل المعطوف عليه‏ «الَّذِينَ آمَنُوا» و علّه لعناية الاستقلال أنهم كما «الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ الصَّابِئُونَ وَ النَّصارى‏. مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» فلا دور- إذا- لما يقال: لا يصح العطف على اسم «إن» بالرفع قبل مضيّ الخبر، حيث القرآن هو محور الأدب و مرجع الأدباء، فإن خالفهم فهو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 139

الأصل دون قولة الأدباء، فكل أدب خالف القرآن من أي اديب، هو غير أديب.

ثم هذه الآية- و بعد تأصيل إقامة الكتاب- ترفض تأثير الأسماء، فإنما هو الإيمان و العمل الصالح من أيّ كان مسلما أو يهوديا أو صابئيا أو نصرانيا، و في ذكر «الصابئون» خلال الكتابيين الرسميين، و لا سيما بالرفع اللّامح إلى الاستقلال، ضربة قاسية قاضية على الأسماء الخاوية، تأصيلا لواقع الإيمان و عمل الصالحات.

ثم «من آمن ..» إضافة إلى طرد المنافقين عن دور النجاة تبين أن الإيمان الأصيل أيضا لا يكفي، و إنما الظاهر في عمل الصالحات، و لم يقل «منهم» لكي تشمل هذه الضابطة مع المذكورين هنا كل من يحمل هذه المواصفة.

لَقَدْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّما جاءَهُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى‏ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَ فَرِيقاً يَقْتُلُونَ (70):

«لَقَدْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ» و هو طليق الميثاق على الإيمان توحيدا: «وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ..» (2: 83)

و «لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ» (7: 169) و «خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ» (2: 63) فعامّة الميثاق و خاصته عليهم هي الميثاق في أصول الدين و فروعه التي يجمعها «وَ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ رُسُلًا» يحملون كل رسالات اللّه المأخوذ عليهم ميثاقها.

و لكنهم خالفوه إلى أهواءهم تبديلا لميثاق الهدى إلى ميثاق الهوى:

«كُلَّما جاءَهُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى‏ أَنْفُسُهُمْ» من رسالات اللّه و رسله‏ «فَرِيقاً كَذَّبُوا وَ فَرِيقاً يَقْتُلُونَ».

فالرسالة المرضية عندهم هي رسالة الهوى و ليست رسالة الهدى إذ لا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 140

يرضون من الرسالات إلّا ما تهواه أنفسهم، و حين يرونها تخالف أهواءهم بكثير أو قليل‏ «فَرِيقاً كَذَّبُوا» من رسل اللّه و يكذبون‏ «وَ فَرِيقاً يَقْتُلُونَ» كما قتلوا من ذي قبل.

فالتكذيب السابق هو المحور و يلحقه اللّاحق و كما القتل، و لا تعني «يقتلون» فقط حال الرسل الحاضرين معهم، بل و الاستقبال، رضي بذلك القتل، و قتلا لتلك الرسالات بتكذيبات و تحريفات و تجديفات.

وَ حَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَ صَمُّوا ثُمَّ تابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَ صَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ (71):

«و حسبوا» ذلك الحسبان الغالط الهابط الساقط- على تكذيبهم و قتلهم أنبياءهم- «أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ» و هما من أفتن الفتن في النشأتين، و بذلك الحسبان و أنهم أبناء اللّه و أحباءه فلا يعذبون «فعموا» عن إبصار الحق «و صموا» عن سماعه، و بذلك ابتعدوا عن روح اللّه و رحمته‏ «ثُمَّ تابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» ليتوبوا «ثُمَّ عَمُوا وَ صَمُّوا» تكرارا و إصرارا «كَثِيرٌ مِنْهُمْ» فلم تك تنفع توبة اللّه عليهم إلّا لقليل منهم‏ «وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ» من طالح و صالح إذ لا تخفى عليه خافية.

هذا، و ذلك الحسبان الجاهل القاحل هو من أفتن الفتن و أعضل المحن‏ «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً» (18: 104) فالعارف بخسرانه و فتنته يرجى أن ينتبه، و لكن الحاسب فتنته رحمة و خسرانه نعمة ليس لينتبه.

و كان المرة الأولى من عماهم و صممهم هي قبل الرسالة الإسلامية، و من توبة اللّه عليهم ابتعاث محمد (ص) ليحيدوا عن باطل ما كانوا يحسبون، و المرة الثانية هي بعد ظهور الإسلام حيث عموا و صموا عنه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 141

«كَثِيرٌ مِنْهُمْ» و قليل هم مؤمنون برسالة الإسلام ذلك و من عماهم الأعمى و صممهم الأصم إفسادهم مرتين عالميتين كما شرحناهما في الأسرى و لأن «عموا و صمو» كما «حَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ» كل ذلك الثالوث من فعلهم تقصيرا دون قصور، و لم يكن من اللَّه إلّا أن‏ «تابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» فقد ذاقوا بما قصروا و بال أمرهم و ما ربك بظلّام للعبيد.

فقد نقضوا ميثاق اللَّه الذي واثقهم به بتكذيبهم و قتلهم أنبياء لهم، ثم حسبوا ألّا تكون فتنة، ثم عموا و صموا، ثم- بعد أن تاب اللَّه عليهم- عموا و صموا مرة ثانية.

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَ قالَ الْمَسِيحُ يا بَنِي إِسْرائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَأْواهُ النَّارُ وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ (72) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلَّا إِلهٌ واحِدٌ وَ إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (73):

هنا عرض لعقيدة- هي عقدة العقد- في اللّاهوت المسيحي‏ «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ» و «إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ»: الإله الأب و الروح القدس و الابن، بتأويل أنّ اللَّه تنزّل عن لاهوت الألوهية فتجسّد في رحم البتولة العذراء فتمثل بشرا سويا! فهو- إذا- اللَّه أم «مريم» بديلة عن «روح القدس» كما تدل عليه‏ «أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ».

ففي الحقول الكنسية اقتسمت الألوهية بين اللَّه و المسيح و أمه و روح القدس، و لكن الحظوة العليا في هذا البين للمسيح الذي لا يخلو دور الألوهية منه إلها أم ابنا للَّه أم أقنوما من الأقانيم الثلاثة مهما كان غير ابن،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 142

فهو إذا مثلث من الألوهية! و مريم و الروح و اللَّه لكلّ حظوة واحدة منها لا تبقى حيث انتقلت إلى المسيح!.

و هذه ترقية للسيد المسيح في قوسه الصعودي و تنزل للَّه في قوسه النزولي، فقد كان عبدا ثم تشرف بشرف البنوة التشريفية، ثم البنوة الصّلبية، ثم مشاركا في ذات الألوهية في ثالوثها، ثم إلها لم يبق بعد غيره إله، لا إله الأب و لا إله الأم و لا إله روح القدس.

فلكلّ من الفرق المسيحية المنحرفة واحدة من هذه المراحل اللّاهوتية للمسيح، و الأصل الأصيل- على أية حال- هو المسيح لا سواه.

و ذلك أنحس ما وصل اليه اللّاهوت العقائدي في المسيحية، بعد ما تقوّلوا: إن المسيح (ع) هو ابن اللَّه تشريفا دون حقيقة البنوة، ثم تخطّوا هذه القيلة إلى أن المسيح ابن اللَّه، جزء من كيانه كيفما كان تجزّءه، ثم مشاركا مع اللَّه في جوهر الألوهية، و إلى أن اللَّه تبدّل بكل كونه و كيانه إلى المسيح بظاهر الولادة المريمية!.

«إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى‏ مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلهٌ واحِدٌ سُبْحانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ كَفى‏ بِاللَّهِ وَكِيلًا» (4: 171) و هؤلاء هم المثلثون القائلون بالأقانيم الثلاثة.

ثم‏ «وَ إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ..» (5: 116) و أولئك هم الثنويون المريميون‏ «1».

ثم هاتان الآيتان (72- 73) هنا عرض لثالث ثلاثة من ثالوث عقائدهم اللّاهوتية هو توحيد المسيح (ع) في الألوهية، إذابة للإله الآب بتخلّ كامل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). القول الفصل حول التثليث و التثنية راجع إلى آيتهما في النساء و المائدة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 143

و تجاف شامل في رحم مريم العذراء، فتناسيا عنه فضلا عن مريم و روح القدس، و لذلك نراهم يقولون في شعارهم «إلهنا المسيح» معبّرين عن مريم عليها السلام ب «أم الإله و «أنه مولود غير مخلوق» مولود حيث برز بمظهر الناسوت بعد اللّاهوت، و غير مخلوق لأنه هو هو دون تعدد إلّا بالمظهر، فهناك لاهوت و هنا ناسوت‏ «1»!.

و نسمعهم يذكرون في ذكرياتهم و أذكارهم أنه «الإله المخلص المنجي المتجسد» و ذلك لا يخلوا عن محتملات تالية: أن اللَّه- سبحانه- تنزل بكل كونه و كيانه عن لاهوت الألوهية و التجرد إلى ناسوت الجسم تجافيا عن كينونته المجردة اللّامحدودة، حلولا في جسم المسيح؟ و ذلك مستحيل حيث المجرد لا يتبدل إلى نقيضه اللّامجرد! إلّا انمحاء عن وجوده فتكوّنا بالكيان المادي؟ فذلك فناء و هذا حدوث ينافيان ساحة الألوهية!.

أم حلولا لذاته المجردة اللّامحدودة في جسم المسيح المحدود؟ و هو جمع بين النقيضين: اللّامحدود و المحدود، اللّهم إلّا بتحول اللّامحدود إلى محدود فكذلك الأمر!.

فأصل التحول للَّه مستأصل عن ساحته فإنه قضية الحدوث، ثم تحوّله عن التجرد إلى المادة مستأصل أخرى لإستحالة تبدّل النقيض إلى نقيضه، اللّهم إلّا بفناءه ثم حدوث نقيضه مكانه و ليس هذا من التحول، و هو في نفسه مستحيل حيث الفناء في ساحة الألوهية مستحيل! ثم انتقاله على تجرده اللّامحدود إلى جسم المسيح و رحم مريم المحدودين ثالثة، ظلمات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 659 عن تفسير القمي عن أبي جعفر عليهما السلام‏ في قوله: اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أربابا من دون اللَّه و المسيح بن مريم، اما المسيح فعصوه و عظموه في أنفسهم حتى زعموا أنه إله و أنه ابن اللَّه و طائفة منهم قالوا: ثالث ثلاثة و طائفة منهم قالوا: هو اللَّه ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 144

بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها و من لم يجعل اللَّه له نورا فما له من نور.

أجل‏ «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ‏- أو- إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ» كفروا عن شرعة التوحيد الكتابية، و لا نجد في الأناجيل- على تحرّفها- نصا أو ظاهرا في ألوهية المسيح أو بنوته للَّه أو التثليث! كما فصلنا البحث حوله على ضوء الآية (171) من النساء.

و ليست خرافة ألوهية المسيح أو بنوته للَّه أو الثالوث إلّا من المختلقات الكنسية منذ صعود المسيح (ع) و قد ترسبت هذه المختلقات الزور إلى حدّ يعتبر سواها من التوحيد، أم و بنوة المسيح التشريفية من البدع‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). البدع، 1- 4 مذهب المونارخيانيةEMSINAIHCRANOM منذ نهاية القرن الأول قام مبتدعون متهودون: «قيرنتوس و الإبيونيون»- على حد تعبير مذهب الثالوث- يدعون الى التوحيد المشدد و الأقنوم الواحد- الإله الواحد-! فأنكروا ألوهية المسيح:

(القديس ايريناوس في كتابه ضد المبتدعين 1- 26) و في نهاية القرن الثاني قامت البدعة: المورناخيانية- تعلم: أنه ليس في اللَّه إلّا أقنوم واحد: (ترتليانوس في كتابه ضد بركسياس: 3) و هذه البدعة تقسم تبعا لموقفها من شخص المسيح إلى فرعين:

1- المونارخيانية الديناميكية أو المتبنية، تعلم: أن المسيح إنسان عادي بسيط و له بطريقة فائقة الطبيعة من الروح القدس و من مريم العذراء و قد هباه اللَّه يوم اعتماده و بنوع خاص: القوة الإلهية و تبناه- تشريفيا-.

و أهم القائلين بهذه البدعة «تادوتس» الدباغ البزنطي، الذي ادخل تعاليمه روما حوالي سنة 190 ففصله عن الكنيسة البابا القديس فكتور الأول (189- 198) بولس السميصاني مطران انطاكيا الذي حكم عليه كمبتدع خلعه مجمع انطاكيا المنعقد سنة 268 و فوتينوس اسقف سرميوم الذي خلعه مجمع انعقد في سرميوم سنة 351.

2- مذهب عدم المساوات‏EMSI NOITANIDROBUS يسلم هذا المذهب على خلاف سابقه بثلاثة أقانيم إلّا أنه ينكر على الأقنوم الثاني و الأقنوم الثالث مساواتهما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 145

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

للأب بالجوهر و بالتالي بالألوهية الحقة.

3- الذهب الآريوسي: نسبة الى الكاهن الاسكندري آريوس (336) الذي كان يعلم بأن الكلمة (SOGOL( ليس من الأزل و لم يولد من الآب بل هو خليفة الآب خرج من العدم قبل سائر الخلائق كلها، فهو ليس مساويا للأب في جوهره، و منها نعتوا ب «الأنوميين» بل هو خاضع للتغير و قابل للتطور و ليس هو اللَّه بالمعنى الخاص الحقيقي، بل بالمعنى النسبي فقط إذ تبناه بسابق نظره إلى استحقاقه، و قد حرّمت هذه البدعة في المجمع النيقاوي المسكوني الأول (325) الذي وضع قانونا للايمان يعترف فيه: بأن يسوع المسيح هو ابن اللَّه المولود من جوهر الآب، و بالتالي يعلن حقيقة ألوهته و مساواته للأب في الجوهر (5450).

4- المذهب المكدونياني: نشأ من الآريوسية المعتدلة فرع لها هو شيعة (بنفما توماك، أي: اعداء الروح القدس) التي ينسبونها منذ أواخر القرن الرابع، و ربما عن خطأ- الى مكدونيوس: اسقف القسطنطنية الآريوسي المعتدل (عزل عام 360 و توفي قبل 364) و هذه البدعة أطلقت مذهب عدم المساوات على الروح القدس أيضا- معلنة إياه بالاستناد الى عبرانيين 1: 14 خليقة و روحا للخدمة- كالملائكة- و قد قام ضد دعاة هذه البدعة القديس اثناسيوس و الكبادوقيون الثلاثة ... فدافعوا عن الوهية الروح القدس و عن وحدة جوهره مع الآب و الابن، و قد حرمت هذه البدعة في مجمع عقد في الاسكندرية (362) برئاسة القديس اثناسيوس و في مجمع القسطنطنية المسكوني الثاني (381) و في مجمع عقد في روما (382) برئاسة البابا القديس داماسيوس (7450- 82) و قد أضاف مجمع القسطنطنية إلى قانون نيقية فقرة خطيرة يعلن فيها الوهة الروح القدس إعلانا هو على الأقل غير مباشر و ينسب إليه الصفات الإلهية «نؤمن ... بالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب الذي هو مع الآب و الأبن- يسجد له و يمجد، الناطق بالأنبياء».

5- البروتستانية: طعن لوثر في الاصطلاحات التي نعبر بها عن التثليث، إلّا أنه حافظ على الايمان بالثالوث و مع ذلك فان مبدء الحكم الشخصي الذي نادى به ادّى أخيرا إلى إنكار عقيدة الثالوث.

إن مذهب السوسينية بالنسبة إلى فوستوس سوزّيني قد اعتنق عن اللَّه فكرة التوحيد إلى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 146

و الذي دسّ في الكنائس هذه الخرافة الجارفة هو الخصي الكوسج المصري خادم الرهبان «أوريفين» «1» إلى أن تشكلت مجمع نيقية (325 م) إذ جاءت من الجماعات الروحية المسيحية من شتى الأقطار من يزيد على ألف مبعوث لانتخاب الأناجيل التي يجب أن تعتبر قانونية، و لقد كان (318) شخصا من هؤلاء من القائلين بألوهية المسيح، و قد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أقصى حد، بحيث لا تسمح باقانيم إلهية، و قد نظر الى المسيح على أنه إنسان محض والى الروح القدس على انه قوة إلهية لا شخصية».

6- أما علم اللاهوت و الراسيونالي المعاصر: فانه كثيرا مّا يحافظ على الاصطلاحات و التعابير الثالوثية التقليدية، إلّا أنه لا يرى في الأقانيم الثلاثة سوى تشخيص لصفات إلهية، كالقدرة و الحكمة و الجودة، و يرى (هرنك): ان الايمان المسيحي في الثالوث ليس إلّا وليد الجدل الذي قام بين المسيحية و اليهودية فكان أن اكتفوا أولا بعبارة: «اللَّهِ وَ الْمَسِيحَ» ردا على عبارة «الله و موسى» ثم أضافوا إليها فيما بعد «الروح القدس» تقنين الثالوث الكنسي:

إن اقدم صيغة تعليمية رسمية لايمان الكنيسة بشأن الثالوث الأقدس هي قانون الرسل الذي اتخذته الكنيسة منذ القرن الثاني في شكل قانون العماد الروماني القديم كأساس لتعليم الموعوظين و لاعتراف الايمان في حفلة العماد عند اللاتين.

ثم ... قانون نيقية القسطنطنية (381 م) و قد نشأ ضد مذهبي آريوس و مقدونيوس، ثم المجمع الروماني برئاسة البابا القديس داماسيوس (382) يدين بصورة اجمالية أضاليل القرون الأولى في الثالوث الأقدس، ثم إلى القرن 5 و 6 قانون اثناسيوس، ثم قانون مجمع طليطلة الحادي عشر (765 م) ثم في القرون الوسطى قانون مجمع اللاتراني الرابع (1215 م) ثم مجمع فلورنس (11441 م) ثم في العصر الحديث تعليم لبيوس السادس (1794 م) ...

(كل هذه منقولات عن كتاب مختصر في علم اللاهوت العقائدي تأليف لوديغ اوث الألماني نقله الى العربية الأب جرجس المارديني ج 1: 73 تحت عنوان: البدع المضادة للتثليث و تحديدات الكنيسة التعليمية).

(1). هو راهب اعزب عارف باللغات عاش في القرن الثاني.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 147

اجتهد آريوس رئيس الموحدين بالبرهنة على أن المسيح مخلوق و أنه عبد اللَّه مستدلا بما لديه من الآيات الإنجيلية و بتفاسير الأعزة و الآباء من إيقليسيا، و اعترف بهذه الحقيقة الثلثان الباقيان من الألف (أعضاء المجمع) و هم الموحدون الذين كانت تتألف منهم الأكثرية العظيمة من أعضاء المجمع النيقاوي.

و من ناحية أخرى قام رؤساء الثالوثيين (و على رأسهم اثنا سيوس) للبرهنة على: أن المسيح إله تام و أنه متحد الجوهر مع اللَّه، و أخيرا ترجّح رأى المثلثين لا لشي‏ء إلّا للسلطة الجبارة آنذاك من قسطنطين (قونسطنطينوس) تحت ستار إيجاد الأمن بين المتخالفين، و أن قسطنطين يرجح رأي صديقه البابا كاهن رومية الأعظم و هو من الأقلية الثالوثية في نيقية، و يأمر بإخراج أكثر من سبعمائة من الرؤساء الروحيين الباقين:

الموحدين- من المجمع، و يقتل آريوس رئيس الموحدين لكي يصفّي جو المجمع (318) الباقين المثلثين.

و لقد صرح المسيح (ع) بهذا الحادث الجلل العظيم تنديدا بالمثلثين و تمجيدا للموحدين بقوله: «سيخرجونكم من المجامع، بل تأتي ساعة فيها يظن كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله و سيفعلون بكم لأنهم لم يعرفوا الآب و لا عرفوني» (إنجيل يوحنا 16: 3- 3 و 13: 9).

و الآب لغة يونانية بمعنى الخالق و هم حرّفوها معنويا إلى الأب:

الوالد.

ذلك، فالنصرانية الموجودة الآن إن هي إلّا من سلطان و ثني ملحد و خصي كوسج مصري!.

«وَ قالَ الْمَسِيحُ يا بَنِي إِسْرائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ ..» و كما في الإنجيل حيث يصرح المسيح (ع) في ثمانين موضعا أنه عبد اللَّه و رسوله و منه «إن الحياة الأبدية معرفة اللَّه بالوحدانية و أن المسيح رسوله» (يوحنا 17: 3) و «أوّل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 148

الأحكام أن نعرف أن إلهنا واحد» (مرقس 12: 29) و قد قال له الكاتب:

«لقد قلت حسنا إن اللَّه إله واحد و ليس غيره من إله و لما رآه المسيح عاقلا في جوابه و كلامه خاطبه قائلا: لست بعيدا عن ملكوت اللَّه» (مرقس 12: 32 و 34).

«ثم و يندد ببطرس إذ قال له حاشاك يا رب! فالتفت إليه و قال: اذهب عني يا شيطان أنت معثرة لي لأنك لا تهتم بما للَّه و لكن بما للناس» (متى 16: 22- 23).

و هكذا نرى الوفير من تصاريح برنابا في إنجيله الذي أملاه عليه المسيح (ع) يصرح بخالص التوحيد الحق و لا ينبئك مثل خبير «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ففيه 70: 1- 7: «و انصرف يسوع من أروشليم بعد الفصح و دخل حدود قيصرية فيلبس، فسأل تلاميذه بعد أن أنذره الملاك جبرائيل بالشغب الذي نجم بين العامة قائلا: ماذا يقول الناس عني؟! أجابوا: يقول البعض انك إيليا و آخرون ارميا احد الأنبياء، أجاب يسوع: و ما قولكم أنتم فيّ؟ أجاب بطرس: إنك المسيح ابن اللَّه.

فغضب حينئذ يسوع و انتهره بغضب قائلا: اذهب و انصرف عني لأنك أنت الشيطان و تحاول ان تسي‏ء إليّ، ثم هدد الأحد عشر قائلا: ويل لكم إذا صدقتم هذا لأني ظفرت بلعنة كبيرة من اللَّه على كل من يصدق هذا .. فبكى بطرس و قال: يا سيد لقد تكلمت بغباوة فأضرع إلى اللَّه ان يغفر لي، و في برنابا 8: 11: «و أراد المسيح أن يخرج بطرس فشفع له التلاميذ ثم هدده ثانيا ألا يكرر مقالته الكافرة هذه».

هذا و قد يصر علماء الإنجيل بموقف بطرس الخاطئ كالتالي: يقول مستر «فلك» و الدكتور «كود» و «برنستس» و هو الملقب بالمرشد الفاضل في لسان جويل: ان بطرس رئيس الحواريين غالط في ما كتبه و جاهل بالإنجيل و قد ضل عن الايمان الصحيح بالمسيح بعد نزول روح القدس، و يصرح «جان كالوين» ان بطرس ابتدع في الكنيسة بدعا جارفة و أضاف المسيحية بها و استلب منها حريتها و جعل التوفيق المسيحي تحت رجليه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 149

و هنا «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ» دون «إن المسيح هو الله» عبارة قاصدة لمعنى خاص هو أن اللَّه الذي لا إله إلّا هو هو المسيح حيث تحوّل عن لاهوته إلى ناسوت المسيح فلم يبق هناك إله إلّا المسيح، و أما «أن المسيح هو الله» ففيه قوس صعودي أنه تحول عن ناسوته إلى لاهوت اللَّه و هم لا يقولون به، إنما قولهم هنا هو القوس النزولي: إن اللَّه تحول إلى المسيح!.

و هنا في تعريف المسيح ب «ابن مريم» تنديد شديد بهذه القولة الهاتكة الفاتكة أن كيف بالإمكان كون اللَّه هو المسيح و هو كما يعلمون ابن مريم، فهل إن مريم هي أم اللَّه في تحويله إلى المسيح فلا إله- إذا- إلّا المسيح!.

و ما تأويلهم العليل الكليل أن المسيح هو اللَّه من جزء الروح و هو ابن مريم من جزء الجسم، إلّا تناقضا بينا في حلول المجرد اللّامحدود في الجسم المحدود.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

ذلك و قد سمى من ألّهه من المجانين «.... فلما عرفوه أخذوا يصرخون: مرحبا بك يا إلهنا! و أخذوا يسجدون له كما يسجدون للَّه. فتنفس الصعداء و قال: انصرفوا عني أيها المجانين لأني أخشى ان تفتح الأرض فاها و تبتلعني و إياكم لكلامكم الممقوت.

لذلك ارتاع الشعب و طفقوا يبكون» (برنابا 92: 19- 20) و يشهد على عبوديته الأرض و السماء قائلا: «اشهد امام السماء و اشهد كل شي‏ء على الأرض: اني بري‏ء من كل ما قد قلتم. لأني انسان مولود من امرأة فانية بشرية و عرضة لحكم اللَّه مكابد شقاء الأكل و المنام و شقاء البرد و الحر كسائر البشر لذلك متى جاء اللَّه ليدين يكون كلامي كحسام يخترق كل من يؤمن بأني أعظم من انسان» (برنابا 93: 10- 11 و 94: 1- 3).

و يعتبر من يدعوه إلها ضالا مستحقا للمقت قائلا: «إنكم قد ضللتم ضلالا عظيما أيها الاسرائيليون لأنكم دعوتموني إلهكم و أنا انسان و اني أخشى لهذا ان ينزل اللَّه بالمدينة المقدسة و باء شديدا مسلّما إياها لاستعباد الغرباء. لعن اللَّه الشيطان الذي اغراكم بهذا الف لعنة! (برنابا 92: 2- 4).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 150

و لمذهب الحلول هذا أبعاد شاسعة بين المشركين و الكتابيين و حتى من عرفاء المسلمين مهما اختلفوا بين قوسي الصعود و النزول، حلول اللَّه في بشر أم تحوّل بشر إلى اللَّه في وحدة الإثنين أو انمحاء غير اللَّه في اللَّه فيصبح بذلك إلها!!!.

و ذلك العرفان الخارف لا يقف لحدّ بين اللّاهوتيين المنجرفين إلى هوّات الأهواء البعيدة عن حق الوحي و الوحي الحق.

و أما أن «اللَّه ثالث ثلاثة» فقد تحتمل معنيين اثنين، أحدهما أن الأقانيم الثلاثة: الأب و الابن و روح القدس، هم ثلاثة و واحد و واحد هو ثلاثة، و الأقنوم الأصل هو اللَّه! و ثانيهما أنه عبارة أخرى ل «أن اللَّه هو المسيح» تجافيا للَّه عن لاهوته إلى ناسوت الابن، و تعاميا عن ألوهة الروح القدس.

ذلك، و في‏ «مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَأْواهُ النَّارُ وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ» تنديد شديد بمؤلّهي المسيح (ع) أنه لا يفيدهم الفداء الصليبي المزعوم و أنه باختيار الصلب، أو اختيار أبيه: اللَّه- له الصلب فدى بنفسه عمن يعتقد به و بألوهيته أو ثالوثه.

فحتى لو كان المسيح (ع) مدعيا ذلك الإشراك أو راضيا به لكان- و عوذا باللَّه- من أهل النار، فضلا عمن اختلقوا له منصب الألوهية و أنه بتفديته هذه ينجي المعتنقين أكذوبة الثالوث، عن النار.

ثم‏ «وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلَّا إِلهٌ واحِدٌ» تجتثّ مستغرقة الألوهية بكل شؤونها عن غير اللَّه، أقنوما ذاتيا أو صفاتيا أم سواه، فأيّة مماثلة مع اللَّه في أيّ من شؤون الألوهية و الربوبية تحمل ألوهة مّا هي بصورة مستغرقة مسلوبة عمن سوى اللَّه.

و هنا «مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَأْواهُ النَّارُ وَ ما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 151

لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ» تستغرق- في حرمان الجنة و إيواء النار خلودا أبديا ما دامت النار- كافة المشركين باللَّه، المسوين معه غيره ببنوة و تثليث و ألوهة.

ثم و «لا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ» عبارة ثالثة هي صيغة واضحة عن أقانيهم الثلاثة.

و حصيلة تقوّلاتهم اللّاهوتية في حقل الألوهية بعد البنوة التشريفية هي ألوهية الابن كما الروح القدس اعتبارا بأنها من جوهر الأب، واحد هو ثلاثة و ثلاثة هي واحد، ثم توحيد الألوهية للابن حيث حلّ فيه الآب فلا إله إلّا المسيح.

و من لوازم الأخير هو ألوهة مريم كما المسيح فإنها- إذا- والدة الإله، فلا دور بعد للإله الآب حيث تجافى عن كونه و كيانه انتقالا إلى رحم مريم إلى جسم المسيح.

و من تصريحاتهم أن «طبيعة اللَّه عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية: اللَّه الآب، و اللَّه الابن، و اللَّه الروح القدس، فإلى الآب ينتمي الخلق بواسطة الابن و إلى الابن الفداء، و إلى الروح القدس التطهير» «1».

و هكذا نجد الروحيين المسيحيين يحاولون تثبيت الثالوث بأي وجه كان، و حين يهاجم عليهم بالبراهين العقلية التي تحيل الثالوث يعتذرون بأنه فوق العقل كما أن ذات اللَّه فوق العقل، رغم أنه تحت العقل حيث تحيله، دون ذات اللَّه حيث يثبتها العقل، فالجمع بين كون شي‏ء ثلاثة و واحدا هو جمع بين نقضين و المحال محال على أية حال.

و لكي يحيدوا عن ظاهرة التناقض يلجئون إلى صيغة «توحيد الثالوث» تمثيلا له بالذات المقدسة عندنا الموصوفة بالأوصاف الثلاثة الذاتية، و أين ثلاثة من ثلاثة؟!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في كتاب قاموس الكتاب المقدس للدكتور بوست الامريكي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 152

فالصفات الذاتيات الثلاث عبارات عن ذات واحدة غير متجزئة، فليس في الواقع إلّا وحدة تجردية بسيطة دون أجزاء و صفات عارضة و لا ذاتية مركبة، و لكنهم يفسرون ثالوثهم بذوات ثلاث مفصلة عن بعضها البعض و لكنها متساوية الجوهر في وحدة حقة حقيقية «1»!.

ذلك، و إلى قول فصل سيأتي على ضوء آية الغلو حول خرافة الثالوث و ألوهة المسيح و بنوته عقليا و نقليا على ضوء قوله تعالى‏ «يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ..» حيث يشير إلى أنها خرافة وثنية عتيقة تسربت في النصارى ثم ترسبت فيهم، فهم ليسوا أصلاء في هذه الخرافة الجارفة، بل هم يقتفون آثار مختلف صنوف المشركين في تاريخ الإشراك.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هنا يقول الكاتب المسيحي المعاصر رئيس مطارنة بيروت الأستاذ الحداد في ص 44 من كتابه: القرآن و الكتاب: «ان توحيد التثليث من ارقى مراتب التوحيد و لم تكن البيئة البدائية في الحجاز لتقوى على استساغته لأنهم ما أوتوا من العلم إلّا قليلا! و النصرانية منذ كانت هي دين التوحيد مع قولها بعقيدة التثليث في الطبيعة الإلهية الواحدة فالتثليث المسيحي الصحيح لا يعدّد و لا يجزأ اللاهوت الواحد في اللَّه الأحد، فالنصرانية أولا و أخيرا تؤمن بإله واحد كما ينص عليه مطلع دستور إيمانها الذي هو شهادتها تحت كل سماء و من ثم فالإيمان في الوهية عيسى- لا في تأليه عيسى- و في تأنسه و تجسده لا يزيد شيئا و لا ينقص شيئا من طبيعة الخالق الواحدة، إذن فالعقيدتان المسيحيتان «التثليث و التجسد» لا تمتان إلى الشرك بصلة، إنهما من صميم التوحيد و تعتبرهما النصرانية القديمة في معناهما الصحيح تفسيرا منزلا لحياة الحي القيوم في ذاته السامية كما نزل به الإنجيل.

و هذا التعليم الكامل لم يكن الرسل و الحواريون يبشرون به لأول وهلة بل كانوا ينادون بالتوحيد الأركان الأولى لأقوال اللَّه في ديار الوثنية و الشرك و بعد توطيد الايمان كانوا يفسرون للمؤمنين غنى الطبيعة الإلهية في تفاعلها اللامحدود و تثلثها الذاتي اللامتناهي على قدر ما يمكن للعقل البشري المحدود أن يستوعب حياة الحي القيوم للامحدود.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 153

أَ فَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَهُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (74):

توبة إلى اللَّه مما يقولون على اللَّه من جارفة خارفة هارفة، و استغفارا إياه أن يستر عنهم هذه الانحرافات بمخلّفاتها «وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» للتائبين إليه المستغفرين إياه.

مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآياتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (75):

هنا «إلّا رسول» كما في غيره من الرسل يحصر كيان المسيح في رسالة اللَّه دون زائد و لا ناقص «و أمه صديقة»: هي كمال الصدق و تمامه قالا و حالا و أعمالا، و من الواقع الذي يثبت أنهما من البشر دون ألوهة و لا بنوة أم أمومة للَّه، أنهما «كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ» و أكل الطعام دليل الحاجة المستمرة، ثم الخارج منهما من حصيلة الطعام دليل آخر على بعدهما عن ساحة الألوهية

«من أكل الطعام كان له ثقل- ثفل- و من كان له ثقل فهو بعيد مما ادعته النصارى لابن مريم (ع)» «1»،

إذا فكيف يكون المسيح و أمه عليهما السلام إلهين من دون اللَّه كما يتساءل المسيح:

«أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ..» (5: 116).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 660 في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن امير المؤمنين (ع) حديث طويل يقول فيه: «و أما هفوات الأنبياء عليهم السلام و ما بينه اللَّه في كتابه فان ذلك من ادل الدلائل على حكمة اللَّه عزّ و جل الباهرة و قدرته القاهرة و عزته الظاهرة لأنه علم أن براهين الأنبياء عليهم السلام تكبر في صدور أممهم و ان منهم من يتخذ بعضهم إلها كالذي كان من النصارى في ابن مريم فذكر دلالة على تخلفهم عن الكمال الذي انفرد به عزّ و جلّ، الم تسمع إلى قوله في صفة عيسى حيث قال فيه و في امه عليهما السلام:

«كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ» يعني من أكل ....

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 154

و لأن أكل الطعام للمسيح و أمه واقعية لا تنكر كخصيصة ضرورية من خصائص الأحياء المخلوقين، تلبية لحاجة جسدية لا مرية فيها، فكيف يكون إلها من يحتاج إلى طعام ليعيش، و اللَّه حيّ بذاته و حيّ قبل أن يخلق طعاما و طاعما.

و هنا دور «وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ» دور التصديق لبشرية المسيح و رسالته حيث‏ «صَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها وَ كُتُبِهِ وَ كانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ» (66: 12).

و هكذا الرائع كما الشمس في رايعة النهار نبرهن لهم‏ «انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآياتِ» الدالة على كيان الألوهية و كيان المألوهين ككل‏ «ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ» و قد أفكهم الذين كفروا و هم‏ «يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ»؟!.

قُلْ أَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً وَ اللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (76):

حجة ثانية- بعد برهان الفقر و الحاجة للمسيح عليهما السلام- تحلق على كل المعبودين من دون اللَّه، ان كيف تعبدون من دون اللَّه ما لا يملك لكم ضرا و لا نفعا و لو ملك لنفسه نفعا أو دفع ضر لم يكن بحاجة إلى من سواه؟.

فمهما كان فيمن دون اللَّه نفع و دفع ضر، و لكن أحدا منهم لا يملك ضرا و لا نفعا بصورة مستقلة هي قضية طليق الملك لهما، حيث الملموس ليل نهار فسخ العزائم و نقض الهمم، فلا تجد أحدا بإمكانه تحقيق كل ما يريد من نفع لنفسه أو سواه، أم دفع ضر عن نفسه أو سواه، و هذا هو المعني من ملك الضر و النفع.

«ما لا يَمْلِكُ» لنفسه فضلا عن سواه‏ «ضَرًّا وَ لا نَفْعاً» فأي نفع في عبادته و طاعته؟ و الطاعة و العبادة المرسومة في الأكثرية الساحقة من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 155

العابدين اللَّه و سواه لا تعني إلّا دفع الضر و جلب النفع، فلتختص العبادة لمن يملكهما أن يضر و ينفع، فليعبد دفعا عن ضره و جلبا لنفعه في أية حلقة من حلقات الحياة.

إذا فعرض‏ «ضَرًّا وَ لا نَفْعاً» في معرض الحجاج لا يعني كل العابدين حيث المخلصون يعبدون اللَّه لأنه اللَّه لا خوفا من عذابه و لا طمعا في ثوابه، بل المعنيون هنا هم المشركون الذين يعبدون بغية دفع ضر أو جلب نفع.

و تقدم «ضرا» هنا على «نفعا» كذلك يعني الأكثرية من هؤلاء حيث يحاولون دفع الضر عن أنفسهم قبل جلب النفع.

و هنا التعبير ب «ما» دون «من» يعني اضافة إلى عناية التحليق على كل الكائنات عاقلة و سواها، ان العاقلة منها كغيرها هما على سواء في‏ «لا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً» لأن ملكهما يختص بمن يملك الكائنات كلها.

«قُلْ أَ تَعْبُدُونَ‏ ... وَ اللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» لكل ما يسمع و يعلم، سمعا للأقوال و الأدعية و علما بالأحوال و الأفعال بحيطة علمية على الكائنات، و حيطة القدرة على اجابة السئولات‏ «وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ. إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَ لا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ» (35: 14).

ذلك و اصل الثالوث: 1- ثلاثة هي واحد و واحد هو ثلاثة، باستحالته 2- و ان المسيح ابن مريم، فقد ولد بعد أن لم يكن فحادث، و مولود غير مخلوق هنا تناقض ثان 3- و ان صديقة حيث صدقت توحيد الألوهية و رسالة المسيح 4- و كانا يأكلان الطعام دلالة على الحاجة الى الطعام 5- و «لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً» و لو كانا إلهين لملكاهما لغيرهما كما لأنفسهما، هذه براهين خمسة لتزييف خرافة الثالوث و البنوة الإلهية فضلا عن توحيد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 156

الألوهية فيه بتجافي الإله عن لاهوته إلى ناسوت جسم المسيح (ع).

ذلك و حين يصدق النصارى ان المسيح (ع) كان أعبد أهل زمانه كما في تصاريح انجيلية، فهنا التساءل: من ذا الذي كان يعبده المسيح (ع) هل هو نفسه أنه كان يعبد نفسه، أم غيره فذلك الغير هو اللَّه فهو- إذا- عابد مألوه.

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَ لا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ أَضَلُّوا كَثِيراً وَ ضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ (77):

«يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَ لا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى‏ مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلهٌ واحِدٌ سُبْحانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ كَفى‏ بِاللَّهِ وَكِيلًا. لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَ لَا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَ مَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَ يَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً» (4: 172)- «وَ قالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَ قالَتِ النَّصارى‏ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ. اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً لا إِلهَ إِلَّا هُوَ سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ» (10: 30- 31).

و الغلو أيا كان هو تجاوز الحد المعتدل عقليا أو شرعيا أو عرفيا، تجاوزا إلى الإفراط كما هو المعني في الأغلب منه، أم إلى حد التفريط، و هو تخلف عن الحد صعودا عنه أم نزولا، و

قد يروى عن النبي (ص) أنه قال: «إياكم و الغلو في الدين فإنما أهلك- هلك- من كان قبلكم الغلو- بالغلو- في الدين» «1»

و

«صنفان من أمتي لا نصيب لهما في الإسلام‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ن مناسك 217- جد مناسك 63- حم 21521، 347.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 157

الغلاة و القدرية» «1»

و

«احذروا على شبابكم الغلاة لا يفسدوهم فإن الغلاة شر خلق الله يصغرون عظمة الله و يدعون الربوبية لعباد الله و ان الغلاة لشر من اليهود و النصارى و المجوس و الذين أشركوا» «2»

و

«إن فيهم من يكذب حتى ان الشيطان ليحتاج إلى كذبه» «3»

و

«لعن الله الغلاة و المفوضة فإنهم صغروا عصيان الله و كفروا به و أشركوا و ضلوا و أضلوا فرارا من إقامة الفرائض و أداء الحقوق» «4».

و لقد كثر الغالون على مدار الزمن الرسالي في أصول الدين و المذهب و فروعه، متنقبين نقاب الإخلاص و هم عنه في إفلاس، و هم أخطر على الحق من الكفار و المنافقين حيث يخوضون مختلف حقول الدين و يشوهونه بنقاب الدين.

فالقائل بالولاية التكوينية أو التشريعية لنبي أو وصي نبي فضلا عمن سواهما غال فإنهما من ميزات الربوبية، كما القائل بالتفويض فيهما فإنه من نفس النمط، و القائل بشفاعتهم الطليقة عن اذن اللَّه، و ان ولايتهم تغني عن سائر التكاليف مثل ما

يروى ان‏ «حب علي حسنة لا يضر معهما سيئة»

و ما أشبه من الغلو المورط في معاصي اللَّه و مآسي الأمور!.

و أحاديث التفويض مردودة أو مأولة،

«ما فوض إلى رسول اللَّه (ص) فقد فوضه إلينا» «5»

يعني تفويض الولاية الشرعية فحسب، فيجب- إذا- التفويض إليهم بطاعتهم الطليقة كما يجب التفويض اليه (ص) في طاعته كما قال اللَّه: «أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» (4: 59) و كما لا تعني طاعة الرسول فوق ما أرسل به من احكام اللَّه، كذلك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1، 2، 3، 4) على الترتيب في سفينة البحار 3: 324- 325 عن النبي (ص) و الصادق (ع).

(5) سفينة البحار 3: 386 عن الصادق (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 158

طاعتهم التي هي استمرارية لطاعته.

و اما ان يحلوا شيئا أو يحرموا ما لم يحكم به اللَّه، أو يطلبوا من اللَّه شيئا من ذلك فذلك جرأة على اللَّه محادة و مشاقة «1».

ذلك، فكل ما ورد من نسبة علم الغيب ما كان و ما يكون و ما هو كائن إليهم عليهم السلام، و أنهم هم وسائل الخلق المفوض إليهم أمره تكوينا أو تشريعا، أماذا من شؤون الربوبية، كل هذه مردودة أو مأولة، و مما

يروى عن الصادق (ع): «ما جاءكم منا مما يجوز أن يكون في المخلوقين و لم تعلموه و لم تفهموه فلا تجحدوه و ردوه إلينا و ما جاءكم عنا مما لا يجوز أن يكون في المخلوقين فاجحدوه و لا تردوه إلينا» «2».

ف «ما يجوز و ما لا يجوز» محوّل إلى نص من الكتاب أو السنة القطعية، إضافة إلى ما يراه العقل السليم من مختصات الربوبية غير الجائز تحولها إلى غير اللَّه، بإذن منه أو سواه، كذاته تعالى و صفاته و أفعاله، فإنه «باين عن خلقه و خلقه باين عنه» بينونة في هذه الثلاث كلها.

فالأمور ثلاثة، منها المختصة باللَّه لا تعدوه إلى سواه، و منها العامة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر عن الكافي عن محمد بن سنان قال‏ كنت عند أبي جعفر عليهما السلام فأجريت اختلاف الشيعة فقال: يا محمد إن اللَّه تعالى لم يزل متفردا بوحدانيته ثم خلق محمدا و عليا و فاطمة صلوات اللَّه عليهم و آلهم فمكثوا الف- الف الف- سنة ثم خلق جميع الأشياء فاشهدهم خلقها و اجرى طاعتهم عليها و فوض أمورها إليهم فهم يحلون ما يشاءون، بإذن اللَّه تبارك تعالى، ثم قال يا محمد هذه الديانة التي من تقدمها مرق و من تخلف عنها محق و من لزمها لحق خذها إليك يا محمد».

أقول: لم يأذن اللَّه لهم في ربوبيته فإنما يأذن في غيرها من الأمور غير المختصة به تعالى من بلاغ أحكامه و من شفاعة باذنه أماهيه.

(2) سفينة البحار 1: 32 خص عن المفضل قال: قال أبو عبد اللَّه (ع): ....

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 159

بين الخلق قدر مساعيهم، و منها ما يمنحه اللَّه خاصة عباده كما يسعون، انتجابا لهم في رسالة أو عصمة أما دونها، فمثل أنهم يعلمون متى يموتون و أنه لا يقع ذلك إلّا باختيارهم، قد يجوز في حقهم حيث المنفي‏ «وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ» لا «متى تموت» فمن كرامات اللَّه لهم أن يعرفهم متى يموتون، و هكذا يأول إقدامهم على شرب السم و ما أشبه من بواعث قتلهم.

و من الغلو في حقهم أن الإمامة فوق الرسالة و النبوة، فلأن الرسول (ص) إمام كما هو رسول، لذلك لا يفضلون عليه (ص).

ذلك، لأن الإمامة- على أية حال- هي فرع الرسالة و استمرارية لها، فكيف تكون- إذا- فوق الرسالة، و ليس تفوق أئمتنا عليهم السلام على سائر الرسل عليهم السلام إلّا لما يحملون من العصمة القمة المحمدية (ص) التي هي فوق العصم كلها.

لذلك، لا تجد إماما بعد نبي مفضلا عليه، بل هو خليفة له و ممثل عنه باستمرار دعوته، فلأن استمرار الدعوة المحمدية المعصومة هو فوق كافة الدعوات الرسالية، لذلك نعتقد فيهم أنهم أفضل من كافة المرسلين إلّا الرسول الخاتم (ص) الذي هم أشعة من نوره.

لا فحسب، بل و الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء سلام اللَّه عليها مفضلة على كافة المعصومين سوى المعصومين المحمديّين عليهم السلام أجمعين.

ذلك، فالغلو مرفوض مرضوض في الدين كل الدين، أصولا عقيدية أم فروعا أحكامية أماهيه من الدين ككل، حيث الغلو تخلّف عن شرعة الحق، فهو في حقل التقصير ضلال عامد، و في حقل القصور ضلال خامد، يجب على الدعاة إلى اللَّه أن يوضحوا لهم الحق‏ «فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ»- «إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 160

ذلك و من الغلو بحق المسيح (ع) تصعيده إلى منزلة الربوبية كما فعله النصارى في شتات عقائدهم الشركية إلّا القليل ممن وفى لرعاية الحق من موحديهم، أم تنزيله عن ساحة الرسالة كما فعله اليهود حيث قالوا إنه وليد السفاح.

و الغلو أيا كان ليس إلّا باطلا فلا دور ل «غَيْرَ الْحَقِّ» هنا إلّا التأكيد، إيغالا للغلو في غير الحق ك «يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ» و ما أشبه.

و هنا «لا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ أَضَلُّوا كَثِيراً وَ ضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ» تضاحي ما تعنيه هناك‏ «يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ» أي من قبل أهل الكتاب و هم مختلف صنوف المشركين على مدار تاريخ الإشراك.

تاريخ التثليث بقول فصل:

فقد يذكر لنا تاريخ الوثنية على طول خطوطها و بكل خيوطها خمسة عشر من الثواليث مما يصدق هاتين الآيتين أن ثالوث النصارى إن هو إلّا خرافة تقليدية لهم، عن «الذين كفروا من قبل» في ثالوث: «قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ أَضَلُّوا كَثِيراً وَ ضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ»!.

ذلك، و «إن أقدم ما نعثر عليه في تاريخ الفراعنة الثالوث المكون من الآلهة: (اوزيريس- ايزيس- حورس): الأب و الأم و الولد، ثم المكون من «آمون» و زوجه «موت» و ابنه «خونس» و هو تثليث بلدة «تب» و هم: الأب و الأم و الولد، ثم المكوّن من «أنوبيس- معات- توت» ثم المكوّن من «آنوا- بعل- آيا» و هو ثالوث الكلدانيين، ثم المكون من «سن- شمش- عشتار»: الأب و الابن و الأم، ثم المكوّن من «مينوس- رادامانت- إيبال» أولاد «زوس»: الإله الأعظم، ثم المكوّن من «الأب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 161

و الابن و روح القدس» و هو للمسيحيين‏ «1» و الثواليث الخمسة عشر كالتالية:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في كتاب حياة السيد المسيح ل: فاروق الدملوجي ص 162، و يقول «برتشرد في كتابه: خرافات المصريين الوثنيين ص 285: لا تخلو كافة الأبحاث المأخوذة عن مصادر شرقية من ذكر احد انواع التثليث أو التولد الثلاثي أي: (الأب و الابن و روح القدس) و يقول «موريس» في كتابه: الآثار الهندية القديمة 6: 35: كان عند اكثر الأمم البائدة الوثنية تعاليم دينية جاء فيها القول باللاهوت الثلاثي، أي الإله ذو أقانيم ثلاثة. و في كتاب «سكان أوروبا الأول» ص 197: كان الوثنيون القدماء يعتقدون بان الإله واحد و لكنه ذو ثلاثة أقانيم. و إليكم ثواليثهم:

1- الثالوث البرهمي: يقول دوان في كتابه: خرافات التوراة و الإنجيل و ما يماثلهما في الديانات الأخيرة: إذا أرجعنا البصر نحو الهند نرى أن أعظم و أشهر عباداته اللاهوتية هو التثليث و يدعون هذا التعليم بلغتهم «تري مورتي» و هي جملة مركبة من كلمتين، ف «تري» تعني: ثلاثة، و «مورتي» هيآت، فهي «ثلاث هيآت» هي «برهمة- فشنو- سيفا» ثلاثة أقانيم غير منفكين عن الوحدة و هي الرب و المخلص و المهلك، و مجموع هذه الثلاثة أقانيم إله واحد و يرمزون عنها بثلاثة أحرف هي: الألف- الواو- الميم، و يلفظونها «أوم» و لا ينطقون بها إلّا في صلواتهم و يحترمون رمزها في معابدهم احتراما عظيما.

و لما أراد برهمة: (خالق الوجود الذي لا شكل له و لا تؤثر فيه الصفات) أن يخلق الخلق اتخذ صفة الفعل و صار شخصا ذكرا و هو «برهمة الخالق» ثم زاد في العمل الى الصفة الثانية من الوجود فكان «فشنو»: الحافظ، ثم انقلب الى الصفة الثالثة الظلالية فكان «سيفا»: المهلك، و يدعون هذه الصفات الثلاث ايضا «تري مورتي» و يشبهونها بالنار و يدعونها أيضا «الني- سوريا- اندرا» و غير ذلك من الأسماء الثلاثية.

و في كتب البرهميين المقدسة المعتبرة لديهم: ان هذا الثالوث المقدس غير منقسم في الجوهر و الفعل و الامتزاج و يوضحونه بقولهم:

برهمة الممثل لمبادئ التكوين و الخلق و لا يزال خلاقا إلهيا هو «الأب» و «فشنو» يمثل الحماية و الحفظ و هو «الابن» المنفك و المنقلب عن الحال اللاهوتية و «سيفا» المبدئ و المهلك و المبيد و المعيد و هو «روح القدس» و يدعونه: «كرشنا»: الرب المخلص و الروح العظيم حافظ العالم المنبثق منه» ف «فشنوا الإله الذي ظهر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 162

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

بالناسوت على الأرض ليخلص الناس فهو احد الأقانيم الثلاثة التي هي الإله الواحد.

و في الكبيتا- من كتبهم المقدسة- ان كرشنا قال: أنا رب المخلوقات جميعها، انا سر الألف و الواو و الميم «اوم» أنا برهمة و فشنو و سيفا، التي هي ثلاثة آلهة: إله واحد.

فالأقنوم الثالث و هو في صفته المظلمة «المهلك» و في صفته الحسنة «المعيد» يعبرون عنه بصورة حمامة و يقصدون بهذه الصورة الرمز عن الإعادة و الخلق الجديد و هو الروح الذي يرف على وجه الماء- كما في التوراة ان روح اللّه كان يرف على وجه الماء- و يعبرون عن الأقانيم الثلاثة الأبدية الجوهرية ب «أوم».

و قال «أ لن» في كتابه «الهند» 382: يقول البرهميون في كتبهم الدينية: ان احد الأتقياء و اسمه (اتنيس) رأى أنه من الواجب أن تكون العبادة لإله واحد فتوسل ببرهمة و فشنو و سيفا قائلا: يا ايها الأرباب الثلاثة اعلموا اني اعترف بوجود إله واحد فأخبروني أيكم الإله الحقيقي لأقرب له نذري و صلاتي؟ فظهرت الآلهة الثلاثة و قالوا:

اعلم أيها العابد انه لا يوجد فرق حقيقي بيننا و أما ما تراه من ثلاثة فما هو إلّا بالشبه و الشكل و الكائن الواحد الظاهر بالأقانيم الثلاثة هو واحد بالذات.

و قال موريس في آثار الهند القديمة 4: 372: لقد وجدنا بأنقاض هيكل قديك دكّته مرور القرون صنما له ثلاثة رؤوس على جسد واحد و المقصود منه التعبير عن الثالوث.

2- الثالوث البوظي:

قال المستر فابر في كتابه اصل الوثنية: و كما نجد عند الهنود ثالوثا مؤلفا من برهمة- فشنو- سيفا، هكذا نجد عند البوظيين فإنهم يقولون: ان بوظا إله واحد و يقولون بأقانيمه الثلاثة، و كذلك بوظي «جينست» يقولون عن: جيفا- انه مثلث الأقانيم.

و يقول دافس في كتابه الصين 3: 121 و 103 و دوان في كتابه خرافات التوراة و الإنجيل: البوظيون الذين هم اكثر سكان الصين و اليابان يعبدون إلها مثلث الأقانيم يسمونه «فو» و متى ودوا ذكر هذا الثالوث المقدس يقولون: الثالوث النقي «فو» و يصورونه في هياكلهم بشكل الأصنام التي وجدت في الهند ... و يوجد في احد المعابد المختصة ببوتالا في منشوريا تمثال «فو» مثلث الأقانيم، و مثله في اصل الديانة الوثنية ل «مستر فابر».

3- ثالوث تاوو:

يقول دوان في 172 من كتابه: أنصار «لاوكومتذا» و هو الفيلسوف الصيني المشهور

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 163

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- و كان قبل المسيح (ع) بأربع سنين و ستمائة- يدعون شيعة «تاوو» و هؤلاء يعبدون إلها مثلث الأقانيم و أساس فلسفته اللاهوتية أن تاوو و هو العقل الأبدي انبثق منه واحد و من هذا الواحد انبثق ثان و من الثاني انبثق ثالث و من هذه الثلاثة صدر كل شي‏ء و هذا القول بالتوليد و الانبثاق ادهش العلامة موريس لأن قائله و ثني.

4- ثالوث الصينيين:

و قد جاء في الكتب الدينية الصينية ان اصل كل شي‏ء واحد و هذا الواحد الذي هو اصل الوجود اضطر الى إيجاد ثان و الأول و الثاني انبثق منهما ثالث و من هذه الثلاثة صدر كل شي‏ء.

5- ثالوث الهنود:

قال المستر هلسلي ستونس في كتابه الايمان و العقل (78) يعتقد الهنود بإله مثلث الأقانيم و متى ودوا التكلم عنه بصفة الخلاق يقولون: الإله برهمة، و متى راموا التكلم عنه بصفة الملك يقولون سيفا أو مهديفا، و متى أرادوا وصفه بصفة الحافظ يقولون:

الإله فشنو، و يقولون: إن هذا الثالوث المقدس حاضر في كل مكان بالروح و القوة.

6- ثالوث المصريين:

المصريون القدماء كانوا يعبدون إلها مثلث الأقانيم مصورا في أقدم هياكلهم و يظن أهل العلم أن الرمز الذي يصورونه و هو جناح طير و وكر و أفعى، أنه إشارة الى ذاك الثالوث و اختلاف صفاته، و قال دوان في (473) و كان قسيسو هيكل ممفيس بمصر يعبرون عن الثالوث المقدس للمبتدئين بتعلم الدين بقولهم: ان الأول خلق الثاني و الثاني مع الأول خلقا الثالث و بذلك تم الثالوث المقدس، و سأل «توليو» ملك مصر الكاهن تينشوكي، سأله ان يخبره هل كان قبله أحد أعظم منه؟ أو هل يكون بعده من هو أعظم منه؟ فقال له الكاهن: نعم يوجد من هو أعظم و هو أولا: اللّه، ثم الكلمة و معهما روح القدس و لهؤلاء الثلاثة طبيعة واحدة و هم واحد بالذات و عنهم صدرت القوة الأبدية فأذهب يا فاني يا صاحب الحياة القصيرة، و قال بونويك في اعتقاد المصريين 402 و 404 و أغرب عقيدة عم انتشارها في ديانة المصريين الوثنيين القدماء هي قولهم بلاهوت الكلمة و أن كل شي‏ء صار بواسطتها و انها منبثقة من اللّه و انها اللّه، و كان «بلاتو «عارفا بهذه العقيدة الوثنية و كذلك أرسطو و غيرهما، و كان ذلك قبل التاريخ المسيحي بسنين و لم نكن نعلم ان الكلدانيين و المصريين يقولون هذا القول‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 164

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و يعتقدون هذا الاعتقاد إلّا في هذه الأيام، و قال أيضا: كما ان للكلمة مقاما ساميا عند المصريين، كذلك يوجد في كتبهم الدينية المقدسة هذه الجملة: إني اعلم بسرّ لاهوت الكلمة و هي كلمة رب كل شي‏ء و هو الصانع لها فالكلمة هي الأقنوم الأول بعد الإله و هي غير مخلوقة و هي الحاكم المطلق على كافة المخلوقات.

7- ثالوث اليونان:

في كتاب ترقي التصورات الدينية 1: 307 «كان اليونانيون القدماء الوثنيون يقولون ان الإله مثلث الأقانيم، و إذا شرع قسيسوهم بتقديم الذبائح يرشون المذبح بالماء المقدس ثلاث مرات اشارة الى الثالوث و يرشون المجتمعين حول المذبح بالماء ثلاث مرات و يأخذون البخور من المبخرة بثلاث أصابع و يعتقدون بان الحكماء صرحوا: ان كل الأشياء المقدسة يجب أن تكون مثلثة و لهم اعتناء تام بها العدد في كافة أحوالهم الدينية.

و قال دوان نقلا عن اورفيوس- و هو احد كتاب و شعراء اليونان قبل المسيح بقرون- «كل الأشياء علمها الإله الواحد مثلث الأسماء و الأقانيم» و هذا التعليم الثالوثي أصله من مصر و كثيرون من الآباء في الجيل الثالث و الرابع قالوا: ان فيثاغورس و هيركليتوس و بلاتو علموا التثليث و قد أخذوا فلسفتهم في التثليث عن اورفيوس (انظر دائر المعارف تأليف تشمبرس عند كلمة اورفيوس).

8- ثالوث الرومان:

قال فيسك- في كتابه الخرافات و مخترعوها (305)- و كان الرومانيون يعتقدون بالتثليث و هو أولا اللّه ثم الكلمة ثم الروح.

9- ثالوث الفرس:

قال دوان (2: 819): و كان الفرس يعبدون إلها مثلث الأقانيم مثل الهنود تماما و هم:

أورمزد و مترات و اهرمان، فأورمزد: الخلاق و مترات: ابن اللّه المخلص و الوسيط، و اهرمان: المهلك، و يوجد في كتابات زورسترسانن- الشرائع الفارسية- هذه الجملة: الثالوث اللاهوتي مضيّ في العالم و رأس هذا الثالوث «موناد»، و قال هيجن (في الانكلوسكستين) 2: 162 و المسيود دونلاب في (ابن الإنسان 20) و بنصون في (المسيح الملاك): كان الفرس يدعون متروس: الكلمة و الوسيط و مخلص الفرس.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 165

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

10- ثالوث الفنلنديين:

قال بارخوست في القاموس العبراني كان للفنلنديين- و هم برابرة كانوا يسكنون شمالي بروسيا في القرون الخالية-: إله اسمه تريكلاف و قد وجد تمثال له في «هرتوبخربرج» له ثلاثة رؤوس على جسد واحد.

11- ثالوث الاسكندنافيين:

قال دوان (377) و كان الاسكندنافيون يعبدون إلها مثلث الأقانيم يدعونها: اودين- تورا- فرى- و يقولون عن هذه الثلاثة أقانيم انها إله واحد، و قد وجد صنم يمثل هذا الثالوث المقدس بمدينة «أوبسال» من «اسوج» و كان اهالي «أسوج و نروج و الدنمرك» يفاخرون بعضهم في بناء الهياكل لهذا الثالوث و كانت جدران هذه الهياكل مصفحة بالذهب و مزينة بتماثيل هذا الثالوث و يصورون «اودين» و بيده حسام و «تورا» واقفا عن شماله و على رأسه تاج و بيده صولجان و «فري» واقفا عن شمال «تورا» و تمثاله فيه علامتا الذكر و الأنثى و يدعون «اودين» الآب و «تورا» الابن البكر للأب اودين و «فري» مانح البركة و النسل و السلام و الغنى.

12- ثالوث الدرديين و التتر و السيبريين:

كان الدرديون يعبدون إلها مثلث الأقانيم و هم «تولاك- فان- مولا» و سكان سيبريا القدماء كانوا يعبدون إلها مثلث الأقانيم و يدعون الأقنوم الأول منه: خالق كل شي‏ء و الأقنوم الثاني: إله الجنود، و الأقنوم الثالث: روح المحبة السماوية- ثم يقولون:

أقانيم ثلاثة إله واحد، و التتر الوثنيون عبدوا إلها مثلث الأقانيم و على احد نقودهم الموجودة في متحف «بطرسبرج» صورة هذا الإله المثلث الأقانيم جالسا على حندوقة.

13- ثالوث الجزائر الأوقيانوسية:

قال نيت- في كتابه الصنايع القديمة و الخرافات الوثنية 169-: سكان الجزائر في الأقيانوس عبدوا إلها مثلث الأقانيم فيقولون: الإله الآب- الإله الابن- الإله روح القدس و يصورون روح القدس بهيئة طير.

14- ثالوث المكسيكيين:

قال اللورد كينكسبرو- في كتابه آثار المكسيك القديمة 5: 164-: المكسيكيون يعبدون إلها مثلث الأقانيم يدعونه «تزكتيلبوكا» و معه إلهان آخران أحدهما واقف عن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 166

1- الثالوث البرهمي. 2- و البوظي. 3- و تاوو. 4- و الصينيين.

5- و الهنود. 6- و المصريين. 7- و اليونان. 8- و الرومان. 9-

و الفرس. 10- و الفنلنديين. 11- و الإسكندنافيين. 12- و الدرديين و التتر و السيبريين. 13- و الجزائر الأوقيانوسية. 14- و المكسيكيين.

15- و الهندوس الكنديين.

فقد يبدو أن من هامة التأثير للدعايات المسيحية في هؤلاء الأقوام الثالوثية هي تشابه ثالوثهم مع ثواليثهم، إضافة إلى الإباحية المركّزة على الفداء الصليبي الذي هو أيضا من العقائد الوثنية.

ذلك، و من عجاب الأمر في مضاهاة المسيحية المختلقة و الوثنيات أنها حسب سرد التاريخ الوثني و المسيحي، كأنها نسخة طبق الأصل من هذه الوثنيات، و مثالا على تلك المضاهاة المقارنة التالية بين بوظا و المسيح‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

يمين الإله المذكور و الآخر واقف عن يساره و اسم الإله الأول الواقف عن اليمين «اهوتزليبوشتكي» و الآخر اسمه: «تلالوكا» و لما عين «برتولوميو» مطرانا سنة 1440- أرسل القس «فرنسيس هرمندير» إلى المكسيك ليبشر بين الهندوسيين بالديانة المسيحية و كان هذا القس عارفا بلغة الهندوس و من بعد مضي عام على ذهابه أرسل مكتوبا إلى المطران المذكور يقول فيه: ان الهندوسيين يؤمنون بإله كائن في السماء و ان هذا مثلث الأقانيم و هو الإله الأب و الإله الابن و الإله روح القدس و هؤلاء الثلاثة إله واحد، و اسم الأب «بزونا» و اسم الابن «باكاب» مولود من عذراء و اسم الروح القدس «ايكيميا» و يعتقدون صنما اسمه «تنكاتنكا» يقولون عنه إنه واحد ذو ثلاثة أقانيم، و انه ثلاثة أقانيم إله واحد.

15- ثالوث الهندوس:

قال سكوير- في كتابه رمز الحية 181-: و الهندوس الكنديون يعبدون إلها مثلث الأقانيم و يصورونه بشكل صنم له ثلاثة رؤوس على جسد واحد و يقولون: انه ذو ثلاثة اشخاص بقلب واحد و إرادة واحدة ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 167

منذ الولادة حتى الصلب و الصعود في حلقاتها الأربعة عشر حسب الأسناد التالية «1»:

بوظا المسيح!:

بوظا لما تنزل بوظا من محل عال إلى رحم العذراء مايا شعّ الرحم بنوره و كان يرى فيه قبل مولده‏ «2».

2 علامة ولادته نجم طلع من الأفق و تسمى نجم بوظا «3».

3 ولد بوظا ابن العذراء «مايا» التي حل روح القدس في رحمها يوم عيد الميلاد (25) كانون الأوّل‏ «4» 4 بعد ولادته سرّ به جنود السماء و بيمنه خطبوا خطابات و قالوا: اسم نجمه الصباح‏ «5».

المسيح 1 لما تنزّل المسيح في محل عال سماوي و دخل رحم مريم العذراء صار الرحم كمثل البلور و كان يرى فيه قبل مولده‏ «6».

2 علامة ولادته نجم طلع من المشرق اسمه نجم المسيح‏ «7».

3 ولد المسيح ابن العذراء مريم التي حل روح القدس في رحمها يوم عيد الميلاد (25) كانون الأول‏ «8».

4 سرّ ملائكة السماء بولادته و خطبوا بيمنه و قالوا: العظمة للّه في السماء و الأرض و للناس المسرة حيث أوصل النور إلى محل الظلام‏ «9».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هذه الاسناد و ما قبلها من اسناد تاريخية ننقلها عن كتاب «العقائد الوثنية للأستاذ محمد طاهر التنير البيروتي رحمه اللّه».

(2) بنسون (20) و دوان (290).

(3) دوان (290).

(4) بنسون في مسيح الملاك (10).

(5) دوان (290).

(6) إنجيل متى ب 1.

(7) إنجيل متى 3: 1

(8) دوان (290)

(9) لوقا 3: 13- 14.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 168

5 إن الحكماء عرفوا بوظا و أسراره اللّاهوتية و بعد يوم من ولادته رحب الناس بولادته‏ «1».

6 قال بوظا في طفولته لأمه أنا أعظم الناس‏ «2».

7 ولد بوظا خفية و ملك بمبارا أصرّ في قتله حيث أخبر أنه يسلبه ملكه‏ «3».

8 لما بلغ بوظا الثاني عشر من عمره دخل بعض بيوت الأصنام و سأله أهل العلم عن مسائل فأجابهم عما سألوه من المشاكل‏ «4».

9 بوظى المنجي اغتسل غسل التعميد و حينذاك كان روح اللّه حاضرا لم يكن بوظا الإله العظيم فحسب بل كان مع روح القدس أيضا حيث حل في العذراء مايا فتجسم كوتاما بوظا «5».

5 زار الحكماء المسيح و عرفوا أسراره اللّاهوتية و ليوم بعد ولادته سموه إله الآلهة «6».

6 قال المسيح في طفولته لأمه أنا ابن اللّه‏ «7».

7 ولد المسيح خفية و ملك هيردوس اهتم في قتله حيث سمع أنه يسلبه ملكه‏ «8».

8 لما بلغ المسيح الثاني عشر من عمره ذهبوا به إلى بيت الأصنام في أورشليم و سأله الأحبار عن مشاكل المسائل فأجابهم بما حاروا فيه‏ «9».

9- يحيى عمد المسيح في نهر الأردن و نزل عليه روح اللّه كحمامة فكان المسيح ابن اللّه مع كونه روح اللّه‏ «10».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). دوان (290)

(2) كتاب الهردي العقائد البوظية 145- 146.

(3) كتاب البيل- تاريخ بوظا 103- 104.

(4) بنسون في مسيح الملاك (37) و بيال في تاريخ بوظا 167- 169.

(5) مسيح الملاك (45).

(6) متى 3: 1- 11.

(7) إنجيل الطفولة 1: 3.

(8) إنجيل متى 3: 1.

(9) إنجيل الطفولة 31: 1- 2.

(10) متى 3: 13- 17.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 169

10 مات بوظا و دفنوه ثم انفتح كفنه و ستر تابوته‏ «1».

11 بوظا هو الألف و الياء أزلي أبدي قيوم واحد «2».

12 قال بوظا إن ذنوب العالمين عليّ و أنا خلاصهم عنها «3».

13 قال بوظا لتلاميذه اتركوا الدنيا و حاولوا الفقر و الضيق فيها «4».

14 قال بوظا: الرجل العاقل يرى حياة الزوجية نارية و لن يقرب هذه الحياة إلّا لضرورة الاجتناب عن الزنا «5».

10 مات المسيح و دفن ثم انفتح كفنه و بعثر عن قبره‏ «6».

11 المسيح هو الألف و الياء أزلي أبدي قيوم واحد «7».

12- المسيح منجي العالم و قد أخذ و تحمل ذنوب العالمين على عاتقه‏ «8».

13 قال المسيح لتلاميذه اتركوا ثروة الدنيا و عيشوا فقراء «9».

14 قال المسيح يحسن للرجل ألا يمس النساء إلّا في ضرورة حيث الزواج احسن من أن يحترق بالنار نار الزنا «10».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مسيح الملاك (49).

(2) دوان 293.

(3) تاريخ آداب السنسكريتي (80).

(4) هاردي في كتاب رهبانية الشرق 6، 62.

(5) ريس داويس في كتاب بوظا (103).

(6) متى ب 38 و يوحنا ب 20.

(7) يوحنا 1: 1 و رؤيا يوحنا.

(8) دوان 293 و التعاليم المسيحية كما مضت.

(9) متى 16: 25- 28.

(10). 1- كورنتوس 7: 1- 9.

ذلك بوظا المسيح في هذه الشطرات و إليكم: بوظا\* برهما المسيح!: مقارنة النصوص بين برهما و المسيح في (21) شطرة:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 170

برهما 1 عرفت ولادة كرشنا من النجم الذي ظهر في المشرق‏ «1».

2 كان كرشنا من السلالة الملكية و لكنه تولد على ذل و فقر في مغارة «2».

3 لقد شع نور كرشنا المغارة عند ولادته تلعلع وجه أمه ديفاكى من نوره‏ «3».

4 لما ولدت ديفاكى كرشنا خافت عاقبة أمره و أخذت تبكي عليه فتكلم كرشنا و سلى خاطرها «4».

5 عرف البقر الذكر ان كرشنا إله فسجد له‏ «5».

6 لما ولد كرشنا كانت أمه و خطيبها ناندا، كانا غائبين حيث ذهبا إلى البلد لتسليم الماليات الى السلطان‏ «6».

المسيح 1 لما ولد المسيح طلع نجم في المشرق و دل الناس على محل ولادته‏ «7».

2 كان المسيح من السلالة المكية و خاطبه اليهود سلطانا و لكنه تولد في مغارة على ذل و مسكنة «8».

3 شع من نور المسيح المغارة عند ولادته و حارت عيون القابلة و خطيب مريم- يوسف- من نوره‏ «9».

4 تكلم عيسى عند ولادته مخاطبا أمه أنا ابن اللّه و كما أخبرك جبرائيل جئت لأخلص العالم‏ «10».

5 عرف الرعاة المسيح فسجدوا له‏ «11».

6 لما ولد المسيح كانت أمه و خطيبها غائبين حيث ذهبا ليسجلا اسمهما في الكراس المكي‏ «12».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كتاب التاريخ الهند 3: 317 و 336.

(2) دوان (289).

(3) دوان (289).

(4) تاريخ الهند 3: 311.

(5) دوان (279).

(6) كتاب ويشنو بورانا 2: 5.

(7) إنجيل متى 2: 3.

(8) دوان (279).

(9) إنجيل الولادة 2: 13.

(10) إنجيل الولادة 1: 2- 3.

(11) لوقا 2: 8- 12.

(12) لوقا 2: 1- 9.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 171

7 سمع نانذا خطيب ديافكي ام كرشنا نداء من السماء: خذ الطفل و امه و فرّ إلى كوكول و اعبر نهر جهنة لأن الملك يريد قتله‏ «1».

8 أخبر الحاكم عن ولادة الطفل الإلهي و أراد قتله فقتل كل ذكر ولد في تلك الليلة لكي ينال بغيته‏ «2».

9 لدغت حية زميلا لكرشنا فنظر اليه بالنظرة الإلهية فحيي من فوره‏ «3».

10 يوما من الأيام سار كرشنا مع بقرات فانتخبته ملكا لها و ذهبت كل واحدة منها إلى المحل الذي عينه الملك‏ «4».

11 كان أوّل معجزات كرشنا أن شفى أبرصا «5».

12 صلب كرشنا و مات على الصليب.

7 يوسف النجار خطيب مريم نودي في المنام أن: خذ الطفل و امه و فرّ إلى مصر حيث الملك يريد قتله‏ «6».

8 أخبر حاكم البلاد عن ولادة الطفل الإلهي المسيح و أراد قتله فامر بقتل من ولد في تلك الليلة لكي ينال بغيته‏ «7».

9 لدغت حية زميلا للمسيح فمسحه المسيح بيده فبرء من فوره‏ «8».

10 في شهر آذر جمع المسيح الأطفال و أخذ يتأمر فيهم كأنه ملكهم و كان لا يعبر أحد هناك إلّا أمره أن يسجد لهذا الملك‏ «9».

11 كان أول معجزات المسيح أن شفى أبرصا «10».

12 صلب المسيح و مات على الصليب.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كتاب ويشنو بورنا الفصل 3.

(2) دوان (280).

(3) تاريخ الهند 3: 343.

(4) تاريخ الهند 2: 321

(5) تاريخ الهند 2: 219.

(6) متى 2: 13.

(7) متى 2: 15- 17.

(8) إنجيل الطفولة ب 18.

(9) إنجيل الطفولة 18: 1- 3.

(10) متى 36: 6- 7 و هذا ايضا تصريحة اخرى ان أولها تبديل الماء خمرا في عرس (يوحنا 3: 1- 11).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 172

13 لما مات كرشنا حدثت حوادث عظيمة و احتف خط أسود حول القمر و اظلمت الشمس عند الزوال و أمطرت السماء النار و الرماد و اشتعلت زبانية النيران و أفسدت الشياطين في الأرض و رأى الناس أن الآلاف من الأرواح يتقاتلون ليل نهار «1».

14 حدثت ثقبة في جنب كرشنا حيث اصابته الحربة القاتلة «2».

15 قال كرشنا للصياد الذي قتله:

اذهب برحمتي الى السماء مكان الآلهة «3».

16- قام كرشنا بعد موته من بين الأموات‏ «4».

17- دخل كرشته الجحيم‏ «5»

18- كرشنا خالق كل شي‏ء و لولاه لم يكن شي‏ء «6».

13 حدثت بموت المسيح حوادث عظيمة فخرقت ستار بيت الأصنام و انكسفت الشمس من الساعة 6- 9 و بعثرت القبور و خرج عنها الكثير من الشياطين في الأرض و رأى الناس أن الآلاف من الأرواح يتقاتلون ليل نهار «7».

14 حدثت ثقبة في جنب المسيح حيث اصابته الحربة القاتلة «8».

15 قال المسيح لأحد اللصوص الذين صلبوا معه أنت اليوم معي في الجنة «9».

16- قام المسيح بعد موته من بين الأموات‏ «10».

17 دخل المسيح الجحيم‏ «11».

18 المسيح خالق كل شي‏ء و لولاه لم يكن شي‏ء فهو الخالق الأزلي‏ «12».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كتاب التصورات الدينية.

(2) دوان (282).

(3) ويشنو بورانا (612).

(4) دوان (282).

(5) دوان (282).

(6) دوان (282).

(7) متى ب 27.

(8) دوان (282).

(9) لوقا 23: 43.

(10) متى 28: 20.

(11) دوان (282) مع كثيرة اخرى من المدارك المسيحية ذكرناها في «عقائدنا».

(12) يوحنا 1: 3 و 1- كورنتس 7: 6 و افسس 3: 9.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 173

19 كرشنا هو الألف و الياء و هو الأول و الآخر و الوسط لكل شي‏ء «1».

20 كرشنا برهما العظيم و القدوس و انما ظهوره في الناسوت لسرّ من الأسرار العجيبة الإلهية «2».

21 كرشنا هو الأقنوم الثاني من الثلاثة «3». 19 المسيح هو الأول و الوسط و الآخر لكل شي‏ء «4».

20 المسيح هو اللَّه يهوه العظيم القدوس و إنما ظهر في الناسوت لسرّ من أسرار ألوهيته‏ «5».

21 المسيح هو الأقنوم الثاني من الثلاثة «6».

و هكذا نرى بعجاب كيف‏ «يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ» فيخاطبون بتنديد شديد: «يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَ لا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ أَضَلُّوا كَثِيراً وَ ضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ».

فرؤساء الضلالة الثالوثية الوثنية «قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ» ثم‏ «وَ أَضَلُّوا كَثِيراً» و من ثم على طول الخط «وَ ضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ» بحق اللَّه، سبحانه و تعالى عما يشركون.

لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى‏ لِسانِ داوُدَ وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ (78):

هنا تبرز بين لعنات المرسلين الإسرائيليين على هؤلاء الذين كفروا باللَّه و رسالاته، لعنة داود و عيسى ابن مريم عليهما السلام و كما نجدها في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و ان (282).

(2) و ويشنو بورانا (492).

(3) موريس ليمس في كتاب عقائد الوثنيين الهنود (100).

(4) رؤيا يوحنا 1: 8 و 22: 6.

(5). 1- تيموثاوس 3: 16.

(6) الأناجيل السالف ذكرها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 174

زبور داود و الإنجيل، و ذلك اللعن المعلن‏ «بِما عَصَوْا» اللَّه و رسله‏ «وَ كانُوا يَعْتَدُونَ» على رسالات اللَّه و أنبياءه و عباد اللَّه.

كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعَلُونَ (79):

التناهي عن المنكر فرض و هو التفاعل في حقل المنكر نهيا و انتهاء من الجانبين، و تخصيص التناهي بالذكر لتقدم السلب على الإيجاب، إضافة إلى أن ترك الواجب أيضا منكر كفعل الحرام.

فواجب المؤمنين خلق جو التآمر بالمعروف و التناهي عن المنكر بصورة جماعية حاسمة، فالتفاعل الإيجابي في المعروف و التفاعل السلبي في المنكر، هما فرضان جماعيان على الجموع المؤمنة على أية حال ما فسح المجال.

إذا فتركهما و لا سيما التناهي يستجر لعنة اللَّه و رسله، حيث يترك بتركهما القرآن.

ذلك‏

«و إن رحى الإسلام ستدور فحيث ما دار القرآن فدوروا به، يوشك السلطان و القرآن يقتتلان و يتفرقا» «1»

و ذلك في سلطان العصيان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 399- اخرج عبد بن حميد عن معاذ بن حيل قال: قال رسول اللَّه (ص): خذوا العطاء ما كان عطاء فإذا كان رشوة عن دينكم فلا تأخذوا و لن تتركوه يمنعكم من ذلك الفقر و المخافة، إن بني يأجوج قد جاءوا و ان رحى الإسلام ... فإنه سيكون عليكم ملوك يحكمون لكم بحكم و لهم بغيره فان أطعتموهم اضلوكم و ان عصيتموهم قتلوكم، قالوا يا رسول اللَّه (ص) فكيف بنا إن أدركنا ذلك؟

قال: تكونوا كأصحاب عيسى نشروا بالمناشير و رفعوا على الخشب، موت في طاعة خير من حياة في معصية، ان أوّل ما كان نقص في بني إسرائيل انهم كانوا يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر شبه التعزير فكان أحدهم إذا لقى صاحبه الذي كان يعيب عليه آكله و شاربه كأنه لم يعب عليه شيئا فلعنهم اللَّه على لسان داود و ذلك بما عصوا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 175

لشرعة اللَّه في سلطات زمنية أو روحية لا تدور حيث ما دار القرآن.

و الأمر و النهي هما على كاهل الربانيين الصالحين العارفين، فمن‏

حديث الرسول (ص): «ما بال أقوام لا يعلّمون جيرانهم و لا يفقهونهم و لا يفطّنونهم و لا يأمرونهم و لا ينهونهم، و ما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم و لا يتفقهون و لا يتفطنون ..» «1»

و

«إذا عظمت أمتي الدنيا نزعت منها هيبة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و كانوا يعتدون و الذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف و لتنهن عن المنكر أو ليسلطن اللَّه عليكم شراركم ثم ليدعون خياركم فلا يستجاب لكم، و الذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف و لتنهن عن المنكر و لتأخذن على يد الظالم فلتأطرنّه عليه أطرا أو ليضربن اللَّه قلوب بعضكم ببعض.»

(1).

المصدر (301) أخرج ابن راهويه و البخاري في الوحدانيات و ابن السكن و ابن منده و البارودي في معرفة الصحابة و الطبراني و أبو نعيم و ابن مردويه عن ابن ابزى عن أبيه قال: خطب رسول اللَّه (ص) فحمد اللَّه و اثنى عليه ثم ذكر طوائف من المسلمين فأثنى عليهم خيرا ثم قال: ما بال أقوام ... و الذي نفسي بيده ليعلمن جيرانه أو ليتفقهن أو ليفطنن أو لأعاجلنهم بالعقوبة في دار الدنيا ثم نزل فدخل بيته فقال اصحاب رسول اللَّه (ص) من يعنى بهذا الكلام إلّا الأشعريين فقهاء علماء و لهم جيران من أهل المياه جفاة جهلة، فاجتمع جماعة من الأشعريين فدخلوا على النبي (ص) فقال:

ذكرت طوائف من المسلمين بخير و ذكرتنا بشر فما بالنا؟ فقال رسول اللَّه (ص):

«لتعلمن جيرانكم و لتفقهنهم و لتأمرنهم و لتنهونهم أو لأعاجلنكم بالعقوبة في دار الدنيا، فقالوا: يا رسول الله (ص) فأما إذن فأمهلنا سنة ففي سنة ما تعلمه و يتعلمون فأمهلهم سنة ثم قرأ رسول الله (ص): لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى‏ لِسانِ داوُدَ وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ. كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعَلُونَ»

و

فيه عن حذيفة بن اليمان عن رسول اللَّه (ص) قال: و الذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف و لتنهن عن المنكر أو ليوشكن ان يبعث اللَّه عليكم عقابا من عنده ثم لتدعنّه فلا يستجيب لكم،

و

فيه أخرج مسلم و أبو داود و الترمذي و النسائي و ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللَّه (ص): من رأى منكم منكرا فليغيره بيده‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 176

الإسلام و إذا تركت الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر حرمت بركة الوحي و إذا تسابّت أمتي سقطت من عين اللَّه‏ «1».

ذلك، فكما النهي عن المنكر فرض كذلك الانتهاء عنه و هما التناهي، و ترى الناهي عن المنكر ينهى عن نفس المنكر أو منكر آخر حين ينهاه الآتي بمنكر؟.

الناهي عن المنكر عليه ألا يكون فاعلا لنفس المنكر و لا سيما جهارا، و كذلك الآمر بالمعروف، فأقل الواجب من شرط واجب الأمر و النهي أو السماح فيهما ألّا يكون الآمر و الناهي متجاهرين في ترك المعروف أو فعل المنكر: «أَ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ» (2: 44) «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ» (61: 3).

فليس على تارك معروف أن يأمر به و لا له ذلك، كما ليس على فاعل منكر أن ينهى عنه و لا له ذلك مهما كانا مسئولين عن واجب الأمر و النهي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه و ذلك أضعف الايمان،

و

فيه أخرج احمد عن عدي بن عميرة سمعت رسول اللَّه (ص) يقول: ان اللَّه لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم و هم قادرون على أن ينكروا فلا ينكرونه فإذا فعلوا ذلك عذب اللَّه العامة و الخاصة،

و

فيه اخرج الخطيب في رواية مالك من طريق أبي سلمة عن أبيه عن النبي (ص) قال: و الذي نفس محمد بيده ليخرجن من امتي أناس من قبورهم في صورة القردة و الخنازير داهنوا اهل المعاصي سكتوا عن نهيهم و هم يستطيعون.

(1). المصدر 2: 302- اخرج الحكيم الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه (ص):

و

فيه اخرج الطبراني عن ابن عباس قال: قيل يا رسول اللَّه (ص) أ تهلك القرية فيهم الصالحون؟ قال: نعم، فقيل يا رسول اللَّه و لم؟ قال: بتهاونهم و سكوتهم عن معاصى اللَّه عزّ و جلّ.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 177

تقصيرا عن تحقيق شرطهما، فهما بالفعل مأموران بالأمر و النهي تحقيقا حقيقا لشرط الوجوب، و منهيان عنهما دون شرطه، فقد اجتمع عليهما الوجوب و الحرمة بسوء الإختيار.

فالتآمر بالمعروف و التناهي عن المنكر هما مفروضان شرط شروطهما، و لكن الائتمار و الانتهاء لا يقيّدان بتحقيق شروط الآمر و الناهي، و كذلك الأمر و النهي لا يقيّدان بفعل الآمر غير ما يأمر به من معروف أو تركه غير ما ينهى عنه من منكر، فإنما الشرط أن يأمر بما هو مؤتمر به أو ينهى عما هو منته عنه.

فحين يأمر بمعروف هو فاعله عليه أن يأتمر بما هو تاركه، و كذلك في حقل النهي و الانتهاء، بل و الائتمار و الانتهاء هما أوسع نطاقا من الأمر و النهي حيث لا يشترط في واجب الائتمار و الانتهاء ما يشترط في نفس الأمر و النهي.

فالتناهي كما التآمر هما فرضان جماعيان يفرضان الرقابة التامة بين المؤمنين، أن يراقبوا إخوانهم كما يراقبون أنفسهم و يقونها: «قُوا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ ناراً» (66: 6) «وَ تَواصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ».

و لأن التآمر و التناهي هما بعد معرفة المعروف و المنكر، فالمفروض قبلهما التعريف بهما للعارف و التعرف إليهما لغير العارف، حتى تعم المعرفة.

فقد لا يكفي الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر بشرط العدالة المطلقة في الآمرين و الناهين، إذ لا كفاية فيهما لتحقيق المعروف و إزالة المنكر عن المجتمع الإسلامي.

إذا فالمفروض- إضافة إلى ذلك- التآمر بالمعروف و التناهي عن المنكر، أن يأمر بما هو فاعله و يأتمر فيما هو تاركه، و ينهى عما هو تاركه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 178

و ينتهي عما هو مقترفه و ذلك هو التآمر و التناهي.

فواجب الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و واجب الائتمار و الانتهاء، يعبر عنهما بالتآمر و التناهي، حيث فيهما الكفاية لخلق جو الخير في الكتلة المؤمنة.

ذلك، و المنكرات دركات يجب التناهي عن أنكرها التي هي راس الزاوية فيها، سواء أ كانت بين المؤمنين أو الكفار، فالمجتمعات التي لا تتحاكم إلى شرعة اللَّه، فالمنكر الأكبر فيها هو الذي منه تنبع سائر المنكرات، و هو رفض الألوهية بتوحيدها، فلا جدوى من ضياع الجهد في مقاومة سائر المنكرات ما لم يقاوم رؤوس الزوايا فيها.

ثم يتقدم في ذلك الدور المنكر الذي ينكره الكل دونما اختلاف حيث لا يعذر مقترفه حتى بين سائر المقترفين، فليراع في حقل الأمر و النهي الأقدم الأساس فيهما، و لكي تتفرع عليه فروعه فعلا للمعروف و تركا للمنكر، توفيرا للجهود المبعثرة هنا و هناك، و حشدا لها في جبهات موحّدة قوية صارمة، في الأوّل فالأوّل من المنكرات الأساسية لإقامة الأسس التي عليها وحدة البنيان لصرح الإيمان.

ذلك، و أضعف الإيمان انكار المنكر بالقلب و كما

في حديث الرسول (ص) «من رأى منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه»

و ليس هذا موقفا سلبيا تجاه المنكر، فإنكار المنكر بالقلب- حين لا يستطيع الناهي إنكاره بيده أو لسانه- يعني احتفاظ القلب بإيجابيته تجاه المنكر، كالماء المختزن في خزانته ليروي العطاش عند الإمكانية و الاستطاعة، فلا بد للمؤمن أن يملأ خزانة قلبه من إنكار المنكر حتى إذا وجد سبيلا لإنكاره بيد أو لسان أنكره بهما من فوره، أم و لأقل تقدير لا يتأثر بالمنكرات المفعولة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 179

فقد تقيد آية التناهي- هذه- الآيات المشترطة بصورة طليقة واجب الأمر و النهي بتحقيق المعروف و ترك المنكر ككل في الآمر و الناهي، تقيّدها بالمعروف المتروك للآمر و المنكر المفعول للناهي، فليس الشرط العدالة الطليقة للآمر و الناهي و إلّا فلا يكفي العدول لتحقيق هذين الواجبين، ثم فأين التناهي- إذا- فيما إذا ينهى عما لا يقترفه من منكر، ثم ينهى عما يقترفه من منكر آخر، فجو التآمر و التناهي هو الجو الصالح الإيماني برقابة صالحة بين المؤمنين حيث المؤمن مرآت المؤمن و «الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ».

و كما التارك للمعروف و الفاعل للمنكر ملعون على ألسنة رسل اللَّه، كذلك- و بأحرى- التاركون للتآمر بالمعروف و التناهي عن المنكر، كما لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود و عيسى ابن مريم بثالوث‏ «1»: «1- بما عصوا 2- و كانوا يعتدون- و- 3- كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ» و أقل التناهي متاركة فاعلي المنكر حتى يتركوه‏ «2» محاولة لترك المنكر حسب المستطاع.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 660 عن تفسير القمي بسند متصل عن مسعدة بن صدقة قال‏ سأل رجل أبا عبد اللَّه (ع) من قوم من الشيعة يدخلون في اعمال السلطان و يعملون لهم و يحبّون لهم و يوالونهم؟ قال: ليس هم من الشيعة و لكنهم من أولئك ثم قرأ: «لُعِنَ الَّذِينَ‏- الى قوله- وَ لكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فاسِقُونَ» قال: الخنازير على لسان داود و القردة على لسان عيسى عليهما السلام.

و

فيه عنه عن أبي عبد اللَّه (ع) قال: لما بلغ امير المؤمنين (ع) امر معاوية و انه في مائة الف قال: من أي القوم؟ قالوا: من أهل الشام، قال (ع): لا تقولوا من اهل الشام و لكن قولوا من اهل الشؤم، هم من أبناء مصر لعنوا على لسان داوود فجعل اللَّه منهم القردة و الخنازير ...

(2)

المصدر عن ثواب الأعمال باسناده قال: قال علي (ع): لما وقع التقصير في بني‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 180

فهم في ذلك الثالوث المنحوس‏ «لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعَلُونَ» فعلا للمنكر أم تركا للنهي عن المنكر و تركا للتناهي.

تَرى‏ كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ فِي الْعَذابِ هُمْ خالِدُونَ (80):

«تَرى‏ كَثِيراً مِنْهُمْ»: أهل الكتاب و لا سيما اليهود «يتولّون» نصرة و محبة أماهيه من شؤون الولاية «الَّذِينَ كَفَرُوا» و هم هنا المشركون، و من ذلك أنهم يفضّلونهم على المسلمين حيث‏ «يَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هؤُلاءِ أَهْدى‏ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا» (4: 51) «لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ» من شتات كفرهم و بالنتيجة «أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ فِي الْعَذابِ هُمْ خالِدُونَ» عذاب في الأولى في ضنك المعيشة و آخر في الأخرى في ضنك العذاب: «وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى‏» (20: 124).

و لقد نرى أهل الكتاب و لا سيما اليهود يتولون المشركين و الملحدين نقمة على المسلمين منذ عهد الرسول (ص) و حتى الآن حيث يؤلبونهم على المسلمين بكافة المحاولات، و لم تقم دويلة العصابات الاسرائيلية منذ زمن قريب إلّا بالولاء الجماهيري بين كتل الكفر شرقيا و غربيا، و قد كان للإلحاد الشيوعي السوكيتي و أضرابه نصيب وفير من الاحتلال الصهيوني للقدس و سائر فلسطين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

إسرائيل جعل الرجل منهم يرى أخاه على الذنب فينهاه فلا ينتهي فلا يمنعه من ذلك ان يكون أكيله و جليسه و شريبه حتى ضرب اللَّه عزّ و جلّ قلوب بعضهم ببعض و نزل فيهم القرآن حيث يقول عزّ و جلّ: «لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ...»

و

فيه عن تفسير العياشي عن محمد بن الهيثم التميمي عن أبي عبد اللَّه (ع) في قوله‏ «كانُوا لا يَتَناهَوْنَ ..» قال:

أما انهم لم يكونوا يدخلون مداخلهم و لا يجلسون مجالسهم و لكن كانوا إذا لقوهم ضحكوا في وجوههم و أنسوا بهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 181

و هذا درس للمسلمين في ضرورة اعتصامهم بحبل اللَّه جميعا، كفاحا صارما في كل ميادين النضال بين الكفر و الإيمان.

وَ لَوْ كانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ النَّبِيِّ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِياءَ وَ لكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فاسِقُونَ (81):

و ترى «النبي» هنا هو نبينا؟ و القضية الأولى للإيمان به و ما أنزل إليه هي ولاية المؤمنين به حيث‏ «الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ»! أم هو «النبي» الذي به يعتقدون- على حدّ دعواهم-؟ و الإيمان به يصونهم- لأقل تقدير- عن اتخاذ المشركين أولياء فإنه القضية الأولى للإيمان الكتابي!.

و قد يعني «لو كانوا» إلى ذلك المعني «لو كانوا» هؤلاء الكفار الذين اتخذوهم هؤلاء أولياء «لَوْ كانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ النَّبِيِّ» محمد «وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِ» كما المسلمون‏ «مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِياءَ» لانطباعهم على الكفر، فهم يحيدون عن الإيمان و المؤمنين باللَّه، و تصديق ذلك العداء العارم على المؤمنين المسلمين:

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى‏ ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهْباناً وَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (82):

هنا يقتسم الناس وجاه الذين آمنوا إلى ثلاث، فالنسناس منهم هم‏ «أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا» من اليهود و المشركين، إخوان اثنان في ذلك الأشد بأشدّه، و الناس منهم و هم‏ «أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا- الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى‏» حين قال المسيح‏ «مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ اشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» (3: 52) «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصارَ اللَّهِ كَما قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 182

أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ ..» (61: 14).

فهم أولاء الذين‏ «قالُوا إِنَّا نَصارى‏» من الحواريين الصادقين في إيمانهم و من تبعهم بإحسان، و هم الموحدون القلة بين المثلثين الكثرة، مؤمنين بالرسالة العيسوية كما يصح، و من أهم قضاياه البشارة بالرسالة المحمدية (ص).

فالإيمان الكتابي الصادق مصدّق بالإيمان القرآني اللّاحق و هو بارز في جمع من النصارى، و لكن اليهود العنود هم أعدى الأعداء «لِلَّذِينَ آمَنُوا» إذ لم يؤمنوا بالرسالة الموسوية إلّا نفاقا عارما أو كفرا صارما، اللّهم إلّا القليل ممن وفى لرعاية الحق منهم.

ذلك، و

قد يروى عن النبي (ص) قوله: «ما خلا يهودي بمسلم إلا هم بقتله- أو- حدث نفسه بقتله» «1»

و أما هؤلاء النصارى‏

«أولئك كانوا قوما بين عيسى و محمد عليهما السلام ينتظرون مجي‏ء محمد (ص) «2»

و أضرابهم من المؤمنين بالحق.

ذلك، و لكنه هل ترى المودة النصرانية غير المحلّقة على كلهم للذين آمنوا، كيف تجعلهم أقرب مودة لهم، دون اليهود و المشركين و قد آمن منهما جموع كما آمن من النصارى؟.

هذا، لأن الذين قالوا إنا نصارى هم جمع خصوص من المسيحيين، و لا نجد جمعا هكذا بين اليهود و المشركين اللهمّ إلّا فالتين عنهم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 2: 302- أخرج ابو الشيخ و ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه (ص):

(2)

نور الثقلين 1: 663 في تفسير العياشي عن مروان عن بعض أصحابنا عن أبي عبد اللَّه (ع) قال: ذكر النصارى و عداوتهم فقال: قول اللَّه‏ «ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهْباناً وَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ» قال: أولئك ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 183

ثم و «بِأَنَّ مِنْهُمْ ..» علل ثلاث لكونهم ككلّ، و بطبيعة الحال الكتابية السليمة، هم أقرب مودة للذين آمنوا.

فمهما كان بين اليهود أحبار كما بين النصارى قسيسون و رهبان، و لكن أين أحبار من اليهود و أين قسيسون و رهبان من النصارى، فظاهرة الاستكبار في أحبار اليهود، و ظاهرة عدم الاستكبار في القسيسين و الرهبان، هما ظاهرتان متناحرتان تجعلان اليهود و النصارى ككل متناحرين في حقل المودة للذين آمنوا.

ذلك، لأن الحياة السعيدة قائمة بالعلم و التواضع أمام الحق، و القيادة العلمية المتواضعة بين الذين قالوا إنا نصارى تجعل من شعوبهم عارفين الحق، و التواضع البارز فيهم يجعل منهم غير متصلبين أمام الحق، و ليس لليهود طول تاريخهم- إلّا القليل- هذه القيادة السليمة.

و أما المشركون فهم يفقدون أصل القيادة الصالحة إلى قيادة شركية طالحة بحتة كالحة، و أنحس منهم اليهود الذين يعادون الذين آمنوا كما المشركين أو اكثر منهم، و هم أهل كتاب و بينهم قيادات روحية توراتية!.

ذلك، و أما العداء العارم الذي يحمله المبشرون المسيحيون ضد الإسلام، بدعايات و كتابات و محاولات مضللة أخرى ضد الإسلام، في حين لا نجد لليهود هكذا دعايات؟.

نقول فيها أولا انهم ليسوا من النصارى مهما «قالُوا إِنَّا نَصارى‏» حيث لم يفوا لرعاية الحق في المسيح (ع) فهم خارجون عمن يصفهم اللَّه تعالى بتلك المودة الايمانية.

و أما جحود اليهود عن الدعاية اليهودية؟ فلأنهم يرونهم أنفسهم شعب اللَّه المختار، فلا يختارون- إذا- ذلك الإختيار لمن سواهم، ثم هم يعرقلون ضد المسلمين كافة العرقلات في مختلف الحقول حتى يخرجوهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 184

عن دينهم، أو يحرجوهم فيميلوا إليهم، فهم أشد و أنكى من المسيحيين، و هم رؤوس كافة المشاكل ضد المسلمين و كما قال اللَّه: «وَ قَضَيْنا إِلى‏ بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَ لَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً ..».

ذلك، و لا تعني‏ «أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا» إلّا «الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى‏» بمواصفات لهؤلاء ليس يحملها إلّا جماعة خصوص من النصارى.

فهنا «ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهْباناً وَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ» و القسّيس هو معرب كشيش، عالم النصارى، و الرهبان هم المتعبدون المتزهدون علماء و سواهم، فالعلم و الزهادة في القيادة هما المؤثران الرئيسيان في صلاح الشعوب، إضافة إلى عدم الاستكبار في تلك القيادة، و من ثم، و على أثر هذه الثلاث: «قالُوا: ... قِسِّيسِينَ وَ رُهْباناً وَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ» فهم:

وَ إِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى‏ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ (83):

و هؤلاء هم- ممن سبق- نصارى الحبشة حين بعث الرسول (ص) جماعة من المسلمين إلى النجاشي فلقوا إجابة لهذه الرسالة السامية دونما نكول أو خمول‏ «1» و لم يسبق لهم مثيل في اليهود، و لا في المشركين،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 302- أخرج عن جماعة انه بعث رسول اللَّه (ص) عمرو بن امية الضمري و كتب معه كتابا الى النجاشي فقدم على النجاشي فقرأ كتاب رسول اللَّه (ص) ثم دعا جعفر بن أبي طالب و المهاجرين معه و أرسل النجاشي الى الرهبان و القسيسين فجمعهم ثم امر جعفر بن أبي طالب ان يقرأ عليهم القرآن فقرأ عليهم سورة مريم فآمنوا بالقرآن و فاضت أعينهم من الدمع و هم الذين انزل فيهم‏ «وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً- الى- الشَّاهِدِينَ»

و فيه عن سعيد بن جبير في الآية قال: هم رسل النجاشي الذين أرسل بإسلامه و إسلام قومه كانوا سبعين رجلا اختارهم من قومه الخير فالخير في الفقه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 185

اللهمّ إلّا في فتح مكة حيث أسلم المشركون طوعا أو كرها بعد ردح طويل من الزمن من محارباتهم و مضايقاتهم ضد الرسول (ص) و الذين آمنوا معه.

فقد «كان رسول الله (ص) و هو بمكة يخاف على أصحابه من المشركين فبعث جعفر بن أبي طالب و ابن مسعود و عثمان ابن مظعون في رهط من أصحابه إلى النجاشي ملك الحبشة ..» «1» مهاجرة مؤقتة،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و السن، و في لفظ بعث من خيار أصحابه الى رسول اللَّه (ص) ثلاثين رجلا فلما أتوا رسول اللَّه (ص) دخلوا عليه فقرأ عليهم سورة يس فبكوا حين سمعوا القرآن و عرفوا انه الحق فانزل اللَّه فيهم‏ «ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ ..».

(1). المصدر: .... لما بلغ المشركين بعثوا عمرو بن العاصي في رهط منهم ذكروا أنهم سبقوا اصحاب النبي (ص) الى النجاشي فقالوا: انه قد خرج فينا رجل سفه عقول قريش و أحلامها زعم انه نبي و انه بعث إليك رهطا ليفسد عليك قومك فأحببنا أن نأتيك و نخبرك خبرهم، قال: إن جاءوني نظرت فيما يقولون، فلما قدم أصحاب رسول اللَّه (ص) فأتوا إلى باب النجاشي فقالوا: استأذن لأولياء اللَّه فقال: ائذن لهم فمرحبا بأولياء اللَّه فلما دخلوا عليه سلموا فقال الرهط من المشركين الم تر أيها الملك أنا صدقناك و انهم لم يحيوك بتحيتك التي تحيا بها؟ فقال لهم: ما يمنعكم أن تحيوني بتحيتي؟ قالوا: إنا حييناك بتحية اهل الجنة و الملائكة، فقال لهم: ما يقول صاحبكم في عيسى و امه؟ قالوا: يقول: عبد اللَّه و رسوله و كلمة من اللَّه و روح منه ألقاها الى مريم، و يقول في مريم: انها العذراء الطيبة البتول، قال: فأخذ عودا من الأرض فقال: ما زاد عيسى و امه على ما قال صاحبكم هذا العود، فكره المشركون قوله و تغير وجوههم فقال: هل تقرءون شيئا مما انزل عليكم؟ قالوا: نعم، قال: فاقرأوا فقرأوا و حوله القسيسون و الرهبان و سائر النصارى فجعلت طائفة من القسيسين و الرهبان كلما قرءوا آية انحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق، قال اللَّه: ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ‏- الى- مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ».

و

في نور الثقلين 1: 661 عن تفسير القمي‏ كان سبب نزول هذه الآية انه لما اشتدت قريش في أذى رسول اللَّه (ص) و أصحابه الذين آمنوا به بمكة قبل الهجرة أمرهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 186

و دعاية للإسلام، فاستنصارا بمن يؤمن في هذه الرحلة، و قد حصلت كأحسن ما يرام لصالح الإسلام حيث آمن النجاشي و جمع من القسيسين و الرهبان و سواهم من‏ «الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى‏».

فهؤلاء القدامى و من يتابعهم بإحسان طول التاريخ الإسلامي، هم المعنيون بهذه الآيات الواصفة ل «الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى‏» دون الضالين منهم و المضللين، «إِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا أُولئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ» (3: 199).

و

لقد أمر الرسول (ص) المؤمنين أن يصلوا على النجاشي حيث مات في طريقه إليه (ص) مؤمنا بهذه الرسالة السامية، فقال المنافقون: أنظروا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

رسول اللَّه (ص) أن يخرجوا إلى الحبشة و امر جعفر بن أبي طالب ان يخرج معهم فخرج جعفر و معه سبعون رجلا من المسلمين حتى ركبوا البحر- ثم يستمر في القصة بزيادات عما نقلناه عن الدر المنثور الى قوله-: و رجع عمرو الى قريش فأخبرهم ان جعفرا في ارض الحبشة في أكرم كرامة .. فكتب رسول اللَّه (ص) إلى النجاشي يخطب أم حبيب فبعث إليها النجاشي فخطبها لرسول اللَّه (ص) فأجابته فزوجها منه و أصدقها اربعمائة دينار و ساقها عن رسول اللَّه (ص) و بعث إليه (ص) بمارية القبطية ام ابراهيم و بعث اليه بثياب و طيب و فرس و بعث ثلاثين رجلا من القسيسين فقال لهم انظروا إلى كلامه و إلى مقعده و مشربه و مصلاه فلما وافوا المدينة دعاهم رسول اللَّه (ص) إلى الإسلام و قرأ عليهم القرآن: «إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَ عَلى‏ والِدَتِكَ‏- الى قوله-: فَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ» فلما سمعوا ذلك من رسول اللَّه (ص) بكوا و آمنوا و رجعوا إلى النجاشي فأخبروه خبر رسول اللَّه (ص) و قرءوا عليه ما قرأ عليهم رسول اللَّه (ص) فبكى النجاشي و بكى القسيسون و اسلم النجاشي و لم يظهر للحبشة إسلامه و خافهم على نفسه فخرج من بلاد الحبشة يريد النبي (ص) فلما عبر البحر توفي فأنزل اللَّه على رسوله: «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ‏- الى قوله-: ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 187

إلى هذا يصلي على علج نصراني حبشي لم يره قط و ليس على دينه فأنزل اللَّه هذه الآية «1».

و

لقد كان من كتاب رسول اللَّه (ص) إلى النجاشي حين بعث وفده إلى الحبشة: «بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول اللَّه إلى النجاشي الأصحم صاحب حبشة، سلام عليك، إني أحمد إليك اللَّه الملك القدوس المؤمن المهيمن و أشهد أن عيسى بن مريم روح اللَّه و كلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه من روحه و نفخه كما خلق آدم بيده و نفخه فيه و إني أدعوك إلى اللَّه وحده لا شريك له، و الموالاة على طاعته و أن تتبعني و تؤمن بي و بالذي جاءني فإني رسول اللَّه قد بعثت إليكم ابن عمي جعفر بن أبي طالب معه نفر من المسلمين فإذا جاءوك فأقرهم ودع التجبر فإني أدعوك و جيرتك إلى اللَّه تعالى و قد بلغت و نصحت فاقبلوا نصيحتي و السلام على من اتبع الهدى.

وَ ما لَنا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ ما جاءَنا مِنَ الْحَقِّ وَ نَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنا رَبُّنا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (84):

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

بحار الأنوار 18: 411 عن الطبرسي‏ قيل نزلت‏ «إِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ ..» في النجاشي ملك الحبشة و اسمه اصحمة و هو بالعربية عطية و ذلك انه لما مات نعاه جبرائيل لرسول اللَّه (ص) في اليوم الذي مات فيه فقال رسول اللَّه (ص): أخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم، قالوا: و من هو؟ قال: النجاشي، فخرج رسول اللَّه (ص) الى البقيع و كشف له من المدينة الى ارض الحبشة فأبصر سرير النجاشي و صلى عليه، فقال المنافقون ...

و قيل: نزلت في جماعة من اليهود كانوا اسلموا منهم عبد اللَّه بن سلام و من معه عن ابن جريح و ابن زيد و ابن إسحاق، و قيل:

نزلت في مؤمني اهل الكتاب كلهم.

أقول: هذا الأخير هو الأصح إذ «لَيْسُوا سَواءً مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ ... وَ ما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ» مهما كانت النصارى اقرب ايمانا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 188

«و مالنا» استفهام استنكار لعدم الإيمان بعد مجي‏ء الحق الناصع، أن الحق بنفسه مطلوب فطري و عقلي، و لا سيما في رجاء الرحمة على ضوء الإيمان به‏ «وَ نَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنا رَبُّنا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ» الذين سبقونا بصالح الإيمان.

فالإيمان باللَّه هنا رأس الزاوية، «وَ ما جاءَنا مِنَ الْحَقِّ» من اللَّه هو شرعة الحق، «وَ نَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنا» هو النتاج الآجل- بعد العاجل- للإيمان الحق، و هذه هي أصول الدين بفروعه في الشرعة القرآنية.

فَأَثابَهُمُ اللَّهُ بِما قالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ (85):

«... بِما قالُوا» قولة الإيمان و العمل الصالح دون مجرد قولة اللسان، و هذه الإثابة مما يبرهن لنا أن‏ «أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا» ليسوا كل النصارى، و إنما هم الموصوفون بهذه المواصفات الناحية منحى الإيمان، دون الناحية عن الإيمان أو العوان بين الإيمان و اللّاإيمان.

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (86):

تلك هي ضفّة صالح الإيمان، و هذه ضفّة كالح الكفر و بينهما متوسطات بين‏ «فَأَثابَهُمُ اللَّهُ» و «أَصْحابُ الْجَحِيمِ» فقد يعذبون قدر ما يستحقون ثم مصيرهم إلى الجنة.

ذلك، و لأن جدد الإيمان من المسيحيين ظلوا شيئا مّا على الرهبانية المبتدعة فأثرت في المسلمين، لذلك تأتي هدى من اللَّه تعدل هذه الحالة إلى ما شرّعه اللَّه:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 189

[سورة المائدة (5): الآيات 87 الى 96]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَ لا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (87) وَ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (88) لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ وَ لكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعامُ عَشَرَةِ مَساكِينَ مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمانِكُمْ إِذا حَلَفْتُمْ وَ احْفَظُوا أَيْمانَكُمْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (89) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصابُ وَ الْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90) إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ وَ يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ عَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (91)

وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ احْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما عَلى‏ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (92) لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا إِذا مَا اتَّقَوْا وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَ آمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَ أَحْسَنُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (93) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْ‏ءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنالُهُ أَيْدِيكُمْ وَ رِماحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدى‏ بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ (94) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ وَ مَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَ مَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ (95) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَ طَعامُهُ مَتاعاً لَكُمْ وَ لِلسَّيَّارَةِ وَ حُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ما دُمْتُمْ حُرُماً وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (96)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 191

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَ لا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (87) وَ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّباً وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (88):

هذه، و «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» (7: 32) هاتان الآيتان تعدّلان إفراط التقشّف المتسرّب من رهبنة النصارى، المترسب في البعض من المسلمين، و التحريم هذا يشمل مثلثه: تحريما تشريعيا أم شخصيا على نفسه أم على غيره، و الأخيران هما تحريمان عمليان.

و «طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ» قد تعني غير المباحات و المرجوحات، فالمحرمات خارجة عما «أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ» فتبقى الواجبات و المستحبات و تحريمهما تشريعيا أم بنذر أو عهد أو يمين تحريم لطيبات ما أحل اللَّه، و أمّا أن تحرّم على نفسك مرجوحا أم و مباحا في تركه رجاحة، بحلف و شبهه فلا يدخل في نطاق التحريم فإنهما ليسا من الطيبات مهما كانا مما أحل اللَّه، و ليست الرهبنة المنهية إلّا تحريم الراجحات واجبة أو مندوبة.

و قد يشمل تحريم طيبات ما أحل اللَّه إضافة إلى التشريعي منه و العملي ان يعتقد في حرمة محلل أو يفتي به أو يعامله معاملة المحرم، أو أن يخلط الحلال بالحرام دون تميز فيحرم- إذا- الحلال، فالنهي إذا يشمل كل مراحل التحريم دونما استثناء.

و ما توصيف البعض ب «رهبانا» امتداحا لهم طليقا، فإنما هو امتداح أمام المتورطين في اللذوذ المادية و جمع الأموال من اليهود، و يؤيد ذلك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 192

الوسط النسبي: «وَ رَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ» (57: 27).

إذا فالرهبانية المكتوبة عليهم كانت مشروطة بشروط و ملابسات خاصة أمام اليهود، ثم نسخت في شرعة الإسلام مع سائر ما نسخ من أحكام توراتية أو إنجيلية، فما كانت الرهبانية المكتوبة كأصل من شرعة الناموس، بل هي كتابة مؤقتة لمصلحة خاصة في ملابسات خاصة غير مستمرة و لا راجعة، فلا رهبانية- إذا- في الإسلام.

و هنا «لا تعتدوا» نهي عن الاعتداء في حقل الطيبات في جانبي الإفراط و التفريط، فمن الإفراط تحريم طيبات و من أنحسه الإخصاء الذي صمم عليه بعض المجاهيل من المسلمين، و من التفريط تحليل البعض من غير الطيبات، كما و هو نهي عن الاعتداء على اللَّه و على نفسك و سواك ثم‏ «طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ» تعم الطيبات الجنسية نكاحا محللا، و طيبات المساكن و الملابس و المطاعم و المشارب، دون أي إفراط أو تفريط.

و لقد ورد في الآثار المروية عن النبي (ص) و أئمة أهل بيته الأطهار عليهم السلام التنديد الشديد بتحريم ما أحل اللَّه بألفاظ مختلفة عدة، مما يشعرنا بملابسة خاصة عند نزول هذه الآية، و إن الرهبنة المدسوسة بين المسلمين ما كانت تقف لحد مثل ترك المقويات و المشهيات حتى لا يشتهي النساء، ثم و ترك إتيان النساء، فقد وصلت إلى العزم على الإخصاء و الجبّ و ما أشبه فنهى عنها النبي (ص) و نزلت هذه الآية و التي في الأعراف و أضرابهما مما تحلل الطيبات‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في الدر المنثور 2: 307- ان رجلا أتى النبي (ص) فقال يا رسول اللَّه (ص) إني إذا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 193

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أكلت اللحم انتشرت للنساء و اخذتني الشهوة و اني حرمت عليّ اللحم فنزلت هذه الآية،

و

فيه عن ابن عباس في الآية قال: نزلت في رهط من الصحابة قالوا نقطع مذاكيرنا و نترك شهوات الدنيا و نسيح في الأرض كما تفعل الرهبان فبلغ ذلك النبي (ص) فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك قالوا: نعم فقال النبي (ص): لكني أصوم و أفطر و أصلي و أنام و انكح النساء فمن أخذ بسنتي فهو مني و من لم يأخذ بسنتي فليس مني،

و

فيه عن ابن مسعود قال‏ كنا نغزو مع رسول اللَّه (ص) و ليس معنا نساءنا فقلنا ألا نستخصي فنهانا رسول اللَّه (ص) عن ذلك و رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب الى اجل ثم قرأ عبد اللَّه هذه الآية،

و

فيه عن أبي قلابة قال: أراد ناس من اصحاب رسول اللَّه (ص) ان يرفضوا الدنيا و يتركوا النساء و يترهبوا فقام رسول اللَّه (ص) فغلظ فيهم المقالة ثم قال: إنما هلك من كان قبلكم بالتشديد شددوا على أنفسهم فشدد اللَّه عليهم فأولئك بقاياهم في الديار و الصوامع اعبدوا اللَّه و لا تشركوا به شيئا و حجوا و اعتمروا و استقيموا يستقم بكم، قال: و نزلت هذه الآية،

و

فيه عن قتادة في الآية قال: ذكر لنا ان رجالا من اصحاب النبي (ص) رفضوا النساء و اللحم و أرادوا ان يتخذوا الصوامع فلما بلغ ذلك رسول اللَّه (ص) قال: ليس في ديني ترك النساء و اللحم و لا اتخاذ الصوامع،

و

فيه اخرج ان أبي شيبة و ابن جرير عن أبي عبد الرحمن قال: قال النبي (ص) لا آمركم أن تكونوا قسيسين و رهبانا،

و

فيه اخرج ابن جرير عن السدي قال‏ ان رسول اللَّه (ص) جلس يوما فذكر الناس ثم قام و لم يزدهم على التخويف فقال ناس من اصحاب رسول اللَّه (ص) ما حقنا ان لم نحدث عملا فان النصارى قد حرموا على أنفسهم فنحن نحرم فحرم بعضهم أكل اللحم و الودك و أن يأكل منها و حرم بعضهم النوم و حرم بعضهم النساء فكان عثمان بن مظعون ممن حرم النساء و كان لا يدنو من أهله و لا يدنون منه فأتت امرأته عائشة و كان يقال لها الحولاء فقالت لها عائشة و من حولها من نساء النبي (ص) ما بالك يا حولاء متغيرة اللون لا تمتشطين و لا تتطيبين؟ فقالت و كيف أتطيب و امتشط و ما وقع علي زوجي و لا رفع عني ثوبا منذ كذا و كذا فجعلن يضحكن من كلامها فدخل رسول اللَّه (ص) و هن يضحكن فقال ما يضحككن، قالت يا رسول اللَّه (ص) الحولاء سألتها عن أمرها فقالت ما رفع عني زوجي ثوبا منذ كذا و كذا فأرسل اليه فدعاه فقال ما بالك يا عثمان، قال: اني تركته للَّه لكي اتخلي للعبادة و قصّ عليه امره و كان عثمان قد أراد أن بجبّ نفسه فقال رسول اللَّه (ص) أقسمت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 194

أجل «لا تحرموا .. و لا تعتدوا» اعتداء على اللَّه تشريعا خلاف ما شرعه، ثم على نفسك تحريما عمليا لما أحلّ اللَّه، ثم على غيرك، و من ثم اعتداء في حقل طيبات ما أحل اللَّه إسرافا أو تبذيرا، فإن كل ذلك اعتداء تشملها «لا تعتدوا».

«وَ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ...» أمر عقيب حظر يفيد الإباحة بمختلف مراحلها، ثم «حلالا طيبا» تفيد سماح الأكل بالرزق الحلال فإن منه حراما كما «تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَ رِزْقاً حَسَناً» (16: 67) فتقييد «رزقا» ب «حسنا» يلمح أن هناك رزقا سيئا، و ذلك قضية التوحيد الأفعالي أن المأكول المحرم رزق سي‏ء لمن أختاره بسوء الإختيار.

و قد تعني «كلوا» كافة التصرفات كما «لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ» (2: 188)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

عليك إلّا رجعت فواقعت أهلك فقال يا رسول اللَّه (ص) إني صائم قال: أفطر:

فأفطر و أتى اهله فرجعت الحولاء إلى عائشة قد اكتحلت و امتشطت و تطيبت فضحكت عائشة فقالت: مالك يا حولاء فقالت: إنه أتاها أمس فقال رسول اللَّه (ص) ما بال أقوام حرموا النساء و الطعام و النوم ألا إني أنام و أقوم و أفطر و أصوم و انكح النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني فنزلت‏ «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَ لا تَعْتَدُوا» يقول: لا تجبّ نفسك فان هذا هو الاعتداء و أمرهم أن يكفروا ايمانهم فقال:

لا يؤاخذكم اللَّه باللغو في ايمانكم ....

و

فيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال‏ ان رجالا من اصحاب النبي (ص) منهم عثمان بن مظعون حرموا اللحم و النساء على أنفسهم و أخذوا الشفار ليقطعوا مذاكيرهم لكي تنقطع الشهوة عنهم و يتفرغوا لعبادة ربهم فأخبر بذلك النبي (ص) فقال: ما أردتم؟ قالوا: أردنا ان نقطع الشهوة عنا و نتفرغ لعبادة ربّنا و نلهو عن الناس فقال رسول اللَّه (ص): لم أؤمر بذلك و لكني أمرت في ديني أن أتزوج النساء فقالوا نطيع رسول اللَّه (ص) فأنزل اللَّه هذه الآية فقالوا: كيف نصنع بأيماننا التي حلفنا عليها فأنزل اللَّه‏ «لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ ...»

و

فيه عنه (ص) ان خصاء امتي الصيام و ليس من امتي من خصى أو اختصى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 195

فقد بلغ الأكل إيجابيا و سلبيا مبلغ العموم لحد لو لا القرينة المعينة لخصوص الأكل لما تعين به.

و قد تعني «مما» الحظر عن أكل كل الحلال حيث الانفاقات الواجبة و المستحبة تتهدر بذلك الإسراف و التبذير، اللهم إلّا من له كفاف لا زائد و لا ناقص.

ذلك، و من أطيب الطيبات المحللة نكاح الطيبات، فتركه مع الحاجة إليه و أنت على سعة من المال إمّا حمق أو فجور أم رهبنة ليست في الإسلام‏ «1».

أ ترى أن حلف المسلم على ترك طيبات محللة محظور عليه أن يلغي يمينه؟:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر أخرج عبد الرزاق و احمد عن أبي ذر قال‏ دخل على رسول اللَّه (ص) رجل يقال له عطاف بن بشير التميمي فقال له النبي (ص) هل لك من زوجة؟ قال: لا، قال: و لا جارية؟ قال: و لا جارية، قال: و أنت موسر بخير؟ قال: نعم، قال:

أنت إذا من اخوان الشيطان لو كنت من النصارى كنت من رهبانهم ان من سنتي النكاح شراركم عزابكم و أراذل موتاكم عزابكم أ بالشيطان تتمرسون ما للشيطان من سلاح أبلغ في الصالحين من النساء إلّا المتزوجين أولئك المطهرون المبرؤون من الخنا ويحك يا عكاف ... تزوج و إلّا فأنت من المذبذبين.

و

فيه أخرج عبد الرزاق و ابن أبي شيبة و البيهقي عن أبي نجيح قال: قال رسول اللَّه (ص): من كان موسرا لأن ينكح فلم ينكح فليس مني،

و

فيه عنه قال: قال رسول اللَّه (ص): مسكين مسكين مسكين رجل ليست له امرأة، قيل يا رسول اللَّه (ص) و إن كان غنيا ذا مال؟ قال: و إن كان غنيا ذا مال، قال: و مسكينة مسكينة مسكينة امرأة ليس لها زوج قيل يا رسول اللَّه (ص) و إن كانت غنية أو مكثرة من المال؟ قال: و إن كانت.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 196

لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ وَ لكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعامُ عَشَرَةِ مَساكِينَ مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمانِكُمْ إِذا حَلَفْتُمْ وَ احْفَظُوا أَيْمانَكُمْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (89):

«وَ لا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَ تَتَّقُوا وَ تُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ وَ لكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ» (225).

اللغو في الأيمان يعني- ككلّ- اليمين اللّاغية كالتالية:

1- أن تجعل اللَّه عرضة ليمينك دون تقصّد لأمر يحتاج إلى يمين كأن تقول‏

«لا و الله و بلى و الله و لا يعقد على شي‏ء

» «1».

2- أو أن تحلف بترك الواجب أو فعل الحرام، أو الالتزام بترك سنة أو فعل مرجوح فإنه من لغو الإيمان إذ لا تثبت امرا و لا تنفي بحساب الشرع.

3- أم تحلف على فعل راجح لزاما و سواه، أم على ترك مرجوح لزاما و سواه و لا تنوي الالتزام به.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما

في الكافي عن مسعدة عن الصادق (ع) في الآية قال: اللغو قول الرجل: ...

و

مثله ما في الدر المنثور 1: 269 عن عائشة أن رسول اللَّه (ص) قال: هو كلام الرجل في يمينه كلا و اللَّه و بلى و اللَّه،

و

فيه عن الحسن قال: مر رسول اللَّه (ص) بقوم ينتصلون و مع النبي (ص) رجل من أصحابه فرمى رجل من القوم فقال: أصبت و اللَّه اخطأت و اللَّه فقال الذي مع النبي (ص) حنث الرجل يا رسول اللَّه (ص) فقال: كلّا أيمان الرماة لغو لا كفارة فيها و لا عقوبة؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 197

4- أم تحلف هكذا ناويا التزامك به ثم تلغيه تحلّة مفروضة أم راجحة أم محرمة.

5- أم حلفا بغير اللَّه فإنه محظور إذ لا حلف إلّا باللَّه كما لا نذر إلّا للَّه.

و مهما كان المناسب لملابسة الآية نظرة إلى سالفتها هو الثاني و لكن لفظ الآية لا يتقيد بها، حيث يعم هذه الخمسة دون إبقاء، و مهما كانت الأخيرة لا تحسب من «أيمانكم» فكذلك الأربعة الباقية.

كما و أن‏ «وَ احْفَظُوا أَيْمانَكُمْ» تعم كل حفاظ على الأيمان، حفاظا لها عن كل لغو، فمهما كان اللغو في الأيمان في مراحلها الخمس غير مؤاخذ بها كأصل، حيث المؤاخذة هي‏ «بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ» و «بِما كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ» و لكن اللغو في الأيمان محظور مغفور.

فالأيمان الصحيحة الصالحة هي واجبة الحفظ ألّا تلغ، و الأيمان الباطلة غير الصالحة هي واجبة الإلغاء و هي نفسها محظورة مهما كانت بجنب «ما عقدتم الأيمان- و- ما كسبت قلوبكم» مغفورة، فالمؤاخذة- إذا- ليست هي الألسن، بل هي القلوب، ثم كفارته ...

فالأيمان اللّاغية مؤاخذ بها بما عقّدتم الأيمان، تعقيدا في صالحها بإلغائها دونما عذر، حيث تجب تمشيتها، أو تعقيدا حين تحلفون في صالح كأن لا تنووا تحقيقها، أم في طالح فإنها معقدة شرعيا حيث لا تنفذها شرعة اللَّه، أم في أمر لاغ لا صالح و لا طالح كأن لا تنووا أمرا كقول لا و اللَّه و بلى و اللَّه.

و لأن‏ «بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ» قد تشمل هذه الخمس كلها مهما اختلفت دركاتها، فقد تكون الكفارة المتفرعة على التعقيد محلّقة عليها كلها، فإن ضمير المفرد هنا لا مرجع له إلّا «ما عقدتم»: جعلتم تعقيدا للأيمان إيجابيا أو سلبيا، نية أو عملية أماهيه من منافر اليمين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 198

ذلك، و لكن «ما عقدتم» لا تشمل ما لم تنو أمرا كالأخير إذا لم تعقّد فيه لا نية و لا أمرا نويته، بل هو ليس من اليمين أصلا.

فلو رجع الضمير إلى‏ «بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ» كانت الكفارة تشمل الرابعة مع ما سواها، و لكن بعده مرجعا، و بعده تفريعا حيث لا تفرع الكفارة على غير المؤاخذ به- هذان البعدان يبعّدان ذلك الرجوع، «فكفارته» أي‏ «بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ» حيث تعني الأيمان المعقّدة المؤكدة حتى تكون بمنزلة العقد المؤكد و الحبل المحصد- خلافا للّتي ليست معقودة على شي‏ء- تعقيدا في أصلها كان تحلف على تحقيق محظور أو ترك محبور، أم تعقيدا في النية في الحلف المحبور، أم تعقيدا في تحقيق محبور نويته في حلف، فهذه الثلاثة مشمولة ل «بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ فَكَفَّارَتُهُ ...» حيث كسبت قلوبكم فيها رينا و شينا، تخلفا عن شرعة اللَّه إيجابا أو تحريما متخلفا عنها، أم تخلفا في نيتك عما تحلف صالحا، أم تخلفا عن تطبيق ما حلفت و نويت.

ذلك فاللغو في الايمان المعقّدة فيه الكفارة بكل أقسامها، لمكان «فكفارته» حيث تعني «ما عقدتم» من لغو الأيمان، و لكنه متقيد بما كان التعقيد محرما، و أما القاصر المعقّد عن جهل فلم يكسب قلبه شيئا حتى يستلزم كفارة.

ذلك‏ «وَ احْفَظُوا أَيْمانَكُمْ» من أن تكون لغوا أو أن تلغوا فيها، فالأيمان اللّاغية غير القاصدة و لا المعقدة محظورة غير مؤاخذ بها و لا كفارة فيها، و الأيمان القاصدة المعقدة إن كانت صالحة فحفظها هو نية الالتزام بها و تحقيقها، و غير الصالحة حفظها تركها فلا يفعلها، و إذا فعل فلا يعمل طبقها.

ذلك، فاما المعتبرة الحاصرة لكفارة اليمين بالحنث في اليمين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 199

الصالحة فهل تصلح لتقييد الاية؟ و الأيمان اللاغية المعقدة كلها معنية بطليق «فكفارته» الراجع إلى‏ «بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ» إضافة إلى الطليق العام في‏ «ذلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمانِكُمْ إِذا حَلَفْتُمْ» حيث الحلف بعد الايمان يختصها بغير الأولى و الأخيرة اللاغية تماما!.

و لكن الذي يوهن الخطب هو أن ترك نية العمل و ترك العمل في المحبور هما واحد، تشملها القائلة «إذا لم تف به» ثم تعقيد المحظور بيمين فيه الكفارة إذا حقق المحظور، و إلّا فلا كفارة كما

في الصحيح: «ما حلفت عليه مما فيه البر فعليه الكفارة إذا لم تف به و ما حلفت مما فيه المعصية فليس عليك فيه الكفارة إذا رجعت عنه و ما كان سوى ذلك مما ليس فيه بر و لا معصية فليس بشي‏ء» «1»

و على أية حال:

«فَكَفَّارَتُهُ إِطْعامُ عَشَرَةِ مَساكِينَ مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ».

هنا الأوسط يختلف حسب مختلف الأوساط في الإطعام، و لكن «كسوتهم» طليقة، اللّهم إلّا أن تعني تكسوهم كسوتهم و هم الأهلون، و لكنه احتمال لا يحتمل الاستدلال، كما و أن‏ «تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» طليقة تعم أية رقبة.

ثم الأوسط يعم كمّ الطعام و كيفه، فإذا كان أقله كما لكلّ مد و أكثره مدان، و هو كيفا خبز و أكثره لحم ورز فالأوسط هنا بين الكمين كمدّ و نصف و بين الكيفين كلحم فقط أو رز.

و من الكم هو الكم الزمني، فإن كان يطعمهم في الأقل طعاما و في الأكثر آخر فالأوسط هو الأوسط بينهما «2» و كما منه الأوسط أكلا بين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هو صحيح زرارة قلت لأبي عبد اللَّه (ع): أي شي‏ء الذي فيه الكفارة من الأيمان؟

فقال: ما حلفت .... (الكافي 7: 446 و التهذيب 3: 330 و الاستبصار 4: 42).

(2)

نور الثقلين 1: 666 عن الكافي الحلبي عن أبي عبد اللَّه (ع) في الآية قال: هو كما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 200

أهليكم، فهذا مربع من الأوسط يشمله‏ «أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ».

و هنا «عَشَرَةِ مَساكِينَ» نص في عديدهم فلا يكفي إطعام واحد منهم عشرة طعمات و ما أشبه، و ظاهر الإطعام هو كامل الطعام.

و ترى إن كان عنده ما يكفي إطعام الأقل من عشرة مساكين فهل يرجع إلى صيام ثلاثة أيام؟ طبعا نعم فإن «لم يجد» تنحو منحى المذكورات الثلاث.

ثم ترى إن لم يستطع- إذا- الصيام فهل يرجع إلى واجب الإطعام؟

لا دليل عليه اللّهم إلّا تطوعا للخير، و أما «الميسور لا يسقط بالمعسور» فلا دور له في مجال النص.

و هل إن «كسوتهم» تعني أقله بستر العورتين، أم لا أقل من ثوبين‏ «1» قميصا و إزارا، أم ما صدقت عليه كسوة فيكفي قميص واحد يكسو الأعالي و الأداني‏ «2»؟ الظاهر إجزاء الأخير شرط أن يكسو العورتين تماما، و الأحوط إضافة إزار معه، حيث إن «كسوتهم» طليقة يكتفى فيها بمسماها المتعود، و لأن الكسوة مهما قلت هي زائدة على الإطعام فقد تكفي عنه حين لا تكفي كسوة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

يكون انه يكون في البيت من يأكل اكثر من المد و منهم من يأكل اقل من المد فبين ذلك و ان شئت جعلت لهم أدما و الأدم أدناه ملح و أوسطه الخل و الزيت و ارفعه اللحم.

(1). و مما يدل عليه‏

رواية الحلبي عن أبي عبد اللَّه (ع) في كفارة اليمين ... او كسوتهم لكل انسان ثوبان.

(2)

نور الثقلين 1: 667 عن الكافي عن أبي بصير قال‏ سألت أبا جعفر عليهما السلام عن «كسوتهم» قال: ثوب واحد،

و

في الدر المنثور 3: 313 عن حذيفة قال: قلنا يا رسول اللَّه «أو كسوتهم» ما هو؟ قال: عباءة عباءة،

و

عنه (ص) قال: عباءة لكل مسكين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 201

ذلك كفارة مخيّرة بين هذه الثلاثة «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ» شيئا منها و هو ما زاد عن مؤنة أهله‏ «1» «فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ» و لا يشترط فيها التتابع إذ لم يشترط، خلاف البعض الآخر ك «شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ» «2» و «ذلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمانِكُمْ إِذا حَلَفْتُمْ» في اللّاغية غير الأولى‏ «وَ احْفَظُوا أَيْمانَكُمْ» كما يجب‏ «كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

و في نظرة أخرى إلى الآية لمحات:

1- «لا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمانِكُمْ» تنهى فيما تنهى عن اللغو في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 666 عن الكافي الحبي عن أبي عبد اللّه (ع) في الآية قال: هو كما يكون انه يكون في البيت من يأكل اكثر من المد و منهم من يأكل اقل من المد فبين ذلك و ان شئت جعلت لهم أدما و الأدم أدناه ملح و أوسطه الخل و الزيت و ارفعه اللحم.

«فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ» ما حدّ من لم يجد و ان الرجل يسأل في كفه و هو يجد؟

فقال: إذا لم يكن عند فضل عن قوت عياله فهو ممن لم يجد.

(2)

المصدر عن الكافي عن الحلبي عن أبي عبد اللّه (ع) قال: صيام ثلاثة أيام في كفارة اليمين متتابعات لا يفصل بينهن،

و

فيه عنه (ع) قال: السبعة الأيام و الثلاثة الأيام في الحج لا تفرق انما هي بمنزلة الثلاثة الأيام في اليمين.

و

في الدر المنثور 3: 314- اخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما نزلت آية الكفارات قال حذيفة يا رسول اللّه (ص) نحن بالخيار قال: أنت بالخيار إن شئت اعتقت و إن شئت كسوت و ان شئت أطعمت فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام متتابعات.

أقول: و لا قوة لهذه الثلاث على تقييد اطلاق الآية فالأقوى إجزاء الأيام المتفرقات و الأحوط ان تكون متتابعات.

ذلك و

قد يروى عن النبي (ص) ان رجلا قال له علي ايام من رمضان أ فأقضيها متفرقات؟ فقال (ص): أ رأيت لو كان عليك دين فقضيت الدرهم فالدرهم اما كان يجزيك؟ قال: بلى قال: فاللّه أحق ان يعفو و يصفح‏ (تفسير الفخر الرازي 12: 78)

أقول: و هذه استفادة لطيفة من طليق الآية و كما هنا، و لا تطبق فيما نص على واجب التتابع ك «شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 202

الأيمان، فلا تعني‏ «لا يُؤاخِذُكُمُ» هنا إلا أصل المؤاخذة فإنه «بما عقدتم الأيمان- و- بما كسبت قلوبكم». و تعقيد اليمين عما يجب تركه محرم في كل مصاديقه.

2- «مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ» قد تعني الأوسط شخصيا لا جماعيا، فليس الأوسط في الجماعة المؤمنة مفروضا على البائس الفقير الذي لا يطعم أهليه بأوسطه إلّا خبزا طازجا، ثم «كسوتهم» طليقة لا تتقيد بأوسطها إذ لا دليل عليه هنا.

3- و هنا «تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» دون تقيّد بمؤمنة، هي مثل‏ «ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا» (58: 3) و «في الرقاب» في واجب إيتاء المال كما في (2: 177) أم واجب الزكاة و الصدقات كما في (9: 60) و كذلك واجب‏ «فَكُّ رَقَبَةٍ» (90: 13).

فقد قيدت الرقبة بالمؤمنة في قتل الخطأ (4: 92) لا سواه، و لم تقيد فيما سواه إطلاقا، فهل تقيّد «رقبة» في هذه العديدة المديدة ب «مؤمنة» لأنها قيدت في قتل الخطأ؟ و هذا خطأ من التقييد، بعيد عن صالح التعبير الطليق!.

و حصيلة الحكم في الآية هي حرمة اللغو في الأيمان أيا كان، و لكن المؤاخذة مختصة بتعقيد الأيمان كفارة و سواها، ثم سائر اللغو الذي ليس فيه تعقيد الأيمان لا مؤاخذة فيه بكفارة و سواها كأن تحلف دون أن تعقد على شي‏ء أم تحلف بغير اللّه.

فالحلف باللّه دون نية الالتزام، أو الحلف به بما هو محظور، أو الحلف مع النية ثم النقض، فالكفارة هي في هذه الثلاث لا سواها.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصابُ وَ الْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90) إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 203

يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ وَ يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ عَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (91):

لقد حرّمت آيات تحريم الإثم ال (48) بصورة طليقة كل إثم و هو ما يبطئ عن الثواب، و كانت في قمتها الخمر فإنها مفتاح لكل المنكرات، مبطئة عن كل ثواب هو قضية عقل الإيمان، فإذا زال العقل زالت الإنسانية و الإيمان و انفتحت كل أبواب الشر و اللّاإيمان.

نرى (11) آية من آيات الإثم مكية و الباقية مدنية، و من المكية: «قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ وَ الْإِثْمَ وَ الْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ..» (7: 33).

و إذا كان الإثم محرما فما ذا ترى في كبائر الإثم: «وَ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ» (42: 37) كما «وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرى‏ إِثْماً عَظِيماً» (4: 48) ثم نسمع اللّه يكبّر إثم الخمر في آية البقرة: «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ وَ إِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما» (219)، و بينهما مكية ك «وَ مِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَ رِزْقاً حَسَناً» (16: 67) حيث عد السكر رزقا سيئا، و مدنية ك «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَ أَنْتُمْ سُكارى‏ حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ ..» (4: 43) مهما كانت نازلة قبل آية البقرة أو بعدها، فإن لها دورا عظيما في تحريم الخمر إذ تقرر الحظر عن الصلاة- و هي عمود الدين- عند السكر، إذا فهو عمود اللّادين حيث يصد عن عمود الدين صدا فارضا محتوما.

و من أغرب الغرايب أن جماعة مثل الخليفة عمر ما كان يترك الخمر طوال هذه الآيات مكيات و مدنيات قائلا: «اللّهمّ بين لنا في الخمر بيانا شافيا فإنها تذهب المال و العقل فنزلت هذه الآية فدعي عمر فقرأت عليه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 204

فلما بلغ‏ «فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ» قال عمر: انتهينا انتهينا» «1».

و

قد شرب الخمر قبل آية المائدة كما تعوده فأخذ بلحى بعير و شجّ به رأس عبد الرحمن بن عوف ثم قعد ينوح على قتلى بدر فبلغ ذلك رسول اللّه (ص) فخرج مغضبا يجر رداءه فرفع شيئا كان في يده فضربه به فقال عمر: أعوذ باللّه من غضبه و غضب رسوله فأنزل اللّه‏ «إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ» فقال عمر: انتهينا انتهينا «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 252- اخرج ابن أبي شيبة و احمد في المسند 1: 53 و أبو داود في سنة 3: 138 و الترمذي في صحيحه و النسائي في السنن 8: 287 و أبو يعلي و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و النحاس في ناسخة و أبو الشيخ و ابن مردويه و الحاكم في المستدرك 3: 278 و 4: 143 و صححه و البيهقي في سننه 8: 285 و الضياء المقدسي في المختارة عن عمر انه قال: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فانها تذهب المال فنزلت: يسألونك عن الخمر و الميسر .. في البقرة فدعي عمر فقرأت عليه فقال:

اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فنزلت التي في النساء «لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَ أَنْتُمْ سُكارى‏ ...» فكان منادي رسول اللّه (ص) إذا أقام الصلاة نادى ان لا يقربن الصلاة سكران فدعي عمر فقرأت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فنزلت الآية التي في المائدة فدعي عمر فقرأت عليه فلما بلغ‏ «فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ» قال عمر: انتهينا انتهينا.

أقول: و أخرجه الطبري في تاريخه 7: 22 و الجصاص في احكام القرآن 2: 245 و أقره الذهبي في تلخيصه و القرطبي في تفسيره 5: 200 و ابن كثير في تفسيره 15: 255 و 2: 92 نقلا عن احمد و أبي داود و الترمذي و النسائي و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و علي بن المديني في اسناد صالح صحيح و في تيسير الوصول 1: 124 و تفسير الخازن 1: 513 و تفسير الرازي 3: 458 و فتح الباري 8: 225 و تفسير الآلوسي 7: 15.

(2) في لفظ الزمخشري في ربيع الأبرار و شهاب الدين الأبشيهي في المستطرف 2: 291 شرب عمر الخمر قبل آية المائدة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 205

فهلا يكون بيان اللّه في آي التحريم قبل المائدة بيانا شافيا حتى أبتلي بما أبتلي به ثم انتهى عند آية المائدة؟! و هذا مسّ من كرامة القرآن، ذلك الكتاب البيان! ذلك! و قد يتحسر الخليفة حين تنزل آية المائدة قائلا: ضيعة لك اليوم قرنت بالميسر «1» ويكأنها ما قرنت به في آية البقرة؟

ذلك و بعد قولة الانتهاء لم يكن لينتهي عن شرب النبيذ الشديد أخت الخمرة اللعينة «2» و ليس ينقضي العجاب من تفقّه الخليفة و طغواه في تقواه أمام أكبر الكبائر فضلا عن سائرها و سائر الصغائر!.

آيات تحريم الخمر تلويحا و تصريحا هي متفقة الدلالة عليه، مهما كانت متدرجة المدلول في بيان آماد التحريم و أبعاده، و هذه الخاتمة لها في القرآن كله تحمل آكد التأكيدات و أشد التشديدات في حرمة الخمر و خلفياتها الخطرة فردية و جماعية.

هنا «إنما» «رجس» «مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ» «فاجتنبوه» «يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ» «وَ يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ عَنِ الصَّلاةِ» و «فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ» هذه السبع تفتح على حقول الخمر الدركات السبع الجهنمية، بأخواتها «الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصابُ وَ الْأَزْلامُ» و هي تتقدمها كرئيسة لها، و هي حقا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر 3: 315 و فيه ايضا قوله: «أقرنت بالميسر و الأنصاب و الأزلام بعدا لك و سحقا»؟ و قد قرنت بالميسر في البقرة!.

(2) للاطلاع على مدارك شربه راجع تفسير آية البقرة في الفرقان و كما تطلع عنده على أبعاد أخرى في حقل الخمر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 206

كماهيه مفتاح كل شر «1» و أكبر الكبائر «2» و لذلك نراها محرّمة في كافة الشرائع‏ «3».

كما و أن‏ «لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» «أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ» و «و احذروا» ترغيبات ثلاث في تركها، و تلك- إذا- عشرة كاملة هي عشيرة لحقل الخمر، مصرحة و مشيرة إلى بأسها و نحسها و بخسها و فلاح التاركين إياها.

في هذه الآية يردف ذلك المربع مع بعضها البعض لأنها كلها حزمة واحدة ذات رباط عريق في مزاولتها، و أنها من معالم الجاهلية المتغلغلة فيها، فقد كانت الذبائح على النّصب أو المستقسمة بالأزلام يصاحب شواءها نوادي الخمور كما يصاحبها الميسر، شركاء أربع في شهواتهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في الكافي عن أبي بصير عن أحدهما عليهما السلام قال: ان اللّه جعل للمعصية بيتا ثم جعل للبيت بابا ثم جعل للباب غلفا ثم جعل للغلف مفتاحا فمفتاح المعصية الخمر،

و

فيه عن أبي عبد اللّه (ع) قال: ان اللّه جعل للشر أقفالا و جعل مفاتيح تلك الأقفال الشراب.

و

في الدر المنثور 3: 322- اخرج الحاكم و صححه و البيهقي عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه (ص): اجتنبوا الخمر فانها مفتاح كل شر، و رواه مثله عنه (ص) أبو الدرداء.

(2)

في الكافي عن إسماعيل قال‏ اقبل ابو جعفر عليهما السلام في المسجد الحرام فنظر اليه قوم من قريش فقالوا: هذا إله أهل العراق فقال بعضهم: لو بعثتم اليه بعضكم فأتاه شاب منهم فقال: يا عم ما اكبر الكبائر؟ قال: شرب الخمر.

و

فيه عن أبي البلاد عن أحدهما عليهما السلام قال: ما عصي اللّه بشي‏ء أشد من شرب المسكر ان أحدهم يدع الصلاة الفريضة و يثب على أمه و ابنته و أخته و هو لا يعقل.

(3) أخرجنا خمسة عشر آية من التوراة و الإنجيل و ملحقاتهما تصرح بحرمة مغلظة للخمر، راجع تفسير آية البقرة: «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ» في الفرقان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 207

الجماعية بملابساتها الأخرى التي نفتح مغاليقها الخمر و معها الميسر.

فالأنصاب هي ما ذبح على النصب و هي الأوثان، ذبحا للتقديس و التقريب و التبرك، و الأزلام هي القداح التي كانوا يستقسمون بها الذبيحة و كما في أخرى بداية المائدة «وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ» فإنه قتل للحيوان بصورة الميسر، فالذي قدحه هو المعلّى يأخذ النصيب الأعلى و إلى من لا نصيب له حيث لا يصيب قدحه الهدف المرام مهما كان هو صاحب الذبيحة أو المشترك فيها فيخسرها كلها.

ف «الميسر» هنا محرم على أية حال، و الأزلام ميسر خاص فيه الذبح غير المشروع بالميسر المحرم على أية حال فهو محظور على محظور، و الأنصاب ذبح للحيوان على النصب‏ «وَ ما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ» فهو أيضا محظور على محظور، فأصل الحظر في الأنصاب و الأزلام هو الميسر المشترك بينهما، مع ما يختص كل واحد بخاصة خاصة.

و ما هو دور هذه المحرمات في نهاية العهد الرسالي و المسلمون هم مسلمون طيلة سنين؟ إن لها الدور العام لكافة المكلفين على مدار الزمن، إضافة إلى اجتثاث الجذور الجاهلية التي ترسبت في هؤلاء المسلمين من ذي قبل، فبقيت منها بقايا و زوايا لا بد من القضاء عليها، فلا بد من تنقية تلكم الرواسب عن بكرتها، استئصالا لها بأسرها حتى يكون الحاكم- فقط- هو اللّه بشرعته النقية التقية.

هنا رأس الزاوية في هذه الزوايا الأربع الجاهلية هي: الخمر، و هذه هي المرحلة الأخيرة في علاج مشكلتها في المنهج الإسلامي السامي، فقد حرمت على طول الخط التشريعي مكيا و مدنيا بأنها من الإثم، ثم أنها الرزق السيّئ كما في العهد المكي، ثم في العهد المدني مانعة عن الصلاة، و إن فيها إثما كبيرا، و من ثم‏ «رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ» و إلى سائر السبعة و العشرة الكاملة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 208

و هنا «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» تستجيش القلوب المؤمنة حسب درجات الإيمان، و أن الانتهاء عن الخمر و أخواتها هو قضية الإيمان، مما يوحي أن اقترافها خروج عن الإيمان، كما و أن قرن «الأنصاب» و هي للمشركين بأخواتها يوحي بأنها كلها في صف الإشراك باللّه، مهما اختلفت من الناحية العقيدية و العملية، فهناك عقيدة الإشراك و في الثالوث الباقية عملية الإشراك، و قد جمعت كلها بأحكام‏ «رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ ...»

ثم «رجس» ترجس الخمر ذاتيا و عمليا، شربا و سواه من محاولات فيها تقريبا و تقديما لشربها، كما و ترجس الثلاثة الأخرى، فالميسر رجس في نفسه و رجس في الأموال المستفادة منه، و رجس فيما يتقامر به، فهو ثالوث من الرجس! و الأنصاب رجس في أصلها و هي النّصب لأنها أوثان:

«فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ» و رجس فيما ذبح عليها: «وَ ما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ» و الأزلام رجس في الاستقسام بها و في المستقسم بها، ثم و هي‏ «مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ».

و ترى «رجس» في الخمر دليل نجاستها كسائر النجاسات العينية؟

و رجس الميسر لا يعني نجاسة آلات القمار و لا نجاسة المقامرين، إنما هو نفس الميسر رجاسة عملية تنجس الأرواح و المجتمعات!.

و الرجس لغويا هو كل ما استقذر من عمل و أصله من الرّجس و هو الصوت الشديد، و سحاب رجاس إذا كان شديد الصوت بالرعد، فالرّجس- إذا- في مثل الخمر و الميسر و الأنصاب و الأزلام هو العمل القبيح الذي فيه رعد القباحة صاعقة و الوقاحة، و ليس هكذا أي نجس ظاهري في مجرد مسّه، كما و أن‏ «مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ» يؤكد ذلك القبح الوقيح.

ثم و كيف تعني «رجس» تلك النجاسة الجسمية المتعدية الخبيثة و قد عد اللّه المنافقين من الرجس: «سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 209

لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ» (9: 95) «وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَ ماتُوا وَ هُمْ كافِرُونَ» (9: 125) كما «فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ» (22: 30) و «إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» (33: 33) فلا تعني الرجس فيها و لا فيما سواها «1» النجاسة الخبيثة المعروفة، إنما هي النجاسة العقيدية و العملية و الأخلاقية، و لا نجد- و لا مرة يتيمة- يعني من الرجس في آياته هذه النجاسة، فكيف يستدل بمجرد لفظة الرجس هنا على نجاسة الخمر جسميا، فهي فيها نجاسة عقلية و خلقية فعقيدية و عملية أماهيه.

ذلك، إضافة إلى أن واجب الاجتناب المتفرع على‏ «رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ» لا يفرض الاجتناب الخبثي فإنه- قطعا- غير واجب، اللهمّ إلّا شربا للخمر و ما أشبه من محاولات لها، و عملا للمسير و الأنصاب و الأزلام، ثم النجاسة الظاهرية ليست من عمل الشيطان و إلّا لكان المعصومون عليهم السلام مصحوبين بعمل الشيطان لمكان النجاسات الخبثية الطائرة عليهم كما على سواهم! كما و لا يلزم من كون شي‏ء من عمل الشيطان نجاسته الخبثية كالميسر و الأنصاب و الأزلام و سائر الأشياء و الأعمال المحرمة.

ذلك، و الروايات الواردة بحق الخمر نجاسة و سواها معروضة على‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و مما سواها «كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ» (6: 125) «قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَ غَضَبٌ» (7: 71) «وَ يَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ» (10: 100) ثم و «رجس» في‏ «إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ» (6: 145) لو دلت علي النجاسة الجسمية، لم تكن قرنية على ان الرجس في سائر القرآن هو هيه، و قد تلمح «فانه» ان ليس الرجس هو النجاسة الجسمية حيث الميتة و الدم المسفوح كذلك نجسان فلما اختصت هذه النجاسة بلحم خنزير؟.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 210

الآية الساكتة لأقل تقدير عن نجاستها، أو الظاهرة في النجاسة غير الظاهرية، أم تتساقط لكون الدالة على طهارتها نصا، و سواها لأكثر تقدير ظاهرة، و لكن الأمر بالتجنب أعم من النجاسة الظاهرية «1» فالأقوى طهارة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ذهب الى طهارة الخمر من أصحابنا الصدوق و أبوه و الجعفي و العماني و جماعة من المتأخرين كالمحقق الخراساني و الأردبيلي و السيد في المدارك و الفاضل الخراساني، و من المعاصرين المرجع الديني السيد أبو القاسم الخوئي، و أما إخواننا فالشهرة المطلقة بينهم كما عندنا على النجاسة و القائلون منهم كما منا بالطهارة قلة مثل ربيعة شيخ الامام مالك و حكى عن حبل المتين انه قال: اطبق علماءنا الخاصة و العامة على نجاسة الخمر الا شرذمة منا و منهم لم يعتد الفريقان بمخالفتهم.

و

من الأخبار الدالة على الطهارة صحيحة ابن أبي سارة قال‏ قلت لأبي عبد اللّه (ع): إن أصاب ثوبي من الخمر أصلي فيه قبل أن اغسله؟ قال: «لا بأس ان الثوب لا يسكر».

أقول: و هي انتباهة حسنة حيث ربط الامام (ع) الرجاسة بالاسكار، إذا فهي الرجاسة العقلية حيث تسكر العقل، دون الرجاسة الظاهرية حيث لا تسكر الملابس أو مظاهر الجسم، و

موثقة ابن بكير قال: سأل رجل أبا عبد اللّه (ع) و انا عنده عن المسكر و النبيذ يصيب الثوب؟ قال: «لا بأس»

و

صحيحة علي بن رئاب المروية عن قرب الأسناد قال‏ سألت أبا عبد اللّه (ع) عن الخمر و النبيذ المسكر يصيب ثوبي فأغسله أو اصلي فيه؟

قال: صل فيه إلّا ان تقذره فتغسل منه موضع الأثر ان اللّه تبارك تعالى انما حرم شربها» (وسائل الشيعة أبواب النجاسات ب 38 ج 10 و 11 و 14)

و غيرها من الروايات.

و مما استدل بها للنجاسة

موثقة عمار الساباطي عن أبي عبد اللّه (ع) قال: سألته عن الدن يكون فيه الخمر هل يصلح ان يكون فيه خل أو ماء كامخ أو زيتون؟ قال: إذا غسل فلا بأس» (المصدر ب 51 ح 1)

و

صحيحة الحلبي عن أبي عبد اللّه (ع) في الإناء يشرب فيه النبيذ؟ فقال: تغسله سبع مرات» (المصدر باب الأشربة ب 30 ح 2)

و

موثقته الأخرى‏ عن دواء يعجن بالخمر؟ فقال: «لا و اللّه ما أحب أن انظر اليه فكيف أتداوى به انه بمنزله شحم الخنزير أو لحم الخنزير» (المصدر 30: 4)

و

موثقه عمار الساباطي عن أبي عبد اللّه (ع) قال: لا تصل في ثوب اصابه خمر أو مسكر و اغسله ان عرفت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 211

الخمر فضلا عن الفقاع و العصير العنبي قبل الثلثين، و إن كان الأحوط التطهير عنها.

1- ثم‏ «رِجْسٌ- مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ- فَاجْتَنِبُوهُ» تعم كل المحاولات الناحية منحى شربها حيث التحريم موجّه إلى نفس الخمر و أخواتها «1» و كما في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

«موضعه فان لم تعرف موضعه فاغسل الثوب كله فان صليت فيه فأعد صلاتك».

أقول: و غير الأخير لا صراحة فيه و لا ظهور في النجاسة و الأخير معارض بما سبق و ليس وجوب الغسل دليلا على النجاسة فقد يكون كوجوب ازالة اجزاء ما لا يؤكل لحمه مثل الشعر و الوبر، و أما الحمل على التقية فلا دور له في أمثال هذه الموارد التي تقل فتاوى اهل السنة الموافقة لها، و أما تقديم هذه الأخبار

بصحيحة علي بن مهزيار بالإسناد عن سهل بن زياد قال‏ قرأت في كتاب عبد اللَّه بن محمد الى أبي الحسن (ع) جعلت فداك‏ روى زرارة عن أبي جعفر و أبي عبد اللَّه عليهما السلام‏ في الخمر يصيب ثوب الرجل انهما قالا: لا بأس بأن يصلي فيه انما حرم شربها و روى غير زرارة عن أبي عبد اللَّه (ع) انه قال: إذا أصاب ثوبك خمر أو نبيذ- يعني المسكر- فاغسله ان عرفت موضعه و ان لم تعرف موضعه فاغسله كله و ان صليت فيه فأعد صلاتك، فأعلمني ما آخذ به؟

فوقع بخطه (ع) و قرأته: خذ بقول أبي عبد اللَّه (ع) (جامع أحاديث الشيعة ص 33 ب 7 رقم 2 من التهذيب و الاستبصار و الكافي).

أما هذه الصحيحة فليست هي بصحيحة، فان في تعارض المنقول عن الإمامين، إن كان الحق مشكوكا بينهما ليس من المرجح قول أبي عبد اللَّه على قوله الآخر مع الباقر (ع) و ان كان كلاهما صادرين كما هو نص الرواية فكيف يصح الأخذ بقول لأبي عبد اللَّه و ترك قوله الآخر الذي يقول به الباقر (ع)؟ و لا موقف للتقية في اي من الطهارة و النجاسة، بل ان كان هناك تقية فالقول بالنجاسة موافق للتقية و القول الآخر مخالف له.

(1).

في الكافي عن جابر عن أبي جعفر عليهما السلام قال: لعن رسول اللَّه (ص) في الخمر عشرة: غارسها و حارسها و عاصرها و شاربها و ساقيها و حاملها و المحمولة اليه و بايعها و مشتريها و آكل ثمنها.

أقول: و حول الخمر لعنات اخرى بالنسبة لحضور مائدة يشرب عليها الخمر و بيع‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 212

حديث رسول اللَّه (ص) و لا معنى لحرمتها في نفسها إلّا للمحاولات المرغوبة المترقبة منها، و لذلك لعن فيها عشرة، لا فقط شاربها، فكل المحاولات حول الخمر، الناحية منحى شربها، هي محرمة قضية حرمتها في نفسها حيث تعني كل ملابساتها إلى شربها.

2- و من ثم «رجس» و أخواتها تدل- فيما تدل- على حرمتها الذاتية على مدار الزمن الرسالي، فلا تجد رسالة ربانية إلّا بتحريم الخمر كما فصلناه على ضوء آية البقرة.

و «رجس» هذا يعم ترجيس صالح الروح و الجسم و القال و الحال و الأعمال، رجسا فرديا و جماعيا، خلقيا و خلقيا و عقيديا و علميا و معرفيا و في كل الحقول الإنسانية عن بكرتها، أسرا لها بأسرها في وثاقها حيث تحرّر الإنسان و تطلقه عن عقليته الإنسانية بل و عن العقلية الحيوانية حيث يصبح حيوانا مجنونا شرسا.

و من ثم‏ «مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ» كوصف ثان لهذه الأربعة فيه وجهان، إنها- و في قمتها الخمر- من صنع الشيطان، فهو أوّل مبتدع لها كما و هو من عمله المستمر في شيطنة الأعمال، و من عمله وسوسته في صدور الناس بحق الخمر و أخواتها، ثالوثا من عمل الشيطان، فأين المؤمن و مبتدع الشيطان و عمله الشيطاني و وسوسته؟ و لذلك نراها أنها من أوليات المحرمات‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

العنب ممن تعلم أنه يعمله خمرا كما

في الدر المنثور 3: 325- اخرج البيهقي عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول اللَّه (ص): من حبس العنب ايام قطافه حتى يبيعه من يهودي او نصراني أو ممن يعلم انه يتخذ خمرا فقد تقدم في النار على بصيرة.

(1).

وسائل الشيعة 17: 243 ح 20 في الأمالي بسند متصل عن محمد بن مسلم قال‏ سئل ابو عبد اللَّه (ع) عن الخمر فقال: قال رسول اللَّه (ص): «ان أول ما نهاني عنه ربي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 213

3- «فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» و هنا واجب الاجتناب متفرع على مثنّى‏ «رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ» فهذه ضابطة ثابتة أن كل رجس و عمل للشيطان هو واجب الاجتناب رجاء الإفلاح في معتركات الحياة، فإفلاج الشيطان لشيطناته، و ضمير الغائب في «فاجتنبوه» راجع إلى «رجس» فيشمل كل هذه الأربعة، تفريعا لواجب الاجتناب على «رجس» الموصوفة ب «مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ» أم هو راجع إلى عمل الشيطان، أم إلى المذكورات الست.

ذلك، و لا تختص الخمر بما يؤخذ من العنب و التمر، بل هي كل ما تخمر العقل بطبيعة حاله أيا كان مأخذه، و كما فيما استفاض نقله عن النبي (ص) «1» و الخمر تعني كل مسكر، فقد

«حرم الله الخمر و كل مسكر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

جل جلاله عن عبادة الأوثان و شرب الخمر و ملاحاة الرجال» و أخرجه مثله عنه (ص) أم سلمة كما في الدر المنثور 3: 326.

أقول: فالأحاديث الواردة عنه (ص) ان آية المائدة هي التي حرمت الخمر، انها مختلقة معروضة عرض الحائط إلّا أن تعني غلظ الحرمة لا أصلها.

و

في عيون الأخبار باسناده الى الريان بن الصلت قال سمعت الرضا (ع) يقول: ما بعث اللَّه عز و جل نبيا إلّا بتحريم الخمر،

و في سيرة ابن هشام عن خلاد بن قرة و غيره من مشايخ بكر بن وائل من اهل العلم ان اعشى بن قيس خرج الى رسول اللَّه (ص) يريد الإسلام فلما كان بمكة أو قريبا منها اعترضه بعض المشركين من قريش فسأله عن أمره فأخبره انه جاء يريد رسول اللَّه (ص) ليسلم فقال له يا أبا بصير فانه يحرم الخمر ...

(1).

في الدر المنثور 3: 318- عن ابن عباس‏ ان رسول اللَّه (ص) حرم الخمر و الميسر و الكوبة و الغبيراء و كل مسكر حرام،

و

فيه قال رسول اللَّه (ص): ان من الحنطة خمرا و من الزبيب خمرا و من التمر خمرا و من العسل خمرا و أنهاكم عن كل مسكر،

و

فيه مثله عن ابن عباس عنه (ص) «و كل مسكر حرام».

و فيه أخرج مسلم و البيهقي عن جابر بن عبد اللَّه ان رجلا قدم من اليمن فسأل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 214

«حرام» «1».

ذلك، و الخمر و الميسر هما أختان متماثلتان في الرجاسة و النحوسة، كما و تختصان بالذكر في‏ «إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ» مما يدل على زيادة الرجاسة فيهما على الأنصاب و الأزلام.

«إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ» و هما من أخطر الأخطار على الأمة الاسلامية و كافة الناس، فإن عامل العداوة و البغضاء عامل لكل إفساد في الأرض بمختلف حقوله‏ «وَ يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ» ككلّ عشوا عن ذكره تعالى إلى كل لغو و لهو «وَ عَنِ الصَّلاةِ» التي هي عمود الدين و عماد اليقين، فهذه أقانيم ثلاثة لثالوث الخمر و الميسر بين إيجابية العداوة و البغضاء و سلبية ذكر اللَّه و الصلاة، فهي ذاهبة بمعنى‏ «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» المتمثلة لزاما بين المؤمنين، «فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ»؟.

هنا يتبين لنا بوضوح هدف الشيطان بخيله و رجله، و غاية كيده و ميده و ثمرة رجسه بعمله أنه فصم عرى المحبة و الوداد بين خلق اللَّه و بينهم و بين اللَّه، بالعداوة و البغضاء هناك، و الصد عن ذكر اللَّه و عن الصلاة هنا، و هل الدين إلّا الحب؟ و هو ذاهب به بالخمر و الميسر في هذا البين.

فالخمر بما تفقد الإنسان من الوعي، و ما تثير من عرامة اللحم و الدم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

النبي (ص) عن شراب يشربونه بأرضهم من الذرة يقال له المزر فقال النبي (ص) أو يسكر هو؟ قالوا: نعم قال رسول اللَّه (ص): كل مسكر حرام إن اللَّه عهد لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال قالوا يا رسول اللَّه (ص) و ما طينة الخبال؟ قال: عرق اهل النار او عصارة اهل النار.

(1). الدر المنثور 3: 317- اخرج ابن مردويه عن ابن عمر عن رسول اللَّه (ص) قال:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 215

و بما تهيج من شهوات و نزوات فتطلق صاحبها عن أسر العقلية الإنسانية- بل و الحيوانية- بأسرها!.

و الميسر بما تصاحبه- على أية حال- من خسارات فأحقاد، مهما لم يخسر ماليا فإنه يخسر من كيانه في سباق اللعب، و إن كان يزيده عداوة و بغضا أن ذهب ماله!، هاتان أختان شرستان هرجتان محرجتان من يصاحبهما.

لذلك، فكما الخمر قليلها محرم إلى جنب كثيرها، كذلك الميسر محرم في غير شرط إلى جانب ما فيه شرط، فإن نفس التغلب في ميدان الميسر تورث العداوة و البغضاء، كما أن نفس الإلهاء عند المقامرين يصدّ عن ذكر اللَّه و عن الصلاة.

فحتى و لو لم يورث الميسر عداء بين المقامرين، فهو لا بد و أن يصد عن ذكر اللَّه و عن الصلاة بطبيعة الحالة الملهية فيه.

إذا فكل ما يوقع العداوة و البغضاء أو يصد عن ذكر اللَّه و عن الصلاة- فضلا عما يورثهما- إنه محرم، غضا عما في الخمر و الميسر من توتّر الأعصاب و خسار الصحة البدنية و العقلية.

و هل ترى محرما قط مثل الخمر و الميسر- في تحليق الضرر على كل الحقول، و لا سيما الخمر التي تذهب بالعقول و تجعل من شاربها بهيمة مجنونة شرسة؟!.

لذلك نرى في الخمر حدا أدبيا ليس في الميسر إلّا تأديبا تعزيريا، مما يدل على مدى فاعلية الخمر في حقول الإفساد أكثر من الميسر، بل و هي التي تيسّر الميسر و كل محظور.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 216

فشارب الخمر علما و عمدا يضرب الحد «1» و إن شرب قليلا لا يسكر «2» فإن شارب القليل يورد في مشرب الكثير، ثم و لا داعي له في ذلك التذوّق اللعين إلّا ازدياد، فيه فاعلية الخمر، وحده ثمانون جلدة لتظافر الأثر على ذلك الحدّ «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما

استفاض به الأثر من طريق الفريقين فمن طريق أصحابنا صحيحه محمد بن إسماعيل بن بزيع عن أبي الحسن (ع) قال: سألته عن الفقاع فقال: هو خمر

و

فيه حد شارب الخمر» (التهذيب في حد المسكر رقم 36) و معتبرة ابن فضال قال: كتبت الى أبي الحسن (ع) و سألته عن الفقاع فقال: «هو الخمر و فيه حد شارب الخمر» (الكافي 6: 424 رقم 15)

و

صحيحة سليمان بن خالد قال‏ كان امير المؤمنين (ع) «يجلد في النبيذ المسكر ثمانين كما يضرب في الخمر و يقتل في الثالثة كما يقتل صاحب الخمر» (الاستبصار 4: 235)

و

من طريق إخواننا في الدر المنثور 3: 316- اخرج ابو الشيخ و ابن مردويه و الحاكم و صححه عن ابن عباس‏ ان الشراب كانوا يضربون على عهد رسول اللَّه (ص) بالايدي و النعال و العصي حتى توفى رسول اللَّه (ص) فقال ابو بكر لو فرضنا لهم حدا فتوخى نحو ما كانوا يضربون في عهد رسول اللَّه (ص) فكان أبو بكر يجلدهم أربعين حتى توفى ثم كان عمر من بعده فجلدهم كذلك أربعين حتى أتي برجل من المهاجرين الأوّلين و قد شرب فأمر به ان يجلد فقال لم تجلدني بيني و بينك كتاب اللَّه قال: و في اي كتاب اللَّه تجد ان لا أجلدك- الى أن قال-: فقال عمر فما ذا ترون؟

فقال علي بن أبي طالب نرى انه إذا شرب سكر و إذا سكر هذى و إذا هذى افترى و على المفتري ثمانون جلدة فامر عمر فجلد ثمانين‏

أقول: لا نصدق خلاف ذلك الحد على عهد رسول اللَّه (ص) مهما كان مستفادا من القرآن أو هو سنة، إذ انقطع الوحي كتابا و سنة بعد الرسول فكيف يتجدد حد لم يكن في زمن رسول اللَّه (ص)؟!.

(2) كما

في خبر إسحاق بن عمار الساباطي سأل الصادق (ع) عن رجل شرب حسوة خمر؟

قال: يجلد ثمانين جلدة قليلها و كثيرها حرام‏ (علل الشرايع 3: 225).

(3)

منه موثق أبي بصير «كان علي (ع) يجلد الحر و العبد و اليهودي و النصراني في الخمر و النبيذ ثمانين» (الكافي 7: 215 و التهذيب في حد المسكر رقم 91)

و هنا روايات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 217

أ فبعد ذلك كله‏ «فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ» و هو استفهام انكاري يلمح أن جماعة من المسلمين لم يكونوا لينتهوا عنه مع كرور المناهي مكيا و مدنيا في الذكر الحكيم! كما سبق نقله عن الخليفة عمر من قوله: انتهينا انتهينا، و خطاب الإيمان الموجه إلى أمثاله من المتورطين في هذه الكبيرة و أمثالها ليس إلّا لإقرارهم بالشهادتين سواء أ كان مع إيمان مّا أم بنفاق، فلا يدل على صالح الإيمان بمجرد خطابه، بل هو إلى صالحه و طالحه و كالحه حيث لم يك ينتهي صاحبه رغم كرور المناهي عن الخمر.

ذلك، فكل المحاولات حول الخمر محرمة حتى بيع العنب ممن تعلم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

اخرى تجعل حد العبد نصف الحر و قضية درء الحدود بالشبهات و ان الأقل هو الثابت الاقتصار بالأربعين.

و

في الدر المنثور 3: 325- اخرج عبد الرزاق و احمد و أبو داود و الترمذي و النسائي و ابن ماجه عن معاوية بن أبي سفيان عن النبي (ص) قال: من شرب الخمر فاجلدوه قالها ثلاثا ان شربها الرابعة فاقتلوه،

و

فيه اخرج عبد الرزاق عن أبي موسى الأشعري‏ ان النبي (ص) حين بعثه الى اليمن سأله قال: إن قومي يصنعون شرابا من الذرة يقال له المزر فقال النبي (ص) أ يسكر؟ قال: نعم قال فانههم عنه قال نهيتهم عنه و لم ينتهوا قال: فمن لم ينته في الثالثة منهم فاقتله،

و

فيه اخرج عبد الرزاق عن مكحول قال: قال رسول اللَّه (ص) من شرب الخمر فاضربوه ثم قال في الرابعة من شرب الخمر فاقتلوه، و رواه مثله عنه (ص) أبو هريرة، و الزهري و عمرو بن دينار إلّا أن فيه فحدوه بل فاضربوه،

أقول: و قصة الحد و الضرب في شرب الخمر متواترة عن النبي (ص) رواها عنه مثل هؤلاء في اصل الحد قبيضة بن ذؤيب و أبي الرمد البلوي، و شرحبيل بن أويس و ام حبيبة بنت أبي سفيان.

و

في لفظ الديلمي قال‏ وفدت على رسول اللَّه (ص) فقلت يا رسول اللَّه إنا نصنع طعاما و شرابا فنطعمه بني عمنا فقال: هل يسكر؟ قلت: نعم فقال: حرام، فلما كان عند توديعي إياه ذكرته له فقلت يا نبي اللَّه انهم لن يصبروا عنه قال: فمن لم يصبر عنه فاضربوا عنقه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 218

أنه يعمله خمرا، أم حضور مائدة يشرب عليها الخمر، أمّاذا من ملابسات في حقل الخمر.

هذا، و من غرائب لوفق العددي بين ثالوث «الأصنام و الخمر و الخنزير» ان كلّا منها مذكورة مرات خمس في الذكر الحكيم.

تلك هي الخمر، المحرم قليلها و كثيرها، الثابت حدها فيهما، و أما الميسر فقد يعم القمار ككل بشرط و سواه حيث الحكم المذكورة في الآية مشتركة بينهما، و القول إن «الميسر» لامحة إلى شرط الانتفاع بيسر فيه و إلّا فلا ميسر، مدفوع بنص الحكم هنا، و لو اختصت الحرمة بيسر الحصول على المال لكان كل ما في تحصيله يسر محرما، و لم يكن الميسر بالنسبة لمن يدفع الشرط محرما!.

ذلك، و طليق الآية و أضرابها و طليق الرواية في حرمة الميسر يحرّمانه على أية حال، بشرط و سواه، و بآلته الخاصة و سواها، مهما كان بالشرط و خصوص الآلة أشد تحريما، ثم بشرط دون آلة، و من ثم بآلة دون شرط، و أخيرا دون شرط و آلة.

و الضابطة الأصيلة في حرمة الميسر كما الخمر هي حصيلة «الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ ... وَ يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ عَنِ الصَّلاةِ» و كما

يروى‏ أن «كلما ألهى عن ذكر الله فهو الميسر» «1»

مهما اختلفت دركاته في رهن و سواه، و بآلة خاصة و سواها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في مجالس المفيد الثاني ولد الشيخ الطوسي بسنده عن امير المؤمنين (ع) في تفسير الميسر ... و

في رواية جابر عن أبي جعفر عليهما السلام‏ قيل يا رسول اللَّه (ص) ما الميسر؟ قال: كل ما يقامر به حتى الكعاب و الجوز، و المقامرة هي المغالبة و هي تتحقق دون شرط كما تتحقق بشرط، و في رواية تحف العقول ان ما يجي‏ء منه الفساد محضا لا يجوز التقلب فيه من جميع وجوه الحركات، و لا ريب في فساد القمار.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 219

ثم «الميسر» هو اسم مكان و ليس اسم آلة، فهو مكان اليسر و مجاله، و هو بطبيعة الحال يسر محرم يورث العداوة و البغضاء، من يسر الحصول على مال دونما سعي فانه أكل بالباطل، حيث لم تفد في الميسر حتى تستحق عنه بديلا، و يسر الحصول على تغلب، و لا تغلب إلّا في فضيلة، و يسر بثّ العداوة و البغضاء، و يسر الصد عن ذكر اللَّه و عن الصلاة، و على الجملة هو يسر في محظور دونما سعي تستحق به أي حق، فضلا عن باطل من مال أم و أهم منه رجاحة الحال في تخيل البال.

اجل يجوز الشرط في سباق الخيل أو السباحة و ما أشبه لمكان رجاحة السباق في أمثالها حيث تنفع لنضال و ما أشبه من فوائد عامة و عوائد هامة، حسب ما تدل عليه النصوص، مثل سباق الرمي و الخيل و السباحة، حيث تنفع المسلمين في حقل الجهاد، فسباق الرمي يشمل كافة الأسلحة المتطورة، كما الخيل تشمل كل المركوبات جويا و بريا و بحريا، ثم السباحة هي كماهيه مهما اختلفت اشكالها.

فهذه الثلاثة مما لا بد منها في جبهات الحرب، و لذلك هي محبورة غير محظورة، و هكذا الأمر في سائر الإعدادات الحربية لمكان عامة الأمر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و

في الدر المنثور 3: 319 عن النبي (ص) قال: اجتنبوا هذه الكعاب الموسومة التي يزجر بها زجرا فانها من الميسر رواه عنه (ص) أبو موسى الأشعري و سمرة بن جندب و ابن مسعود

، فلم يشترط فيه الشرط، و

فيه عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول اللَّه (ص) من لعب بالنردشير فقد عصى اللَّه و رسوله،

و

عن عبد الرحمن الخطمي سمعت رسول اللَّه (ص) يقول: مثل الذي يلعب بالنرد ثم يقول فيصلي مثل الذي يتوضأ بالقيح و دم الخنزير ثم يقول فيصلي،

و

عن يحيى بن أبي كثير قال: مر رسول اللَّه (ص) بقوم يلعبون بالنرد فقال: قلوب لاهية و أيد عاملة و ألسنة لاغية.

أقول: و ذكر الآلات الخاصة للقمار لا يدل على حصر الحرمة في الميسر فيها، و إنما هو بيان للمصاديق المتعددة في القمار.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 220

«وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِباطِ الْخَيْلِ» و لكن الأشبه في الكل أن يكون الجعل من ثالث حتى يبعد عن الميسر كل البعد.

و لئن قلت: كما أن صالح التدرب على معدات حربية للجهاد يتقدم على محظور العداوة و البغضاء، كذلك صالح الاستقواء فكريا قد يتقدم عليها و كما في الشطرنج و ما أشبه.

قلنا: نحن على حرفية النص المختص بالسباق في حقل التدرب الحربي، ثم القوة الفكرية لا تختص بمثل اللعب بالشطرنج فلها مندوحة في حقول المباحات و الراجحات واجبة و سواها، إضافة إلى أنها فائدة شخصية، و لكن التدرّب للجهاد فائدة جماعية لا مندوحة عن السباق فيها من غيرها.

ثم و بالإمكان أن تخصّص أموال لهذه السباقات المشروعة دون أخذ و عطاء بين المتسابقين.

إذا فلا يعني الاستثناء إلّا تقديم الأهم على المهم، و لا مهمة في سائر الميسر السباق إلّا اللّهو، و أما السباق في نطاق الأمر فهو عبادة و ليس لهوا حتى يلهي عن ذكر اللَّه أو يورث العداوة و البغضاء.

و لو أن عبادة مّا أورثت العداوة و البغضاء فليست بالتي تترك صدا عنهما حيث المعادي البغيض في حقل العبادة هو خارج عن كتلة الايمان!.

إذا فكل السباقات التي تنحو منحى الحصول على الطاقات و القوات الجهادية، هي محبورة غير محظورة، و علّ منها السباق في الحقول العلمية.

و الضابطة المستفادة من هذه الآية أن كلما يورث العداوة و البغضاء و يصد عن ذكر اللَّه و عن الصلاة محرمة كحرمة الخمر و الميسر، اللّهم إلّا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 221

تطبيق المسؤوليات الإسلامية التي قد توجب العداوة و البغضاء في الذين يكرهون تلكم المسؤوليات، كافرين و مسلمين.

فالخلافات العلمية من جراء ترك القرآن و الإقبال إلى غيره من ضوابط مختلقة لا تتبنى القرآن و السنة، هذه محرمة، كما الإقبال إلى غير القرآن لحد يلهي عن القرآن، هو كذلك محرم.

فالأصل الرباني في شرعة اللَّه هو الاتجاه إلى اللَّه بتوحيده و توحيد عبادته.

و لأن أضرار الخمر تحلق على كافة المجالات الحيوية للإنسان، روحيا و جسميا، فرديا و جماعيا، فلا تحل على أية حال و إن للاستشفاء بها من مرض، و قد روي ألا شفاء فيها، و قد اعترف بأطراف من مضارها القاطعة جمع من غير المسلمين‏ «1» لحد منعوا عن الاستشفاء بها «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ففي كتاب (خواطر و سوانح في الإسلام) ل «هنري الفرنسي»: ان أحدّ سلاح يستأصل به الشرقيون و أمضى سيف يقتل به المسلمون هو الخمر و إدخالها و لقد جردنا هذا السلاح على اهل الجزائر فأبت شريعتهم الاسلامية أن يتجرعوه فتضاعف نسلهم و لو انهم استقبلونا كما استقبلنا قوم من منافقيهم بالتهليل و الترحيب و شربوها لأصبحوا أذلّاء لنا كتلك القبيلة التي شربت خمرنا و تحملت أذلّاء لنا «و قال بتنام» المقنّن الانجليزي «من محاسن الشريعة الاسلامية تحريم الخمر فإن من شربها من أبناء افريقيا آل امر نسله للجنون، و من استدامها من اهل اوروبا زاغ عقله، فليحرم شربها على الأفريقيين و ليعاقب عقابا صارما الأوروبيون ليكون العقاب بمقدار الضرر».

(2) في كتاب لطبيب أمريكي يسمى (كيلوج) منع التداوي بالخمر لأن ضرها في الجسم عند التداوي اكثر من نفعها بالشفاء الموقت لما تفعل في الأمعاء و باقي الأحشاء من الضراء، و في كتاب «اليد في الطب» يذكر نحوا من ثلاثين صفحة حول أضرار الخمر.

و يقول العالم الانجليزي (بنتام) في كتابه (أصول الشرايع) ترجمة المرحوم احمد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 222

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فتحي زغلول باشا تحت عنوان: الجرائم الشخصية ما نصه: النبيذ في الأقاليم الشمالية يجعل الإنسان كالأبله و في الأقاليم الجنوبية يصيره كالمجنون، ففي الأوّل يكتفى بمعاقبة الأوّل على السكر كعمل وحشي و في الثانية يجب منع ذلك بطرق أشد لأنه شبيه بالتشرر و قد حرمت ديانة محمد (ص) جميع المشروبات و هذه من محاسنها- و في كتاب اليد الطبي تأليف الأستاذ كبلوج تحت عنوان: الاستعمال الطبي للخمر من الصفحة 175- الى- 504 و مما كتب فيه: إني لست أبحث في منع الخمر للسكر، فهذا فرغ منه العلماء، و ان بحثي اليوم في مضاره الطبية و أن التداوي به يجلب للإنسان أمراضا لا قبل له بها فان التداوي به ممنوع طبيا و ليس فيه أدنى فائدة.

و قال الأستاذ (لبيج) إنه إذا اعتدل الإنسان في شربه قوي جسمه و أكسبه نشاطا، و قد نقض هذه القضية ثلاثة من علماء الكيمياء الفرنسيين و هم الأستاذ للمان و الأستاذ بيرن و الأستاذ دروى، ثم الأستاذ ادوارد سميث الانجليزي، و قد برهن الثلاثة الأول على بطلان ما تقدم بقولهم: إن الخمر تخرج من الجسم و لا اثر لها، و زاد الأخير بقوله: إنه حلل الدم فلم يجد فيه أدنى شي‏ء من العناصر التي يتركب منها الخمر، و قال الدكتور ملر الاسكوتلاندي: الخمر لا يشفي شيئا، و قال الدكتور هيجنبوتوم أمام الجمعية الطبية البريطانية: أنا لا أعلم مرضا قط شفي بالخمر، و قال الدكتور جونسون الأنجليزي: ان الخمر ليس ضروريا البتة ليستعمل دواء، و قال في إبطال قولهم: إن الخمر غذاء و انه يحفظ الجسم أو يقوي العضلات: ما هذه القوة إن هي إلا اسم آخر من اسماء السموم، فقولنا: فلان نشوان طرب ثمل، معناه: مسموم و برهن على ذلك بقوله: إذا أدخلنا الخمر أو أي سم آخر من العقاقير السامة التي تعدّ بالمئات في الجسم فإن جميع الأعضاء تستعد للمقاومة و المدافعة لإخراجه من الجسم، و من هنا كان النشاط، و قال في نقض قولهم: إن الخمرة تمنع المرض: إن الناس يتعاطون الخمر لأمراض مختلفة، فإذا كان ما تقولون حقا فأضرار الخمرة أشد من تلك الأمراض فتكا بالجسم، فكيف بها إذا كانت لا تشفي منها شيئا، فإن تجارب الأطباء السابقة تثبت أنها لا تترك أثرا في النسيج و الأثر الحقيقي انما يكون في النسيج. و قال الدكتور سميث الأنجليزي ردا على الأستاذ لبيج: ان الخمرة يخسر بسببها الجسم جزء من الحرارة، بل يزيد ذلك الفقد.

ذلك و

في صحيح مسلم مع شرح الامام النووي ص 364- ان طارق بن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 223

وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ احْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما عَلى‏ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (92):

«وَ أَطِيعُوا اللَّهَ» في محكم كتابه‏ «وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ» في سنته الجامعة غير المفرقة: «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ»- «و احذروا» من عصيان اللَّه و رسوله‏ «فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ» عما فرض عليكم‏ «فَاعْلَمُوا أَنَّما عَلى‏ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ»: لوحي الكتاب و السنة، و اللَّه هو المبلّغ عنه، الواجبة طاعته على أية حال، فهو المثيب و هو المعاقب.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

سويد سأل النبي (ص) عن الخمر فنهاه أو كره أن يصنعها فقال: إني أصنعها للدواء، فقال الرسول (ص): «إنه ليس بدواء و لكنه داء».

ذلك، و قد أثبت الدكتور (باركس) و (السيرجون هيل) مفتش عام في الجيش البريطاني و الدكتور هنري مارتس و آخرون: أن الخمر لا يشفي المرض و لا ينفع الجسم، و قال (باركس) في ابطال القول: «لا ضرر في الخمر الصافي: إن الخمر الصافي هي سم صاف» و قد أخذ يبطل القول: ان الخمر يمحو الهم و الكسل و يجعل الفقير الذي لا منزل له و لا صاحب يشعر بأنه غني أو ملك أو ...: ان الإنسان إذا سكر حتى أصبح لا يشعر بما هو عليه و فقد الإحساس و نسي ما هو فيه من شقاء الحياة و متاعبها لعاجز عن الاعتبار بتلك التجارب العالية الرفيعة القدر الشريفة المنزلة، و الشعور الشريف الذي تكون فيه البهجة العالية بالحياة الحقيقية.

و يذكر الطنطاوي الجوهري في تفسيره 1: 196 منذ ثمان سنين جاء رجل الى مصر من أعضاء دار الندوة (البرلمان) للسويد و النرويج، و ذكر انه رئيس جمعيات منع الخمر في العالم و انه زار جميع دول أوروبا و الشرق كفرنسا و انجلترا و الروسيا و الصين و اليابان- و كل الحكومات ساعدته- و أن أعضاء الجمعية العاملين يبلغ عددهم ستمائة الف رجل، و ذكر أنه في امريكا حرم خمسة و أربعون مليونا من أهلها الخمرة على أنفسهم، و قال: إن ولي العهد لبلاد السويد ربي على ألّا يشرب الخمر و نحن نفتخر بأنه أوّل ملك لا يشرب الخمر في اوروبا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 224

و هنا «فاعلموا» إعلام صارخ بحجة بارعة أخيرة للأسماع الصاغية «أنما» حصرا لكيان الرسول في‏ «عَلى‏ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ» و كل بلاغاته حول الخمر طول العهدين كانت مبيّنة رغم تطلّبات الخليفة عمر «اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا» ويكأن بيان اللَّه غير شاف في سائر الآيات المحرمة للخمر!.

لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا إِذا مَا اتَّقَوْا وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَ آمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَ أَحْسَنُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (93):

هنا ينفى «جناح» أيا كان عن‏ «الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا» مضيا، فليس النص «يطعمون»- أيا كان شرط الإيمان و عمل الصالحات أولا، ثم تقوى بعدهما و معها إيمان و عمل الصالحات، ثم تقوى و إحسان، فما هي صالحات هنا بعد صالحات، و درجات ثلاث من التقوى و درجات ثلاث من الايمان ثم إحسان- أخيرا- بعد درجات التقوى و الإيمان؟.

هنا «الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ» منهم هؤلاء الذين كانوا يشربون الخمر قبل هذه الآية ثم انتهوا «1» فلا يبقى عليهم جناحه‏ «إِذا مَا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في الدر المنثور 3: 320 عن ابن عباس قال: لما نزل تحريم الخمر قالوا يا رسول اللَّه (ص) فكيف باصحابنا الذين ماتوا و هم يشربون الخمر فنزلت‏ «لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ...» و فيه عن البراء بن عازب قال: مات ناس من اصحاب النبي (ص) و هم يشربون الخمر فلما نزل تحريمها قال أناس من اصحاب النبي (ص) كيف باصحابنا الذين ماتوا و هم يشربونها فنزلت هذه الآيات، أقول: لا تعني «لما نزل تحريم الخمر» إلّا نزول آية المائدة بهذه الصراحة و التأكيدات دون نزول اصل التحريم حيث سبقتها فيه مكيات و مدنيات، و لو كان نزول اصل التحريم لما كان جناح على الذين كانوا يشربونها قبل التحريم حتى يسألوا عنهم و تنزل آية براءتهم!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 225

اتَّقَوْا» الخمر منذ نزول الآية فتركوها فإنها كفارة له، فكلما يقرب إليه راجح واجبا و سواه، و كلما يبعد عنه مرجوح محرما و سواه، و أصل ثان هو الموادة بين المؤمنين على توحيد اللَّه و عبوديته، فكل ما يورث العداوة و البغضاء بينهم محرم، اللهم إلّا ما هو مفروض يفرضه اللَّه و يرفضه متخلفون عن طاعة اللَّه كافرين و مسلمين.

و هنا «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» تنظيم في حقل الإيمان بعقل الإيمان، اعتصاما بحبل اللَّه دون تفرق عنه أو تفرق فيما بينهم، حيث إن الايمان هو رمز الوحدة في كلمة التوحيد و توحيد الكلمة، فلا عداوة- إذا- و لا بغضاء.

و علّ الفارق بينهما أن العداوة هي الباطنة أم هي أعم من الظاهرة، و البغضاء هي الظاهرة قضية صيغة التفضيل، فهما العداوة باطنة و ظاهرة، و المفروض بين قبيل الإيمان الاعتصام بحبل اللَّه جميعا دون أي تفرق.

فالمفروض على المؤمنين تكريس كل طاقاتهم و امكانياتهم في الاعتصام بحبل اللَّه جميعا، و سلب كافة التفرقات حتى يسودوا سائر الناس النسناس الذين يتربصون بهم كل دوائر السوء «أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

فإن تركوا المعصية توبة فاللَّه يتوب عليهم دون أن يبقى جناح الشرب لزاما عليهم.

ذلك، و لأن شرب الخمر ناقض للإيمان فلا بد بعد التقوي عنه من تجديد الإيمان و عمل الصالحات التي تصلح لجديد الإيمان، و من ثم تقوى ثانية علّ منها التقوى في التصميم بعد التقوى في ترك الشرب حتى تكون توبة نصوحا، فإن مجرد الترك لا يستلزم واقع الترك إلّا بتصميم عليه، و إيمان ثان بعد جديده يتبنّى ذلك التقوى، ثم تقوى في الصميم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 226

بعد التصميم فإن من التصميم ما هو غير صميم، و أخيرا «أحسنوا» إحسانا لمراتب الإيمان و عمل الصالحات و التقوى، مما يدل على غلظ الحرمة في الخمر و أخواتها حيث يبقى جناحها لو لا هذه التنقيات التقيات.

و من هنا نتبين أن هذه المذكورات في هذه الآية كانت محرمة طول العهد الرسولي مكيا و مدنيا، و لم تكن لأحد عاذرة في شرب الخمر و اقتراف أخواتها، فإن كرور الآيات هنا و هناك مرارا و تكرارا كانت تمنع عنها بأشدّه مهما اختلفت صيغ التحريم، حتى وصلت إلى ذلك التهديد الحديد «فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ» مهما لم تنتهوا طوال كرور الآيات المذكرات الناهيات بمختلف التعبيرات.

و هنا «ما طعموا» تعم طعم عوائد الميسر و ذبائح الأنصاب و الأزلام إلى طعم الخمر، حيث الشرب طعم مهما لم يكن كلّ طعم شربا، و كما في مثل «و من لم يطعمه إنه مني» فالعبارة الصالحة لجامع شرب الخمر و طعم الثلاثة الأخرى هي «طعموا».

ف «لا جناح» هنا و جاه‏ «فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ» هناك تبيّن كبيرة عدم الانتهاء و العفو عن المنتهين بتلك الشروط المسرودة التي لا نظيرة لها في شروطات التوبة في سائر الكبائر، مما يدل على أن هذه الأربعة هي من أكبر الكبائر.

ذلك، فليس نفي الجناح هنا فيما طعموا تحليلا للمحرمات قضية أنهم آمنوا و عملوا الصالحات و اتقوا و أحسنوا، فإن قضيتها- و بهذه التأكيدات المتكررة- ترك المحرمات دون اقترافها حيث القضية لا تحمل نقيضها، فإنما ينفى الجناح عن المؤمنين الصالحين شرط أن يكفّروا عما طعموا فيما سبق من حرام إذا طعموه، أم يتركوه مهما لم يطعموه، تحليلا للمأكولات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 227

المحللة ككل، و توبة على الذين أكلوا محرمات ثم تابوا هكذا توبة نصوح‏ «1».

ذلك، و التقوى بحالها قضيتها العليا ترك أمهات المعاصي و هذه الأربع هي من اكبر كبائرها، فكيف تجتمع مع طعم الخمر بعد تحريمها بهذه التأكيدات الوطيدة، و لا نجد تأكيدات و تنديدات بكبيرة مثل ما نجدها في الخمر و الميسر، و إليكم نصوصا من امير المؤمنين و مولى المتقين إيضاحا لما ورد في القرآن من قضايا التقوى و صفات المتقين فضلا عما في آيتنا من مثلث التقوى و الايمان و مثنى عمل الصالحات و موحّد الإحسان الذي يجمع في خضمه مثلث الايمان و التقوى و عمل الصالحات:

«فاتقوا الله عباد الله، و فروا إلى الله من الله، و امضوا في الذي نهجه لكم، و قوموا بما عصبه بكم، فعلي ضامن لفلجكم آجلا، إن لم تمنحوه عاجلا» (الخطبة 27/ 75)- «أما الإمرة البرة فيعمل فيها التقي و أما الإمرة الفاجرة فيتمتع فيها الشقي» (40/ 99)- «فاتقى عبد ربه، نصح نفسه، و قدم توبته، و غلب شهوته» (62/ 188) «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 321- اخرج ابن أبي شيبة و ابن المنذر من طريق عطاء بن السائب عن محارب بن دثار أن ناسا من اصحاب النبي (ص) شربوا الخمر بالشام فقال لهم يزيد بن أبي سفيان شربتم الخمر؟ فقالوا: نعم، لقول اللَّه‏ «لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا ...» فكتب فيهم الى عمر فكتب إليه إن أتاك كتابي هذا نهارا فلا تنتظر بهم الليل و إن أتاك ليلا فلا تنتظر بهم النهار حتى تبعث بهم إليّ لا يفتنوا عباد اللَّه فبعث بهم إلى عمر فلما قدموا على عمر قال: شربتم الخمر؟ قالوا: نعم فتلا عليهم: «إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ ...» قالوا: اقرأ التي بعدها «لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا ...» قال: فشاور فيهم الناس فقال لعلي ما ترى؟ قال: أرى أنهم شرعوا في دين اللَّه ما لم يأذن به اللَّه فيه فان زعموا انها حلال فاقتلهم فقد أحلوا ما حرم اللَّه و ان زعموا انها حرام فاجلدهم ثمانين ثمانين.

(2) و «أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي ضرب الأمثال، و وقت لكم الآجال، و ألبسكم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 228

فهذه شرذمة من التقوى و إليكم جماعها من إمام المتقين و يعسوب الدين حيث يصف المتقين عن بكرتهم لمن يستوصفهم‏ «1»:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الرياش، و أرفغ لكم المعاش، و أحاط بكم الإحصاء، و أرصد لكم الجزاء، و آثركم بالنعم السوابغ، و الرفد الروافغ، و أنذركم بالحجج البوالغ، فأحصاكم عددا، و وظف لكم مددا، في قرار خبرة، و دار عبرة، أنتم مختبرون فيها، و محاسبون عليها» (81/ 1/ 137)- «أوصيكم بتقوى الذي أعذر بما أنذر، و احتج بما نهج، و حذركم عدوا نفذ في الصدور خفيا، و نفث في الآذان نجيا، فأضل و أردى، و وعد فمنى، و زين سيئات الجرائم، و هون موبقات العظائم» (81/ 2/ 145- «عباد الله إن تقوى الله حمت أولياءه محارمه، و ألزمت قلوبهم مخافته، حتى أسهرت لياليهم، و أظمأت هواجرهم، فأخذوا الراحة بالنصب، و الري بالظمإ، و استقربوا الأجل، فبادروا العمل، و كذبوا الأمل، فلاحظوا الأجل» (112/ 220)- ف «أين العقول المستصبحة بمصابيح الهدى، و الأبصار اللامحة الى منار التقوى، اين القلوب التي وهبت لله، و عوقدت على طاعة الله» (142/ 256)- «ألا و بالتقوى تقطع حمة الخطايا» (155/ 277)- «فاتقوا الله تقية من سمع فخشع، و اقترف فاعترف، و وجل فعمل، و حاذر فبادر، و أيقن فأحسن، و عبر فاعتبر، و حذر فحذر، و زجر فازدجر، و أجاب فأناب، و راجع فتاب، و اقتدى فاحتذى، و أري فرأى، فأسرع طالبا، و نجا هاربا، فأفاد ذخيرة، و أطاب سريرة، و عمر معادا، و استظهر زادا ليوم رحيله و وجه سبيله و حال حاجته و موطن فاقته، و قدم أمامه لدار مقامه، فاتقوا الله عباد الله جهة ما خلقكم له، و احذروا منه كنه ما حذركم من نفسه، و استحقوا منه ما أعد لكم بالتنجز لصدق ميعاده، و الحذر من هول معاده» (81/ 2/ 141)- «فاتقوا الله عباد الله، تقية ذي لب شغل التفكر قلبه، و أنصب الخوف بدنه، و أسهر التهجد غرار نومه، و أظمأ الرجاء هو اجر يومه، و ظلف الزهد شهواته، و أوجف الذكر بلسانه، و قدم الخوف لأمانه، و تنكب المخالج عن وضح السبيل، و سلك أقصد المسالك إلى النهج المطلوب، و لم تفتله فاتلات الغرور، و لم تعم عليه مشتبهات الأمور» (81/ 2/ 144).

(1).

هذه الخطبة اجابة لهمام صاحب له (ع) حين قال: يا أمير المؤمنين صف لي المتقين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 229

«أما بعد فان اللَّه سبحانه و تعالى خلق الخلق حين خلقهم غنيا عن طاعتهم، آمنا من معصيتهم، لأنه لا تضره معصية من عصاه، و لا تنفعه طاعة من أطاعه، فقسم بينهم معايشهم، و وضعهم من الدنيا مواضعهم.

فالمتقون فيها هم أهل الفضائل، منطقهم الصواب، و ملبسهم الإقتصاد، و مشيهم التواضع، غضوا أبصارهم عما حرم اللَّه عليهم، و وقفوا اسماعهم على العلم النافع لهم، نزّلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء، و لو لا الأجل الذي كتب اللَّه عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين، شوقا إلى الثواب، و خوفا من العقاب، عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم، فهم و الجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون، و هم و النار كمن قد رآها فهم فيها معذبون، قلوبهم محزونة، و شرورهم مأمونة، و أجسادهم نحيفة، و حاجاتهم خفيفة، و أنفسهم عفيفة، صبروا أياما قصيرة أعقبتهم راحة طويلة، تجارة مربحة يسرها لهم ربهم، إرادتهم الدنيا فلم يريدوها، و أسرتهم ففدوا أنفسهم منها، أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلا، يحزنون به أنفسهم، و يستثيرون به دواء دائهم، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعا، و تطلعت نفوسهم إليها شوقا، و ظنوا انها نصب أعينهم، و إذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، و ظنوا أن زفير جهنم و شهيقها في أصول آذانهم، فهم حانون على أوساطهم، مفترشون لجباههم و أكفّهم و ركبهم و أطراف أقدامهم، يطلبون إلى اللَّه تعالى في فكاك رقابهم، و أما النهار فحلماء علماء أبرار أتقياء، قد براهم الخوف بري القداح، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى و ما بالقوم من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

حتى كأني أنظر إليهم فتثاقل (ع) ثم قال: يا همام «اتق اللَّه و أحسن» «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ» فلم يقنع فخطب (ع) هذه الخطبة فلما انتهت صعق همام صعقة كانت نفسه فيها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 230

مرض، و يقول لقد خولطوا و لقد خالطهم أمر عظيم، لا يرضون من أعمالهم القليل، و لا يستكثرون الكثير، فهم لأنفسهم متّهمون، و من اعمالهم مشفقون، إذا زكّي أحد منهم خاف مما يقال له فيقول: أنا أعلم بنفسي من غيري، و ربي اعلم بي مني بنفسي، اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، و اجعلني أفضل مما يظنون، و اغفر لي ما لا يعلمون، فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة في دين، و حزما في لين، و إيمانا في يقين، و حرصا في علم، و علما في حلم، و قصدا في غنى، و خشوعا في عبادة، و تجملا في فاقة، و صبرا في شدة، و طلبا في حلال، و نشاطا في هدى، و تحرجا عن طمع، يعمل الأعمال الصالحة و هو على وجل، يمسي و همه الشكر، يبيت حذرا و يصبح فرحا، حذرا لما حذّر من الغفلة، و فرحا بما أصاب من الفضل و الرحمة، ان استصعبت عليه نفسه فيما تكره لم يعطها سؤلها فيما تحب، قرة عينه فيما لا يزول، و زهادته فيما لا يبقى، يمزج الحلم بالعلم، و القول بالعمل، تراه قريبا أمله، قليلا زلله، خاشعا قلبه، قانعة نفسه، منزورا أكله، سهلا أمره، حريزا دينه، ميّتة شهوته، مكظوما غيظه، الخير منه مأمول، و الشر منه مأمون، إن كان في الغافلين كتب في الذاكرين، و إن كان في الذاكرين لم يكتب من الغافلين، يعفو عمن ظلمه، و يعطي من حرمه، و يصل من قطعه، بعيدا فحشه، لينا قوله، غائبا منكره، حاضرا معروفه، مقبلا خيره، مدبرا شره، في الزلازل وقور، و في المكاره صبور، و في الرخاء شكور، لا يحيف على من يبغض، و لا يأثم فيمن يحب، يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه، لا يضيع ما استحفظ، و لا ينسى ما ذكّر، و لا ينابز بالألقاب، و لا يضار بالجار، و لا يشمت بالمصائب، و لا يدخل في الباطل، و لا يخرج من الحق، إن صمت لم يغمّه صمته، و إن ضحك لم يعل صوته، و إن بغي عليه صبر، حتى يكون اللَّه هو الذي ينتقم له، نفسه منه في عناء و الناس منه في راحة، أتعب نفسه لآخرته، و أراح الناس من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 231

نفسه، بعده عمن تباعد عنه زهد و نزاهة، و دنوه ممن دنا منه لين و رحمة ليس تباعده بكبر و عظمة، و لا دنوه بمكر و خديعة» (الخطبة 191/ 376).

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْ‏ءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنالُهُ أَيْدِيكُمْ وَ رِماحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدى‏ بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ (94):

هنا «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» دون خصوص الحرم، و «بِشَيْ‏ءٍ مِنَ الصَّيْدِ» دون تقيد بصيد الحرم قد تدل على الحظر عن الصيد كأصل، فأصله محظور و الاعتداء فيه أشد حظرا حيث‏ «فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ».

فحين تنال الصيد الأيدي و الرماح بسهولة فهنا الابتلاء، فليس لغير المحتاج إليه أن يناله على وفره، و ليس للمحتاج أن يناله أكثر من سؤله‏ «1» كما و ليس للحرم نيل منه على أية حال، فطالما البلوى بالصيد الوفير لغير الحرم غير خطير، فهي للحرم خطير خطير «2».

و طالما صيد اللهو حيث لا يعنى إلّا إياه حرام على أية حال، فمطلق صيد البر حرام على الحرم على أية حال مهما كان لحاجة، و هذه الآية تبيّن حرمة الصيد كأصل ثم التالية تغلظ حرمته و أنتم حرم.

و هنا مواصفة «الصيد» ب «تَنالُهُ أَيْدِيكُمْ وَ رِماحُكُمْ» دليل اختصاصه بصيد البر، و كما في آيات عدة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 671 في الكافي علي بن ابراهيم عن ابن أبي عمير عن حماد عن الحلبي قال‏ سألت أبا عبد اللَّه (ع) عن قول اللَّه سبحانه و تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْ‏ءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنالُهُ أَيْدِيكُمْ وَ رِماحُكُمْ» قال: حشر عليهم الصيد في كل مكان حتى دنا منهم ليبلوهم اللَّه به.

(2)

المصدر عن أبي عبد اللَّه (ع) في الآية قال: حشرت لرسول اللَّه (ص) في عمرة الحديبية الوحوش حتى نالتها أيديهم و رماحهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 232

ذلك‏ «لِيَعْلَمَ اللَّهُ» علما منه علامة عليكم لا علما: معرفة «مَنْ يَخافُهُ بِالْغَيْبِ» الطليق بذاته، فإنه حاضر بآياته، و «بالغيب» عن الناس و لكنه ليس إلّا في صيد بالغيب.

«فَمَنِ اعْتَدى‏ بَعْدَ ذلِكَ» البلاء أن يصيد دون مبرر أو ان يعتدي في الصيد المحظور «فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ» و لا سيما فيما يصيد تلاعبا بحياة الصيد دونما حاجة إليه فانه ظلم خالص كالس.

و هنا «بِشَيْ‏ءٍ مِنَ الصَّيْدِ» تعم إلى قسم من نوع الصيد و هو البري، قسما من أي صيد بري كالفروخ و البيض حيث تناله الأيدي على أية حال.

و قد يلمح ذلك التهديد الشديد ببلوى الصيد أنه كان في السنة محرما كأصل، و إلّا فلا دور للتهديد عن الصيد و لما يأت النهي عنه، و هكذا تتأيد الروايات الناهية عن صيد اللهو، فقد امتحن اللَّه هذه الأمة بصيد البر و لا سيما و هم حرم، كما امتحن بني إسرائيل بصيد البحر «إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَ يَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ» (7: 163).

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ وَ مَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَ مَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ (95):

لقد مضى قول فصل حول‏ «الصَّيْدَ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ» في الآية الأولى من المائدة، و منه أن «حرم» تعني إلى حالة الإحرام الكون في الحرم، فيا ويلاه إن كان الصيد في كلتا الحالتين! و هنا محور النهي هو قتل الصيد متعمدا دون الآية الأولى الطليقة في حرمة الصيد بكل المحاولات الإيجابية بحقه، و علّ الإختصاص هنا لبيان الجزاء الخاص، فليس في غير قتله‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 233

عمدا ذلك الجزاء قضية النص الخاص لموضوعه و هو القتل المعمد.

و طليق «الصيد» هنا حقيق للدلالة على حرمة قتل أي صيد، من محرم اللحم‏ «1» إلى محلّله، بل و علّ المحرم الأكل أشد محظورا من محلّله حيث لا يبرره حل أكله على أية حال، اللّهم إلّا ما يصاد لغير الأكل من المنافع المحللة، فما يصاد دون أي نفع فمحظور صيده على أية حال و إن لم تكونوا «حرما» فإنه إيذاء و ظلم دون أي مبرر، تلاعبا لاغيا بحياة حيوان لا يضرك و لا ينفعك.

إذا فقتل هكذا صيد و أنت محرم في الحرم يحمل ثالوثا من المحظور بل و زيادة هي اللهو في الصيد فإنه محرم في غير الحاجة الحيوية.

و هل يضاعف الجزاء في قتل الصيد محرما في الحرم؟ طليق «فجزاءه» الراجع إلى طليق القتل متعمدا، هو كالنص في وحدة الجزاء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما

في صحيح معاوية «إذا أحرمت فاتق قتل الدواب كلها إلا الأفعى و العقرب و الفارة فانها توهي السقاء و تضرم اهل البيت و اما العقرب فان نبي الله مد يده إلى حجر فلسعته العقرب فقال: لعنك الله لا تذرين برا و لا فاجرا و الحية إذا ارادتك اقتلها و إذا لم تردك فلا تردها و الكلب العقور و السبع إذا أراداك فاقتلهما فان لم يرداك فلا تؤذهما و الأسود الغدر فاقتله على كل حال وارم الحوأة و الغراب رميا على ظهر بعيرك» (الكافي 1: 77)

و

في صحيح حريز «كل ما خاف المحرم على نفسه من السباع و الحيات و غيرها فليقتله و لو لم يردك فلا ترده» (التهذيب 1: 551 و الاستبصار 3: 208 و الكافي 4: 363)

و

صحيح الحلبي عن أبي عبد اللَّه (ع) قال: لا تستحلن شيئا من الصيد و أنت حرام و لا أنت حلال في الحرم و لا تدلن عليه محلا و لا محرما فيصطاده و لا تشر اليه فيستحل من أجلك فان فيه الفداء لمن تعمده‏ (الكافي 4: 381).

أقول: فاستثناء هذه المذكورات دليل حرمة غيرها من الصيد و لا سيما «شيئا من الصيد» الشامل لكل صيد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 234

فالصحاح الواردة في المضاعفة «1» غير صحاح إلّا أن تحمل على الرجحان.

و القول إن الصيد هو المحلّل فقط لا و المحرم، بحجة أنه لا ضمان في قتل الضاريات، مردود بأنه مخصّص بدليل، كما الاستدلال ب «أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ ... وَ حُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ما دُمْتُمْ حُرُماً» اعتبارا بحل صيد البحر مطلقا و حيوان البحر يعم المحلل و المحرم! و حل صيد البر خارج الإحرام كذلك! هو كذلك مردود بأن المحلّل من الصيد لا يختص بحل الأكل برا و بحرا، و أن صيد البر لهوا محرم في حقل المحلّلات، و الصيد هو كل وحشي غير أهلي لا تصل إليه الأيدي بصيده، و طليق الصيد يشمل المحرم أكله إلى المحلل، ما فيه منافع أخرى أم ليست.

«وَ مَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً» و تعمّد القتل حالة الإحرام و الحرم المحظور فيهما القتل يلمح بشرط العلم بالإحرام و الحرم كالعلم بالحرمة و قصد القتل مع العلمين، كما و «لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ» ثم‏ «وَ مَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ» تؤيدان شرط العلم بالإحرام و الحرم إذ لا وبال و لا انتقام في قتل الصيد في غير الإحرام و الحرم إلّا لهوا، و هنا المحظور المعاقب عليه هو قتل الصيد و أنتم حرم مطلقا، فما لم تجتمع أعمدة العمد الثلاث لم يحكم على القاتل بالجزاء.

إذا فالجاهل بالحرم أو الإحرام، كالجاهل الحرمة إلى غير العامد في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مثل‏

قول الصادق (ع) على المحكي في الحسن الصحيح عن معاوية بن عمار: ان أصبت الصيد و أنت حرام في الحرم فالفداء مضاعف عليك و ان أصبته و أنت حلال في الحرم فقيمة واحدة و ان أنت أصبته و أنت حرام في الحل فانما عليك فداء واحد (الكافي 4: 395)

و

الموثق عنه (ع) و ان أصبته و أنت حرام في الحرم فعليك الفداء مضاعفا (التهذيب 1: 553).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 235

القتل، هم شركاء ثلاث في الخروج عن «متعمدا» فالروايات الواردة خلاف ذلك مأولة أو مطروحة «1».

ثم‏ «فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ» تعني مماثلة الجزاء من النعم لما قتل من الصيد، فإن كان في النعم ما يماثل المقتول فليقتل كفارة عما قتل، و إن لم يكن مماثل إلّا أقل منه أو اكثر جسما و قيمة فليقتل الأقل و يدفع بقية الثمن لأهله، و ليدفع قيمة الصيد المقتول في الأكثر، فالمماثلة هي المفروضة عينا و قيمة، و إلّا فقيمة.

ففي حمار الوحش أو بقره حمار أهلي أو بقر، و في الظبي شاة «2»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و

في نور الثقلين 1: 673 في مجمع البيان: فاما إذا قتل الصيد خطأ أو ناسيا فهو كالمتعمد في وجوب الجزاء عليه و هو مذهب عامة اهل التفسير و هو المروي عن أئمتنا عليهم السلام،

و

فيه 678 في تهذيب الأحكام عن أبي عبد اللَّه (ع) قال: إذا أصاب المحرم الصيد خطأ فعليه الكفارة فان اصابه ثانية خطأ فعليه الكفارة ابدا إذا كان خطأ فان اصابه متعمدا كان عليه الكفارة فان اصابه ثانية متعمدا فهو ممن ينتقم اللَّه و لم يكن عليه الكفارة.

(2)

في صحيح حريز عن الصادق (ع) في قول اللَّه عزّ و جل‏ «مِثْلُ ما قَتَلَ» في النعامة بدنة و في حمار الوحش بقرة و في الظبي شاة و في البقرة بقرة (التهذيب 1: 544)

و

في صحيح زرارة و ابن مسلم‏ في محرم قتل نعامة عليه بدنة فان لم يجد فإطعام ستين مسكينا و ان كانت قيمة البدنة اقل من اطعام ستين مسكينا لم يكن عليه إلّا قيمة البدنة

و

في صحيح أبي عبيدة الحذاء عن أبي عبد اللَّه (ع) قال: إذا أصاب المحرم الصيد و لم يجد ما يكفر من موضعه الذي أصاب فيه الصيد قوم جزاءه من النعم دراهم ثم قومت الدراهم طعاما لكل مسكين نصف صاع فان لم يقدر على الطعام صام لكل نصف صاع يوما (الكافي 4: 387 و التهذيب 1: 403)

أقول: نصف الصاع محمول على الرجحان لما قدمناه من لمحة الآية و

صحيح ابن عمار عن الصادق (ع) من أصاب شيئا فداءه بدنة من الإبل فان لم يجد ما به يشتري بدنة فأراد ان يتصدق فعليه ان يطعم ستين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 236

و هكذا، و لأن المماثلة العادلة بحاجة إلى خبروية عادلة، إذا فل «يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ» بالمماثلة.

ذلك، و ليكن المماثل‏ «هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ» مما يدل على وجوب المماثلة العينية، فلا تكفي القيمة ما أمكنت تلك المماثلة، و «بالِغَ الْكَعْبَةِ» تعني البلوغ المناسب للكعبة و هو قربها خارجها و خارج المسجد الحرام، و كما في‏ «ذلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» حيث يعني الحرم.

«أَوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ» و هي طبعا فيما لا يسطع على المماثل عينا أو قيمة، و طليق «مساكين» يطلق واجب الإطعام في طليق الجمع، و هو بطبيعة الحال قدر المستطاع.

ثم‏ «أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً» حين لا يسطع على ذلك الطعام، و أقل العدل في عدل ذلك عدل ثلاثة مساكين و هو ثلاثة أمداد، كما و هي كفارة ثلاثة أيام من الصيام في أقلها، لطليق «كفارة» الشامل لأقلها دون أكثرها و أوسطها.

ذلك و «لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ» حيث جاء بالمحظور المحظور، صيد بقتله و هو من الحرم.

و هنا «عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ» يختص بمن أدى الكفارة الواجبة، «وَ مَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ» تلمح أن ليست في العدد كفارة، لأنه عصيان كبير كبير لا تمحيه و تكفّره أية كفارة إلّا النقمة الربانية بعد الموت‏ «1» «و اللَّه عزيز ذو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

مسكينا لكل مسكين مد فان لم يقدر على ذلك صام مكان ذلك ثمانية عشر يوما مكان كل عشرة مساكين ثلاثة ايام» (التهذيب 1: 545).

(1).

نور الثقلين 1: 678 في الكافي عن أبي عبد اللَّه (ع) في محرم أصاب صيدا؟ قال:

عليه الكفارة قلت: فإن أصاب آخر؟ قال: إذا أصاب آخر فليس عليه كفارة و هو ممن قال اللَّه تعالى: «وَ مَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 237

انتقام»، و لأن الكفارة توبة عملية حيث تكفّر الخطيئة، و العائد هنا مهدد بالانتقام دون أية كفارة، فذلك دليل على أنه ليس في العود المعمد كفارة.

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَ طَعامُهُ مَتاعاً لَكُمْ وَ لِلسَّيَّارَةِ وَ حُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ما دُمْتُمْ حُرُماً وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (96):

هنا «صيد البحر- و- صيد البر» تعنيان المصدر و الصادر من البحر:

عمل الصيد و نفس الصيد، مهما كان حل الأكل أم سائر الحل، ثم «و طعامه» تختص بحل طعمه، سواء أ كان طعام الصيد و هو الحلّ أكله منه، أم طعام البحر دون صيد و هو ما يلقيه البحر بأمواجه دون صيد «1» مما يدل على عدم اختصاص الحل في طعام البحر بصيده، خرج الميت في الماء صيدا و غير صيد، كما خرج غير السماك و الروبيان بقاطع السنة اللّهم إلّا ما ليس له فلس.

إذا فصيد البحر طليق في حلّه، في حلّه و إحرامه، في حاجته و لهوه، اللّهم إلّا ما لا يستفاد منه إطلاقا فغير حلّ لمكان‏ «مَتاعاً لَكُمْ وَ لِلسَّيَّارَةِ»، و للإيذاء و التبذير، و إلّا ما خرج بقاطع السنة من أكل غير السمك الأملس غير المفلس و الروبيان.

و تحريم صيد البر ما دمتم حرما تحريم عميم و أنتم حرم، وجاه الحل المشروط و أنتم غير حرم، و هو شرط الحاجة متاعا و عدم اللهو في صيده، ثم‏ «وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ» تعني عامة التقوى في سائر الحقول‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 2: 331- اخرج ابن جرير عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه (ص) «أحل لكم صيد البحر و طعامه متاعا لكم، قال ما لفظه ميتا فهو طعامه،

أقول: يعنى لفظه دون صيد و مات خارجه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 238

إلى خاصة التقوى في حقل الصيد برا و بحرا، فما دل دليل من قاطع الكتاب و السنة على حله كان حلا، أم على حرمته كان حراما، و في العوان بينهما عوان حكمه الحل للضوابط الفوقية العامة في حل كل شي‏ء إلّا ما أخرجه الدليل ك «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً»، و هنا «حُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ما دُمْتُمْ حُرُماً» كما تحرّم صيد البرّ على الحرم كذلك تلمح بحله لغير الحرم، فقد يجوز أكل صيد البر من الحرم لغير الحرم، لاختصاص حرمته بالحرم.

و لأن إحلال صيد البحر و طعامه طليق ففيما يشك كونه من المحرم المستثنى نرجع إلى ذلك الإطلاق فحلّ كالسماك التي نشك أنها من ذوات الفلوس لكون حاضرها ملساء فيما احتمال كونها ذوات فلوس واردا أنها ذهبت عبر المنازعات، و أما التي لا أثر عن الفلس فيها و لا تحت آذانها فهي شاردة عن ذلك الاحتمال اللّهم إلّا إذا كانت من الصنف الذي لا فلس تحت آذانها و هي قليلة الفلوس في مظاهرها و خفيفتها لحد تذهب عبر الاصطكاكات البحرية و سباقاتها بين الرفاق أو المتنازعات.

[سورة المائدة (5): الآيات 97 الى 108]

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَ الشَّهْرَ الْحَرامَ وَ الْهَدْيَ وَ الْقَلائِدَ ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ (97) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ وَ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (98) ما عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَ ما تَكْتُمُونَ (99) قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَ الطَّيِّبُ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (100) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَ إِنْ تَسْئَلُوا عَنْها حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْها وَ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (101)

قَدْ سَأَلَها قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِها كافِرِينَ (102) ما جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَ لا سائِبَةٍ وَ لا وَصِيلَةٍ وَ لا حامٍ وَ لكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (103) وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى‏ ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ قالُوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَ وَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ لا يَهْتَدُونَ (104) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهادَةُ بَيْنِكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنانِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُما مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى‏ وَ لا نَكْتُمُ شَهادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِينَ (106)

فَإِنْ عُثِرَ عَلى‏ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرانِ يَقُومانِ مَقامَهُما مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيانِ فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ لَشَهادَتُنا أَحَقُّ مِنْ شَهادَتِهِما وَ مَا اعْتَدَيْنا إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (107) ذلِكَ أَدْنى‏ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهادَةِ عَلى‏ وَجْهِها أَوْ يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمانِهِمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اسْمَعُوا وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (108)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 240

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَ الشَّهْرَ الْحَرامَ وَ الْهَدْيَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 241

وَ الْقَلائِدَ ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ (97):

هنا في‏ «الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ» بما «جَعَلَ اللَّهُ» قيام للناس تحمل قيامات فيها قوامات للناس في مناسك الحج و العمرة التي هي إشارات إلى كل هذه القيامات.

فلقد

«جعلها الله لدينهم و معاشهم» «1»

فهي قيام لهم و قوام لدينهم و معاشهم حيث تتلاقى عندها مختلف جماهير المسلمين من مشارق الأرض و مغاربها، فليجعلوا أمرهم في الدين و الدنيا شورى بينهم حتى يحصلوا على حصالة من صالحة الآراء و التصميمات لصالح دينهم و دنياهم، إصلاحا لسلطتهم الزمنية و الروحية، و توحيدا لهما في الشورى الصالحة بين الرعيل الأعلى من الربانيين.

فالحج مؤتمر و منتدب لا تنوب عنه أية عبادة أخرى أو صدقة «2»، إذا كان حجا فيه قيام للناس، دون مجرد مناسك لا يعرفون معناها و مغزاها،

«من أتى هذا البيت يريد شيئا للدنيا و الآخرة أصابه» «3».

و هنا «جعل» جعل تشريعي لذلك القيام للناس وجاه النسناس، فكما للنسناس مؤتمرات يوحي فيها بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 680 عن ابان بن تغلب قال: قلت لأبي عبد اللَّه (ع) جعل اللَّه الكعبة البيت الحرام قياما للناس قال: ...

(2)

المصدر 680 في كتاب علل الشرائع باسناده الى عبد الرحمن بن أبي عبد اللَّه قال‏ قلت لأبي عبد اللَّه (ع) ان ناسا من هؤلاء القصاص يقولون: إذا حج رجل حجة ثم تصدق و وصل كان خيرا له؟ فقال: كذبوا لو فعل هذا الناس لتعطل هذا البيت ان اللَّه عزّ و جلّ جعل هذا البيت قياما للناس.

(3) نور الثقلين 1: 680 عن مجمع البيان هو المروي عن أبي عبد اللَّه (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 242

و يدرسون فيها شيطنات على الناس يحققونها فيهم في كافة الأبعاد الحيوية الإنسانية و الاسلامية.

كذلك على الناس القائمين بشرعة الحق الهائمين في الإيمان بالحق أن يحققوا كفاحا صارما ضد النسناس الخناس، فضحا لخططهم الساحقة الماحقة للحق و أهله، و خير مؤتمر لذلك القيام و الإقدام هو مؤتمر الحج السنوي بعد مؤتمر الجمعة الأسبوعي، و مؤتمرات صلوات الجماعة.

و «الكعبة» هي المربعة المرتفعة من كلّ شي‏ء، ثم أصبحت علما للكعبة المباركة، الموصوفة هنا ب «الْبَيْتَ الْحَرامَ» و هي بيت اللَّه الحرام، حرمة الاحترام دون أي اخترام، و من حرمتها حرمة الصيد «وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ» أمنا لكل ذي حيات بل و النبات اللّهم إلّا الخطر فمقابلة بالمثل.

ذلك، و كل محرمات الحرم إلى محرمات الإحرام هي من حرمة الكعبة البيت الحرام‏ «قِياماً لِلنَّاسِ» لخلق أجواء الأمن.

و هنا محور «قِياماً لِلنَّاسِ» هو الكعبة المباركة و يلحقها زمانا «الشَّهْرَ الْحَرامَ» و هو الأشهر الحرم الخمس جمعا بين ثلاثة الحج و أربعة القتال بترك المتكرر بينهما، و هذه الخمس هي «محرم- رجب- شوال- ذي القعدة- ذي الحجة» كما فصلناه في بداية المائدة، و من ثم في مناسك الحج: «الْهَدْيَ وَ الْقَلائِدَ».

في كل هذه الأربعة يكمن‏ «قِياماً لِلنَّاسِ» ففي الهدي و القلائد قيام للناس المطعمين في سماحة الإنفاق و في رمز الفداء، و للناس المطعمين في شبعهم من اللحم و على حد

قول الرسول (ص): «إنما جعل الله هذا الأضحى لتشبع مساكينهم من اللحم فأطعموهم منها».

و أما إذا تهدرت هذه اللحوم حرقا أو دفنا فهنالك الطامة الكبرى، قياما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 243

للنسناس الضاحكين علينا أغنياء و فقراء، و قعودا لنا عن تطبيق حكم اللَّه أغنياء و فقراء «1».

في كل هذه قيام للناس في الحفاظ على أنفسهم و سماحتها و شجاعتها و خلقها الطيبة، تمرّنا على صالح الأقوال و الأعمال و أمن الحياة و طمأنتها.

و لقد ألقى اللَّه في قلوب العرب منذ جاهليتهم فضلا عن إسلامهم حرمة هذه الأشهر فكانوا لا يروّعون فيها نفسا و لا يطلبون فيها دما و لا يتوقعون فيها ثأرا حتى كان الرجل يلقى قاتل أبيه و ابنه و أخيه فلا يؤذيه، فكانت مجالا فاسحا آمنا لكل الناس، و لا سيما العائشين الحرم المبارك المكي.

فكما الحرم منطقة أمن من حيث المكان، كذلك الشهر الحرام منطقة أمن من حيث الزمان، و لا سيما حين يتلاقيان فيتلافيان كل ما يسبب اللّاأمن، و جعل الهدي و القلائد أمنة من كلّ أذى للمهدين و المقلدين، و كل هذه من خلفيات الحرمة البالغة المدى ل «الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ» حيث جعلت بشعائرها الزمانية و المكانية و العملية «قِياماً لِلنَّاسِ» فيما يتوجب عليهم أو يرجح لهم فيه قيام للناس و جاه النسناس، فالكعبة البيت الحرام هي منطقة أمان في المكان و الزمان لا للإنسان فحسب بل و للنبات و الحيوان أيضا نفسيا و في ضمير الإنسان، منطقة أمان في مصطرع الحياة الثائر الفائر الطاغي بشواظه الشذاذ و بدخانه على المكان و الزمان، حتى ليتحرج الحرم أن يمدوا أيديهم إلى أي ذي حياة اللّهم إلّا ما يزهق الحياة أو يحرجها.

ذلك، و قد نستشعر من كل مناسك الحج قيامات فردية و جماعية اسلامية، لو أن حجاج البيت استشعروها و طبّقوها لأصبحوا بسائر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لمعرفة واسعة حول واجب الأضاحي راجع الفرقان 17: 104- 119 و رسالتنا الفارسية (اسرار مناسك- ادلة الحج).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 244

الملتحقين بهم قضية الخلفية الصالحة لهذه الاستشعارات و القيامات، لأصبحوا أصحاب طاقات في كافة الحيويات الإسلامية، علمية- عقيدية- خلقية- سياسية- اقتصادية و حربية أماهيه من قيامات فيها قوامات لدولة موحدة إسلامية سامية تستقل أمام سائر القدرات التي امتلكت الأرض بمن عليها.

«ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ» و لعلمه المحيط بكل شي‏ء يريد ليجعلكم تحيطون على مختلف الطاقات نتيجة ذلك المؤتمر، فليعلموا أنه تعالى يعلم طبائع الإنسان بسؤله أيا كان فيقرر شرعته تلبية لكل سؤل له صالح و زيادة لا يعلمها إلّا اللَّه.

و قد تلمح «لتعلموا» هنا أن الحج يضمن في مشاعره كل جنبات شرعة اللَّه فقد قال اللَّه فيه بصورة مجملة و إشارات عملية كل ما أراد أن يقوله لكافة المكلفين إلى يوم الدين.

ذلك، فقد «فرض عليكم حج بيته الحرام الذي جعله قبلة للأنام، يردونه ورود الأنعام، و يألهون إليه ولوه الحمام، و جعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته، و إذعانهم لعزته، و اختار من خلقه سمّاعا أجابوا إليه دعوته، و صدقوا كلمته، و وقفوا مواقف أنبيائه، و تشبهوا المطيفين بعرشه، يحرزون الأرباح في متجر عبادته و يتبادرون عنده موعد مغفرته، جعله سبحانه و تعالى للإسلام علما، و للعائدين حرما، فرض حقه، و أوجب حجّه، و كتب عليكم وفادته فقال سبحانه: «وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» () لخطبة 1/ 35).

«ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر و لا تنفع و لا تبصر و لا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياما، ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 245

حجرا، و أقل نتائق الدنيا مدرا، و أضيق بطون الأودية قطرا، بين جبال خشنة، و رمال دمثة، و عيون وشلة، و قوى منقطعة، لا يزكوا بها خف و لا حافر و لا ظلف، ثم أمر آدم عليه السلام و ولده أن يثنوا عطافهم نحوه فصار مثابة لمنتجع أسفارهم، و غاية لملتقى رحالهم، تهوي إليه ثمار الأفئدة، من مفاوز قفار سحيقة، و مهاوي فجاج عميقة، و جزائر بحار منقطعة، حتى يهزوا مناكبهم ذللا يهللون لله حوله، و يرملون على أقدامهم شعثا غبرا له، قد نبذوا السراويل وراء ظهورهم، و شوهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم، ابتلاء عظيما و امتحانا شديدا و اختبارا مبينا و تمحيصا بليغا، جعله الله سببا لرحمته و وصلة إلى جنته» (190/ 2/ 364).

انتباهة ضافية:

و هنا توافقات بين مختلف الزمن سنة و شهرا و أياما، «إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتابِ اللَّهِ» (8: 26) توافق تكرار عديد الشهر في كتاب اللَّه اثني عشر مرة، ثم لفظ اليوم بمختلف صيغه تكرر (365) مرة عديدا أيام السنة، ثم نجد لفظ اليوم جمعا (23) مرة و مثنى (3) مرات و بلفظ «أياما» (4) مرات و المجموع (30) عدد أيام الشهر في الأكثر.

فهل إن هذا تناسق لاغ أم هو قاصد كما في سائر التناسقات القرآنية التي لم يكشف العلم عنها النقاب حتى الآن؟!.

اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ وَ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (98):

هذا تحذير عن كل تهذير و تهدير بجنب اللَّه‏ «أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ» كما هو بشارة «أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» فهو «أرحم الراحمين في موضع العفو و الرحمة و أشد المعاقبين في موضع النكال و النقمة» و من العقاب الشديد ما هو على‏

«من أذنب ذنبا صغيرا أو كبيرا و هو لا يعلم أن لي أن أعذبه أو أعفو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 246

عنه لما غفرت له ذلك الذنب أبدا، و من أذنب ذنبا صغيرا كان أو كبيرا و هو يعلم أن لي أن أعذبه أو أن أعفو عنه عفوت عنه» «1».

ذلك، و من بعده تعقيبة التحذير للعصاة الذين لا يتوبون إلى اللَّه و لا يثوبون:

ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَ ما تَكْتُمُونَ (99):

أجل‏ «فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسابُ» و ليس الرسول ليبلغ إلّا ما عليه رسالة، دون أي بلاغ آخر أم حساب‏ «وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَ ما تَكْتُمُونَ» فهو يحاسبكم بما يعلم من سرّ و علانية.

قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَ الطَّيِّبُ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (100):

«قل» لهؤلاء الذين تعجبهم كثرة الخبيث‏ «لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَ الطَّيِّبُ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ» فلا تعجب الكثرة إلّا الخاوي عن العقلية الإيمانية و أنت لك عقلية الوحي، «لَوْ أَعْجَبَكَ» خطاب من الرسول بوحي اللَّه لهؤلاء المعجبين بكثرة الخبيث و ليس خطابا إياه، و حتى لو شمله فيما شمل، ف «لو» هنا تحيل له الإعجاب من كثرة الخبيث، فهي بحقه إحالة واقعية و بحق الآخرين إحالة تكليفية تعني أن قضية الإيمان هي ترك ذلك الإعجاب العجاب اللّهم إلّا ممن هو ضعيف الإيمان، لذلك:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 681 في كتاب التوحيد بسند متصل عن معاذ الجوهري عن جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام عن آبائه عليهم السلام عن رسول اللَّه عن جبرائيل قال:

قال اللَّه جلّ جلاله: من أذنب ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 247

«فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ» عن محاظيره، فلا تستوحشن في طريق الهدى لقلة أهله، حيث اللب الإيماني هو قيد الفتك و إن عارضك العالمون‏ «لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» حيث تفلجون كافة العراقيل التي تحول بينكم و بين قضاء الإيمان الصادق المتين.

ذلك و «الْخَبِيثُ وَ الطَّيِّبُ» تعمان القال و الحال و الأعمال، و ما تقدم الخبيث هنا في الذكر إلّا لتقدمه في المظاهر الجلابة الغلابة «قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ».

ذلك، و الأكثرية هي دوما مفنّدة مزيفة اللّهم إلّا بين الصالحين، فلا اعتبار بطليق الأكثرية، إلّا ما هي بين القلة المؤمنة الصالحة أحيانا، و لكن القلة بين الكثرة منهم أيضا هي الأصلح كضابطة.

و هنا عدم استواء الخبيث و الطيب أمر فطري عقلي حسي شرعي و في كل الحقول، اللّهم إلّا من يرى الخبيث طيبا و الطيب خبيثا فيرجح الخبيث رغم طيبه على الطيّب زعم خبثه بلبسه بينهما قاصرا أو مقصرا.

و عدم الإستواء هذا في مثلث القال و الحال و الأعمال قد يحوله إلى الإستواء أم رجاحة الخبيث على الطيب كثرة في عدد و عدد بالمظاهر المختلقة التي تجلب العيون و الأهواء، و لكن العقلية الإنسانية فضلا عن الإيمانية تناحر خرافة الإستواء أو الأفضلية المعكوسة حين تتحكم على مختلف الموازين و المقاييس، و أما حين تتحكم الأهواء الماردة و العقول المعقولة بطوعها، الشاردة، فهنالك الويل كل الويل، حيث تختل الموازين حين يحتل الخبثاء الأمكنة و المكانات و الكراسي و الزعامات.

ذلك، «لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ. مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهادُ» (3: 197).

و حين يختلط الخبيث و الطيب على المجاهيل قصورا أو تقصيرا فاللَّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 248

هو الذي يميّز بينهما: «لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى‏ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ» (8: 37) فمآل الخبيث الفضيحة مهما طال و كثر، كما أن مال الطيب كحاله النصوع فقد «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَ فَرْعُها فِي السَّماءِ. تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ. يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَ يَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ» (14: 27).

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَ إِنْ تَسْئَلُوا عَنْها حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْها وَ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (101) قَدْ سَأَلَها قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِها كافِرِينَ (102):

هذه الآية تقتسم السؤال عن أشياء إلى محظور و محبور اعتبارا بالعاقبة المحظورة و المحبورة، فالسؤال هو كسائر الموضوعات التكليفية بحاجة إلى سماح لولاه فليس محبورا سواء أ كان محظورا أم سواه.

فالسؤال عما لا يتوجب على السائل علمه و لا يرجح غير محبور، فإن نفس السؤال محظور على أية حال إلّا فيما يرجح علمه على جهله، و هنا محور الحظر «إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ» فكما الإساءة إلى النفس دون مبرر هو أرجح منها محظور، كذلك السؤال عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم.

ذلك، و من السؤال في غير موقفه ما يشدّد التّكليف كما تسائل بنو إسرائيل حول البقرة «1» كما منه ما يسي‏ء في نفسه حين يبدو كأن يسأل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 2: 335- اخرج ابن حبان عن أبي هريرة ان رسول اللَّه (ص) خطب فقال ايها الناس ان اللَّه تعالى قد افترض عليكم الحج فقام رجل فقال: لكل عام يا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 249

المعصوم عن بعض النسل، أو يتهدر في السؤال و يهذي و يتمسخر، فقد

«خرج رسول الله (ص) و هو غضبان محمر وجهه حتى جلس على المنبر فقام إليه رجل فقال: أين آبائي؟ قال: في النار، فقام آخر فقال: من أبي؟ فقال: أبوك حذافة» «1»

و هو غير من يدعى إليه!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

رسول اللَّه (ص)؟ فسكت عنه حتى أعادها ثلاث مرات قال: لو قلت نعم لوجبت و لو وجبت ما قمتم بها ذروني ما تركتم فانما هلك الذين قبلكم بكثرة سؤالهم و اختلافهم على أنبياءهم فإذا نهيتكم عن شي‏ء فاجتنبوه و إذا أمرتكم بشي‏ء فأتوا منه ما استطعتم.

و

فيه عن ابن عباس‏ ان رسول اللَّه (ص) أذن في الناس فقال: يا قوم كتب عليكم الحج فقام رجل من بني اسد فقال يا رسول اللَّه (ص) في كل عام؟ فغضب غضبا شديدا فقال: و الذي نفسي بيده لو قلت نعم لوجبت و لو وجبت ما استطعتم و اذن لكفرتم فاتركوني ما تركتكم و إذا أمرتكم بشي‏ء فافعلوا و إذا نهيتكم عن شي‏ء فانتهوا فأنزل اللَّه‏ «لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ»

نهاهم أن يسألوا عن مثل الذي سألت النصارى من المائدة فأصبحوا بها كافرين فنهى اللَّه عن ذلك و قال: لا تسألوا، أي إن نزل القرآن فيها بتغليظ ساءكم ذلك و لكن انتظروا فإذا نزل القرآن فإنكم لا تسألون عن شي‏ء إلّا وجدتم تبيانه» و

فيه عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول اللَّه (ص): «أعظم المسلمين في المسلمين جرما من سأل عن شي‏ء لم يحرم فحرم من أجل مسألته».

(1). الدر المنثور 3: 335- اخرج الفريابي و ابن جرير و ابن مردويه عن أبي هريرة قال:

خرج رسول اللَّه (ص) .. فقام عمر بن الخطاب فقال: رضينا باللَّه ربا و بالإسلام دينا و بمحمد (ص) نبيا و بالقرآن إماما انا يا رسول اللَّه حديث عهد بجاهلية و شرك و اللَّه أعلم من آباءنا فسكن غضبه و نزلت هذه الآية.

أقول: و ذلك من جراء كثرة الاسئولة المحرجة لخاطره الخطير، غير المعنية في ما يحتاجون اليه، و كما

في المصدر 334 عن انس‏ في الآية ان الناس سألوا نبي اللَّه (ص) حتى احفوه بالمسألة فخرج ذات يوم حتى صعد المنبر فقال: لا تسألوني اليوم عن شي‏ء إلّا انبأتكم به فلما سمع ذلك القوم ارموا و ظنوا ان ذلك بين يدي امر قد حضر فجعلت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 250

ذلك، و قد يعني السؤال الاستجهال، كأن اللَّه لم يعرف السؤال فما بين حكما يتساءل عنه، و

«إن الله حد حدودا فلا تعتدوها و فرض فرائض فلا تضيعوها و حرم أشياء فلا تنتهكوها و ترك أشياء في غير نسيان و لكن رحمة منه لكم فاقبلوها و لا تبحثوا عنها» «1».

و أما سؤال الاستعلام فيما يرجح فرضا و سواه فهو فرض أو سواه و كما يقول اللَّه تعالى: «فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ» و

يقول رسول اللَّه (ص): «خذوا العلم قبل رفعه و قبضه ..» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

التفت عن يميني و شمالي فإذا رجل لاف ثوبه برأسه يبكي فقال يا رسول اللَّه (ص) من أبي؟ فقال: أبوك حذافة و كان إذا لاحى يدعى إلى غير أبيه .. فقال النبي (ص):

ما رأيت في الخير و الشر كاليوم قط ان الجنة و النار مثلتا لي حتى رأيتهما دون الحائط،

و فيه عن ابن عباس قال: كان ناس يسألون رسول اللَّه (ص) استهزاء فيقول الرجل من أبي و يقول الرجل تضل ناقته اين ناقتي فأنزل اللَّه فيهم هذه الآية.

و

في نور الثقلين 1: 682 في كتاب كمال الدين و تمام النعمة بسند متصل عن إسحاق بن يعقوب قال‏ سألت محمد بن عثمان العمري أن يوصل لي كتابا قد سألت فيه عن مسائل أشكلت علي فورد في التوقيع بخط مولانا صاحب الزمان: و اما ما وقع من الغيبة ان اللَّه عزّ و جلّ يقول: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْئَلُوا ...» انه لم يكن أحد من آبائي إلّا و قد وقعت في عنقه بيعة لطاغية زمانه و اني اخرج حين اخرج و لا بيعة لأحد من الطواغيت في عنقي.

(1). الدر المنثور 2: 336- اخرج ابن جرير و ابن المنذر و الحاكم و صححه عن أبي ثعلبة الخشني قال قال رسول اللَّه (ص):

(2) و

فيه اخرج احمد و أبو الشيخ و الطبراني و ابن مردويه عن أبي امامة ان رسول اللَّه (ص) وقف في حجة الوداع و هو مردف الفضل ابن عباس على جمل أدم فقال: ايها الناس خذوا العلم قبل رفعه و قبضه، قال: و كنا نهاب مسألته بعد تنزيل اللَّه الآية: «لا تسألوا ...» فقدمنا اليه أعرابيا فرشوناه برداء على مسألته فاعتم بها حتى رأيت حاشية البرد على حاجبه الأيمن و قلنا له: سل رسول اللَّه (ص) كيف يرفع العلم و هذا القرآن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 251

ذلك‏ «وَ إِنْ تَسْئَلُوا عَنْها حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ» فإن نازل القرآن إجابة عن كل سؤال و كل سؤال صالح للإجابة، و أما أن تحرّجوا موقف الرسول (ص) في غير حين نزول القرآن فلا، فإنه لا يجيب إلّا بالوحي، و حين جاء الوحي كتابا أو سنة بأمر فلا سؤال بعدئذ، حيث يعني أن بيان اللَّه غير شاف أم إنه نقص عما يجب للمكلفين، و أما السؤال عن حكم لمّا ينزل في الكتاب أو السنة أم هو مجهول لدى السائل مهما نزل فلا محظور فيه، فإنما السؤال عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم أحكاما أو موضوعات، هذا هو المحظور و ما سواه محبور.

فقد تعني الآية ما عنته «أسكتوا عما سكت الله عنه» فإن اللَّه لم يسكت عما سكت عنه جهلا أو بخلا، و هذا يختص بما بيّن بوجه طليق أو عام دون تقيّد، أم أمر لم يبيّن مع ما بيّن من أضرابه.

و مرجع الضمير في «عنها» هو «أَشْياءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ»؟ و أي فرق في السؤال المسي‏ء حين ينزل القرآن و حين لا ينزل؟!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

بين أظهرنا و قد تعلمناه و علمناه نساءنا و ذرارينا و خدامنا فرفع رسول اللَّه (ص) رأسه قد علا وجهه حمرة من الغضب فقال: أو ليست اليهود و النصارى بين أظهرها المصاحف و قد أصبحوا ما يتعلقون منها بحرف مما جاء به أنبياءهم ألا و إن ذهاب العلم أن تذهب حملته.

و

في نور الثقلين 1: 683 في أصول الكافي عن أبي الجارود قال: قال ابو جعفر عليهما السلام‏ إذا حدثكم بشي‏ء فاسألوني من كتاب اللَّه قال في بعض حديثه ان رسول اللَّه (ص) نهى عن القيل القال و فساد المال و كثرة السؤال فقيل له يا بن رسول اللَّه (ص) اين هذا من كتاب اللَّه؟ قال: ان اللَّه عزّ و جل يقول: «لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ» و قال: «وَ لا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِياماً» و قال: «لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 252

من الفارق أن الإجابة حين ينزل القرآن هي حسب الحكمة الربانية دون الخارجة عنها، فقد يأتي الجواب عن سؤال الأهلّة «قُلْ هِيَ مَواقِيتُ لِلنَّاسِ» حيث الجواب يختص بما يحتاجون في دينهم، دون ما لا يعنى فيه من مختلف الأهلة من الواجهة الكونية، و أما حين لا ينزل القرآن فسؤال الرسول محرج و سؤال غيره مخرج عن صالح الإجابة لمكان عدم العصمة أم نفاد الحكمة الصالحة.

فلأن القرآن هو إجابة عن كل سؤل و سؤال صالح للإجابة فلا يبدي ما يسوءكم من الجواب، و لكن سائر الإجابة كسائر السؤال لا يختص بما هو صالح في حقل التكليف، ك «من أبي» و «كم أعيش» و ما أشبه مما لا يعنى، كالسؤال حول حكم عام أو مطلق يعنى منه تقيّد أو تخصص كما كان في قصة البقرة لبني إسرائيل، فإن المطلق و العام و ما أشبه في مقام البيان نصا أو ظاهرا ليس قاصرا عما يرام، إذا فسؤال القيد تجاهل عن صالح البيان، كأن اللَّه لم يرد ما يصلح أو لم يبين ما أراد، كما حصل من الخليفة عمر في قصة الخمر!.

إذا فكل سؤال عن أي مسئول فيما لا يعنى من صالح الدين أو الدنيا محظور، و كل سؤال فيما يعنى من صالح الدارين محبور، و نازل القرآن يعم صالح النشأتين، فلذلك‏ «وَ إِنْ تَسْئَلُوا عَنْها حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ».

و هنا «عَفَا اللَّهُ عَنْها وَ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ» هو عفو عن السؤال المحظور و الإجابة المحظورة المسيئة في وحي القرآن بالنسبة لهذه الأمة المرحومة، و عفو عن مادة السؤال التي هي في إجمال، مثلث من العفو شمله: «عَفَا اللَّهُ عَنْها» و هي في الأخير مواصفة ثانية ل «أشياء» أولاها «إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ».

و لو تقدمت‏ «عَفَا اللَّهُ عَنْها» على‏ «إِنْ تُبْدَ لَكُمْ» لم تشمل الأولين،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 253

إذا فتأخيرها تأخير قاصد إلى هذه العنايات الثلاث.

فقد عفى اللَّه عن أشياء لم يبينها فلا تسألوا عنها، و عفى اللَّه عن ذلك السؤال المحظور فلا تكرروه، و عفى اللَّه عن إبداءها بعد السؤال فلا تحفوا.

ذلك، و من ثم تذكير بسابق هكذا سؤال بجوابه العضال: «قَدْ سَأَلَها قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِها كافِرِينَ» كالسائلين حول البقرة في قصتها الإسرائيلية فقد كفروا بكرور سؤالهم في مثل‏ «فَادْعُ لَنا رَبَّكَ ..» و السائلين‏ «اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ» (8: 32) أو «فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» (7: 70) و كسؤال قوم موسى‏ «أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ» و «إِذْ قالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنا مَلِكاً نُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ‏ ... فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ» و ما أشبه من السؤالات الكادحة القادحة غير المعنية لعاقل فضلا عن مؤمن، فإنما سؤال المؤمن هو عن سؤل الإيمان، مزيدا للمعرفة دون استجهال أو استعجال.

ذلك! فلقد جاء هذا القرآن لا ليقرر عقيدة فحسب، أو شريعة فحسب، بل ليربّي أمة صالحة في كافة الحقول، إنشاء لهم على منهج عقلي و خلقي، فهنا يعلّمهم أدب السؤال، فطالما هناك في وحي الكتاب و السنة أمور مجملة أو مجهلة فهي قاصدة بالوحي نفس الإجمال و الإجهال، و

قد يروى عن النبي (ص) قوله بهذا الصدد: «ذروني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم و اختلافهم على أنبياءهم».

فإنما المعرفة في الإسلام تطلّب لمواجهة حاجة واقعة أو مدققة و في حدود الواقع المرام، دون التكهنات غير المعنية في سؤل الحياة الإنسانية المسلمة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 254

أجل، إن الإسلام منهج واقعي جاد يعيّش الإنسان بكل متطلبات الحياة الحقة الواقعية، بعيدة عن طائلة الفروض فقهية أو فلسفية أماهيه مما لا تعني الحياة الإسلامية الواقعية و كما لا تعنيها، من دراسات مجردة بفقه الفروع أم فلسفة العقول، لا مجال لها إلّا في المدارس تلهية للطالب و تضخيما لحجم العلوم، و هناك علوم لا تدرس أم تهمل هي التي تتبنى الحياة الاسلامية و هي العلوم القرآنية اليتيمة بين أهل القرآن!.

فلم يأت هذا الدين المتين ليكون مجرد شارة أو شعار، أو ليكون موضوع دراسة مجردة لا علاقة لها بالحياة، و لا ليعيش مع الفروض التي لم تفرض إذ لم تقع، أو يضع لهذه الفروض الطائرة أحكاما فقهية تطير عبر الأثير.

ذلك، و الآية التالية تذكر مواضيع من هكذا أسؤلة لا تعنى، المستجرّة لمتعودات جاهلية جهلاء:

ما جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَ لا سائِبَةٍ وَ لا وَصِيلَةٍ وَ لا حامٍ وَ لكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (103):

و من هذا القبيل جاهلية التبنّي الفارغ و التحول المارق لزوجة أمّا: «ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَ ما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللَّائِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ وَ ما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ وَ اللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ» (33: 4).

و هنا هذه الأربع مواصفات لأنعام أربعة، اختلقوا في الجاهلية حدودا بهذه المواصفات لحلها أو حرمتها، و قد سألوا عنها فأجيبوا ب «ما جَعَلَ اللَّهُ ..» تعني جعلا شرعيا حيث هي مجعولة تكوينيا.

و «بحيرة» من البحر: السعة، و هي هنا الناقة التي ولدت عشرة أبطن فكانوا- إذا- يشقون أذنها فيسيبونها فلا تركب و لا يحمل عليها،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 255

فكما كانت بحرا في ولادها، كذلك فلتكن بحرا في حريتها.

و «سائبة» هي التي تسيّب في المرعى فلا ترد عن حوض و لا علف إذا ولدت خمسة أبطن أم عشرة «1».

و «وصيلة» هي الشاة الأنثى الوصيلة بأخيها فلا يذبح من أجلها لأنهما توأمان، أم طليق التوأم فلا تذبح من أجلهما «2».

و «حام» من الإبل إذا أدرك له عشرة من صلبه كلها تضرب حمى ظهره فسمي حاما فلا ينتفع له بوبر و لا ينحر و لا يركب له ظهر، فإذا مات كانوا فيه سواء، أم هو فحل الإبل ككل‏ «3».

ذلك، و مهما اختلف في تفسير هذه الأربع لم يختلف في أن أي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1، 2، 3)

نور الثقلين 1: 683 في معاني الأخبار عن أبي عبد اللَّه (ع) في الآية قال: ان اهل الجاهلية كانوا إذا ولدت الناقة ولدين في بطن قالوا وصلت فلا يستحلون ذبحها و لا أكلها و إذا ولدت عشرا جعلوها سائبة و لا يستحلون ظهرها و لا أكلها و الحام فحل الإبل لم يكونوا يستحلونه فانزل اللَّه انه لم يكن يحرم شيئا من ذاك، و قد روي ان البحيرة الناقة إذا أنجبت خمسة ابطن فان كان الخامس ذكرا نحروه فأكله الرجال و النساء و ان كان الخامس أنثى بحروا اذنها اي شقوه و كانت حراما على النساء لحمها و لبنها فإذا ماتت حلت للنساء، و السائبة البعير يسيب بنذر يكون على الرجل ان سلمه اللَّه عزّ و جلّ من مرض أو بلّغه منزله أن يفعل ذلك و الوصيلة من الغنم كانوا إذا ولدت الشاة سبعة أبطن فان كان السابع ذكرا ذبح و أكل منه الرجال و النساء و ان كانت أنثى تركت في الغنم و ان كان ذكرا و أنثى قالوا وصلت أخاها فلم تذبح و كان لحومها حراما على النساء إلّا أن يكون يموت منها شي‏ء فيحل أكلها للرجال و النساء و الحام الفحل إذا ركب ولد ولده قالوا قد حمى ظهره و قد يروى ان الحام هو من الإبل إذا نتج عشرة ابطن قالوا قد حمى ظهره فلا يركب و لا يمنع من كلاء و لا ماء في تفسير العياشي قال ابو عبد اللَّه (ع) البحيرة إذا بحرت و ولد ولدها نحرت.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 256

اختلاق لحل أو حرمة في الأنعام أم سواها، مما لم يجعل اللَّه، إنه هذر هدر لا موقع له من القبول‏ «1».

و القول إن تحرير الأنعام من الذبح أو النحر ليس إلّا كتحرير الإماء و العبيد فكيف جاز هنا دونما هناك؟ إنه غول و زور من القول، قياسا أمام النص، فاللَّه يقول: «ما جَعَلَ اللَّهُ» و أنت تقول أنا أجعل قياسا على سائر التحرير.

ذلك، و كل تقييد أو تحرير في أي قال أو حال أو فعال، إنما تقبل بدليل من كتاب أو سنّة حيث الشارع- فقط- هو اللَّه دون سواه، مهما كان رسولا فضلا عن سواه!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 337- اخرج احمد و عبد بن حميد و الحكيم الترمذي في نوادر لأصول و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و البيهقي في الأسماء و الصفات عن أبي الأحوص عن أبيه قال: أتيت رسول اللَّه (ص) في خلقان من الثياب فقال لي: هل لك من مال؟

قلت: نعم، قال: من أي المال؟ قلت: من كل المال، من الإبل و الغنم و الخيل و الرقيق، قال: فإذا آتاك اللَّه مالا فلير عليك ثم قال: تنتج إبلك رافعة آذانها؟ قلت:

نعم و هل تنتج الإبل إلّا كذلك؟ قال: فلعلك تأخذ موسى فتقطع آذان طائفة منها و تقول: هذه بحر و تشق آذان طائفة منها و تقول هذه الصرم؟ قلت: نعم، قال: فلا تفعل ان كل ما آتاك اللَّه لك حل ثم قال: ما جعل اللَّه من بحيرة و لا سائبة و لا وصيلة و لا حام‏

، قال أبو الأحوص: أما البحيرة فهي التي يجدعون آذانها فلا تنتفع امرأته و لا بناته و لا أحد من أهل بيته بصوفها و لا أوبارها و لا اشعارها و لا ألبانها فإذا ماتت اشتركوا فيها، و أما السائبة فهي التي يسيبون لآلهتهم و أما الوصيلة فالشاة تلد ستة ابطن و تلد السابع جديا و عناقا فيقولون قد وصلت فلا يذبحونها و لا تضرب و لا تمنع مهما وردت على حوض و إذا ماتت كانوا فيها سواء، و الحام من الإبل إذا أدرك له عشرة من صلبه كلها تضرب حمى ظهره فسمي الحام فلا ينتفع له بوبر و لا ينحر و لا يركب له ظهر فإذا مات كانوا فيه سواء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 257

و مهما اختلفت الروايات في معاني هذه الأربع، و أن تحريرها كان لنذر أو أمر سواه أم للأصنام، فالأصل المعلوم هنا حرمة كل تحرير و سواه ما لم يأذن به اللَّه.

هذا، و ليست الجاهلية لفترة غابرة من الزمان، بل و قد نلمسها الآن بمختلف صورها كأبشع ما كان، فهي حالة متكررة في كل زمان و مكان لم تتمكن فيهما شرعة اللَّه كأصل يحلّق على كافة الحركات و السكنات من أقوال و أحوال و أعمال.

و قد نجد جاهليات بين المسلمين تشبه سائر الجاهليات مهما اختلفت الأسماء، حيث الأسماء الخاوية ليست لتقرر الحقائق كما الحقائق لا تتبدل بتبدل الأسماء.

فحينما ينفك رباط القلب بالإله الواحد على ضوء شرعته، ينفك عنه كثيرا أو يسيرا، نجد فكاكا عارما عن الحقائق بنفس القدر.

أ فليس المسلم الذي يحرر حيوانا للأولياء و القديسين، أو ينذر لهم عملا، أليس يماثل الوثني الذي يحرّر أو ينذر لوثنه؟ و لا نذر أو تحرير إلّا للَّه فيما أذن به اللَّه!.

و هكذا يتيه الجاهل في منحنيات و دروب لا عداد لها مهما كان موحدا للَّه في مبدءه.

أجل‏ «ما جَعَلَ اللَّهُ‏ ... وَ لكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا» باللَّه و بوحي اللَّه‏ «يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ» و مهما كان قليل منهم يعقلون فيفترون عن عقلية شيطانية تزييفا لشرعة اللَّه و هم حملة مشاعل الضلالة، و لكن‏ «أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ» حيث يفترون ما يفترون تقليديا دون أية عقلية أو علم، و من عدم عقلهم:

وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى‏ ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ قالُوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَ وَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ لا يَهْتَدُونَ (104):

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 258

ذلك التقليد الأحمق الأعمى في تلك الأكثرية غير العاقلة شرعة جاهلة قاحلة لهم يتبعون فيها هم و آباءهم شيطنات الأقلية المضلّلة.

«وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ» أولاء الشارعين ما لم يأذن به اللَّه‏ «تَعالَوْا إِلى‏ ما أَنْزَلَ اللَّهُ» في كتابه‏ «وَ إِلَى الرَّسُولِ» الحاكم بين الناس بما أراه اللَّه و هو سنته النازلة بوحي ثان بعد القرآن‏ «قالُوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا» لأنهم آباءنا الأقدمون، فللقدم قداسة تؤتسى، و لكن‏ «أَ وَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ لا يَهْتَدُونَ» كما هم لا يعلمون و لا يهتدون، فذلك تقليد من جاهلين أقدمين، و ليست القدمة حجة لصدق الجهالة السابقة، إنما هي البرهان المبين و ليس إلّا للَّه و لرسل اللَّه.

فحتى إذا كان آباءهم يعلمون و يهتدون فلا يصح في ميزان العقل إتباع غير اللَّه و رسوله حيث الخطأ لزام غير المعصوم.

و هذه الآية هي من عساكر الآيات التي تفرض الرجوع إلى كتاب اللَّه و سنة الرسول (ص)، دون أي سناد إلى غيرهما مهما كان سنادا عليما عيلما إذ لا أعلم من اللَّه و لا أصدق منه حديثا.

ذلك، فالتقليد ذميم ليس إلّا من ذميم غشيم، اللهم إلّا في ضرورة مفروضة كأن يقلد الجاهل عالما يعلم علمه و تقواه، و لكنه ايضا محظور إذا كان هناك أعلم منه أو أتقى، فضلا عن اللَّه و رسوله الحامل عنه حكمه.

فلا يبرّر تقليد الجاهل جاهلا مثله أي عقل أو أدنى شعور، و لا تقليد عالم غير تقي أو تقي غير عالم و هناك عالم تقي، و لا تقليده على علمه و تقواه و هناك من هو أعلم منه أو أتقى، فأنحس دركات التقليد هو تقليد الأعمى أعمى مثله و كما هو سنة جاهلية في تقليد الآباء القدامى لا لشي‏ء إلّا لقدمتهم على جهلهم كما هم جاهلون، ثم و هناك بين الآباء القدامى عالمون كالأنبياء و سائر الأولياء! هم ليسوا ليتبعوهم حيث يخالفون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 259

أهواءهم، فإنما يتبعون نظرائهم من المجاهيل.

و هنا «لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ لا يَهْتَدُونَ» ضربة قاسية قاضية على هكذا تقليد حيث المقلّد- كما المقلّد- لا يعلم شيئا فيه يقتدى، و لا يهتدي إلى علم حتى يعلم فيقتدى.

فقد يقلد الجاهل جاهلا مثله بفارق أن المقلّد يهتدي إلى علم فيقلّد فيه، و لكن الذي سدت عنه منافذ الهدى كيف يقتدى و يحتذى فيما لا يهتدي‏ «أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى‏ فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ»!.

و هنا الواو في «أولو» عطف على محذوف معروف هو أدنى منه محظورا ك: أ إذا كان آباءهم يعلمون أنهم ضالون تقلدونهم، أم إذا كانوا علماء يخالفون وحي اللَّه تتبعونهم؟ «أَ وَ لَوْ كانَ ...» و هو أنحس تقليد أن الآباء لا يعلمون شيئا من هدى و لا ضلال بل هم كما هم أولاء جاهلون، حلقات جاهلة تشابه بعضها البعض في الجاهلية الجهلاء.

إذا فذلك تقرير لواقع تقليدهم الأنحس الأركس، دون أن يبرر تقليدا يضاد وحي اللَّه مهما كان المقلّد عالما عيلما.

إذا فكافة التقاليد عمياء هباء خواء إلّا ما يحصل فيه على هدى ليست فوقها هدى، و هي في جو وحي القرآن و السنة منحصر فيهما منحسر عما سواهما مهما كان فيه وفر من العلم و الهدى فان وحي اللَّه أهدى و أنقى سبيلا.

و لقد فصلنا القول حول الاجتهاد الصالح و صالح التقليد بمناسبات في طيات آيات كالزمر و النجم و ما أشبه فلا نعيد «وَ عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَ مِنْها جائِرٌ وَ لَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ».

«فيا عجبا و مالي لا أعجب من خطأ هذه الفرق على اختلاف حججها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 260

في دينها، لا يقتصون أثر نبي، و لا يقتدون بعمل وصي، و لا يؤمنون بغيب، و لا يعفون عن عيب، يعملون في الشبهات، و يسيرون في الشهوات، المعروف فيهم ما عرفوا، و المنكر عندهم ما أنكروا، مفزعهم في المعضلات إلى أنفسهم، و تعويلهم في المهمات على آرائهم، كأن كل امرئ منهم إمام نفسه، قد أخذ منها فيما يرى بعرى ثقات و أسباب محكمات» (الخطبة 86/ 157).

و حين يصل أمر التقليد الأحمق و الضلال الأعمق إلى ذلك العمق من الحمق فلا تفيد دلالة و لا هدى ف:.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105):

ترى هكذا يؤمر الداعية الرسالية و الرساليون المؤمنون به؟ و هي‏ «عُذْراً أَوْ نُذْراً»؟ لا يسمح للداعية ترك الدعوة مهما كان المدعوون صلتين هكذا و صلبين! و قد سجن ذا النون إذ ذهب مغاضبا تاركا للدعوة الرسالية و هم مصرون على الضلال!.

فعلى الداعية مواصلة الدعوة «عُذْراً أَوْ نُذْراً» و لا سيما رسل اللَّه، فمهما كان‏ «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» و لكن ليس سواء عليك، فإن في استمرار الدعوة الرسالية قطع لأعذار هؤلاء الذين قد يعتذرون بانقطاع الدعوة، و فسح لمجال الهدى للذين قد تؤثر في هداهم تواتر الدعوة!.

هنا يخاطب‏ «الَّذِينَ آمَنُوا» لا الرسول، فإن رسالته غير رسالتهم إذ هي أعلى و أنبل، ثم‏ «عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ» فرض أصلي لا حول عنه على أية حال، ثم إذا أثرت دعوتكم فيمن سواكم فواقع لفرض آخر، و إذا لم تؤثر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 261

فواقع لمسؤولية أخرى‏ «لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ» بعدئذ «إِذَا اهْتَدَيْتُمْ» إلى هدي أنفسكم كواقع و إلى هدي من سواكم كبلاغ حين لا يهتدون.

فلا تعني الآية- إذا- سلب المسؤولية الدعائية المثبتة على عواتق المؤمنين، الثابتة بتواتر الآيات و الروايات التي تحمل فرض الدعوة و الدعاية و التوجيه و الأمر و النهي، و إنما تعني- فيما تعني- أن واقع الضرر اللّازب هو الّا تقوا أنفسكم، و أما وقاية الآخرين كواقع فليست هي من مسئوليات الداعية حتى الرسول‏ «إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ» و إنما المسؤولية الثانية هي دعوة الآخرين و هي من ضمن‏ «عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ» حيث الدعوة هي من الواجبات على المؤمنين بشروطها.

إذا فالمحور الأصيل الذي ليس عنه بدليل‏ «عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ» ثم إذا حققتم حق الهدى في أنفسكم و من ثم دعوتم الآخرين فلم تؤثر فيهم، إذا «لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ».

ذلك، و حتى إذا اهتديتم في أنفسكم و تركتم الهداية للآخرين فأيضا «لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ» كثيرا «إِذَا اهْتَدَيْتُمْ» حيث الأصل هو «عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ» و من ثم الوصل أن تهدوا الضالين كما تستطيعون، فهذا الاحتمال يحتمل سلب الضرر نسبيا.

و من الخطر الخطر جدا التمسك بمثل هذه الآية لترك المسؤولية الدعائية و هي نازلة في الظروف التي لا تنفع الدعوة- أمّاهيه- و هكذا يجيب الرسول (ص) من سأله عنها

بقوله: «بل ائتمروا بالمعروف و تناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحا مطاعا و هدى متبعا و دنيا مؤثرة و إعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العوام إن من وراءكم أيام الصبر، الصابر فيهن مثل القابض على الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 262

رجلا يعملون مثل عملكم» «1»

و الانعزال هنا ليس إلّا للحفاظ على الأهم، تركا للمهم الذي لا يؤثر أم و يضر بالأهم.

ذلك، ثم خطاب‏ «الَّذِينَ آمَنُوا» يحوّل «من ضل» إلى غيرهم، فلا صلة لهذه الآية- إذا- بترك مسئولية الأمر و النهي فيما بين المؤمنين أنفسهم، الثابتة بضرورة الشرعة الربانية ككل، و على حد

قول الرسول (ص): «أين ذهبتم إنما هي لا يضركم من ضل من الكفار إذا اهتديتم» «2»

: ضرا منهم إليكم في إضلال بكل حقوله، ما حققتم مسئولية «عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 1: 339، اخرج الترمذي و صححه و ابن ماجه و ابن جرير و البغوي في معجمه و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الطبراني و أبو الشيخ و ابن مردويه و الحاكم و صححه و البيهقي في الشعب عن أبي امية الشعباني قال‏ أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له: كيف تصنع في هذه الآية؟ قال: أية آية؟ قال و قوله: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ..» قال: و اللَّه سألت عنها خبيرا سألت عنها رسول اللَّه (ص) قال: بل ائتمروا ..

(2)

المصدر اخرج احمد و ابن أبي حاتم و الطبراني و ابن مردويه عن أبي عامر الأشعري‏ انه كان فيهم شي‏ء فاحتبس على رسول اللَّه (ص) ثم أتاه فقال: ما حبسك؟ قال: يا رسول اللَّه (ص) قرأت هذه الآية قال فقال له النبي (ص): اين ذهبتم،

و

فيه اخرج ابن مردويه عن محمد بن عبد اللَّه التيمي عن أبي بكر الصديق سمعت رسول اللَّه (ص) يقول: ما ترك قوم الجهاد في سبيل اللَّه إلّا ضربهم اللَّه بذل و لا أقر قوم المنكر بين أظهرهم إلّا عمهم اللَّه بعقاب ما بينكم و بين ان يعمكم اللَّه بعقاب من عنده إلّا ان تأولوا هذه الآية على غير امر بمعروف و لا نهي عن منكر «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ..»

و

فيه اخرج ابن مردويه عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: خطب ابو بكر الناس فكان في خطبته قال رسول اللَّه (ص): يا أيها الناس لا تتكلموا على هذه الآية «... عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ..» إن الذاعر ليكون في الحي فلا يمنعوه فيعمهم اللَّه بعقاب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 263

فالمفروض على الذين آمنوا ككل فرضا على أعيانهم‏ «عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ» ثم لا تفرض الدعوة و الأمر و النهي إلّا فرض كفاية على أمة منهم فيهم الكفاية عددا و عددا و هم العاملون بالمعروف الذي به يأمرون و التاركون المنكر الذي عنه ينهون، على شروط مسرودة في الكتاب و السنة.

فلا تحمل هذه الآية- إذا- إلّا فرض الأعيان لقبيل الإيمان بينهم أنفسهم، ثم‏ «لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ» أي لا يضركم إلّا ضلالكم، و أما ضلال غيركم فليس ليضركم، اللهم إلّا إذا تركتم واجب الدعوة إلى الهدى بشروطها، فهناك أيضا لا يضركم ضلالهم أنفسهم، بل المضر هو ترك واجب الدعوة التي هي ايضا داخلة في نطاق‏ «عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ» حيث تفرض واجبات الايمان ككل، شخصيا و جماعيا، و من الثاني واجب الدعوة الكفائية.

ذلك، «عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ» كتأويل أوّل تعني بالنسبة للضالين غير المؤمنين إذا لا تؤثر فيهم الدعوة، و هي كتأويل ثان بين المؤمنين أنفسهم تعني ظروفا خاصة لا يجب أو لا يسمح فيها الأمر و النهي بين المؤمنين أنفسهم حيث لا يجدي نفعا أو يستجر ضرا هو أضر من ضلالهم‏ «1» «عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ» في خطاب الإيمان تجمع مجامع شروط الإيمان و منها الدعوة و الأمر و النهي قدر المستطاع ثم‏ «لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ» إلى شروطات الايمان.

ذلك و في نظرة أخرى إلى الآية نرى‏ «عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ» تفرض على‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 2: 34- اخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: ذكرت هذه الآية عند رسول اللَّه (ص) فقال نبي اللَّه: لم يجي‏ء تأويلها لا يجي‏ء تأويلها حتى يهبط عيسى بن مريم عليهما السلام.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 264

المؤمنين الحفاظ على أنفسهم فرضا على الأعيان، فالمقصر الأوّل في كافة الفلتات عن قضية الإيمان هو المكلف نفسه، و من ثم هؤلاء الذين يضللونهم عن صراط الإيمان، كما وهم مقصرون إذا تهاونوا عن الدعوة المفروضة عليهم بكل مراحلها.

ثم «لا يضركم» لها أبعاد ثلاثة أبعدها أنه «لا يضركم» ضررا أصيلا «من ضل» و أنتم تاركون واجب دعوتهم و أمرهم و نهيهم، ثم البعدان المذكوران من ذي قبل هما المشتركان في عذر المؤمن في ترك الدعوة، «إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً» مؤمنين و ضالين‏ «فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» من خيّر و شرير، و إنباء عن غفلة و غفوة مقصرة، و إنباء عن طاعة قد لا يرجى الفلاح بها، ثم إنباء بحصائل الأعمال حيث تجزون ما كنتم تعملون.

و هنا بعد رابع ل «لا يضركم» هو إضرار الإضلال، فما دام المؤمن حفيظا على إيمانه بما عنده من طاقات و إمكانيات فلا يخاف «من ضل» أن يضله عن سواء السبيل، و هذا من أظهر الأبعاد بين كل المحتملات الثلاث سابقة و لا حقة حيث‏ «لا يَضُرُّكُمْ» إخبارا و إنشاء تنفي ضرّهم أنفسهم بما يختارون ميسرين في الضرر لا مسيّرين، فحين لا تطبقون مسئولية «عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ» كما يجب كفاحا ضد عراقيلهم، فهم بإمكانهم أن يضروكم إضلالا و سواه.

فحين يخاطب الذين آمنوا ب «عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ» ليس ليعني منهم أن يؤمنوا كأصل، بل هو استحكام عرى الإيمان لحد لا ينضر المؤمن بما يضره الكافرون، و هذه- إذا- نظيرة: «إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى‏ كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى‏. فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها وَ اتَّبَعَ هَواهُ فَتَرْدى‏» (20: 16) حيث يعني النهي عن الصدّ الأمر باستحكام العقيدة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 265

و العملية لصالح يوم الحساب لحد لا يستطيع الكافرون به أن يصدوك عن الساعة عقيديا أو عمليا.

و هكذا يؤمر المؤمنون بإحكام عرى الإيمان في‏ «عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ» أن يصبحوا سدا حصينا مكينا أمينا لا تضره- على أشده- أية محاولة كافرة، فإنهم‏ «أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ» حيث تعني‏ «رُحَماءُ بَيْنَهُمْ» تعاملهم في كافة الرحمات، لكي يصبحوا أشداء على الكفار في كافة العرقلات.

إذا- «لا يضركم» تعني كأول محتمل و أقواه ضرّهم أنفسهم بما يختارون ضد المؤمنين، لا الضر الموجه إليهم عقابا من اللَّه فإنه هو ضره عدلا و ليس ضرهم عداء!.

ذلك، فأقوى المحتملات هو تحقيق‏ «عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ» لحدّ «لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ»: ذلك الاهتداء الصارم الذي يصد عنكم كل اعتداء عارم ممن ضل، حيث الضالون الصامدون في ضلالهم يحاولون على طول الخط أن يضروكم كما يستطيعون‏ «1».

«عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ» علميا و عقيديا و خلقيا و عمليا و سياسيا و اقتصاديا و حربيا، و في كل ما تتطلبه شروطات صامد الإيمان فرديا و جماعيا، إعدادا كاملا شاملا يضعف أمامه العدو أيا كان، و حينئذ «لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً وَ إِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ» (3: 111) «وَ لا تَهِنُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» (3: 139) و في جملة واحدة:

«وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّكُمْ» (8: 60).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و هكذا يعني ما

يروى‏ «حب علي حسنة لا يضر معها سيئة»

أي ان حبه يدفع عن السيئة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 266

هذا، ثم سائر الضرر ممن ضل، المسيّر منهم غير الميسّر لهم، كوزر ضلالهم، إنه المحتمل على هامش ذلك الضر الميسر لهم، و «لا يضركم» يجمع الإنشاء إلى الإخبار، إنشاء بواجب الاستعداد لحد زوال الضرر، و اخبارا بزواله قدر الاستعداد، «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏».

إذا فالضرر المنفي في‏ «لا يَضُرُّكُمْ» مهما كان ضررا دنيويا أو أخرويا فهو ضرر من الضالين أنفسهم كأصيل، دون ضرر العذاب من اللَّه تقصيرا في دعوتهم إلى اللَّه من أهل اللَّه، فانه ليس ضررا منهم، مهما كان ضررا من اللَّه بهم لمكان التقصير في حقهم فتزر وازرة مثل وزرهم ..

فالمحور الأصيل بين محتملات الآية السبع ضررهم بما يختارونه و جاه المؤمنين، و ليست سلبية ذلك الضرر إلّا بإيجابية «عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ» بعد الإيمان، و بقدر تلك الإيجابية.

فمن المفروض على الذين آمنوا أن يصنعوا أنفسهم بشروطات الايمان بقدر سلبية الضرر ممن ضل، فكلما تحقق بعد من‏ «عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ» تحقق بعد من‏ «لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ» في نفس البعد و بقدره، و هنا يبهر

قول الرسول (ص) أمام المنجرفين في تفسير هذه الآية: «أين ذهبتم إنما هي لا يضركم من ضل من الكفار إذا اهتديتم».

و قد تعني‏ «عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ» للذين آمنوا- كأصل- ثنائية المسؤولية الوقائية: أن يقي كلّ نفسه لحدّ «لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ» ثم بقي المجاهيل منهم الذين لا يستطيعون أن يقوا هكذا أنفسهم، و هذه المسؤولية الثانية هي متقدمة على مسئولية الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، إذ هي متأخرة عن مسئولية التعليم و كما تتقدم في آيتها عليها: «وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» (3: 104).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 267

صحيح أن دعوة الكافرين مفروضة على المؤمنين، و لكنها متأخرة عن مسئوليتهم تجاه أنفسهم، إذا فالمسئوليات الإيمانية تترتب كالتالية: أن تصنع نفسك بحيث لا يضرك من ضل إذا اهتديت، ثم أن تصنع سائر المؤمنين، و من ثمّ أن تأمرهم بالمعروف المتروك و تنهاهم عن المنكر المفعول، و من ثمّ تأخذ في دعوة الكافرين مهما كانت بضمن إصلاح المؤمنين، و لكنها كهامش على التواصي بالحق و التواصي بالصبر بين المؤمنين أنفسهم.

و بصيغة أخرى واجب غير المؤمن هو الإيمان أوّلا ثم العمل بقضايا الإيمان و من ثم دعوة الآخرين إلى الايمان و قضاياه، و في حقل الإيمان الأصل هو نفسه تقبلا و دعوة، ثم العلم بواجبات الإيمان نفسيا و تعلما و من ثم العمل بها نفسيا و دعوة.

و بعد خامس أنكم إذا طبقتم شرائط الإيمان فلستم تعاقبون بضلال الآخرين حيث لا تزر وازرة وزر اخرى: «تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَ لَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ» (2: 134).

فعلى المؤمن الإشتغال بصناعة نفسه و خاصته و حفاظتها كما فرضت عليه، ثم لا يهزهزه الهزاهز، و لا يزيله القواصف أو يحركه العواصف، فلا يزول الحق عن مقره مهما قل أهله بما يجول الباطل في مقراته و إن كثر أهله‏ «لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَ الطَّيِّبُ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (5: 100).

و هنا «لا يضرك» كما هي إخبار كذلك هي إنشاء بصيغة الإخبار، فلا يغررك تقلب الذين كفروا في البلاد و لا يضررك فتنقلب على عقبيك خوفة عن العزلة و الخطفة كما: «قالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى‏ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا» (28: 57).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 268

و بعد سادس هو في سياق الإنشاء أن لا تشتغلوا بمن ضل تغافلا عن أنفسكم، فعساكم تنحازون إليهم يسيرا ثم كثيرا بغية تحويلهم عن الضلال و هم يحاولون المعاكسة، فقد يتغلبون عليكم في صراع الحق و الباطل، فإهلاك النفس في سبيل إنقاذ الغير هو في نفسه ضلال و موت، و كما نرى عديد الموت و الضلال أنهما سيان في القرآن، فكما الضالون يذكرون (17) كذلك الموتى، لمكان السماوات بين الضلال و الموت!.

فكما لا يجوز التعرض للموت لإنجاء الآخرين، كذلك التعرض للضلال لهدي الآخرين، فالدعوة إلى اللَّه بين محبورة و محظورة، فالمحبورة هي المؤثرة غير المتأثرة،- أم- لأقل تقدير- لا مؤثرة و لا متأثرة، و المحظورة هي المتأثرة أو المؤثرة المتأثرة، فتترك الدعوة في المحظورة حيث المسؤولية الكبرى فيها «عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ» ثم‏ «لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ» حين تنضرّون بدعوتهم ذلك، و على أية حال فلا مساس لهذه الآية بالآيات الآمرة بالدعوة و الأمر و النهي فانها لا تعني ما تعنيه هذه الآيات، على أن الدعوة بمختلف شؤونها الصالحة ليست مما تقبل النسخ اللهم إلّا أن تنسخ شرعة اللَّه ككل، حيث الدعوة هي لزام الشرعة نشرا و تطبيقا و تحليقا على كافة المكلفين في كافة الشؤون الحيوية: «قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلى‏ بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِي» (12: 108) و «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» (3: 110) و كيف تنسخ السبيل الرسولية و الرسالية و سند خيرية الأمة الآمرة الناهية.

ثم و هنا سابع حيث تعني «أنفسكم» كلّا نفسه، ثم ذويه الذين هم كنفسه، ثم سائر المؤمنين فإنهم إخوة أنفسهم كنفس واحدة، فواجب الوقاية و الحفاظ هنا يعم ذلك المثلث مهما كانت الأضلاع متدرجة، من نفسك إلى ذويك و إلى سائر المؤمنين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 269

فهذه أشواط سبعة مستفادة من طليق الآية «عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ» فبترك كل واحد منها يفتح درك من دركات الجحيم السبع، كما بتطبيق كلّ تطوف حول كعبة الحق و حق الكعبة المباركة.

و هنا الشوط السابع و هو الحفاظ الجماهيري المتجاوب بين المؤمنين أنفسهم، هو الذي يحافظ على كيان الإيمان عن أية عرقلة ضد الإيمان، فهو على غرار: «وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا ..» و «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَ صابِرُوا وَ رابِطُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (3: 200) «لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ».

و لأن‏ «عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ» تشمل فرض الحفاظ على النواميس الخمسة: عقيدة و عقلا و نفسا و عرضا و مالا على ضوء معرفة اللَّه و عبوديته الصالحة، و ذلك حفاظ جماعي بين المؤمنين أنفسهم، حزمة واحدة حول قبيل الإيمان، و عزمة واحدة للحفاظ على كتلة الإيمان، فليجدّوا في السير في جادّة جادّة متناصرين حتى الموت، لذلك يذكر فيما يلي تناصر الإيمان عند الموت في الوصية المفروضة فإن‏ «عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ» من أبعادها صالح الوصية لاصلاح المعوزين و لا سيما من الأقارب:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهادَةُ بَيْنِكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنانِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُما مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى‏ وَ لا نَكْتُمُ شَهادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِينَ (106):

ذلك، و لقد سبق فرض الوصية في نفسها من ذي قبل: «كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ» (2: 180).

فواجب الوصية يقتضي واجب الحفاظ عليها بطريقة حازمة حاسمة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 270

تحقيقا للوصية، و هي الشهادة الصالحة: «اثْنانِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ».

و هنا خطاب الإيمان يبين أن‏ «شَهادَةُ بَيْنِكُمْ» هي من قضايا الإيمان حفاظا على حقوق الموصي و الموصى له و الموصى إليه، جمعا بين حقوق المؤمن في موته و حياته، و هي أحرى من حقوق الحياة الخاصة.

و «إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ» تبين أن حين الوصية المكتوبة هو عند حضور الموت كما في آيتها الأخرى‏ «كُتِبَ عَلَيْكُمْ ..»

و حضور الموت هو حاضر أسبابه الظاهرة علما أو ظنا او احتمالا قريبا عاديا.

و ترى‏ «إِنْ أَنْتُمْ ..» هي شرط لواجب الشهادة لواجب الوصية؟ فلا شهادة لها في غير الضرب في الأرض، أم و لا وصية!.

الوصية عند الموت مكتوبة حضرا أو سفرا لآيتها الطليقة «إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ» ثم و إثبات الوصية بحاجة إلى حجة شرعية و هي الشهادة الشرعية المتمثلة في ذوا عدل منكم، إذا «إِنْ أَنْتُمْ ..» بيان لأهم ظروف الشهادة و أحرجها.

و هنا «ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ» تعني من المؤمنين الموثوقين، و ظاهر العدل هو طليقه دون خاصة الوثاقة في موقف الشهادة، فلو عنيت هذه الخاصة لكانت العبارة «ذو عدل منكم فيها» ثم لا وثاقة خاصة فيمن هو فاسق بعهد اللَّه، حيث المجرم بحق اللَّه هو أجرم بحق الناس، إضافة إلى أن قضية هامة الشهادة على الوصية بهذه التأكيدات القيمة هي العدالة البالغة الطليقة، و ما دامت هي ميسورة فلما ذا- إذا- النقلة إلى العدالة النسبية غير الكافية و لا الوافية؟.

ثم‏ «أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ» تعني ذوي عدل من غير المؤمنين، أن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 271

يكونا موثوقين عند أصحابهما، عدلين في قضاياهم، و كما تعنيهم‏ «لَيْسُوا سَواءً مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ ... وَ ما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ» فالمتقون من أهل الكتاب هم العدول منهم، فهم القاصرون، و من ثم المقصرون في عدم الانتقال إلى الإسلام شرط عدلهم في شرعتهم.

و «فَأَصابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ» هي إصابة سببه المتعود و لمّا يمت، و إلّا فكيف يخاطب بخطاب التكليف؟ و بديل الشهادة هنا كسائر البديل يختص بما لم يحصل على أصيل، و لأن الأصيل هو فقط «ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ» فلا دور لغير ذوي عدل من المسلمين بعد فقدانهما إلّا لذوي عدل من غيرهم، حيث العدالة هي الحفيظة على الشهادة دون مجرد الإسلام، فليفضّل العدل غير المسلم، على غير العدل المسلم في موقف الشهادة، حيث الضرورات تبيح المحظورات‏ «1» فمهما كانت شهادة غير المسلم على الوصية محظورة في الحالات العادية، فهي لا بد منها عند فقدان المسلم العدل حفاظا على واجب الوصية حجة لواجب الحقوق، و لأن المحور هنا الوثوق فليفضل العدل غير المسلم على المسلم غير العدل.

و لأن العدالة النسبية لا توجد عند غير الموحدين، فليكن «غيركم»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 686 في عيون الأخبار في باب ما كتبه الرضا (ع) الى محمد بن سنان في جواب مسائله في العلل: و علة ترك شهادة النساء في الطلاق و الهلال لضعفهن عن الرؤية و محاماتهن للنساء في الطلاق لذلك لا تجوز شهادتهن إلّا في موضع ضرورة مثل شهادة القابلة و ما لا يجوز للرجال أن ينظروا إليه كضرورة تجويز شهادة أهل الكتاب إذا لم يوجد غيرهم و في كتاب اللَّه‏ «اثْنانِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ» مسلمين‏ «أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ» كافرين.

أقول و روى ما في معناه حول‏ «أَوْ آخَرانِ» أبو الصباح الكتاني و هشام بن سالم عن أبي عبد اللَّه (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 272

من الموحدين، و لأن مجرد عقيدة التوحيد لا تعدّل الموحد إلّا بالإيمان الكتابي حيث المحور الصالح للعدالة هو وحي اللَّه تعالى، فغير الكتابي خارج عن محور العدالة مهما كان موحدا، و لمكان‏ «تَحْبِسُونَهُما مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ» فليكونا من الكتابيين المصلين، حيث الصلاة و أشباهها من فروض الدين هي من قضايا العدالة، فقد تجوز- إذا- شهادة اليهودي و النصراني، بل و المجوسي‏ «1» إذا كانوا عدولا يصلون.

و القول إن «من بعد صلاة العصر» تعني صلاة المؤمنين، مردود بأنه لا صلة لصلاتهم بتحكيم إقسام غيرهم، فلتكن صلاتهم مهما كان مع صلاة المسلمين.

أجل، و الحالة بعد الصلاة، هي حالة قدسية كحصيلة أوتوماتيكية للصلاة، فهي أقرب الحالات- و لا سيما للعدول- إلى صدق الشهادة، فرعايتها- إذا- حياطة عادلة كأحوط ما يكون للعدول تخوفا عن العدول عن حق الشهادة فيضيع حق المؤمن حيا أو ميتا، و «ذلِكَ أَدْنى‏ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهادَةِ عَلى‏ وَجْهِها أَوْ يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمانِهِمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اسْمَعُوا وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ» فان الصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر، فهما عندها أفحش و أنكر، فالإقسام بعد الصلاة أحوط و أثبت من كل أقسام‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر في الكافي عن يحيى بن محمد قال سألت أبا عبد اللَّه (ع) عن‏ «شَهادَةُ بَيْنِكُمْ ..» قال: اللذان منكم مسلمان و اللذان من غيركم من اهل الكتاب فان لم يجدوا من اهل الكتاب فمن المجوس لأن رسول اللَّه (ص) سن في المجوس سنة اهل الكتاب في الجزية و ذلك إذا مات الرجل في ارض غربة فلم يجد مسلمين اشهد رجلين من اهل الكتاب يجلسان بعد العصر فيقسمان باللَّه ..

أقول: و قد ورد جواز شهادة غير المسلمين عند الضرورة من طرق اخرى عن أئمتنا عليهم السلام.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 273

الإقسام، فإنه يختلف حسب مختلف الحالات و المجالات و كما

يروى عن النبي (ص) «من حلف عند هذا المنبر على يمين آثمة فليتبوء مقعده من النار و لو على سواك أخضر» «1»

فإذا كان إثم الحلف الآثم عند المنبر أكثر فليكن بعد الصلاة أكثر و أظهر.

و هنا «تَحْبِسُونَهُما مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ»- قد- تختص ب «آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ» لأقربية المرجع و غرابة حبس العدلين بعد الصلاة من شهود المسلمين و إقسامهما، فهذه و ما بعدها حائطة تسد فراغ الإيمان.

و لا يعني الحبس هنا توهينا إياهما، بل هو توطين لصدقهما «فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى‏» فذلك إقسام مع تلقي الشهادة حتى «إن ارتبتم» فيها عند إلقاءها أن «لا نشتري» نحن المقسمان باللَّه «لا نشتري» بارتيابكم «ثمنا» و لو كان المشترى له «ذ قربى» لنا أم للموصى، ثم‏ «وَ لا نَكْتُمُ شَهادَةَ اللَّهِ» التي شهدناها تلقيا أن نلقيها «إِنَّا إِذاً» لو اشترينا به ثمنا «لَمِنَ الْآثِمِينَ».

فضمير الغائب في «به» هو الأمر المرتاب في الوصية، ثم‏ «وَ لا نَكْتُمُ شَهادَةَ اللَّهِ» في الوصية، فحين الارتياب في الوصية من الوصي أم سواه فنحن نشهد كما سمعنا لأنها شهادة اللَّه، حيث حصلت بأمر اللَّه تلقيا، فلتؤدّ للَّه كما حصلت، كما و أنها مشهودة للَّه‏ «وَ كَفى‏ بِاللَّهِ شَهِيداً» و «أَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلَّهِ» (65: 2).

«إِنَّا إِذاً» إن اشترينا به ثمنا «لَمِنَ الْآثِمِينَ»: المبطئين عن الصواب الثواب خلاف ما أمر اللَّه، و قد يرجع الضمير بما رجع إلى الإقسام، ف «لا نشتري بالقسم ثمنا».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). آيات الأحكام للجصاص 3: 599.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 274

و هنا «ارتبتم» خطاب إلى من يهمهم أمر الوصية وصيا و موصى له و موصى إليه و حاكما شرعيا هم كلهم غير الشهداء، حضورا في الوصية و غير حضور.

و هنا «شَهادَةُ بَيْنِكُمْ» مصدرا دون اسم فاعل ك «الشاهد بينكم» تلمح لأكيد الشهادة أن تكون خليصة غير خليطة بأية شائبة، فلذلك اشترطت فيها- إن كان الشاهدان من غيركم- تلك الشروط المغلظة.

ثم‏ «حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ» هو حضور مقدماته القريبة حسب المعلوم أو المظنون، و «أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ» لها الصلة القربى ب «إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ» فإن السفر هو الذي قد لا يوجد فيه مسلم يشهد، و أما الحضر للمسلم فهو بطبيعة الحال في بلد إسلامي أم فيه مسلم إذ لا يساكن المسلم جماعة غير مسلمين إلّا أن يكون فيهم مسلمون، فلا اضطرار إلى شهادة «آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ» إلّا «إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ».

فحصالة المعني من الآية أن واجب الوصية حسب آية البقرة- و هو على من كان عنده مال- هو عند حضور الموت و كما هنا، و واجب عندها محتوم هو استشهاد عدلين مؤمنين بظاهر العدالة لحد لا يصدق عليهما انهما فاسقان، و إلّا فآخران من غيركم عدلين فيما سوى الإيمان و هو التطبيق الكامل لشرعتها الكتابية مهما كانا قاصرين في ترك الإسلام أو مقصرين ما داما ملتزمين بشرعة إيمان كتابي، اللهمّ إلّا من يعاند المؤمنين مهما كان قاصرا في تركه الإسلام فضلا عن المقصر، حيث العدالة هي الكافلة لاستقامة الشهادة و لن تستقيم في جو العناد.

فأقل شرط في شهادة غير المسلم العادل في شرعته عدم العناد لقبيل الإيمان قاصرا أو مقصرا، فمن المستحيل أن يستأمن اللَّه لهامة الشهادة في الوصية من يعادينا، و لا ريب أن المسلم الفاسق غير المعاند- إذا- خير من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 275

العادل غير المسلم، المعاند.

و قد يقال إن النقلة إلى عدلين من غيرنا لا مجال لها إلّا عند إعواز مسلمين عدلين و سواهما، فاشتراط العدالة في الشاهدين المؤمنين ليس إلّا عند امكانية الحصول على العدلين فلذلك لم يكن اشتراط العدالة إلّا في غير الضرب في الأرض، ثم فيه‏ «آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ»؟

و لكن‏ «إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ» لم يشترط فيه إعواز المسلمين عن بكرتهم، بل هو إعواز العدول، فهو شرط للنقلة إلى غير المسلمين، اعتبارا بظرف الإعواز من المسلمين.

و ليس فرض القسم إلّا في موقف الارتياب لمكان‏ «إِنِ ارْتَبْتُمْ» و لا مكان للارتياب إلّا في‏ «آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ» لعدم الإيمان، و أما الارتياب في‏ «اثْنانِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ» فلا مكان له قضية حرمة المؤمن العادل، و أما الكتابي العادل فعدم إيمانه مجال للارتياب بشأنه.

فَإِنْ عُثِرَ عَلى‏ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرانِ يَقُومانِ مَقامَهُما مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيانِ فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ لَشَهادَتُنا أَحَقُّ مِنْ شَهادَتِهِما وَ مَا اعْتَدَيْنا إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (107):

«فَإِنْ عُثِرَ» من ملامح الشهادة تأكدا «عَلى‏ أَنَّهُمَا» و هما «آخران من غيرهم» أم و ذوا عدل منكم‏ «اسْتَحَقَّا إِثْماً» إبطاء عن الصواب أن اشتروا به ثمنا خلاف ما أقسما له: «إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى‏ وَ لا نَكْتُمُ شَهادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِينَ» فقد استحقا الآن إثما أقسما على تركه.

«فَإِنْ عُثِرَ ... فَآخَرانِ» علهما شاهدان آخران ممن شهدوا الوصية «يَقُومانِ مَقامَهُما» في حق الشهادة و هم‏ «مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ‏- الإثم- الأوليان»، أ تراهم شاهدين كما هما؟ و لم تسبق شهادتهما إلّا «آخران من غيرهم» ثم كيف‏ «اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيانِ»! أم هما شاهدان مسلمان؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 276

و هما الأصيلان و الموقف هنا للبديلين! فلو كان هناك مسلمان لم يصل الدور إلى‏ «آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ»!.

إذا فهما ليسا من الشاهدين لا أصيلين و لا بديلين، إنما هما ممن حضر الوصية أو لم يحضر و ليست لهم شهادة لأنهم من الموصى لهم أو الأوصياء، و شاهد الوصية لا بد و أنه غير الوصي و الموصى له، فهما إذا من هؤلاء الذين استحق عليهم الإثم و هما الأوليان بالوصية.

ف «الأوليان» هما الأوليان بالوصية فهي عطف بيان أو وصف ثان عن «آخران» أي الآخران الأوليان بالموصي وصيا أو موصى له، و هذا أصلح عناية من «الأوليان» فهما الأوليان بالميت، الأوليان بالإقسام حيث الحق راجع إليهما فليدافعا عن حقهما حين يضيع بالشهادة الآثمة من الشاهدين، فالآخران الأوليان من الذين استحق عليهم في الشهادة الآثمة الأوليان بتلك الوصية لهما حق الإقسام لابطال هذه الشهادة و احقاق الحق .. كما هو حق لكل صاحب حق حين يضيع حقه بشهادة آثمة.

و هنا في اختلاف قراءة «الأوليان» دليل اختلاف و اضطراب الأفهام، و قد حصل لأبي بن كعب فيها إفحام للخليفة عمر حيث «قرأ» من الذين استحق عليهم الأوليان قال عمر: كذبت، قال: أنت أكذب، فقال رجل: تكذب أمير المؤمنين؟ قال: أنا أشد تعظيما لحق امير المؤمنين منك و لكن كذبته في تصديقه كتاب اللَّه و لم أصدق امير المؤمنين في تكذيب كتاب اللَّه، فقال عمر: صدقت‏ «1».

و هذان الآخران الأوليان من الذين استحق عليهم الإثم في هذه الشهادة الآثمة، هما «فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ لَشَهادَتُنا أَحَقُّ مِنْ شَهادَتِهِما» و قد تقبل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 2: 344- اخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن عدي عن أبي مجلز ان أبي بن كعب قرأ ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 277

شهادتهما و إن كانا من أهل الحق بديلة عن هذه الشهادة الآثمة و مع فقد الشهادة العادلة المسلمة، حيث لا مجال لتصديق هذه الشهادة الآثمة فلتقبل شهادة الأولى بالوصية بحق نفسه و من أشبه‏ «مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ»- «وَ مَا اعْتَدَيْنا» طور الصدق و «إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ» بحق الموصي و الشاهدين و بحق من له الحق في هذا البين.

إذا فنسج العبارة الناضجة في ترتيب شهادة الوصية:

1- «اثْنانِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ» 3- «أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ» «فَإِنْ عُثِرَ عَلى‏ أَنَّهُمَا» منكم أو من غيركم‏ «اسْتَحَقَّا إِثْماً» على الوصية، فهي- إذا- ساقطة، فليتحول إلى‏ «فَآخَرانِ يَقُومانِ مَقامَهُما» غير الأولين الفاقدين و لا الآخرين الساقطين، و إنما هما «مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ» الإثم في تلك الوصية المظلومة، و هم كل من ترتبط بهم الوصية، وصيا و موصى له، ثم هما «الأوليان» بينهم بالوصية.

صحيح أن شهادة الوصي و الموصى له ليست صالحة كأصل لأنها إقرار لصالح الشاهد، و لكنها مقبولة عند إعواز الشهادة الصالحة، و لا سيما إذا كانت نقضا لتلك الشهادة الآثمة، فتحويلا للوصية إلى أعدل سمة مرضية في هذا البين.

فهنا «الأوليان» عطف بيان أو وصف ل «آخران» فقد بين أولا أن حق الشهادة بعد سقوطها من «آخران» الأوّلان، منتقل إلى «آخران» ثانيان، ثم وصفا انهما «مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ» في تلك الشهادة الآثمة، و من ثم أنهما «الأوليان» بالميت من بين هؤلاء، فهما- إذا- من الموصى لهم، فإنهم أولى من الموصى إليهم، إذ لا دور لهم إلّا تحقيق الوصية بحق الموصى لهم.

و الأصح كون «الأوليان» وصفا ثانيا ل «آخران» الآخران، فلأنهما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 278

معرفان بوصفهما «مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ» فقد جاز وصفهما ب «الأوليان» معرفا.

و استحقاق الإثم هو طلب تحقيقه بالشهادة الخائنة، و العاثر على ذلك هو من له مصلحة في تلك الوصية، سواء أ كان من أصحاب الحق أم من أوليائهم، و العثور ليس إلّا عند إلقاء تلك الشهادة، عثورا من الحضور في تلقيها أو سائر العثور.

فالمفروض في مجلس إلقاء الشهادة حضور جمع من الأوصياء أو الموصى لهم أو الورثة مهما كان الأصل هم الموصى لهم الواصل إليهم حق الوصية، أم كلهم أم طائفتان منهم و الكسور هنا سبعة، أم الاطلاع على الوصية بأية طريقة كانت، و إن لم يكونوا حضورا كما هو الأكثر في السفر.

فليس حضور أي من هؤلاء شرطا في أصل الوصية إلّا الشاهدان، ثم الأوليان هما الأولى بالميت في وصيته من بين الجميع، فإن كان هناك أكثر من اثنين فواجب الشهادة فقط لاثنين منهم، و إن كانت شهادة الكل ايضا ممضاة، فليس «الأوليان» تحصر العدد فيها، و إنما هما أقل من يشهد في هذا البين.

و لأن شهادة هؤلاء ليست إلّا لصالحهم لذلك لا تقبل منهم كأصل و ضابطة، و إنما المقبولة شهادة من لا ينتفع شخصيا و إن انتفع في قرباه كما أشير ب «وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى‏» للشاهدين أو الميت.

لذلك فالدور الأول في الشهادة هو لغير من له الحق، عدلين مسلمين أو غير مسلمين، «فَإِنْ عُثِرَ عَلى‏ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً» على ذوي الحق في الوصية، أن طلبا عليه إثما «فَآخَرانِ يَقُومانِ مَقامَهُما» و هما «مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ» ذلك الإثم الذي حققه الشاهدان، و لكن من هما من بين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 279

هؤلاء؟ هما «الأوليان» بالميت بحق الوصية، فهما من الموصى لهم الأقرباء، ثم غير الأقرباء، ثم الأوصياء و الورثة أيهم أولى بهذه الوصية تحقيقا و انتفاعا، سواء أ كانوا حاضرين عند الوصية أو غائبين مطلعين عليها.

«فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ لَشَهادَتُنا» حين شهدنا مجلس الوصية «أولى من شهادتهما» إذ نحن الأوليان، فلنا حق الحفاظ على حقوقنا عند سقوط الشهادة المرسومة «وَ مَا اعْتَدَيْنا» لا على الشاهدين و لا الميت و لا على سائر من له الحق في الوصية «إِنَّا إِذاً» لو اعتدينا «لَمِنَ الظَّالِمِينَ» و قد نتلمح من ملامح الآية أن الوصية عند الضرب في الأرض راجحة لحد الفرض حيث السفر من الأسباب القريبة للموت، و لكي تكون شهادة الوصية من عدلين مؤمنين، فإنها استبقاء للموصي في صالح مسئولياته الحيوية الإيمانية، و لذلك نرى أكيد الأمر بها، و الحفاظ على شؤونها في آيات عدة، و تكرارها مع الدّين في بيان الأنصبة و السهام: «مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِها أَوْ دَيْنٍ» مما يجعل الوصية بمثابة الدين أو أفضل استثناء حيث تجعل قبل الدين!.

رجعة أخرى الى الآيات الثلاث:

«تحبسونهما» هم الضاربون في الأرض، المصابون بمصيبة الموت، و لا يعني الحبس هنا توهينا بحق‏ «آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ» إنما هو إيقاف لهما «إن ارتبتم» فيهما، لمكان عدم إيمانهما، فليجبر ذلك الكسر بجابر عند الارتياب لا سواه، هو إقسامهما باللَّه بعد الصلاة، ان يصليا صلاتهما حسب شرعتهما، إن كانت هناك مهلة إلى وقت الصلاة، و إلّا فصلاة نافلة تحلق على كل شرائع اللَّه، فهي على أية حال ليست صلاة الموصين إذ لا رباط لها بخلق حالة الاطمئنان بصدقهما في إقسامهما باللَّه، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر، فهي تنهاهما أن يشتريا به ثمنا،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 280

ثم‏ «فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ» بعد الصلاة، فهذه سياجات ثلاث ل «آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ»: 1- عدلهما في شرعتهما، 2- إقسامهما باللَّه توكيدا لصدق شهادتهما ألا يشتريا به ثمنا قليلا، و 3- أن ذلك الحلف هو بعد صلاتهما، و هذه الثلاث تسد فراغ إيمانهما «إن ارتبتم».

ثم «إن عثر» و العاثر هو صاحب الحق في الوصية وصيا و موصى إليه، «عَلى‏ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا» طلبا لتحقيق إثم هو إبطاء عن الثواب، إبطاء عن حق الوصية، ف «شاهدان» «آخران‏ يَقُومانِ مَقامَهُما» في هذه الشهادة، و هما «مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ» الإثم، فالإثم المستحق ب «آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ» هو الفاعل ل «اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ» ثم «الأوليان» وصف ثان ل «فَآخَرانِ يَقُومانِ» «الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ» هنا هم أصحاب الوصية وصيا و موصى له و ورثة، ف «الأوليان» هما من هؤلاء، إن ورثة فهم أحق من الكل، و ان موصى لهم فأحق من الوصي، «فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ لَشَهادَتُنا أَحَقُّ مِنْ شَهادَتِهِما وَ مَا اعْتَدَيْنا إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ».

ذلِكَ أَدْنى‏ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهادَةِ عَلى‏ وَجْهِها أَوْ يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمانِهِمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اسْمَعُوا وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (108):

«ذلك» التأكيد الأكيد في أبعاد الشهادة للوصية، و الحياطة البالغة فيها «أَدْنى‏ أَنْ يَأْتُوا» «آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ» «بِالشَّهادَةِ عَلى‏ وَجْهِها» دون إثم أو ظلم، و حين لا يأتون‏ «أَوْ يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ» لهم‏ «بَعْدَ أَيْمانِهِمْ» أولاء الآخران الأوليان فيفتضحوا في شهادتهم الآثمة «وَ اتَّقُوا اللَّهَ» في كل حقول الشهادة «و اسمعوا» عظة اللَّه، و شهادة اللَّه و حق اللَّه و اعلموا ان‏ «اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر اخرج الترمذي و ضعفه و ابن جرير و ابن أبي حاتم و النحاس في ناسخه و أبو الشيخ و ابن مردويه و أبو نعيم في المعرفة من طريق أبي النضر و هو الكلبي عن باذان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 281

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

مولى ام هاني عن ابن عباس عن تميم الداري في هذه الآية قال: برى‏ء الناس منها غيري و غير عدي بن بداء و كانا نصرانيين يختلفان الى الشام قبل الإسلام فأتيا الشام لتجارتهما و قدم عليهما مولى لبني سهم يقال له بديل بن أبي مريم بتجارة و معه جام من فضة يريد به الملك و هو عظم تجارته فمرض فأوصى إليهما و أمرهما أن يبلغا ما ترك اهله، قال تميم فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم ثم اقتسمناه أنا و عدي بن بداء فلما قدمنا الى اهله دفعنا إليهم ما كان معنا و فقدوا الجام فسألونا عنه فقلنا ما ترك غير هذا و ما دفع إلينا غيره، قال تميم فلما أسلمت بعد قدوم رسول اللَّه (ص) المدينة تأثمت من ذلك فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر و أديت إليهم خمسمائة درهم و أخبرتهم ان عند صاحبي مثلها فأتوا به رسول اللَّه (ص) فسألهم البينة فلم يجدوا فأمرهم ان يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه فحلف فانزل اللَّه هذه الآية فقام عمرو بن العاصي و رجل آخر فحلفا فنزعت الخمسمائة درهم من عدي بن بداء.

و

فيه عن ابن عباس قال‏ خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري و عدي بن بداء فمات السهمي بأرض ليس فيها مسلم فأوصى إليهما فلما قدما بتركته فقدوا جاما من فضة مخوصا بالذهب فأحلفهما رسول اللَّه (ص) باللَّه ما كتماها و لا اطلعا ثم وجد الجام بمكة فقيل اشتريناه من تميم و عدي فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا باللَّه لشهادتنا أحق من شهادتهما و أن الجام لصاحبهم و أخذ الجام و فيه نزلت‏ «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهادَةُ بَيْنِكُمْ ..»

و

فيه أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن عكرمة قال‏ كان تميم الداري و عدي بن بداء رجلين نصرانيين يتجران الى مكة في الجاهلية و يطيلان الاقامة بها فلما هاجر النبي (ص) حولا متجرهما الى المدينة فخرج بديل بن أبي مارية مولى عمرو بن العاص تاجرا حتى قدم المدينة فخرجوا جميعا تجارا الى الشام حتى إذا كانوا ببعض الطريق اشتكى بديل فكتب وصيته بيده ثم دسها في متاعه و أوصى إليهما فلما مات فتحا متاعه فأخذا منه شيئا ثم حجزاه كما كان و قدما المدينة على أهله فدفعا متاعه ففتح أهله متاعه فوجدوا كتابه و عهده و ما خرج به و فقدوا شيئا فسألوهما عنه فقالوا هذا الذي قبضنا له و دفع إلينا فقالوا لهما هذا كتابه بيده قالوا ما كتمنا له شيئا فترافعوا الى النبي (ص) فنزلت هذه الآية فأمر رسول اللَّه (ص) ان يستحلفوهما في دبر صلاة العصر باللَّه الذي لا إله إلّا هو ما قبضنا له غير هذا و لا كتمنا فمكثا ما شاء اللَّه أن يمكثا ثم ظهر معهما على إناء من فضة منقوش مموّه بذهب فقال أهله هذا من متاعه و لكنا اشتريناه منه و نسينا أن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 282

[سورة المائدة (5): الآيات 109 الى 120]

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ قالُوا لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (109) إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَ عَلى‏ والِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلاً وَ إِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَ تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتى‏ بِإِذْنِي وَ إِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (110) وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي قالُوا آمَنَّا وَ اشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ (111) إِذْ قالَ الْحَوارِيُّونَ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ قالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (112) قالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْها وَ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنا وَ نَكُونَ عَلَيْها مِنَ الشَّاهِدِينَ (113)

قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ تَكُونُ لَنا عِيداً لِأَوَّلِنا وَ آخِرِنا وَ آيَةً مِنْكَ وَ ارْزُقْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (114) قالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ (115) وَ إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالَ سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَ لا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (116) ما قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ (117) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (118)

قالَ اللَّهُ هذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (119) لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما فِيهِنَّ وَ هُوَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (120)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

نذكره حين حلفنا فكرهنا أن نكذب نفوسنا فترافعوا إلى النبي (ص) فنزلت الآية: «فَإِنْ عُثِرَ عَلى‏ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً» فأمر النبي (ص) رجلين من اهل بيت الميت ان يحلفا على ما كتما و غيبا و يستحقانه، ثم ان تميم الداري أسلم و بايع النبي (ص) و كان يقول:

صدق اللَّه و رسوله، أنا أخذت الإناء ...

أقول: لأن شؤون النزول المنقول ليست قطعية، و انها على قطعيتها لا تحدد الآية بنفسها فضلا عن ان تنسخها، فلا نصدق مما نقلناه إلّا الموافق لما استفدناه من هذه الآيات حول الوصية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 284

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ قالُوا لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (109):

هنا يسأل المرسلون‏ «ما ذا أُجِبْتُمْ» و في أخرى يسأل المرسل إليهم ماذا أجبتم المرسلين: «وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ. فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ. فَأَمَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَعَسى‏ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ» (28: 67) و في ثالثة يجمع بينهما في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 285

السؤال: «فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ. فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَ ما كُنَّا غائِبِينَ» (7: 7).

فسؤال المرسل إليهم سؤال استفهام استفحام عمن خالف الرسل، و استعظام لمن اتبعهم، و سؤال المرسلين هو سؤال إعلام و تعظيم، فهنا «لا عِلْمَ لَنا» لهم جواب، و لأنهم لم يقصروا في رسالاتهم فليس لهم تباب و عتاب.

و هنا في استجواب الرسل نجد الجواب‏ «لا عِلْمَ لَنا» و هم عارفون الجواب حيث واجهوا مصدقين و مكذبين؟ ثم اللَّه أشهدهم على ما هم غائبون ليشهدوا يوم يقوم الأشهاد، فقد يعنون تخضعا أمام اللَّه حيث لا يسألهم استعلاما «إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» أم و يعنون‏ «لا عِلْمَ لَنا» كما يحق حيطة على كل ما أجبنا، فقد أجبنا أمام من واجهناهم كما «وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ» (117) فالمنفي من العلم هو علم الغيوب‏ «إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ».

و لأن العلم بالإجابة كأصل، الغائبة عنهم أحياء و أمواتا، ذلك مسلوب عنهم مهما علموا أقوالهم و اعمالهم بما عرفهم اللَّه كما تدل آيات شهادة الرسل على الأعمال، «لا عِلْمَ لَنا» صادقة أولا و أخيرا، فأولا و قبل أن يعرّفهم اللَّه لا علم لهم إلّا ما واجهوه، و أخيرا بعد ما عرفهم اللَّه لا علم لهم محيطا كما يعلم اللَّه، ثم و قضية الأدب الرسالي، هي الاعتراف بالجهل أمام الرب تبارك و تعالى.

و من جهة ثالثة بما أن العلم بغيب النيات و الطويات خاص باللَّه‏ «إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» و ليس العلم بالمظاهر- مهما حلق على كلها بإذن اللَّه- ليس علما أمام العلم بالغيوب، إذا «لا عِلْمَ لَنا» كما يكفي‏ «إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 286

فشهداء الأعمال لا يشهدون إلّا بمظاهرها الحاضرة لديهم أو المحضرة بإذن اللَّه عندهم، و أما النيات و سائر الطويات فهي المختصة بعلام الغيوب، و قد يكون ذلك التعليم يوم القيامة بعد ذلك التساءل، حيث العلم الطليق يوم الدنيا لهؤلاء الشهداء هو مما يصد عنهم كل ضرّ و شرّ كما يجلب كل خير، و ذلك العلم مسلوب عن الرسول (ص) فضلا عمن سواه كما قال اللَّه عنه: «وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَ ما مَسَّنِيَ السُّوءُ» (7: 188) فمن الغيب المستكثر للخير و الصاد عن مسّ السوء هو العلم بأعمال المكلفين ككل، و بنياتهم و طويّاتهم ما تشمله الشهادة يوم يقوم الأشهاد.

إذا فالجامع بين واقع الشهادة من الأشهاد يوم يقوم الأشهاد، و عدم علمهم بمادة الشهادة، هو ان ذلك العلم يختص بما بعد الموت و بعد ذلك التساءل، و مما يشهد له قول المسيح‏ «وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ..» (5: 117).

ثم و هنا في‏ «عَلَّامُ الْغُيُوبِ» لمحة إلى أن علمنا بغيب الأعمال الظاهرة حين نغيب عنها هنا أم بعد الموت، هو علم قليل بغيب مّا كما علمتنا، و لكن العلم الحق و حق العلم بكل الغيوب، إنه يختص بك.

إذا «لا عِلْمَ لَنا» يعني علما وافيا بما أجبنا، فالإجابات بالنيات و الطويات و هي محاور الإجابات غائبة عنا لا علم لنا بها، ثم إجابات الأقوال و الأعمال و هي مظاهر الإجابات، إنها ليست بالتي تحلّق على كل المسؤول عنهم هنا «ما ذا أُجِبْتُمْ»؟.

ذلك، و من جهة رابعة قد يكون موقف المسائلة أذهلهم عما كانوا يشهدون حياتهم و ما أشهدهم اللَّه حياتهم و مماتهم، و في الحق إنه موقف مذهل مزلزل كل الخليقة مهما كانوا من الرسل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 287

فحين ينسى الإنسان ذاته أمام ربه فقد ينسى متعلقاته بأحرى، و ما علم الرسل بما أجيبوا و سواه علما لهم ذاتيا، و لو كان لكان منسيا كما الذوات، و قد تجمع هذه الثلاث:

«لا علم لنا سواك» «1»

فلولاك لما كان لنا علم، ثم و لا علم لنا أمامك، فنحن صغار صغار أمامك يا ربّ فيما أنت أعلم به منا، و أما حين تستشهدنا بما أشهدتنا من أعمال عبادك فنقيم شهادتك بإذنك‏ «وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى‏ هؤُلاءِ ..» (16: 89)، أجل فعند ذلك «طاشت الأحلام و ذهلت العقول فإذا رجعت القلوب إلى أماكنها «نَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ» (28: 75) «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 688 في معاني الأخبار بسند متصل عن موسى بن جعفر قال: قال الصادق عليهما السلام في هذه الآية: «يقولون لا علم لنا سواك».

(2)

في الدر المنثور 2: 242- اخرج الخطيب في تاريخه عن عطاء بن أبي رباح قال‏ جاء نافع بن الأزرق الى ابن عباس فقال: و الذي نفسي بيده لتفسرن لي آيا من كتاب اللَّه عزّ و جلّ أو لأكفرن به فقال ابن عباس ويحك أنا لها اليوم أيّ اي؟ قال: اخبرني عن قوله عزّ و جل: يوم يجمع اللَّه الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا، و قال في آية اخرى: و نزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق للَّه، فكيف علموا و قد قالوا: لا علم لنا- الى قوله-: فقال ابن عباس ثكلتك أمك يا ابن الأزرق ان للقيامة أحوالا و أهوالا و فظائع و زلازل فإذا تشققت السماوات و تناثرت النجوم و ذهب ضوء الشمس و القمر و ذهلت الأمهات عن الأولاد و قذفت الحوامل ما في البطون و سبحرت البحار و دكدكت الجبال و لم يلتفت والد إلى ولد و لا ولد الى والد جي‏ء بالجنة تلوح فيها قباب الدر و الياقوت حتى تنصب على يمين العرش ثم جي‏ء بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام من حديد ممسك بكل زمام سبعون الف ملك لها عينان زرقاوان تجر الشفة السفلى أربعين عاما تخطر كما يخطر الفحل و لو تركت لأتت على كل مؤمن و كافر ثم يؤتى بها حتى تنصب عن يسار العرش فتستأذن ربها في السجود فيأذن لها فتحمده بمحامد لم يسمع الخلائق بمثلها تقول لك الحمد يا إلهي إذ جعلتني انتقم من أعدائك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 288

فيا للهول من ذلك الاستجواب الرهيب العجيب الذي يذهل الرسل ما كانوا يعلمون بما علّموا، فإنه يوم الحشر العظيم و الحشر العميم من الملإ الأعلى و الأدنى و المتوسطين من الملائكة و الجنة و الناس أجمعين، الاستجواب الذي يراد به المواجهة، مواجهة المرسل إليهم أجمعين برسلهم أجمعين، مواجهة المصدقين منهم و المكذبين ليعلن في موقف الإعلان أن هؤلاء الرسل الكرام إنما جاءوا من عند اللَّه العزيز الحكيم، و ها هم أولاء مسئولون بين يدي رب العالمين في ذلك اليوم العظيم.

فالرسل- إذا- يعلنون أن العلم الحق و حق العلم هو للَّه وحده لا شريك له، و ان ما لديهم من علم لا ينبغي أن يدلّوا به بحضرة صاحب العلم المحيط، بل وهم عما عندهم ذاهلون، تحويلا للشهادة بأسرها إلى رب العالمين، و حين يأتي موقفها فهو الآمر لإقامة الشهادة «يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ» حين‏ «يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ» و هكذا يكون أدب المتعلم أمام المعلم أن يكل العلم إليه مهما علم ما علّمه.

فكما أنه هو الذي يفتح مغاليق الشهادة الأرضية بأجواءها، و شهادة الأبدان بأعضائها، كذلك هو الذي يفتح مغاليق ألسنة سائر الشاهدين من المرسلين و الكرام الكاتبين فيغرق المكلفون في خضمّ الشهادات أمام رب العالمين.

ذلك، و لأن المسيح بن مريم عليهما السلام هو الذي فتن قومه فيه، و هو الذي غام الجو حوله بمختلف الشبهات و مختلقها فخاض أناس في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الى قوله- و يعلو سواد العيون بياضها ينادي كل آدمي يومئذ يا رب نفسي نفسي لا أسألك غيرها حتى ان ابراهيم ليتعلق بساق العرش ينادي يا رب نفسي نفسي لا أسألك غيرها و نبيكم (ص) يقول: يا رب امتي امتي لا همة له غيركم فعند ذلك يدعى بالأنبياء و الرسل فيقال لهم: ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا طاشت ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 289

أوهام و أساطير حول كونه و كيانه، لذلك هنا يختصه الخطاب كنموذج من ذلك الاستجواب على ملأ الحشر ممن ألّهوه و عبدوه من دون اللَّه، و من ألهوه و ألغوه من درجات الصالحين، و من هم عوان حيث آمنوا به رسولا، و أمام سائر المرسلين و المكلفين.

و حصالة البحث حول الآية أن ضرورة تلقي شهود الأعمال أعمال المكلفين ليست إلّا قبل إلقاءها، دون ما قبله برزخا فضلا عما قبله في حياة التكليف.

إذا «لا عِلْمَ لَنا» بغيب الأعمال التي ما شهدناها «إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» قد تعني- فيما عنت- أننا لا نعلم غيب أعمال المرسل إليهم، التي ما شهدناها، إلّا أن تعلمنا إياها و لمّا، ثم اللَّه أعلمهم فاستشهدهم حيث‏ «نَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ» (28: 75).

و لو أن شهداء الأعمال كانوا يعلمونها ككل يوم الدنيا لاستكثروا من الخير و ما مسهم السوء كما يقول اللَّه تعالى عن الرسول (ص): «لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَ ما مَسَّنِيَ السُّوءُ» (7: 188).

و كيف يعلم كل الأعمال و هو لا يعرف المنافقين إلّا فيما قد يعرّفهم اللَّه إياه: «وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ» (9: 101).

فكما قد تبرّر «لا عِلْمَ لَنا» بهول الموقف المذهل، و أدب الحضور، كذلك يبرر أنهم لمّا يعلموا غيب الأعمال ثم أعلمهم اللَّه ليشهدوا.

و لماذا ذلك السؤال العضال؟ لكي نعلم أنهم على محتدتهم الرسالي ليسوا على شي‏ء أمام اللَّه، و أن هول الموقف يذهلهم كما يذهل الآخرين:

«إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْ‏ءٌ عَظِيمٌ. يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 290

أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَ تَرَى النَّاسَ سُكارى‏ وَ ما هُمْ بِسُكارى‏ وَ لكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» (22: 1).

إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَ عَلى‏ والِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا وَ إِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَ تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتى‏ بِإِذْنِي وَ إِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (110):

هنا «إِذْ قالَ اللَّهُ» بصيغة المضي دليل أن ذلك السؤال كان في حياته أو بعد رفعه و إن كان قد تشمل بعد موته و يوم القيامة مضيا للمستقبل قضية تحقق الوقوع كأنه مضى و قد مضى،

فقد يصدق المروي عن النبي (ص): «إذا كان يوم القيامة دعي بالأنبياء و أممها ثم يدعى بعيسى فيذكره الله نعمته عليه فيقر بها ..» «1»

ثم‏ «فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ..» في استجواب آخر تؤكد أن هذه الاستجوابات كلها بعد رفعه، ثم بعد موته، و من ثم يوم القيامة، مواقف ثلاثة قد تعنيها كلها «إِذْ قالَ اللَّهُ» بمرّيتها

«إن الله إذا علم أن شيئا كائن أخبر عنه خبر ما قد كان» «2»

و هنا و في آيات بعدها يعدّ اللَّه تعالى على المسيح ابن مريم عليهما السلام خمسا أصيلة من نعمه، عليها أم عليه، تذكيرا بعظيم مننه تعالى عليه في هذه الإذاعة القرآنية و ليذكر أولوا الألباب فلا يقولوا: إنه اللَّه أو ابن اللَّه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 2: 346- اخرج ابن أبي حاتم و ابن عساكر و ابن مردويه عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول اللَّه (ص): ... يقول يا عيسى ابن مريم: اذكر نعمتي ..

ثم يقول: أ أنت قلت للناس .. فينكر ان يكون قال ذلك فيؤتي بالنصارى فيسألون فيقولون نعم هو أمرنا بذلك ... فيجاثيهم بين يدي اللَّه الف عام حتى يوقع عليهم الحجة و يرفع لهم الصليب و ينطلق بهم الى النار.

(2) نور الثقلين 1: 692 في تفسير العياشي عن أبي جعفر عليهما السلام ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 291

1- «اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَ عَلى‏ والِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا» فقد كانت نعمة تكلّمه في المهد تبرءة لهما فهي نعمة عليهما، ثم نعمة تكلمه كهلا برسالة الوحي تحقيقا حقيقا باللَّه لهما إذ أكد براءته و أمه مما قيل عليهما، و أكد بركتهما في هذه الرسالة السامية، فتكلم المسيح (ع) في المهد عني واقعا هو براءتهما، و مستقبلا هو رسالته، فلم يكن وقتئذ نبيا، و مما يبرهنه «و كهلا» بعد «مهدا» حيث الفاصل بينهما خلو عن ذلك التكلم الرسولي، فتكلمه في المهد كان رساليا في بعدية و هو «كهلا» كان رسوليا بكل الأبعاد، ثم لا بعد رساليا و لا رسوليا لتكلمه بين «مهدا و كهلا»، و مما تشهد له النعمة التالية:

2- «وَ إِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ» إذا فما كان معلّما رسوليا هذه الأربع و هو في المهد، فإنما علمها «كهلا» رسولا برسالة الوحي.

و هنا «الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ» قبل‏ «التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ» علّة من ذكر العام قبل الخاص، حيث التوراة و الإنجيل هما كتابان حكيمان، فقد علم قبلهما أو معهما كل كتاب و حكمة بالوحي، تحليقا لوحيه الرسالي على كل كتابات الوحي من ذي قبل و كل الحكم المطوية فيها.

و لأن تعليم هذه الأربع- و هو رسالته جمعاء- لا يكفي دليلا عليها عند الناس فإلى نعمة ثالثة هي آيته الرسولية بعد الرسالية المعطاة إياه:

3- «وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ... وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتى‏ بِإِذْنِي» و هذه ذكرى شاملة لعديد آياته و مديدها، تبيينا أنها كلها بإذن اللَّه، فلم يكن منه إلّا صنعة و نفخة و لكن الخلق إنما هو «بإذني» إذنا غير مخول إلى المسيح (ع) حتى يكون هو الخالق وكيلا أو بديلا، فلم يأذن اللَّه له في الخلق و الإحياء أمّا أشبه من آية، فإنما فعله في حقل الآيات- فقط- تخلق، دون تخليق، و تحيى دون إحياء، و تبرئ دون إبراء، فالجانب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 292

الواقعي من هذه الآيات هو «بإذني» و الجانب الصوري هو من فعلك، فلا إذن تكوينا في هذه الأمور الربانية، فإنما هو إذن رباني فيها بموازاة ما فعله المسيح (ع).

ذلك، ف «تخلق» ك «تخرج و تبرئ» لا تعني أن حقيقة هذه الأعمال هي له، فإن «بإذني» تحولها عن ظاهر فعله إلى واقع فعل اللَّه.

و لا يعني الإذن تخويلا أو تحويلا أم توكيلا له في هذه الآيات الرسولية، و إنما يعني قرنا لإذنه تكوينا مع هذه المحاولات المأذونة تكليفا، «هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ» (35: 3)؟ «قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ» (6: 102).

ذلك، و تكرار «بإذني» مرات أربع في هذه الآيات الرسولية الأربع، دون أن تذكر مرة واحدة بعدها أجمع، إنه تكرار قاصد إلى تزييف القول:

أنه أعطي الإذن علما و قدرة ثم حققه تدريجيا عند كل آية.

كلّا! فكما أنه لم يكن خالقا بنفسه، كذلك لم يكن خالقا بالإذن المخول تكوينا إليه، فإنما كان اللَّه هو الذي يأذن في تحقيق كل آية آية، لا أنه يأذن له في تحقيق أية آية، و لأن الآية الربانية ليست إلّا بعلم طليق و قدرة طليقة هما من اختصاصات الربوبية، فلا تنتقل إلى أيّ من المربوبين كما لا تنتقل ذاته إلى ذواتهم و لا صفاته إلى صفاتهم فإنه «باين عن خلقه و خلقه باين عنه»!.

و في نظرة عميقة هنا يقتسم كيان الخلق للطير اقتساما بينا بين المسيح المأذون و بين اللَّه الخالق، فللمسيح‏ «تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي» فلم يكن مخلوقة بالأذن الأول هو خلق الطير حتى في جسمها، و انما «كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ» و هي شاكلتها الطينية، فقد يشاركه كل خالق من الطين و سواه كهيئة الطير دون أية ميزة هنا اللهم إلّا «بإذني» حيث أذن له اللَّه في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 293

ذلك الخلق تقدمة لما يأذن اللَّه في خلق الطير، فالإذن الأول تكليفي بسماح ذلك الخلق أمرا من عنده تعالى لما يرومه من خلق الطير.

و عملية ثانية هي كالأولى في عدم كونها من الخلق‏ «فَتَنْفُخُ فِيها» كمرحلة ثانية منه تحضيرا للتكوين الرباني‏ «فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي» و الإذن هنا ذو بعدين، فالأول كالأول في تشريعية الإذن، فلو لم يأذن اللَّه له أولا و ثانيا لم يكن له ما فعله لغاية التكوين الرباني، و أما الثاني فهو تكوين الطير جسميا و روحيا و مما صنعه بإذن اللَّه كهيئة الطير و نفخ فيه، فالنص هنا «فَتَكُونُ طَيْراً» لا «فَتَكُونُ طَيْراً» فذلك الإذن التكويني موجّه إلى مصنوع المسيح المنفوخ فيه و ليس إلى المسيح الصانع النافخ.

و ليس‏ «فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي» إلّا ك «إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْ‏ءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» حيث المتعلّق للإذن هو متعلق التكوين دون وسيط، بفارق أن سائر تكوينه تعالى هو خالص التكوين، و هذا تكوين كحجة على رسالة المسيح حيث كوّن طيرا بإذنه قرنا ل «تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي».

و صيغة الخلق هنا بالنسبة للمسيح- و لا خالق إلّا اللَّه- إنما تعني أنه صنع بإذن اللَّه ما هو مادة لخلق اللَّه دون سائر الصانعين لتماثيل حيث لا يخلقها اللَّه حيوانا أو إنسانا، إذا فبين صنع الإنسان و خلق اللَّه تعالى عموم من وجه و مادة الاجتماع هي الآيات الرسولية التي فيها محاولات للرسول قرن فعل اللَّه، ثم الإفتراق هو في خلق اللَّه دون آية، و صنع غير اللَّه دون قرن لخلق الآية الربانية.

ذلك، و الإذن التكويني لا يتعلق بطبيعة الحال إلّا بمادة الخلق‏ «فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي» دون وسيطه المسيح و إلّا لكان‏ «فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي».

و لو عني من الإذن نيابة المسيح و وكالته عن اللَّه في ذلك الخلق لم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 294

يعبر عنها بالإذن مهما كان «فتكوّن» بديلة عن «فتكون» بل هو عبارة أخرى ك «فتخلق طيرا بقوتي التي أعطيتك» و ما أشبه.

و لو كان المسيح هنا هو الخالق المخوّل و الموكل بذلك الخلق لما صح طائل التعبير هكذا، فإنما العبارة الصالحة الناصحة عنه «و إذ تخلق من الطين طيرا بقوتي».

و هكذا تعني «و تبرئ الأكمه و الأبرص باذني» فإشارة الإبراء و إرادته الظاهرة منه، و اذن التكوين منه تعالى، و كذلك‏ «وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتى‏ بِإِذْنِي» إخراجا عن أجداثهم بإذن السماح التكليف، و إخراجا عن الموت إلى الحياة بالإذن التكوين، فالأذن الأول موجه إلى المسيح نفسه و الثاني موجه إلى الموتى المخرجين.

ذلك، و عبارة أخرى عن فعلة المسيح و اذن اللَّه: «أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ وَ أُحْيِ الْمَوْتى‏ بِإِذْنِ اللَّهِ» (3: 49).

فإن بإذن اللَّه في خلق الطير ذو قواعد ثلاث:- أخلق- فأنفخ ..

فيكون طيرا، و كله‏ «بِإِذْنِ اللَّهِ» مهما اختلف الإذن في «فيكون» عنه في الأولين تكوينا و تشريعا.

و في تذكير الضمير هناك: «فِيهِ- فَيَكُونُ» و تأنيثه هنا «فِيها- فَتَكُونُ» لمحة باهرة أن المنفوخ فيه لم يكن إلّا «الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ» فقد ذكّر الضمير اعتبارا بالطين و أنث اعتبارا بهيئة الطير، فلا عاذرة للمتشبثين بمثل هذه الآية في تخيل الولاية التكوينية لغير اللَّه أيا كانوا.

و لأن تكملة الرسالة و تحقيقها كما يريد اللَّه ليست إلّا بالكف عمن ينقصها أو ينقضها فإلى نعمة رابعة:

4- «وَ إِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 295

مِنْهُمْ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ» فقد كفهم عن تغلّب حجاجهم عليه، و أخيرا لما أرادوا صلبه كفهم عن صلبه‏ «ما قَتَلُوهُ وَ ما صَلَبُوهُ وَ لكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ».

ثم «الأكمه» هو من ولد أعمى، كما الأعمى من ولد بصيرا ثم عمي، و «الأبرص» من به برص خلقيا، و لا يقدر على تغيير الأصل إلّا من خلق الأصل.

و من ثم‏ «إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتى‏ بِإِذْنِي» فالإخراج له نسبة إليك دعاء و إشارة، ثم النسبة الأصيلة إلى اللَّه حيث تخرج الموتى بإذني دون إذنك و حولك و قوتك، و الإخراج بديل الإحياء، حيث يدل على إخراجهم من قبورهم، للتدليل على ثابت الموت دون ظاهره، فإن غير المقبور، الساكن الحس، قد لا يكون ميّتا في الواقع.

و هنا الإذن التكويني متعلق ب «فَتَكُونُ طَيْراً» حيث تتكون طيرا بإذن اللَّه، فلم يقل‏ «فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي» حتى يكون الإذن موجها إليه في ذلك التكوين، إذا فالأذن هنا ك «كن» في سائر التكوين‏ «أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ».

فإنما المحور في هذه الأربع و غيرها من آيات اللَّه البينات رسولية و رسالية، هو إذن اللَّه تكوينا لها قرينا بظاهر المحاولة في إبرازها، فلا فارق بين محاولات الرسل في إظهار الآيات و بين سائر المحاولات إلّا أن اللَّه يأذن تكوينا عند محاولات الرسل تدليلا على اختصاصهم باللَّه و صدقهم في رسالة الوحي، و لا يأذن عند ما سواها من محاولات فإنه تضليل، فقد يأذن في محاولات لإبراز آيات، ثم يأذن عندها بتحقيقها، و الرسل إنما هم في ذلك الحقل بين إذنين اثنين: تكليفا في الأوّل و تحقيقا منه في الثاني، ف «تخلق» تسوية للطين على شاكلة الطير، ثم تحولا له إلى الطير، كلاهما «بإذني» ثم‏ «فَتَنْفُخُ فِيها- فَتَكُونُ طَيْراً» كلاهما «بإذني»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 296

و «تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ» محاولة الإبراء و تحققه كلاهما «بإذني» «وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتى‏» محاولة و تحققا كلاهما «بإذني».

فكما لم يكن واقع هذه الخوارق إلّا بإذن تكويني من اللَّه، كذلك لم تكن المحاولات المناسبة لها إلّا بإذن تكليفي من اللَّه، فليس اللَّه ليأذن في حقل الآيات تحقيقا إلّا بعد ما يأذن لمحاولة الرسل كما يحق.

فلو صنع المسيح ألف صنعة، أم نفخ ألف نفخة في آلافات من السنين، لم يكن اللَّه ليأذن في تحقق هذه المحاولات ما لم يأذن بها من ذي قبل‏ «إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ» و «أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ» فالقدرة و العلم الناتجة عنها الآيات يختصان باللَّه دون سواه.

وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي قالُوا آمَنَّا وَ اشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ (111):

الحواريون هم المؤمنون الأولون بالسيد المسيح (ع) و ترى «أوحيت» تعني وحي الرسالة؟ و لا يساعده‏ «أَنْ آمِنُوا بِي» حيث الإيمان باللَّه يسبق وحي الرسالة بأشدّه و أشدّه، لأن الرسل مصطفون بين الأصفياء! بل و يضاده‏ «هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ» و ما أشبه في الآية التالية حيث تدل على بسيط الإيمان لأضعفه دون وسيطه فضلا عن أشدّه بأشدّه.

إذا فقد «ألهموا» «1» دون رسالة مهما كانت جزئية هامشية، و ذلك هو الإيمان الأوّل، و من ثم الأخير، و هو بطبيعة الحال أكمل و أفضل: «فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسى‏ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قالَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ اشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ. رَبَّنا آمَنَّا بِما أَنْزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ» (3: 53).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 680 في تفسير العياشي عن محمد بن يوسف الصنعاني عن أبيه قال‏ سألت أبا جعفر عليهما السلام: «إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ»؟ قال: ألهموا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 297

ذلك، و إلهام الإيمان في أصله أدنى من الإلهام إلى المؤمن كما «وَ أَوْحَيْنا إِلى‏ أُمِّ مُوسى‏ أَنْ أَرْضِعِيهِ ..» (28: 7) إذ كان أفضل و أعلى من وحي الإلهام إلى الحواريين. و لقد كان ذلك الإيحاء إليهم:

إِذْ قالَ الْحَوارِيُّونَ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ قالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (112):

فلقد أوحى اللَّه إليهم أن آمنوا عند هذه القالة الغائلة فقالوا «آمَنَّا وَ اشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ» و علّه بعد سابق الآيات الرسولية للمسيح (ع).

و ترى الموحى إليه بالرسالة يقول لمحور الرسالة «هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ» شكا في استطاعة اللَّه، و هتكا في التعبير عن اللَّه ب «ربّك» دون «الرب- أو- ربنا- أو- رب العالمين» فكان جوابهم‏ «اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» حيث هددوا توبيخا بعدم الإيمان الصالح لحدّ اللّاإيمان.

و توجيه الآية بما يعارض نصها قبيح، مثل «هل تستطيع ربك» «1» زعما أنها تعني هل تستطيع أن تطلب من ربك أو «هل يطيعك ربك» «2» سنادا لهما إلى معصوم، ذلك تزييف للثقل الأكبر فرية عليه بالثقل الأصغر، و لا سيما في الآخر فإنه يجعل اللَّه في طوع عبده!.

و كل ذلك للحفاظ على زعم رسالتهم، فقد أولوا الاستطاعة بمعنى الإطاعة، و الإطاعة بمعنى الطوع، و الطوع بمعنى الرضا، سلسلة من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 346- اخرج الحاكم و صححه الطبراني و ابن مردويه عن عبد الرحمن بن غنم قال‏ سألت معاذ بن جبل عن قول الحواريين: هل يستطيع ربك أو تستطيع ربّك؟ فقال: اقرأني رسول اللَّه (ص) هل تستطيع ربّك.

(2)

المصدر اخرج ابن أبي حاتم عن عامر الشعبي‏ ان عليا (ع) كان يقرءها: هل يستطيع ربك، قال: هل يطيعك ربك، و مثله عن السدي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 298

التأويلات العليلة في «هل يستطيع» حتى يستطيعوا الحفاظ على عصمة متخيلة للحواريين.

و هذه من التأويلات الهارفة الخارفة من هؤلاء اللَّه الذين لا يرجون لكلام اللَّه و قارا، ويكأن الدلالات القرآنية لا تمشّى إلّا كما يهوون و يمشّون!.

و ترى ما هو الفارق بين هذه القيلة الغيلة و بين قالة اليهود: «فَادْعُ لَنا رَبَّكَ ...» بل ان قالتهم أولاء أقل إساءة من قالة هؤلاء!.

ذلك، و في اقتراح آية سماوية و بهذه الصيغة المهينة بعد ما رأوا آيات المسيح (ع) الرسولية حيث‏ «رَسُولًا إِلى‏ بَنِي إِسْرائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ..» (3: 49) تدل على ان بزوغ دعوته كان بآيات إضافة إلى آية ولاده من ذي قبل.

إن في ذلك الاقتراح إساءة أدب من هؤلاء، فأوحى إليهم أن آمنوا بي و برسولي حيث كانت قالتهم قالة اللاإيمان.

فقد استحقوا من اللَّه تنديدات شديدة تحملها الآيات التالية و منها هنا «اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»: تقوى عن طغواهم على اللَّه، و عن قيلة الشطحات و تطلّبة مثل تلكم الآيات من اللَّه، مسحوبة بالتشكك في استطاعة اللَّه!.

فالمسيح (ع) الذي هو بنفسه آية و قد أتى بآيات فهم غرقى آيه البينات، كيف يسوغ لهم أن يتطلبوا إليه‏ «هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ..»؟ فلذلك يوحي إليهم هنا «أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي».

فعجبا من أناس يحاولون تأويل الآية خلاف نصها حفاظا على عصمة متخيلة للحواريين في بداية أمرهم، تقديما لها على عصمة القرآن العظيم و كما أوّلوا عصيان آدم إلى ترك الأولى و ما أشبه من تأويلات عليلات هي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 299

مس من كرامة العصمة القرآنية.

و لا يذكر الإنجيل قصة تطلّب المائدة إلّا بصورة أخرى هي أنكى و أضل سبيلا، أنهم تطلبوا منه أن يحول لهم الماء خمرا فآمنوا به لما تحول‏ «1»! و بصورة أخرى هي أخف وطأة و أقل مسا من كرامة الإيمان‏ «2» و الصورة الواقعية هي المذكورة هنا بما يليها، محافظة على كرامة اللَّه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في إنجيل يوحنا 3: 1- 11- 1- «و في اليوم الثالث كان عرس في قانا الجليل و كانت ام يسوع هناك 2- و دعي ايضا يسوع و تلاميذه الى العرس 3- و لما فرغت الخمر قالت أم يسوع له ليس لهم خمر 4- قال لها يسوع مالي و لك يا امرأة لم تأت ساعتي بعد 5- قالت أمه للخدام مهما قال لكم فافعلوه 6- و كانت ستة أجران من حجارة موضوعة هناك حسب تطهير اليهود يسع كل واحد مطرين أو ثلاثة 7- قال لهم يسوع املأوا و الأجران ماء فملأوها إلى فوق 8- ثم قال لهم استقوا الآن و قدموا الى رئيس المتكإ فقدموا 9- فلما ذاق رئيس المتكإ الماء المتحول خمرا و لم يكن يعلم من اين هي و لكن الخدام الذين كانوا قد استقوا الماء و علموا دعاء رئيس المتكإ العريس 10- و قال له كل انسان انما يضع الخمر الجيدة أولا و متى سكروا فحينئذ الدون اما أنت فقد أبقيت الخمر الجيدة الى الآن» هذه بداءة الآيات فعلها يسوع في قانا الجليل و اظهر مجده فآمن به تلاميذه!

(2) ففي إنجيل متى في منتهى الأصحاح الخامس عشر: و اما يسوع فدعا تلاميذه و قال:

اني اشفق على الجميع لأن لهم الآن ثلاثة ايام يمشون معي و ليس لهم ما يأكلون.

و لست أريد ان اصرفهم صائمين لئلا يخوروا في الطريق. فقال تلاميذه من اين لنا في البرية خبز بهذا المقدار حتى يشبع جمعا هذا عدده؟ فقال لهم يسوع كم عندكم من الخبز؟ فقالوا: سبعة و قليل من صغار السمك. فأمر الجموع ان يتكئوا على الأرض و أخذ السبع خبزات و السمك و شكر و كسر و اعطى تلاميذه و التلاميذ اعطوا الجمع فأكل الجمع و شبعوا ثم رفعوا ما فضل من الكسر سبعة سلال مملوءة و الآكلون كانوا اربعة آلاف ما عدا النساء و الأولاد.

أقول: و ورد مثلها في سائر الأناجيل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 300

و مسيحه، و بيانا لقلة إيمان الحواريين رغم توفر الآيات الرسولية للسيد المسيح (ع).

ذلك! و إلى عاذرتهم الغادرة المائرة المايدة في تطلب المائدة حيث تضيف إلى قالتهم غالة أخرى.

قالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْها وَ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنا وَ نَكُونَ عَلَيْها مِنَ الشَّاهِدِينَ (113):

فهنا لا «أَنْ نَأْكُلَ مِنْها» و لا «تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا» و لا «نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنا» و لا «نَكُونَ عَلَيْها مِنَ الشَّاهِدِينَ» لا تبرر شي‏ء منها ذلك السؤال الهاتك الفاتك، حيث الأكل غير مخصوص بمائدة السماء، و الحاجة المدقعة إلى أكل، أم التبرك بمائدة السماء، تقضى بعبارة أدبية ك «هل تطلب من الله أن ينزل عليها مائدة ..».

و هلّا تأخر «نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْها» على الثلاثة الأخرى، تقدما للحاجة الباطنية على البطنية الروحية؟.

فهذا مما يبرهن أن تطلبهم الخواء البواء لم يك يقصد منه- كأصل- مزيد الإيمان و الإيقان، حيث الدور الأوّل فيه‏ «نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْها» و من ثم‏ «وَ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا».

ثم كيف‏ «تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا» فحين لم تطمئن قلوبهم بسائر الآيات البينات الرسولية العيسوية فلا دور للإيمان أو مزيدة بآية في سؤال الأكل، و كذلك‏ «نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنا» و من ثم‏ «وَ نَكُونَ عَلَيْها مِنَ الشَّاهِدِينَ» أ فلم يكونوا شاهدين في سابقة الآيات السابغة؟ أم هم اعلم من اللَّه بنوعية الآيات القاطعة؟

فهذه الطلبة هي بعبارة أخرى نكران لآيات المسيح الرسولية، الظاهرة البارزة لهم من ذي قبل.

إذا فما زادتهم هذه الأعذار القاحلة غير تخسير، ظلمات بعضها فوق‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 301

بعض! فالأثر الوارد بحق خلوصهم و تخليصهم أولاء الحواريين مطروح أو مأول بغير البداية من أمرهم الإمر «1» كما في آية الصف: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصارَ اللَّهِ كَما قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ كَفَرَتْ طائِفَةٌ ..» (14) و ذلك‏ «فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسى‏ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قالَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ اشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ. رَبَّنا آمَنَّا بِما أَنْزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ» (3: 53).

ذلك، و قد تكون تطلبه آية المائدة من بعضهم دون جمعهم، ثم المخلصون منهم في آخر أمره هم- فقط- منهم، أم و ممن سواهم، دون المستحق لعذاب اللّه فيهم في ذلك التهديد الحديد «أُعَذِّبُهُ عَذاباً ..».

فعلى أية حال فقد تعدى الحواريون في سؤالهم هذا طور العبودية بأدبها رغم تقدم الآيات الباهرة لرسالة المسيح. فأوحى إليهم اللّه‏ «أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي» فقد تشابه أمرهم هذا تطلبات المشركين الطائلات الغائلات آيات يشتهونها بعد أهم الآيات و أعمها و هي القرآن العظيم، و لكنهم لحرمة إيمانهم الصالح في مستقبل أمرهم أوحى إليهم أن آمنوا .. و أجابهم فيها بدعاء المسيح (ع) عيدا و آية تنضم إلى سابقة الآيات السابغة مزيدا للحجة و تزويدا للمحجة، مهددا إياهم باليم العذاب إن كانوا بها كافرين:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 690 في عيون الأخبار باسناده الى علي بن الحسن الفضال عن أبيه قال‏ قلت لأبي الحسن الرضا (ع) لم سمي الحواريين الحواريين؟ قال: اما عند الناس فإنهم سموا حواريين لأنهم كانوا قصارين يخلصون الثياب من الوسخ بالغسل و هو اسم مشتق من الخبز الحوار، و اما عندنا فسمي الحواريون حواريين لأنهم كانوا مخلصين في أنفسهم و مخلصين لغيرهم من أوساخ الذنوب بالوعظ و التذكر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 302

قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ تَكُونُ لَنا عِيداً لِأَوَّلِنا وَ آخِرِنا وَ آيَةً مِنْكَ وَ ارْزُقْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (114):

و قد بدل «ربك» هنا ب «ربنا» كما بدل الاستطاعة بواقع المستطاع «أنزل»، و ضمن دعاءه هذا الأديب الأريب سؤلات ثلاث لا تحمل من أسؤلتهم تلك إلّا «نَأْكُلَ مِنْها» بغيار التعبير: «و ارزقنا».

«تَكُونُ لَنا عِيداً» كمفخرة في إجابة الدعاء أمام الغلاظ الشداد الألدّاء من كفرة بني إسرائيل‏ «لِأَوَّلِنا وَ آخِرِنا» مهما كنا مؤمنين من قبل مطمئنين بسابقة الآيات، فقد دمج نفسه في متطلبي هذه المائدة و لم يكن ليشك في رسالة نفسه و لا في استطاعة ربه استجابة سؤله، فهذا أدب أوّل في دعاءه (ع)، خليصا عما دعوه ليدعوا، من سوء الأدب و خلط الإرب.

و عيد المائدة فيه تجديد حياة الملة و تنشيط نفوس العائدين و ذكرى لهم على مر الزمن‏ «لِأَوَّلِنا وَ آخِرِنا».

ثم‏ «وَ آيَةً مِنْكَ» هي الأخرى بعد معظم الآيات التي بعثت بها إلى بني إسرائيل، فكلما كثرت الآيات كثرت الاطمئنانات، لا لقصور في سابقة الآيات فإنها سابغات، و إنما لقصور متطلبيها و تقصيرهم، و ليس منهم المسيح نفسه فإن «آية» منكرة ليست إلّا للقاصرين و المقصرين، دون المسيح الذي هو نفسه آية و معه كبريات الآيات، التي هي معرّفة و هذه بجنبها منكّرة.

و مهما كانت تطلّبه آية بعد سائر الآيات تطلبة خواء، و لكنها حين تتضمن «عيدا» فليس اللّه منها براء، و لا سيما إذا كانت هذه الآية رزقا لأبدانهم مع كونها رزقا لأرواحهم في بعدي العيد و الآية.

و من ثم‏ «وَ ارْزُقْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ» مما يلمح أنهم كلهم كانوا في حاجة ملمة مدققة إلى أكل لم يجدوه في أرض اللّه، فليطلبوه من خير

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 303

الرازقين أن ينزله عليهم من سماءه فانه‏ «هُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَ فِي الْأَرْضِ إِلهٌ» و القائل: «وَ فِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَ ما تُوعَدُونَ».

و لقد أخر حاجة الأكل كفرع- رغم ما قدموها كأصل- أدبا بارعا في الدعاء في تقديم سؤل الروح على سؤل الجسم، فقد بان البون بين دعاءهم الهارع القارع و دعاءه البارع و أين دعاء من دعاء.

و كما البون بين هؤلاء الحواريين بداية و نهاية و بين حواري نبيّنا محمد (ص) و أهل بيته المعصومين عليهم السلام‏ «1».

ذلك و لكن أدب المسيح (ع) أثر فيهم كأفضل ما أمكن و أجمله بين هؤلاء اليهود الصلدين الصلتين حيث لازموه و ساندوه في مختلف المجالات و كانوا مذياعا لصوته الرسالي بين الناس‏ «2».

قالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ (115):

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

بحار الأنوار 14: 274- 7 عن الكافي بسند متصل عن أبي عبد اللّه (ع) قال: ان حواري عيسى (ع) كانوا شيعته و ان شيعتنا حواريونا و ما كان حواري عيسى (ع) بأطوع له من حوارينا لنا و انما قال عيسى (ع) للحواريين: «من انصاري الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فلا و الله ما نصروه من اليهود و لا قاتلوهم دونه و شيعتنا و الله لم يزالوا منذ قبض الله عز ذكره رسوله (ص) ينصرون و يقاتلون دوننا و يحرقون و يعذبون و يشردون في البلدان جزاهم الله عنا خيرا».

(2)

ففي البحار (8) احمد بن عبد اللّه عن احمد بن محمد البرقي عن بعض أصحابه رفعه قال‏ قال عيسى بن مريم عليهما السلام يا معشر الحواريين لي إليكم حاجة اقضوها لي، قالوا: قضيت حاجتك يا روح اللّه فقام فغسل اقدامهم فقالوا: كنا نحن أحق بهذا يا روح اللّه! فقال: ان أحق الناس بالخدمة العالم، انما تواضعت هكذا لكيما تتواضعوا بعدي في الناس كتواضعي لكم ثم قال عيسى (ع) بالتواضع تعمر الحكمة لا بالتكبر و كذلك في السهل ينبت الزرع لا في الجبل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 304

إذا فلم تكن الإجابة بدعائهم المسيح أن يدعوا اللّه، فإنما هي بدعاء المسيح (ع) حيث خلص دعاءه عما تقولوا و أخلص في دعاءه مستندا إلى تلكم الثلاث التي هي كلها مرضية عند اللّه.

هنا «قالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ» برهان لا مرد له أنه أنزلها عليهم فإن اللّه لا يخلف الميعاد مهما كان الموعودون غير صالحين، و فيهم مثل السيد المسيح (ع) و هو من أصلح الصالحين حيث دعى ما دعى فأجيب هكذا فيما دعى، فالحوار حول: هل إن اللّه أنزل المائدة أم لم ينزلها؟

إنّه بوار من حوار.

و ليست قصة استعفائهم المروية بالتي تنقض ما وعده اللّه مسيحه (ع) فلو أنه تعالى كان قابلا لاستعفائهم لما كان واعدا إنجاز طلبتهم، و لو أن استعفاءهم يعقب العفو، لما كان- إذا- إعفاء عما طلبه المسيح (ع) فأين دعاءه من دعاءهم!.

و هنا التهديد الحديد بعد نزول آية المائدة ب «أُعَذِّبُهُ عَذاباً ..» دليل باهر أنها ما كانت الآية الأولى النازلة لاثبات رسالته، بل هي آية مقترحة بعد آيات كافية، و هكذا يكون دور الآيات المقترحة أن يشمل المكذب بها عذاب الاستئصال، فكما ان تطلّب آية المائدة بعد سائر الآيات الفضلى كان من حصائل عدم الايمان فاستحقوا التنديد الشديد «اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» كذلك هم يستحقون نكال العذاب إن كفروا بهذه الآية المقترحة.

و هكذا تصرح آيات عدة أن وعيد العذاب يختص بمقترحات الآيات إذا لم يؤمنوا بها، و بعد إذ أتتهم آيات بينات، و لو أن الحواريين لم يروا- قبل اقتراحهم آية المائدة- آيات المسيح (ع) لم يكن في اقتراحهم هذا كيفما كان تأنيب و قد انبوا ب «اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» و لا وعد التعذيب بعد وقد أوعدوا: «فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ» و كما عذب من كفر منهم ان جعلهم خنازير، و من سواهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 305

«إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» (46: 36).

ذلك، و من ثم قد توحي‏ «وَ إِذْ أَوْحَيْتُ‏ .. إِذْ قالَ الْحَوارِيُّونَ ..»

- حيث كان ذلك الإيحاء بعد اقتراحهم آية المائدة- أنهم كان عليهم ذلك الإيمان بما رأوا من آيات اللّه البينات، فلما تطلبوا مائدة من السماء أوحى إليهم‏ «أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي» بما أريتكم تلكم الآيات.

و أما هذه المائدة السماوية كيف كانت و كم؟ فلنسكت عما سكت اللّه عنه مهما ورد في الآثار لكمها و كيفها مختلف الأخبار.

و هنا بعد صراح الوعد بإنزال المائدة تهديد شديد بمن يكفر بعده‏ «فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ» و ذلك الوعيد هو قضية صارم الحجة لصارح المحجة، فكلما ازدادت الحجة عدّة و عدّة إزداد عذاب المتخلفين عدّة و عدّة، و كما نرى بمدار الزمن الرسالي عذابات الاستئصال و سواها على قدر النكرانات لآيات الرسالات بقدر الحجج البالغة «مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ» و على قدره حيث‏ «إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».

ثم‏ «لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ» مستقبلا قد يعني تفوّق عذابهم على مستقبل العذابات دون ماضيها، فما ورد من جعل الكافرين منهم قردة و خنازير، تسوية بينهم و بين قردة من اليهود لا يطارد «لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ» ثم و الخنازير أنحس من القردة و قد لا يسبق سابق تحوّل الإنسان خنزيرا في أمة من الأمم و لا يلحقه لاحق، و

في الأثر عن الرسول الأطهر (ص) «فمسخوا قردة و خنازير» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 348- اخرج الترمذي و ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن الأنباري في كتاب الأضداد و أبو الشيخ و ابن مردويه عن عمار بن ياسر قال: قال رسول اللّه (ص):

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 306

و لأن جعل اليهود قردة كأصحاب السبت وارد في القرآن‏ «وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ» (2: 65).

و لم يرد جعلهم خنازير، و قد أوعد هنا «عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ» و أنبأ بالعذابين: «قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ وَ جَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَ الْخَنازِيرَ وَ عَبَدَ الطَّاغُوتَ ..» (5: 60) لذلك قد يصدق هذا المروي عن الرسول (ص) انه قوله فما أجمله، أن البعض من هؤلاء الحواريين حولوا إلى خنازير «1» حيث الوعيد كان راجعا إليهم دون من سواهم من الذين كفروا بعد نزول المائدة.

ذلك و ليس بذلك البعيد أن يمسخ جماعة من الحواريين خنازير و فيهم أنحس منهم و هو يهوذا الأسخر يوطي الذي باع المسيح بدراهم ليصلبوه فشبه لهم و صلب بديلا عنه، ثم الباقون هم الصالحون الممدوحون في آيتي آل عمران و الصف.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أنزلت المائدة من السماء خبزا و لحما و أمروا الا يخونوا و لا يدخروا لغد فخانوا و ادخروا و رفعوا لغد فمسخوا قردة و خنازير.

(1). كما

في تفسير العياشي عن الفضيل بن يسار عن أبي الحسن (ع) قال: ان الخنازير من قوم عيسى سألوا نزول المائدة فلم يؤمنوا بها فمسخهم اللّه خنازير،

و

فيه عن عبد الصمد بن بندار قال سمعت أبا الحسن (ع) يقول: كانت الخنازير قوما من القصارين كذبوا بالمائدة فمسخوا خنازير،

أقول: و الجمع بين الروايتين: و

المروي عن رسول اللّه (ص) ان جماعة منهم مسخوا قردة و آخرين مسخوا خنازير كل على قدر كفرهم بالمائدة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 307

وَ إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالَ سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَ لا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (116):

عرض لمذاهب اللاهوت:

إن للإنسان و ما أشبه أيا كان من الخليقة المتكاملة بالعبودية للّه قوسين صعودي و نزولي، فالنزولي هو دركات التخلف عن معرفة اللّه و عبوديته، و الصعودي درجات فيهما.

ثم الصعودي، منه محبور هو به مأمور، و هو التقدّم في جناحي المعرفة و العبودية، سيرا من نقطة العبودية إلى حضرة الربوبية دون أية وقفة في النشآت كلها، و حصيلتها كمال المعرفة و العبودية إلى غير ما حدّ و لا نهاية و كما

عن أوّل العارفين و العابدين: «ما عرفناك حق معرفتك و ما عبدناك حق عبادتك»

و ليس في هذا المجال أي منال إلّا تتالي الدرجات فيهما، فرسالة و نبوة و ما أشبه من مراتب العصمة، دون بنوّة و لا نيابة و لا وكالة و لا خلافة عن اللّه، و هذا هو المسلك الصالح لصالحي عباد اللّه.

ثم إن هناك- خارجا عن الحق المرام- ضروبا ستة للسالك إلى اللّه بجناحي المعرفة و العبودية، مع كل ضربه من القوس النزولي للّه سبحانه:

1- من سالك إلى اللّه يستحق كرامة البنوّة الربانية مجازيا و هو مستمر في مسالك المعرفة و العبودية، و قد تندد به‏ «وَ قالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَ قالَتِ النَّصارى‏ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ...».

2- و آخر واصل إلى اللّه فلا عبادة إذا لمكان الوصول إلى الغرض الأسمى مستدلا بمثل قوله تعالى: «وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ»؟

و اليقين ذو درجات غير متناهية كما اللّه غير متناه و لا محدود.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 308

3- و ثالث حاصل بوصوله على جزء من ذات الربوبية فهو ولد له و كما يدعيه بعض النصارى للسيد المسيح (ع) و تندد به‏ «أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً».

4- و رابع فان بوصوله في ذات الربوبية.

5- و خامس اتحد بذات اللّه كما الأقانيم الثلاثة، حيث هي واحدة و الواحدة هي الثلاثة!.

6- و سادس أصبح هو اللّه، و تندّد به مثل قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ‏- إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ- اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ».

فقد نزّلوا اللّه تعالى في ذلك المسدس عن منزلة الربوبية إلى اتخاذ الولد تشريفا أو حقيقة، أو خارجا عن المعبودية، أو اتحادا ثالوثيا أم وحدانيا بالعبد.

و القرآن ينسف كل هذه الأقاويل المائلة عن جادة الصواب بصائب البراهين، تركيزا على المسلك الأوّل من مسالك المعرفة و العبودية.

و هنا عرض بصورة التأنيب و سيرة التبرئة لعيسى ابن مريم من الثالوث المريمي كما هي من المختلقات الشركية للمسيحيين، كما تصرح الكنيسة الكاثوليكية: «كما أن المسيح لم يبق بشرا كذلك مريم أمه لم تبق من النساء بل انقلبت وينوسة: «إلهة» و لذلك تراهم كثيرا ما يحذفون أسماء اللّه مثل «يهوه» من كتب المزامير و يثبتون مكانها اسم مريم كقوله:

احمدوا اللّه يا أولاد، فالكاثوليك لأجل إظهار عبوديتهم لمريم طووا هذا من الزبور و بدّلوه إلى «احمدوا مريم يا أولاد» و هذه الكنيسة كلما صلي فيها مرة واحدة بالصلاة الربانية: «أبانا الذي في السماوات» يصلي فيها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 309

بالصلاة المريمية عشرون مرة «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). عن الأب عبد الأحد داود الآشوري العراقي في كتابه الإنجيل و الصليب، و يقول جرجس صال الانجليزي في كتابه مقاله في الإسلام- عند ما يذكر بدع النصارى: من ذلك بدعة كان أصحابها يقلون بألوهية العذراء مريم و يعبدونها كأنما هي اللّه و يقربون لها أقراصا مضفورة من الرقاق يقال لها: كلّيرس، و بها سمي اصحاب هذه البدعة كلّيريّين، و هذه المقالة بألوهية مريم كان يقول بها بعض اساقفة المجمع النيقاوي حيث كانوا يزعمون ان مع اللّه إلهين هما عيسى و مريم و من هذا كانوا يدعون مريميين و كان بعضهم يذهب الى انها تجردت عن الطبيعة البشرية و تألهت و ليس هذا ببعيد عن مذهب قوم من نصارى عصرنا قد فسدت عقيدتهم حتى صاروا يدعونها تكملة الثالوث كأنما الثالوث ناقص لولاها و قد أنكر القرآن هذا الشطط لما فيه من الشرك ثم اتخذه محمد ذريعة للطعن في عقيدة التثليث» (ص 67- 28 و هذا الكتاب ألفه جرجس صال ردا على الإسلام و نقله هاشم العربي الى العربية).

و المجمع المسكوني الثالث 431 يلقب مريم «ام اللّه» و في اللاهوت العقائدي ان مريم هي حقا ام اللّه، تقول الكنيسة في قانون الرسل بان ابن اللّه ولد من مريم العذراء فهي ام اللّه من حيث هي ام ابن اللّه (ج 3 ص 108 لمؤلفه لودويغ اوث) و في مقالة للأب «انستاس الكرملي» المنشورة في العدد الرابع العشر من السنة الخامسة من مجلة الشرق الكاثوليكية البيروتية تحت عنوان: قدم التعبد للعذراء- بعد ذكر عبارة سفر التكوين في عداوة الحية للمرأة و نسلها و تفسير المرأة بالعذراء: أ لا ترى انك لا ترى من هذا النص شيئا ينوه بالعذراء تنويها جليا إلى أن جاء ذلك النبي العظيم «إيليا» الحي فأبرز عبادة العذراء من حيز الرمز و الإبهام الى عالم الصراحة و التبيان، ثم فسر هذه الصراحة و التبيان بما في سفر الملوك الثالث (بحسب تقسيم الكاتوليك) من ان إيليا حين كان مع غلامه في رأس الكرمل أمره سبع مرات ان يتطلع نحو البحر فأخبره الغلام بعد تطلعه المرة السابعة انه رأى سحابة قدر راحة الرجل طالعة من البحر، فمن ذلك النشن قلت: ان هو إلّا صورة مريم على ما حققه المفسرون، بل و صورة الحبل بلا ذنس أصلي، ثم قال: هذا اصل عبادة العذراء في الشرق العزيز و هو يرتقي الى المأة العاشرة قبل المسيح و الفضل في ذلك عائد الى هذا النبي إيليا، العظيم، ثم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 310

و هنا يبرّئ المسيح نفسه من هذه التقولة الحمقاء: «قالَ سُبْحانَكَ» من هذه الأقاويل‏ «ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ» من هذا و سواه من باطل‏ «إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ» إذ أنت‏ «تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي» ما ظهر منها و ما بطن‏ «وَ لا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ» حيث‏ «إِنَّكَ أَنْتَ» لا سواك‏ «عَلَّامُ الْغُيُوبِ» و النفس المضاف إلى صاحبها تعني نفس الذات، فلا تدل إذا على أن للّه نفسا كما لمن سواه.

هذا «وَ إِذْ قالَ اللَّهُ» حكاية عن الماضي دون مستقبل القيامة أم و البرزخ‏ «ما دُمْتُ فِيهِمْ» لا تعني فترة حياته، بل هي حياته فيهم، ثم‏ «فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي» تعني رفعه إليه كما قال: «إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَ رافِعُكَ إِلَيَّ» فقد كان ذلك القول بعد ذلك التوفي.

و أما «هذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ» فالمشار إليه هو يوم العذاب و الرحمة فهو منذ البرزخ إلى القيامة «1».

و هنا «إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ» تعني أنهم اتخذوا بعد اللّه و دونه هذين:

الابن و الأم- الإلهين، و قد اعتقدوه في وجهين اثنين: أن اللّه تحول إلى رحم مريم فأصبح بصورة المسيح، و إذا فلا إله أصلا إلّا المسيح، ثم أمه لأنه والدته، أو أن اللّه أولد المسيح من مريم و هو باق في ألوهيته بلا انتقال إلّا جزء منه صار هو المسيح، «مِنْ دُونِ اللَّهِ» ما تتحملهما معا حيث تعني الإشراك باللّه من هو أدنى منه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

قال: و لذلك كان أجداد الكرمليين اوّل من آمن ايضا بالإله يسوع بعد الرسل و التلامذة و أول من اقام للعذراء معبدا بعد انتقالها الى السماء بالنفس و الجسد.

(1).

الدر المنثور 3: 349- اخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه سمع النبي (ص) يقول: إذا كان يوم القيامة جمعت الأمم و دعى كل أناس بإمامهم، قال و يدعى عيسى فيقول لعيسى يا عيسى أ أنت قلت ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 311

و هنا لا نصرّ بتسمي مريم إلهة، حيث الاتخاذ أعم من التسمية كما «اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ» (9: 31).

و ذلك الاتخاذ مشهود في الكنائس و سواها حيث يعتقدون لها السلطة الغيبية المخوّلة، فلها أن تستجيب لمن شاءت أو تخيب!.

و اتخاذ إله أو آلهة من دون اللَّه صيغة متكررة في القرآن عن الإشراك باللَّه ما لم ينزل به سلطانا، سواء أنكر وجود اللَّه أم أقرّ به، إنكارا عن بكرته كالماديين، أم بتأويل تحوّله إلى إنسان كالمسيحيين القائلين بذلك التحول.

ذلك، و في إجابة المسيح (ع) في ذلك الاستجواب الرباني بيان لأدب عبودي بارع، فتقديم «سبحانك» تنزيه له سبحانه عن أن يكون له شريك، ثم‏ «ما يَكُونُ لِي» سلب لكينونة ذلك التقوّل عن نفسه، لأنه ليس بحق له لمكان عبوديته، و لا على اللَّه لمكان وحدته في ربوبيته، ثم‏ «إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ» تعليق على المحال من كينونة هذه القولة أن‏ «فَقَدْ عَلِمْتَهُ» إذ لا يخفى عليك أيّ كائن، ثم يبرهن أخيرا كلا السلب و الإيجاب ب «تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَ لا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ» تأكيدا لحيطته العلمية الطليقة الربانية الوحيدة ب «إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» و كل هذه واقعة و بوحي اللَّه في صيغة التعبير حيث «لقاه الله» «1» و قد أرعد منه استجوابه تعالى كل مفصل منه حتى وقع‏ «2»، و من ثم يأتي بما قال لهم:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 1: 349- ابو هريرة عن النبي (ص) «فلقاه الله: سبحانك ..

و

فيه عن أبي هريرة عن النبي (ص) قال: ان عيسى حاجه ربه فحاج عيسى ربه و الله لقاه حجته بقوله: أ أنت ...

(2) المصدر عن ميسرة قال: لما قال الله: يا عيسى ابن مريم ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 312

ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ (117):

ما قلت لهم» في حقل الألوهية «إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ» دون ما تأمرني به نفسي أو عقلي مهما صلحتا، و لا ما أمرني غيري، فإنما أنا رسولك لا أقول لعبادك‏ «إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ» و هو هنا «أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ» دون تخصص لي في مقام العبودية فضلا عن دعوى الربوبية، و ماذا فعلوا و افتعلوا في هذه الدعوة التوحيدية؟ «وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً» أشهد ماذا يقولون و يعملون أو يعتقدون بإشهادك لي إياها «ما دُمْتُ فِيهِمْ» على أرض الرسالة ثم‏ «فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ» بكل شهادة كما كنت أنت الرقيب عليهم ما دمت فيهم‏ «وَ أَنْتَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ» لا تفلت منك فالتة و لا تفوت عنك فائتة.

و هنا «كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ» حصر لتلك الرقابة فيه تعالى ككل، و أما شهادته كسائر الشهود يوم القيامة فهي بما أشهده اللَّه عليه من أعمالهم عند الشهادة أو قبلها يوم يقوم الأشهاد.

و قد يصدق الإنجيل دعوته التوحيدية كما في (متى 19: 16- 19 و مرقس 10: 18 و لوقا 18: 19): «و إذا واحد تقدم و قال له أيها المعلم الصالح .. فقال له: لماذا تدعوني صالحا، ليس أحد صالحا إلا واحد و هو الله».

و كما يندد ببطرس و يعتبره شيطانا إذ قال له: «حاشاك يا رب، فالتفت و قال لبطرس: اذهب عني يا شيطان. أنت معثرة لي لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس» (متى 12: 22 8: 23).

و لقد صدق اللَّه دعواه هذه في هذه الإذاعة القرآنية حيث يحكي عنه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 313

مصدقا إياه: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ» (19: 36 و 43: 64).

فذلك هو السيد المسيح (ع) معرفة و عبودية و رسالة صالحة، و من زهده (ع) ما

يقول عنه الإمام علي أمير المؤمنين (ع): «و إن شئت قلت في عيسى ابن مريم عليهما السلام: فلقد كان يتوسد الحجر و يلبس الخشن و يأكل الجشب، و كان إدامه الجوع، و سراجه بالليل القمر، و ظلاله في الشتاء مشارق الأرض و مغاربها، و فاكهته و ريحانه ما تنبت الأرض للبهائم، و لم تكن له زوجة تفتنه، و لا ولد يحزنه، و لا مال يلفته، و لا طمع يذله، دابته رجلاه، و خادمه يداه» (الخطبة 158/ 283).

ذلك، و لا تتقيد شهادته يوم القيامة بما شهده منهم ما دام فيهم بل و يشهد على عامة أهل الكتاب و لم يكن فيهم إلّا فترة لا تحمل إلّا قطرة من بحرهم: «وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً» (4: 159) و ذلك بإشهاد اللَّه له كل أعمالهم أولا و أخيرا، مهما كانت له شهادة حاضرة ما كان فيهم، إذ لم يكن ليشهد إلّا أقوالا و أعمالا ممن كان يعاشرهم، دون أن يحشرهم كلهم و لا سيما في أحوالهم الغائبة.

إذا فالشهادة الرسولية تحلّق في إلقاءها على كافة الأقوال و الأعمال و الأحوال من الأمم، حيث تحلق عليها تلقيا بما يلقيه اللَّه إياهم حاضرين لموقف الرسالة و غائبين، و القدر المعلوم من ذلك الإلقاء هو يوم يقوم الأشهاد «1» اللّهم إلّا ما استثني، و ليست شهادة المسيح (ع) و غيره من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 2: 349 أخرج ابن أبي شيبة و احمد و عبد بن حميد و البخاري و مسلم و الترمذي و النسائي و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن حبان و أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقي في الأسماء و الصفات عن ابن عباس قال‏ خطب رسول اللَّه (ص)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 314

الشهداء إلّا وسيطة بين اللَّه و المكلفين من عبادة دونما استقلال لهم أو استغلال، فاللَّه هو الذي أشهدهم تلقيا كما أشهد أعضاءهم كلهم و الأرض بأجواءها و أشهد الكرام الكاتبين.

و ليست هذه الشهادات الأربع يوم يقوم الأشهاد إلّا لشهادة اللَّه، لو أنهم تشككوا فيها، فليس لهم نكران شهادات أعضاءهم و الأرض بما عليها، مهما اجترءوا على التشكك في سائر الشهادات.

إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (118):

يا للَّه لمسيح اللَّه في موقفه ذلك الرهيب العجيب! و أين أولئك الذين أطلقوا عليه هذه الفرية الرهيبة العجيبة، سواء أ كانوا متخذيه و أمه إلهين من دون اللَّه، أو المكتفين بهذه الفرية القاحلة الجاهلة نقلا و تناقلا، حيث يتبرّأ منها ذلك العبد الصالح الطاهر ذلك التبرؤ الواجف بموقفه منهم الراجف، ابتهالا من أجلها إلى ربه ذلك الابتهال المنيف المنيب؟! هنا تسمع المسيح بعد ما أجاب ما أجاب بكل تأدب في ذلك الاستجواب، تسمعه يحاول أديبا أريبا لبيبا أن يغفر اللَّه من يصلح للغفر منهم تقديما لحق العذاب: «إِنْ تُعَذِّبْهُمْ» أولاء الناقلين عني ما نقلوه من فاتكة الفرية و هاتكتها، «فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ» و لك أن تعذبهم استحقاقا حقيقا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فقال: ايها الناس انكم محشورون إلى اللَّه حفاة عراة غرلا ثم قرأ «كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ» ثم قال: ألا و إن أوّل الخلائق يكسى يوم القيامة ابراهيم ألا و إنه يجاء برجال من امتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: يا رب اصحابي اصحابي فيقال: انك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح و كنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم فيقال: أما هؤلاء لم يزالوا مرتدين على اعقابهم منذ فارقتهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 315

عادلا لعصيانهم و بهتانهم العظيم‏ «وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ» ايّ غفر صالح في موقف الفضل و الرحمة ما لم تناف العدالة «فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ» الغالب على أمرك غير مغلوب «الحكيم» حيث تضع عزتك في مواقف الحكمة دون ظلم، و لا رحمة غير صالحة، فإنك أنت أرحم الراحمين في موضع العفو و الرحمة و أشد المعاقبين في موضع النكال و النقمة.

و ترى كيف سمح المسيح (ع) في ذلك الموقف الرهيب أن يلفظ بغفر لهم و هم أولاء الذين نكبوه و مسوا من كرامة للَّه فيما ارتكبوه، و هو القائل:

«إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ» (4: 48) و هؤلاء ممن أشركوا باللَّه افتراء على اللَّه و على رسول اللَّه؟.

علّ الوجه في تلك السماحة في ذلك السماح أنهم ما كانوا كلهم مشركين مهما كانوا مشتركين في نقل هذه القولة عنه (ع) فعلّهم انقسموا إلى أقسام كما هي الواقعة بين المنحرفين من المسيحيين، من ناقل عنه (ع) هذه، غير قائل به، أم قائل بالبنوة التشريفية للمسيح (ع) فالأمومة التشريفية لابن اللَّه بهذا المعنى، أم غير قائل بهما بل هو عامل معهما معاملة عبد مع الرب، التماسا منهما ما يلتمس من اللَّه و هو شرك خفيف، أم قائل بحقيقة البنوة له و الأمومة لأمه، أم قائل بتحول الإله من لاهوت الألوهية إلى ناسوت البشرية تمثلا بالمسيح، أماهيه من هرطقات كنسية جارفة هي دركات، و لكنها لا تحسب كلها بحساب الإشراك باللَّه المصطلح في القرآن و هو عبادة الصنم أو الطاغوت.

فمن الجائز أنه ذكر «إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ» بصوغ التشكك اعتبارا بجائز الغفر عند اللَّه عن بعض هذه الأخطاء.

ذلك، و من الغفر هنا أن يغفر لهم عن واقع فريتهم توفيقا لهم للاستغفار و الإنابة إلى اللَّه، قبل موتهم، إذ ليس في كلامه (ع) ما يدل على، أو يشير إلى: أنّ طلب الغفر لهم ينحو إلى ما بعد موتهم، حيث دعى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 316

ما دعى بعد توفّيه و قبل وفاته، لكل هؤلاء الذين كانوا معه و إلى يوم الدين، أن يغفر لهم إن استغفروا، أو يوفقهم لكي يستغفروا، فقد وقع دعاءه (ع) موقعه و هو أعلم بما وعى و دعى، و الجواب الصواب عما دعى هو ما:

قالَ اللَّهُ هذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (119) لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما فِيهِنَّ وَ هُوَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (120):

هنا «قالَ اللَّهُ هذا ..» ضابطة ثابتة تحلّق على كل الأقوال و الأحوال و الأعمال و هي: «يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ» و الصادقون هم الذين تصدّق أقوالهم أحوالهم و أعمالهم كما تصدق أحوالهم، أعمالهم و أقوالهم، صدقا في مثلثه، و هو النافع اليافع دون أي ضرر.

ذلك و الصدق في المقال لزامه صدق الحال و الفعال و كما يروى أن رجلا من أهل البدو استوصى النبي (ص) فوصاه أن لا يكذب ثم ذكر الرجل أن رعاية ما وصى به كفّه عن عامة المعاصي إذ ما من معصية عرضت إلّا ذكر أنه لو اقترفها ثم سئل عنها وجب عليه أن يعترف بها على نفسه و يخبر بها الناس فلم يقترفها مخافة ذلك.

و من نفع الصدق أن كبائر الواجبات فعلا و كبائر السيآت تركا تكفر السيآت كما في آيات، و أن مراحل خاصة من الصدق تؤهل للشفاعات.

فهؤلاء الناقلون عن المسيح ما نقلوا إن صدقوا في توبتهم عما أقروا و أوبتهم إلى اللَّه، فقد ينفعهم صدقهم يوم القيامة، كما و أن الشرك الخفي من بعضهم قد يكفّر بصالح الإيمان و الأعمال.

إذا فذلك من الأدب البارع للمسيح (ع) حيث جاء بهذه الشرطية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 317

تقديما ل «إن تعذبهم» حيث يستحقونه بما افتروا أم و اقترفوا من إشراك باللَّه، تعليلا ب «فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ» و للمولى أن يعذب عباده بما قصروا، و تأخيرا ل «وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ» فإنهم عبادك مهما قصروا «فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» فقضية العزة الحكيمة و الحكمة العزيزة أن هؤلاء بين معذبين و مغفور لهم.

ثم و بالنسبة للصادقين الخالصين، العائشين الصدق يوم الدنيا «لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ» يوم الدين، و فوق هذه الجنات جنة الرضوان حيث‏ «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ» و مجمع الجنتين و لا سيما الأخرى‏ «ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

ذلك، و من هؤلاء المرضيين الراضين السيد المسيح (ع) فانه من أصدق الصادقين و أصلح الصالحين.

و هنا «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ» تحكّم عرى الصلاحية الأكيدة لهؤلاء الصادقين أن‏ «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ» حيث وقفوا حياتهم لمرضات اللَّه، كما «وَ رَضُوا عَنْهُ» تسليما لمرضاته، و ذلك الرضوان المزدوج في هذا البين يتبلور أكثر في ذلك اليوم.

و المشيئة الطليقة الربانية بحق العباد تتبنّى ملكه للكون اجمع و قدرته عليه اجمع، «لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما فِيهِنَّ» و الملك الحقيقي يحوي الملك الحقيقي، و هما ليسا إلّا للَّه دون سواه‏ «وَ هُوَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 318

سورة الأنعام مكية و آياتها خمس و ستون و مائة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 319

[سورة الأنعام (6): الآيات 1 الى 12]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ الظُّلُماتِ وَ النُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (1) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضى‏ أَجَلاً وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (2) وَ هُوَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَ فِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَ جَهْرَكُمْ وَ يَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ (3) وَ ما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (4)

فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (5) أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَ أَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً وَ جَعَلْنَا الْأَنْهارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (6) وَ لَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (7) وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَ لَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ (8) وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلاً وَ لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ (9)

وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (10) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (11) قُلْ لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلى‏ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (12)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 320

سورة الأنعام- مكية- و آياتها مائة و خمسة و ستون «سورة الأنعام» هي المكية الثانية في ترتيب التأليف القرآني، و أولاها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 321

الفاتحة، و هي فاتحة الكتاب تأليفا و تنزيلا.

و ملامح آيات الأنعام في سياقها المتصل الأليف تدلنا على وحدتها تأليفا و تنزيلا، و كما تظافرت الرواية

عن النبي (ص) و أئمة هل بيته عليهم السلام‏ أنها نزلت جملة واحدة في مكة «1»

و شذر من آياتها بين واحدة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 2- أخرج الطبراني ابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول اللَّه (ص): نزلت عليّ سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون الف ملك لهم زجل بالتسبيح و التحميد» و فيه عن أنس عنه (ص) مثله بزيادة- يسد الخافقين-

و

فيه عن جابر قال‏ لما نزلت سورة الأنعام سبح رسول اللَّه (ص) ثم قال: «لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سد الأفق» و مثله عن أبي بن كعب عنه في‏ «جُمْلَةً واحِدَةً».

و

فيه اخرج البيهقي في الشعب و الخطيب في تاريخه عن علي بن أبي طالب قال: «أنزل القرآن خمسا خمسا و من حفظ خمسا خمسا لم ينسه إلا سورة الأنعام فانها نزلت جملة في ألف يشيعها من كل سماء سبعون ملكا حتى أدوها إلى النبي (ص) ما قرئت على عليل إلا شفاه الله».

و

في نور الثقلين 1: 696 عن أصول الكافي بإسناده إلى الحسن بن علي بن أبي حمزة رفعه قال: قال ابو عبد اللَّه (ص) إن سورة الأنعام نزلت جملة- و ذكر كما في ثواب الأعمال سواء إلّا في آخره: «و لو يعلم الناس ما في قراءتها ما تركوها».

و

في تفسير الفخر الرازي 12: 141 عن أنس قال: قال رسول اللَّه (ص): «ما نزل علي سورة من القرآن جملة غير سورة الأنعام و ما اجتمعت الشياطين لسورة من القرآن جمعها لها و قد بعث بها إلي مع جبريل مع خمسين ملكا أو خمسين الف ملك يزفونها و يحفونها حتى اقروها في صدري كما أقر الماء في الحوض و لقد أعزني الله و إياكم بها عزا لا يذلنا أبدا، فيها دحض حجج المشركين و وعد من الله لا يخلفه»

أقول في انحصار النزول جملة واحدة في الأنعام تأملات فإن السور الصغار و البعض من الكبار نزلت جملة واحدة.

و

فيه عن تفسير القمي حدثني أبي عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا (ع) قال: «نزلت الأنعام جملة شيعها سبعون الف ملك لهم زجل بالتسبيح و التهليل و التكبير فمن قرأها سبحوا له إلى يوم القيامة».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 322

و تسع‏ «1» التي قيل إنها مدنية، إنها كسائرها قد تكون مكّية حيث السياق لا يصدّق مدنيتها و لم يرد في ذلك نص يعتمد عليه.

و هي نموذجة كاملة عن القرآن المكي- ككلّ- عرضا فصيحا فسيحا لهامة الربوبية الوحيدة، و سائر المواضيع العقيدية التي تعالجها من مبدءها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في تفسير الفخر الرازي 12: 141 عن ابن عباس أنها مكية نزلت جملة واحدة فامتلأ منها الوادي و شيعها سبعون الف ملك و نزلت الملائكة ما بين الأخشبين فدعا الرسول (ص) الكتاب و كتبوها من ليلتهم إلّا ست آيات فانها مدنيات‏ «قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ» إلى آخر الآيات الثلاث و قوله‏ «وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» الآية و قوله‏ «وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى‏ عَلَى اللَّهِ كَذِباً».

و قيل المدنية فيها فقط «قُلْ تَعالَوْا ..» و التي بعدها، و قيل هما آيتان غيرهما نزلتا بالمدينة في رجل من اليهود و هو الذي قال‏ «ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى‏ بَشَرٍ مِنْ شَيْ‏ءٍ».

و قيل إنها مكية إلّا آية واحدة و هي‏ «وَ لَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ».

و قيل مدنيتها الآيات 20 و 23 و 91 و 93 و 114 و 141 و 151 و 152 و 153 كما في تفسير البرهان 1: 514.

و قد تلمح الآية (91) أنها مدنية حيث تذكر أهل الكتاب: «وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى‏ بَشَرٍ مِنْ شَيْ‏ءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى‏ نُوراً وَ هُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها وَ تُخْفُونَ كَثِيراً وَ عُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لا آباؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ» و لكنه قد يكفي وجود البعض من اليهود فى العهد المكي مهما كانوا من السّفر المترددين للتجارة، حيث القرآن المكي سيحلق في دعوته كسائر القرآن على كافة المكلفين قلوا أو كثروا قاطنين في مكة أو مسافرين.

و هكذا يكون دور الآية (114): «أَ فَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتابَ مُفَصَّلًا وَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ» و هذه طبيعة حالة الخلط حينذاك بين المشركين و الكتابيين في التسافر التجاري و غيره بين مكة و المدينة و غيرها.

ذلك ثم لا نجد في غيرهما من التسع أما هي اقل ما تلمح بمدنيتها!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 323

إلى منتهاها، بكل مقوماتها، مبرهنة عليها بالآيات الآفاقية مع الأنفسية، محلّقة على الحشد الكوني الذي يزحم أقطار النفس و الحس، و يلمس كل الأبعاد العقلية و الحسية.

ذلك! مع بارع التناسق لمنهج العرض في شتى المشاهد و المعارض، آخذة على الأنفس أقطارها بالروعة الباهرة، باطنة و ظاهرة، و بالحيوية الدافقة و الإيقاع تصويريا و تعبيريا، مواجهة النفوس من كل دروبها و نوافذها و حتى في موسيقاها.

و من ميّزاتها بين سائر القرآن مكيا و مدنيا تكاثر الحجاج فيها على ناكري الحق المبين.

و كما نزلت- على حد المروي عن الرسول (ص)- معها موكب من الملائكة سدّا ما بين الخافقين، نرى ذلك الموكب الملائكي لائحة الأعلام في قطاعات السورة، موكب ترتجّ له النفس و يرتج معها الكون، و هي كالنهر الجاري المتدافق بالأمواج المتلاحقة، ما تكاد تصل موجة منها إلى قرارها حتى تبدو الموجة التالية.

و الموضوع الرئيسي الذي تعالجه السورة متصل متواصل لا يمكن تجزءة السورة إلى مقاطع كلّ يعالج جانبا، إنّما هي موجات متفقات مع بعضها البعض، مما يبرهن نزولها جملة واحدة، فهي موحدة التأليف و التنزيل.

و لماذا سميت سورة الأنعام؟.

1- أ لأنها تحمل «الأنعام» ستا لم تحملها سواها لأكثر تقدير إلّا ثلاثا «1»؟

2- أم و لأن هؤلاء المشركين الأنعام‏ «بَلْ هُمْ أَضَلُّ» «جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعامِ نَصِيباً» (136) و كأنه بحاجة إلى أكل منها كما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كسورة النحل في آياتها الثلاث 5- 66- 80، و الأنعام ل (32) مرة في القرآن كله‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 324

يقتسمون! تنزيلا لساحة الربوبية إلى نازل الخلق المحتاجين بل و أحوج حيث حوّجوه إلى أنفسهم، ثم جعلوا ما للَّه لشركائهم؟.

3- أم و لأنهم شاقوا اللَّه في التشريع تحريما من الأنعام و تحليلا: «وَ قالُوا هذِهِ أَنْعامٌ وَ حَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُها إِلَّا مَنْ نَشاءُ بِزَعْمِهِمْ وَ أَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها وَ أَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِراءً عَلَيْهِ» (138)- «وَ قالُوا ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَ مُحَرَّمٌ عَلى‏ أَزْواجِنا وَ إِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ» (139)؟ و هذه شيمة الأنعام التي لا تعقل و هم أضل منها سبيلا، «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَ النَّارُ مَثْوىً لَهُمْ» (47: 12). ذلك! ثم لا نجد في سائر سور القرآن- المذكورة فيها الأنعام- أمثال هذه التنديدات و الحجاجات على هؤلاء الأناسي الأنعام إلّا قليلا، مما يفضل- ككل- تسمية سورة الأنعام باسمها.

4- ثم الملاحظ فيها أنها تحمل آية يتيمة منقطعة النظير بحق الدواب ككل- الشاملة للأنعام بصورة أخرى هي أحرى، حيث تجعلها من المحشورين يوم الدين كسائر المكلفين و هي: «وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْ‏ءٍ ثُمَّ إِلى‏ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ» (38).

و ذلك المربع بكل زواياه و حواياه يرجح اسم الأنعام لهذه السورة كأحرى ما تسمّى به سورة في القرآن و كلّه أحرى مهما اختلفت الدرجات.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ الظُّلُماتِ وَ النُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (1):

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

نجدها (6) مرات فقط في الأنعام و (26) مرة في (23) سورة اخرى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 325

نرى خمسا من السور تفتتح ب «الْحَمْدُ لِلَّهِ»: الفاتحة و هذه الأنعام و الكهف: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلى‏ عَبْدِهِ الْكِتابَ وَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً» و سبأ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ» و الفاطر: «الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنى‏ وَ ثُلاثَ وَ رُباعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ».

فالحمد في أم الكتاب هو أم الحمد في الكتاب لمكان‏ «رَبِّ الْعالَمِينَ» المحلّقة على ربوبية اللَّه في الخلق و التدبير لكل كائن، و ربوبية التشريع الأخير الشامل لكل شرعة ربانية.

و الحمد في الكهف ناح منحى التشريع، و في سبأ يختص ملكه و ملكه السماوات و الأرض و «في الآخرة» جزاء وفاقا عدلا و فضلا في حقلي الثواب و العقاب، و في الفاطر فطرا للسماوات و الأرض و جعلا للرسل الملائكية حملة للتشريع و عمّالا للتكوين.

ذلك، و هنا في الأنعام حمدا لخالقيته ككل إبداعا و ربوبية و جعلا للظلمات و النور، و هي مثلثة الجهات فإن فيها

«ردّ على ثلاثة أصناف منهم، فلما قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ» كان ردا على الدهرية الذين قالوا: إن الأشياء لا بدء لها و هي دائمة، ثم قال:

«وَ جَعَلَ الظُّلُماتِ وَ النُّورَ» فكان ردا على الثنوية الذين قالوا: إن النور و الظلمة هما المدبران، ثم قال: «ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ» فكان ردا على مشركي العرب- و سواهم- الذين قالوا: «إن أوثاننا آلهة ...» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 697 في كتاب الاحتجاج للطبرسي قال أبو محمد الحسن العسكري‏ ذكر عند الصادق (ع) الجدال في الدين و ان رسول اللَّه (ص) و الأئمة المعصومين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 326

و هنا «بربهم» تنديد شديد في «يعدلون» حيث المعترف بالربوبية الكبرى الإلهية كيف يسمح لنفسه أن يعدل به من المربوبين الذين لا يربون أنفسهم فضلا عمن سواهم.

و «يعدلون» من «العدل» لا «العدل» إذ العدل لا يتعدى بالباء فإنما عدل فيهم- بينهم- عليهم- و «بربهم» دليل آخر بعد دليل التنديد أنه جعل عدل و ندّ، فهم يعدلون بربهم من المربوبين.

فالعدل قد يكون عدلا و هو بين المتساويين في الكمال، و هو من أعدل العدل، و قد يكون ظلما و هو بين المختلفين في الكمال و لا سيما بين الرب و المربوب و هو من اظلم الظلم.

ثم العدل الظلم هو في كل دركاته ظلم، عدلا بذات للَّه أم بصفاته أم بأفعاله، عدلا في ألوهيته أو في ربوبيته، عدلا في معبوديته و حرمته أم أيّ عدل به من خلقه.

فذلك محظور في كافة حقوله حتى في عبارة اللفظ فضلا عن اعتقاد الجنان و عمل الأركان.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

عليهم السلام قد نهوا عنه فقال الصادق (ع): لم ينه عنه مطلقا و لكنه نهي عن الجدال بغير التي هي أحسن أما تسمعون قول اللَّه تعالى: «وَ لا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» و قوله تعالى: «ادْعُ إِلى‏ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»- إلى أن قال-: «قال الصادق (ع) و لقد حدثني أبي الباقر عن جدي علي بن الحسين زين العابدين عن أبيه الحسين بن علي سيد الشهداء عن علي بن أبي طالب صلوات اللَّه عليهم أنه اجتمع يوما عند رسول اللَّه (ص) أهل خمسة أديان اليهود و النصارى و الدهرية و الثنوية و مشركو العرب- إلى أن قال بعد سرد الحجج كلها و قد تأتي في المتن قطاعات منها- قالوا: ما رأينا مثل حجتك يا محمد نشهد أنك رسول اللَّه و قال الصادق (ع) قال امير المؤمنين (ع) فأنزل اللَّه تعالى‏ «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ..» و كان في هذه الآية رد على ثلاثة اصناف ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 327

و «الَّذِينَ كَفَرُوا» هم كل الكافرين حيث العادلون باللَّه هنا هم كل العادلين، من كافر باللَّه نكرانا لوجوده حيث يعدل به المادة كأنها هي الأزلية الخالقة، أو مشرك باللَّه عدلا في الربوبية أو المعبودية، سواء عبد مع غير اللَّه اللَّه، أم لم يعبد معه اللَّه، أو مراء أم معتقد تأثيرا لغير اللَّه مع اللَّه.

فالعدل باللَّه يعم الإلحاد و الإشراك و سواهما، مهما لم يكن الملحد معترفا بوجود اللَّه، حيث يؤلّه المادة كأنها اللَّه، أو لم يكن المشرك يعبد مع وثنه اللَّه، حيث يعبده كما يعبد اللَّه.

إذا فعدل الرب بما سواه أم عدل ما سواه به في أي من شؤون الألوهية و الربوبية، خارج عن العدل في القياس، بل لا قياس باللَّه لما سواه فإنه «باين عن خلقه و خلقه باين عنه» ليس يشاركهم في شي‏ء حتى يعدل به أو يفضّل عليه.

هذه ثلاث في أولى الآيات، و كما في هذه الآيات الثلاث نجد موجات ثلاث، أولاها في أولاها حيث تذرع الوجود الكوني كله في نفسها، الثانية الوجود الإنساني كله، و الثالثة فيها إحاطة الألوهية بالوجودين كليهما.

آيتنا هذه تبدء ببرهان لطيف حفيف على حدوث الكون كله، المعبر عنه ب «السماوات و الأرض»: «الحمد لله خالق السماوات و الأرض ...».

فإن «السماوات و الأرض» تدلان بحدوثهما- ذاتيا و صفاتيا و أفعاليا- على أن هناك محدثا لا يجانسهما، فهو الذي أحدثهما، و لا مشاحة في تسميته، فنحن نقول عنه: «اللَّه» و ليس المادة لأنها أصلهما الوالد لهما، و ليست الخالقة إياهما.

ذلك و إلى قول فصل عما لمحت له الآية، من حجاج الرسول (ص)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 328

على المشركين: «و أنتم فما الذي دعاكم إلى القول بأن الأشياء لا بدء لها و هي دائمة لم تزل و لا تزال؟ لأنا لا نحكم إلا بما نشاهد و لم نجد للأشياء حدثا فحكمنا بأنها لم تزل و لم نجد لها انقضاء و فناء فحكمنا بأنها لا تزال.

فوجدتم لها قدماء أم وجدتم لها بقاء أبد الأبد؟ فإن قلتم إنكم وجدتم ذلك أنهضتم لأنفسكم أنكم لم تزالوا على هيئتكم و عقولكم بلا نهاية و لا تزالون كذلك، و لئن قلتم هذا دفعتم العيان و كذبكم العالمون الذين يشاهدونكم؟.

بل لم نشاهد لها قدما و لا بقاء ابد الأبد.

فلم صرتم بأن تحكموا بالقدم و البقاء دائما لأنكم لم تشاهدوا حدوثها و انقضاءها أولى من تارك التمييز لها مثلكم فيحكم لها بالحدوث و الانقضاء و الانقطاع لأنه لم يشاهد لها قدما و لا بقاء أبد الأبد»؟.

- إلى هنا نجده شكّكهم في قولة الأزلية للعالم، ثم نراه يثبت حدوثه كالتالي: «أ و لستم تشاهدون الليل و النهار و أن أحدهما بعد الآخر؟»- نعم- أ ترونهما لم يزالا و لا يزالان؟- نعم- أ فيجوز عندكم اجتماع الليل و النهار؟- لا- فإذا ينقطع أحدهما عن الآخر فيسبق أحدهما و يكون الثاني جاريا بعده؟- كذلك هو- فقد حكمتم بحدوث ما تقدم من ليل و نهار و لم تشاهدوهما فلا تنكروا للَّه قدرة- أ تقولون ما قبلكم من الليل و النهار متناه أو غير متناه؟ فان قلتم متناه فقد وصل إليكم آخر بلا نهاية لأوّله، و إن قلتم إنه متناه فقد كان و لا شي‏ء منهما؟- نعم-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 329

أقلتم إن العالم قديم غير محدث و أنتم عارفون بمعنى ما أقررتم به و معنى ما جحدتموه؟- نعم- فهذا الذي تشاهدونه من الأشياء بعضها إلى بعض مفتقر لأنه لا قوام لبعض إلّا بما يتصل به، ألا ترى البناء محتاجا بعض اجزاءه إلى بعض و إلّا لم يبق و لم يستحكم، و كذلك ساير ما ترى، فإذا كان هذا المحتاج بعضه إلى بعض لقوته و تمامه هو القديم فأخبروني أن لو كان محدثا كيف كان يكون و ماذا تكون صفته؟.

فبهتوا و علموا أنهم لا يجدون للحدث صفة يصفونه بها إلّا و هي موجودة في هذا الذي زعموا أنه قديم فوجموا و قالوا: «سننظر في أمرنا» «1».

«وَ جَعَلَ الظُّلُماتِ وَ النُّورَ».

و ذلك التعبير عن «الظلمات و النور هو منقطع النظير في القرآن كله، و لماذا بالنسبة لها «و جعل» دون «خالق- أو- خلق» حيث اختص بالسماوات و الأرض؟.

علّه لأن‏ «الظُّلُماتِ وَ النُّورَ» ماديا و روحيا، هما لواحق الخلق و لزاماته في عالم الاختبار و الإختيار.

و جمعية الظلمات هنا و في سائر آياتها الثلاثة و العشرين، و جاه وحدة النور، هي للتدليل على أن صراط اللَّه واحد غير مختلف، كما هو غير متخلف، و لكن السبل الأخرى متشتتة متشعبة.

ثم «الظلمات» كما «النور»- محسوسة و معقولة- إنها ليست إلّا من جعل اللَّه دون سواه، حتى تتبنى الظلمات إلها آخر أم مخلوقة لإله الشر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الاحتجاج للطبري عنه (ص).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 330

كما يقوله الثنوية، فإنما اللَّه هو الذي جعل الظلمات كما جعل النور، كلّا لمصلحة ابتلائية تربوية في عالم الاختيار و الاختبار، دون تسيير لا إلى النور و لا إلى الظلمات، فإنما «فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ».

ذلك! «ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ»:

«الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ» الخالق للسماوات و الأرض الذي جعل الظلمات و النور، «يعدلون» به غيره، عدلا للظلمات بالنور و هم يعرفونها! كما «الذين كفروا»- «بربهم» ذلك الخالق الجاعل «يعدلون» عدلا به من خلقه و هم ظلمات بالنسبة لخالق النور و الظلمات.

فذلك العدل الانحراف الانجراف تطارده وحدة الخالقية و الخالقية الوحيدة غير الوهيدة، تسوية باللَّه سواه و هي ضلال مبين: «تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ. إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ» (26: 98).

«أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ» (27: 60)- «وَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ» (6: 150) كذب العادلون باللَّه و ضلوا ضلالا بعيدا «1».

ذلكم اللَّه‏ «خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ الظُّلُماتِ وَ النُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ» باللَّه سواه عدلا بين الظلمات و النور و بين الجور و العدل» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 701 في تهذيب الأحكام في الموثق عن أبي عبد اللَّه قال: «و إذا قرأتم‏ «الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ» ان يقول: كذب العادلون باللَّه، قلت لهم فان لم يقل الرجل شيئا من هذا إذا قرأ؟ قال: ليس عليه شي‏ء ...».

(2)

المصدر عن أبي ابراهيم (ع) قال: «لكل صلاة وقتان و وقت يوم الجمعة زوال الشمس ثم تلا هذه الآية قال: «يعدلون بين الظلمات و النور و بين الجور و العدل» و فيه «كذب العادلون باللَّه إذ شبهوه بمثل أصنامهم و حلوه حلية المخلوقين بأوهامهم،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 331

«فمن ساوى ربنا بشي‏ء فقد عدل به و العادل به كافر بما تنزلت به محكمات آياته، و نطقت به شواهد حجج بيناته، لأنه الله الذي لم يتناه في العقول فيكون في نهب كيفها مكيفا، و في حواصل روايات همم النفوس محدودا معرفا، المنشئ أصناف الأشياء بلا روية احتاج إليها، و لا قريحة غريزة أضمرها، و لا تجربة أفادها من موجودات الدهور، و لا شريك أعانه على ابتداع عجائب الأمور» «1».

و ترى ما هو دور «ثم» و هي للتراخي؟ علّه أنهم بعد التصديق و الاعتراف بخالق السماوات و الأرض و جاعل الظلمات و النور، بعد هذه الطائلة التي تصدقها الفطرة و العقلية الإنسانية و تصدقها الكائنات بأسرها، هم أولاء بعد كل ذلك‏ «بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ» المربوبين ... و هذه هي اللمسة الأولى من الحجاج لتوحيد المبدء ثم:

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضى‏ أَجَلًا وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (2):

هنا دور لخصوص الإنسان بعد عموم الخلق للخلق كله، لمسة ثانية تندد بالممترين بحق الحق و اليوم الحق.

ذلك الإنسان الذي هو نموذج عن الكون كله، و كما

يروى عن علي (ع): «أ تزعم انك جرم صغير و فيك انطوى العالم الأكبر و أنت الكتاب المبين الذي بأحرفه يظهر المضمر».

فالذي‏ «جَعَلَ الظُّلُماتِ وَ النُّورَ» بعد ما خلق السماوات و الأرض‏ «خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ» نقلة عجيبة من عتمة الطين المظلم عن الحياة إلى نور

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

«و جزوه بتقدير منتج خواطرهم، و قدروه على الخلق المختلفة القوى بقرايح عقولهم».

(1). المصدر عن كتاب التوحيد خطبة لعلي (ع) يقول فيها: ....

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 332

الحياة البهيجة الوليجة في ذلك الطين الميت.

و لقد كان بالجدير أن تنقل تلك النقلة الهائلة العاقلة يقينا صالحا إلى قلوب المنقولين، بعد طائل خلقهم من طين كما خلق السماوات و الأرضين، و لكن‏ «ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ».

انه «قضى أجلا» حياة عاجلة لدار الإختيار و الاختبار، «وَ أَجَلٌ مُسَمًّى» لعودة الحياة بعد الممات «عنده» لا سواه‏ «لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ» «ثم أنتم» المأجلون «تمترون» في الحياة الأخرى و هي أحرى و أنتم تعلمون أنه‏ «خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ».

ترى‏ «أَجَلٌ مُسَمًّى» تعني- فقط- الأجل المحتوم شخصيا و جمعيا و جاه الأجل المعلق كذلك؟.

إنه بطليق العبارة قد يعنيهما، حيث الأجل المسمّى هو المقطوع، و كل الآجال عند اللَّه مقطوعة.

و مما يشهد للأول: «وَ هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضى‏ أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (6: 60) حيث تعني الأجلين قبل القيامة، معلقا و محتوما.

و «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى‏ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ الْأُخْرى‏ إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى ..» (39: 42)

و كثيرة أمثالها.

و مما يدل على الثاني: «وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى» (13: 2) و «أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ» (30: 8) و كثيرة أمثالها.

ذلك، طالما الأجل المسمى بالنسبة للكون كله يخص الثاني، و هو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 333

بالنسبة للإنسان يعم الآجال الثلاثة، الأجل الفردي المحتوم لكل احد، ثم الجماعي‏ «وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ» (7: 34) و من ثم الأجل الأخير و هو القيامة.

ذلك، و قد تعني‏ «ثُمَّ قَضى‏ أَجَلًا» مثلث الأجل، دنيا و برزخا و عقبى، ثم‏ «وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ» تختص بالآجال المحتومة، حيث تعني ثابت العندية التي لا حول عنها، و لكن الأجل المعلق- و إن كان عنده- لكنه قد يحوّل عنه، أم تعني‏ «أَجَلٌ مُسَمًّى» بتنوين العظيم اجل القيامة الكبرى لأنه عظيم بين الآجال، أم و مجاراة مع الذين يخيل إليهم أن الآجال الدنيوية هي عندهم‏ «1».

و ترى‏ «ثُمَّ قَضى‏ أَجَلًا» الشامل على الأبدال كل الآجال هلّا تشمل الأجل الأوّل و هو بقية بقاء الجنين في الرحم؟ «ثم» المراخية هنا قد تعني الآجال منذ الولادة، لا سيما و ان الأجل قبلها ليس مصبّ أمر تربوي.

فترى‏ «خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ» هيكلا إنسانيا حيا لأوّل مرة هو أهون، أم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 703 في تفسير العياشي عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد اللَّه (ع) في قوله: «ثُمَّ قَضى‏ أَجَلًا وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ» قال: الأجل الذي غير مسمى موقوف يقدم منه ما شاء و يؤخر ما شاء و أما الأجل المسمى فهو الذي ينزل مما يريد أن يكون من ليلة القدر إلى مثلها من قابل فذلك قول اللَّه: «فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ».

و

فيه عن حمران عن أبي عبد اللَّه (ع) قال‏ سألته عن قول اللَّه: «ثُمَّ قَضى‏ أَجَلًا وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ» قال: المسمى ما سمي لملك الموت في تلك الليلة و هو الذي قال اللَّه: «إِذا جاءَ ...» و هو الذي سمي لملك الموت في ليلة القدر و الآخر له فيه المشية «إن شاء قدمه و إن شاء أخره».

و

فيه عن حصين عن أبي عبد اللَّه (ع) في الآية قال: «الأجل الأول هو ما نبذه الى الملائكة و الرسل و الأنبياء و الأجل المسمى عنده هو الذي ستره الله عن الخلائق».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 334

الإعادة: «وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» (30: 27) مهما لم يكن عند اللَّه في خلقه هيّن و أهون، «إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ».

و هنا «خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ» هي من عساكر البراهين القرآنية على أن خلق الإنسان الأول ليس إلّا بقفزة طينية، دون انتسال من حيوان آخر إنسانا أو غير إنسان، و من غريب الوفق العددي بين النطفة و الطين ان كلا منهما يذكر (12) مرة!.

و لو أن الإنسان كان خليق التكامل لكان صحيح التعبير عن خلقه عبارة آخر الحلقات، و لا إشارة لخلقة غير طينية للإنسان في القرآن كله.

و لأن «كم» تعم الأرواح إلى الأجساد، بل الأرواح أحرى في الكيان الإنساني من الأجساد، فقد تعني‏ «خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ» خلق الأرواح من الطين كما الأجساد، و كما تدل عليه أمثال: «ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ» (23: 14) و سائر الآيات المصرحة بخلق الإنسان- بجزئية- من تراب- طين- ماء- نطفة أماهيه من مادة.

و «قلوبهم» و جاه «أبدانهم» في الأثر، قد تعني أرواحهم، و ذلك من تجاوب الكتاب و السنة في جسمانية الأرواح كما الأجساد مهما اختلف جسم عن جسم‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 702 في اصول الكافي علي بن ابراهيم عن أبيه عن حماد بن عيسى عن ربعي بن عبد اللَّه عن رجل عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: «إن الله عز و جل خلق النبيين من طينة عليين قلوبهم و أبدانهم و خلق قلوب المؤمنين من تلك الطينة و جعل خلق أبدان المؤمنين من دون ذلك و خلق الكفار من طينة سجين قلوبهم و أبدانهم فخلط بين الطينتين فمن هذا يلد المؤمن الكافر و يلد الكافر المؤمن و من هاهنا يصيب المؤمن السيئة و من ها هنا يصيب الكافر الحسنة فقلوب المؤمنين تحن إلى ما خلقوا منه و قلوب الكفار تحن إلى ما خلقوا منه».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 335

ذلك، و إلى لمسة ثالثة هي الحيطة الربانية على الكون كله:

وَ هُوَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَ فِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَ جَهْرَكُمْ وَ يَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ (3):

و لا تعني «في» هنا ظرفية هذا الكون لذات اللَّه سبحانه، إنّما هو ظرف لألوهيته و ربوبيته للكون كله. «هُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَ فِي الْأَرْضِ إِلهٌ» (43: 84) ردا على مزعمة أن ألوهيته خاصة بالسماوات و للأرض رب مخوّل من عنده أمن هو؟.

و أما «أَ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذا هِيَ تَمُورُ» (67: 16) فهم عمال اللَّه من ملائكة السماء و ليس هو اللَّه كما فصلنا القول فيه عندها.

كلّا! بل إن ربوبيته تعالى تشمل السماوات و الأرض على سواء، و «يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَ جَهْرَكُمْ» على سواء، «وَ يَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ» في مثلث الزمان على سواء، و هو في مستقبله أخفى من «سركم» إذ لا تعلمون أنتم مستقبل مكاسبكم و نياتكم و طوياتكم: «وَ إِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفى‏» (20: 7).

و «ما تَكْسِبُونَ» هنا قد تعم مكاسب السر و الجهر في النشآت الثلاث، الى‏ «ما تَكْسِبُونَ» من نيات و طويات و أعمال في المستقبل بمكاسبها.

و قد تعني «سركم» هنا ما أسررتم و أنتم تعلمون، أمّا أسرّ عنكم و أنتم تجهلون، و هو الأخفى من السر.

ذلك، و خير تفسير لآيتنا هذه في آية الزخرف (84) و على ضوءهما ما

يروى من حوار بذلك الشأن عن الامام الصادق (ع) حيث يجيب بعد ما يسأل عنها: «كذلك هو في كل مكان» قال: بذاته؟ قال:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 336

ويحك إن الأماكن أقدار، فإذا قلت: في مكان بذاته، لزمك أن تقول:

في أقدار و غير ذلك، و لكن هو بائن من خلقه، محيط بما خلق علما و قدرة و إحاطة و سلطانا و ليس علمه بما في الأرض بأقل مما في السماء، و لا يبعد منه شي‏ء، و الأشياء له سواء علما و قدرة و سلطانا و ملكا و احاطة «1».

وَ ما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (4).

«آياتِ رَبِّهِمْ» هي الآيات الدالات على ربوبيته تكوينا و تشريعا، أم قد تعم الآيات الأنفسية الى الآفاقية، و إيتائها- إذا- بروزها مهما أخفوها أو اختفوا عنها، فقد تبرز الآيات الفطرية إذا انقطعت الأسباب و حارت دونه الألباب، فينقطعون اضطراريا إلى اللَّه ثم هم معرضون: «فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ» (29: 65).

و لا يعني إعراضهم عن آيات ربهم إلّا إعراضهم عن ربهم تعمية عليهم كونه و كيانه، و هم يعيشون آيات ربهم ليل نهار!.

ذلك، و المفروض على من يعرف ربه أو يحتمل كونه أن يفتش استنباطا عن آياته حتى تكتمل معرفته به على ضوءها، و حتى الذكري ينكره، عليه أن يبرهن على نكرانه فليفتش عما يدعي كونه من آياته، فإما سلبا كما خيّل إليه- و لن يكون- و إمّا إيجابا كما تهديه إليه فطرته و عقليته و الكون بأسره، حيث الكائنات ككل هي براهين ساطعة قاطعة على وجود اللَّه و توحيده.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 1: 517- ابن بابويه بسند متصل عن محمد بن النعمان قال‏ سألت أبا عبد اللَّه (ع) عن قول اللَّه عزّ و جلّ‏ «وَ هُوَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَ فِي الْأَرْضِ» قال: «هو كذلك في كل مكان ...».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 337

و المشتاق إلى ربه، المفتاق إلى هدايته و رحمته، ليس ليصبر حتى تأتيه آيات من ربه، بل و يفحص عنها فحصا باحثا ما حصا غير قالص و لا فالس، و لكي يزداد به إيمانا و فيه اطمئنانا.

فالناس و جاه آيات ربهم على ضروب شتى، فمنهم من يفتش عنها، و منهم المعرض عنها، و منهم عوان بينهما، فالأولون هم المتقون و الآخرون هم الطاغون، و العوان بينهما عوان بينهما.

و هذه موجة عريضة في مطلع السورة، تخاطب ضمير الإنسان بدليل آيات الرب الكامنة في الأنفس، و المكتملة في الآفاق.

و ليس ذلك خطابا لاهوتيا فلسفيا يختص بالمتفلسفين و اللّاهوتيين، إنما هو خطاب موجه إلى كل الفطر و العقول و الحواس و العلوم في كل الحقول على درجاتها.

و التذكير بآيات ربهم هو الموجه الغامرة الكون كله، بكل الآيات الربانية آفاقية و أنفسية، و ترى ما هو سبب إعراضهم عن آيات ربهم حين تأتيهم؟:

فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (5):

«الحق»- ككل- الآتي من قبل الحق، المزود بآيات ربوبيته، إنهم كذبوه إعراضا عنها كيلا يصدقوه، و مثلهم كمثل من قال عنهم نوح (ع):

«وَ إِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَ اسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً» (71: 7).

ذلك «فسوف» في مثلث النشآت‏ «يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» و من أنباءه هنا عذاب الاستئصال، و من ثم عذاب البرزخ و القيامة.

و لأن النبأ هو خبر ذو فائدة عظيمة، و هو يعم واقع النبإ إلى الإخبار

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 338

به، لذلك فقد تشمل الإنباء مثلث النشآت إخبارا و واقعا، مهما لم تفدهم أنفسهم إلّا هنا لو كانوا ينتبهون كما في قوم يونس، أم و لا أقل من إفادتها سائر الناس، و أما في البرزخ و القيامة فلا فائدة لهم منها إلّا بائدة.

أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَ أَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً وَ جَعَلْنَا الْأَنْهارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (6):

القرن- و هو الردف و الاقتران- و هم هنا القوم المقترنون في زمن واحد متصل، و لأن العمر المتعود للإنسان لا يعدو مائة سنة، لذلك سميت قرنا قضية اقترانهم في كل مائة مائة، انقراضا للسابق و افتتاحا للّاحق، فقد لا يختص القرن بذلك الزمن المحدد، حيث الأصل هو كل ردح زمني لأمة تعيشه، مائة أما زاد أو نقص.

«أَ لَمْ يَرَوْا» رؤية تأريخية جغرافية بما وصلتهم من أنباء من‏ «أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ» و قد «مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ»- «وَ لَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَ جَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَ أَبْصاراً وَ أَفْئِدَةً فَما أَغْنى‏ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لا أَبْصارُهُمْ وَ لا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» (46: 26).

«مكناهم» بسلطات زمنية و قدرات مالية و رحمات منها غزيرة، و لكنهم- بما كانوا يجحدون بآيات اللَّه و ما كانوا يستهزءون- «فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ» دون أن تغينهم عن بأسهم مكنتهم و لا عن بؤسهم مكانتهم‏ «وَ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ» مثل قرنهم، قرنا بهم بعدهم ليبلوهم فيما آتاهم، «كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَ رِءْياً» (19: 74) و «هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً» (50: 36) «هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ» (19: 98)؟ كلّا بل‏ «فَنادَوْا وَ لاتَ حِينَ مَناصٍ» (38: 3) و قد مضى يوم خلاص!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 339

فالذنوب هي التي تخلّف الهلاك، هنا نزيرا، و هناك بعد الموت غزيرا، و من رحمات اللَّه على المؤمنين أن قد يأخذهم بذنوبهم هنا كيلا يؤخذوا بها هناك و اين أخذ من أخذ؟.

و هنا «وَ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ» تعني جماعة بعدهم إذ أهلكوا بالطاغية.

وَ لَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (7):

هؤلاء المعرضون عن آيات ربهم لا يفرّقون بينها في تكذيبهم مهما تطلبوا كتابا في قرطاس ينزل من السماء ملموسا لهم بأيديهم حيث يتقولون قولتهم الفاتكة الهاتكة: «إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ» فما تفيدهم إذا آيات مقترحات كما سواها من آيات.

لقد اقترح مشركون و معهم كتابيون تنزيل كتاب من السماء، فكما لهؤلاء: «لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ» (17: 93) كذلك لأولاء «يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتاباً مِنَ السَّماءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسى‏ أَكْبَرَ مِنْ ذلِكَ فَقالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ...» (4: 153).

إذا فتجاوبهم في تحقيق آيات مقترحات- و لا سيما التي ليست هي في الحق بآيات- إنه تجاوب معهم في التكذيب و الاستهزاء بها و تهديرها و تهذيرها دون اهدائها أو تحذيرها.

و هنا «كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ» تبيّن أن هؤلاء الحسيين الناكرين لما وراء الحس بلغوا في عناد النكران لحد ينكرون المحسوس الملموس كما ينكرون غير المحسوس، لأن تصديق ذلك المحسوس ذريعة إلى تصديق لغير المحسوس.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 340

و ترى تنزيل كتاب في قرطاس مستحيل كما تدل عليه «لو»؟ و اللَّه على كل شي‏ء قدير! إنه مستحيل مصلحيا في أبعاد: «أن نازل كتاب الوحي من السماء لمحة إلى أن المنزل هو ساكن السماء و ليس به، و ان منزل الوحي هو قلب الرسول و ليس حسّه حتى ينزل عليه كتاب في قرطاس، ثم في تحقيق اقتراحهم هذا مسايرة معهم في باطل حيث هم بعد منكرون.

ذلك! و كما «لَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ. لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ» (15: 15).

ذلك انما هو من خلفيات نكرانهم البغيض الحضيض، فليس الذي يجعلهم يعرضون عن آيات ربهم أن البرهان على صدقها قاحل أو ضعيف، أو غامض لا يعرفه إلّا عباقرة، أو أنها تختلف فيها أرباب العقول، إنما هو المكابرة الغليظة البغيضة و العناد الصفيق السحيق.

ثم و من عاذرتهم كما يهوون أن لم يبعث اللَّه إليهم ملكا يحمل وحيه و هم شاهدوه:

وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَ لَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ (8):

«لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ» يصدقه و نراه يوحي إليه لنا، أ فلم يكن- إذا- برهانه أمتن و تصديق أمكن؟

و الجواب الحاسم أولا «لَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ» و ثانيا «وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا ..» فما هو الأمر المقضي؟

هل هو قضاء أمر الحياة فلا تكليف- إذا- فلا نتاج لنزول الملائكة؟

كما «لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 341

«أجلهم» (10: 11) و استحقاق قضاء الأجل بالشر ليس ليحيل نزول الملائكة، و قد يؤمنون لو أنزلت!.

«أم هو قضاء أمر الحياة استئصالا لهم إذ لا يؤمنون؟» «وَ لَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتى‏ وَ حَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْ‏ءٍ قُبُلًا ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ» (6: 111) «يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرى‏ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَ يَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً ... وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَ نُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلًا. الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ وَ كانَ يَوْماً عَلَى الْكافِرِينَ عَسِيراً» (25: 23) و لماذا يستأصلون حيث يجوز إيمانهم إن شاء اللَّه!. أم هو قضاء أمر التكليف لأن انقلاب الغيب إلى الشهادة يرفع الابتلاء و التمحيص، «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَ الْمَلائِكَةُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ» (3: 210) و كيف- إذا- يزول دور التكليف؟.

علّ الأمر المقضي هو مجموع الأمور، إذ لو آمنوا عند نزول الملائكة فلا ابتلاء بتكليف، و لو أنهم كانوا من اهل الايمان ببرهان لكفاهم برهان الرسالة الذي تقبله العقول، فان آمنوا قضي الأمر تكليفا و إن لم يؤمنوا قضي أمر حياتهم باستئصالهم كما هو سنة اللَّه فيما بلغت الحجة مبلغ النار على المنار و الشمس في رايعة النهار.

إذا فلا طائل لهم تحت نزول الملائكة إلّا زوال التكليف أم زوالهم، فهو مستحيل في الحكمة الربانية التي تربي العباد بما يصلحهم.

و المحاولة الرئيسية القرآنية هي إخراج الإنسان من دائرة المحسوس الضيقة إلى إدراك أن هناك غيبا في ذاته، ظاهرا بآياته، و الرسالة الملائكية تغلق ذلك المجال دون الإدراك الانساني، فهي- إذا- نكسة إلى الوراء و ارتجاع إلى الجاهلية المادية التي ليست لتصدق وراء

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 342

المادة، و هو بالمآل ينهي إلى نكران التجردية الإلهية.

و جواب ثان عن‏ «لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ»:

وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا وَ لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ (9):

فإضافة إلى أن نزول الملك عليهم أو على الرسل بحيث يرونهم ليس إلّا عند قضاء الأمر، و انه لا يناسب المرسل إليهم البشر «لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولًا» (17: 95).

فلو تخطينا أمثال هذه الموانع في نزول ملك رسول أو ملك مع الرسول يرونه، «لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا» حتى يروه و يسمعوه، فعادت المشكلة المزعومة لهم حيث يرونه رجلا و هو ملك فلا ينتفعون بكونه ملكا «وَ لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ» بملك في صورة رجل «ما يلبسون» على أنفسهم.

و هذه قاعدة مطردة عادلة ان اللَّه يلبس على الإنسان ما هو يلبسه. فلما لبس هؤلاء المكذبون لآيات ربهم طور الرسالة الربانية على أنفسهم، فقد يلبس اللَّه عليهم- لو حقق ما اقترحوه- ان يجعله رجلا، عودا لمشكلتهم كما كانت، كما و هي طبيعة الحال في رؤية الملائكة لمن ليست لهم عيون تقدر على رؤيتهم بصورهم الأصلية، ثم «رجلا» هنا- بأحرى من‏ «رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ» في سواها- دليل انحصار الرسالة في الرجال دون النساء، و فيه لمحة اختصاص القيادات روحية و زمنية، شاملة أماهيه في قبيل الرجال.

ذلك و

لقد نزلت هذه الآية لما احتج المشركون على الرسول (ص) فقال: «اللهم أنت السامع لكل صوت و العاصم بكل شي‏ء تعلم ما قاله عبادك ...» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 704 عن الإحتجاج للطبرسي عن أبي محمد الحسن العسكري‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 343

و هنا مسئلة تطرح نفسها حول هذه الحجة الفريدة في القرآن كله، هي: ليس إنزال الملائكة بصورتهم الملائكية مستحيلا إذ «يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ» تثبت آجل رؤيتهم لهم- و كما رأى النبي (ص) جبرئيل بصورته الأصلية- و لا بالصورة الإنسانية فإن رسلا كإبراهيم و لوطا رأو الملائكة بصورة الإنسان.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

عليهما السلام أنه قال: قلت لأبي علي بن محمد عليهما السلام هل كان رسول اللَّه (ص) يناظر اليهود و المشركين إذا عاتبوه و يحاجهم إذا حاجوه؟ قال: بلى مرارا كثيرة إن رسول اللَّه (ص) كان قاعدا ذات يوم بفناء الكعبة- إذ اجتمع جماعة من رؤساء قريش- إذ ابتدأ عبد اللَّه بن أبي أمية المخزومي فقال يا محمد! لقد ادعيت دعوى عظيمة و قلت مقالا هائلا، زعمت أنك رسول رب العالمين و ما ينبغي لرب العالمين و خالق الخلق أجمعين أن يكون مثلك رسوله بشرا مثلنا و لو كنت نبيا لكان معك ملك يصدقك و نشاهده بل لو أراد اللَّه ان يبعث إلينا نبيا لكان إنما يبعث إلينا ملكا لا بشرا مثلنا، ما أنت يا محمد إلّا رجلا مسحورا و لست بنبي فقال رسول اللَّه (ص): «اللهم ... فأنزل اللَّه عليه يا محمد «و قالوا ...» ثم قال رسول اللَّه (ص): و أما قولك لي: و لو كنت نبيا لكان معك ملك يصدقك و نشاهده، بل لو أراد أن يبعث إلينا نبينا لكان إنما يبعث إلينا ملكا لا بشرا مثلنا، فالملك لا تشاهده حواسكم لأنه من جنس هذا الهواء لا عيان منه و لو شاهدتموه بأن يزاد في قوى ابصاركم لقلتم ليس هذا ملكا بل هذا بشر لأنه إنما كان يظهر لكم بصورة البشر الذي ألفتموه لتعرفوا عنه مقالته و تعرفوا خطابه و مراده فكيف كنتم تعلمون صدق الملك و أن ما يقوله حق، بل إنما يبعث اللَّه بشرا و أظهر على يده المعجزات التي ليست في طبايع البشر الذين قد علمتم ضمائر قلوبهم فتعلمون بعجزكم عما جاء به أنه معجزة و ان ذلك شهادة من اللَّه بالصدق له، و لو ظهر لكم ملك و ظهر على يده ما يعجز عنه البشر لم تكن في ذلك ما يدلكم أن ذلك ليس في طبايع ساير أجناسه من الملائكة حتى يصير ذلك معجزا له، ألا ترون ان الطيور التي تطير ليس ذلك منها بمعجز لأن لها أجناسا يقع منها مثل طيرانها، و لو أنّ آدميا طار كطيرانها كان ذلك معجزا فاللَّه عزّ و جلّ سهل عليكم الأمر و جعله بحيث يقوم عليكم حجته و أنتم تقترحون على الصعب الذي لا حجة فيه ...».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 344

و الجواب ان «لو» هنا لا تحيل إنزال الملائكة استحالة ذاتية خارجة عن القدرة، إنما هي استحالة مصلحية و هي قضاء الأمر لو أنزلت بالصورة الأصلية، و اشتباه الأمر كما كان لو أنزلت بصورة رجل: «لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ».

ثم إن ضرورة المجانسة بين الرسول و المرسل إليهم إتماما للحجة و إنارة للمحجة و إخراجا عن أية لجة، إنها تفرض إرسال رسول بشر إلى بشر و رسول غير بشر إلى غير بشر: «قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولًا» (17: 95) «يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا ..» (6: 130).

ثم الآيات الرسالية الظاهرة على أيدي الملائكة ليست لتثبت رسالاتهم كما تثبت الآيات على أيدي البشر، فان احتمال طاقة خاصة تبرز هذه الآيات وارد في الملائكة للبشر و لا سيما للناكرين للآيات الرسولية و الرسالية.

فمهما كانت الرسالة الملائكية إلى البشر أقوى من حيث اللقاء، و لكنها أغوى من حيث عدم المجانسة و سقوط الحجة الكاملة، و حجتهم الأقوى تجبر بآيات الرسل البشر فلا يبقى إلّا الأغوى إضافة إلى سقوط دور التكليف أم ضعفه، ففي رسالة البشر تضاعف البرهان بتناسق انسان مع انسان‏ «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»!.

فالمتطلبون الرسالة الملائكية هم في الحق لا يطلبون حجة أقوى، بل هي أهوى و أغوى، فمن المستحيل- إذا- إرسال الرسل الملائكية لقبيل الإنسان و أضرابه لأمور تالية:

1- الملائكة لا ترى بالصورة الملائكية إلّا عند الموت و في البرزخ و القيامة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 345

حيث تفتح العيون البرزخية و ما فوقها، و عند الموت يسقط دور التكليف.

2- لو رأوا الملائكة و لم يؤمنوا قضي عليهم حيث تستأصلهم الحجة البارعة، لمكان إعلان الغيب، و لو آمنوا لم يكن في إيمانهم ابتلاء و الإيمان عقيديا و عمليا ابتلاء في دار الاختيار الاختبار البلاء.

3- لو رأوا الملائكة و أرادوا أن يؤمنوا بابتلاء لم تكمل بهذه الرسالة حجة و لم تتبين محجة فان لهم شبهة في آيات الرسالة، و عدم معرفة بهذا الرسول الذي ما عاشوه، ثم لا يحتّمون على أنفسهم إتباع الرسول الذي هو ذو بعدين من الدعوة: وحيا و عملا به، فإن مسئوليات الملائكة- حسب نوعية كيانهم- غير ما هي على الإنسان، و أنهم لو كلفوا بما يكلف به الإنسان فلهم حجة أننا مبتلون بالنفس الأمّارة دون الملائكة، و ليس هكذا رسول من الإنس لمكان الأنس به في أصل الكون و الكيان، فحين يرى الإنسان رسولا من ذوي نوعه يرغب في اتباعه ليصبح نظيره أو قريبا منه، و ليست العصمة الربانية إلّا في ظروف العصمة البشرية و الرسل لا يطلبون من الناس إلّا عصمة بشرية على ضوء الوحي.

فللمسانخة بين الرسول و المرسل إليهم دور هام في إتمام الحجة لاتّباعه لأنه منهم و هي من المنن الربانية التي يمتن اللَّه بها على عباده:

«هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ..» (62: 2) في حقل الرسالة «وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» في حقل الخلافة، و لا نجد في الرسل رسولا يرسل إلى قوم ليس هو منهم سواء أ كانت رسالة محدودة أو مطلقة يحلق على كافة المكلفين.

و صيغة «من قومه» متكررة في حقل الرسالات، و أما الرسالة العالمية فهي ايضا منبثقة من قوم الرسول الأولين، الذين هم مبدء الدعوة الرسالية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 346

و منطلقها، و من ثم هم الذين يحملون هذه الرسالة إلى آخرين.

فكلّما كان الرسول أقرب إلى المرسل إليهم مكانا و مكانة و قرابة و لغة أماهيه؟ كانت رسالته أنجح و حجته أرجح، حيث يرونه منهم و في مستواهم، و هو مع الوصف أرسل إليهم بلباقة مكتسبة كأصل حتى انتجبه اللَّه للرسالة إليهم.

و هكذا تكون دور الدعوات الرسالية في كل حقولها الفرعية من قيادة الأمة روحية و زمنية، أو مرجعية الفتيا أو الحاكمية الشرعية في قضاء و ما أشبه، أو إمامة الجمعة أو الجماعة أمّاهيه من مناصب روحية أو زمنية، حيث الأصلح الأليق أن ينتجب من أنفس هؤلاء الذين يحكم فيهم أو يؤمهم، اللهم إلّا أن لا يكون فيهم من يليق لذلك المنصب.

و ابتعاث الرسول البشر إلى الجن و سواهم من غير الانس لا ينقض قاعدة المجانسة إلّا إذا كان هو المتكفل لهم بتبليغ الرسالة، و لكن رسل الجن هم وكلاء عن رسل الإنس قبل ختم الرسالة، أم هم نوابهم دون عصمة أم معها دون وحي كالأئمة المعصومين عليهم السلام، أما إذا كانت الرسالة إلى غير الانس كذلك فهناك أيضا المجانسة ملحوظة محفوظة، فان الذي يدعوهم مواجهة هو منهم مهما كان هو نفسه تحت قيادة أعلى رسالية أو رسولية، ففرق بين رسول لحمل الرسالة إلى رسول، و رسول يصاحب المرسل إليهم في رسالته، و رسالة رسل البشر الى رسل الجن من قبيل الأولى كرسالة الرسل الملائكية إلى الرسل البشر.

ثم رسالة البشر الى قبيل الجن ليست بتلك المفاصلة التي هي بين الملائكة و الأنس حيث هما مشتركان في كل التكليف و في نزعات النفس و العقل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 347

وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (10):

لا تأسف يا حامل الرسالة الأخيرة السامية على ما يستهزئ بك فيها، فإن التأريخ الرسالة مشحون بهزءهم و سخريتهم من قبل المجاهيل المكذبين بآيات ربهم: «وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ..» بمختلف ألوانه و أشجانه، و هذه تسلية للرسول (ص) و تسرية عنه مما كان يلقاه من عناد المعرضين و عنت المكذبين المستهزئين، طمأنة لقلبه الجريح القريح إلى سنة اللَّه في أخذ المستهزئين بالرسل و المكذبين، و تأسية له كذلك بأن ليس بدعا في واجهة الهزء من هؤلاء الأوغاد المناكيد «فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ».

فقد تنزل هذه الآية حينما غاظ الرسول (ص) بهزءهم‏ «1»، طمأنة لخاطره القديس الخطير، و تشجيعا لذلك البشير النذير أن يستمر في دعوته صامدا، لا هامدا و لا فشلا.

ذلك و لم يكن اللَّه ليسكت عن هزء الرسل و السخرية من الرسالات، «فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ» إصابة حالة محيطة «ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» و هو حيق الاستهزاء نفسه إذ برز بصورة عذابات الاستئصال الهازئة بهم و كما في قوم نوح: «كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ» (11: 38) فقد سخرت منهم أمواج الطوفان جزاء وفاقا.

هنا «ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» قد تعم إلى نفس الاستهزاء المستهزء به،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 5- اخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن محمد بن إسحاق قال‏ مر رسول اللَّه (ص) فيما بلغني بالوليد بن المغيرة و أمية بن خلف و أبي جهل بن هشام فهمزوه و استهزءوا به فغاظه ذلك فأنزل اللَّه‏ «وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ ...».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 348

حيث الرسالات ببلوغها و بلاغها و صمودها و تقدمها و آياتها استهزئت بهؤلاء الأوغاد المناكيد، كما استهزء بهم هزءهم نفسه.

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (11):

«سيروا» سيرا تاريخيا جغرافيا و جغرافيا تاريخيا «في الأرض» إنسانيا، «ثُمَّ انْظُرُوا» نظرة العبرة «كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ»- «فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» (27: 52)- «فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وَ هِيَ ظالِمَةٌ فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى‏ عُرُوشِها وَ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَ قَصْرٍ مَشِيدٍ» (22: 45) «فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى‏ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ. فَهَلْ تَرى‏ لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ» (69: 8).

فالسير في الأرض هو للاستطاع و التدبر و الإعتبار معرفة لسنن اللَّه مرتسمة في الأحداث، مسجلة في الآثار.

فذلك السير يجعل الإنسان ابن غابره إلى حاضره ليعيش مجربا و على خبرة بنتائج الأعمال خيّرة و شريرة.

فقد لمس بهذه التذكرة قلوب المستهزئين المقلوبة، المغلوبة بطوع الهوى، بمصارع أضرابهم من أسلافهم و منهم من هم أشد قوة منهم و آثارا في الأرض.

و خير عرض لسير الأرض هو عرض القرآن لأخبار الأرض حيث يسيرنا سيرا حثيثا حسيسا دون أي خليط من أباطيل و أساطير.

قُلْ لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلى‏ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (12):

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 349

«قل» لهؤلاء الأغفال «لمن» ملكا و ملكا «ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» و هما الكون المخلوق كله، و لأن الجواب باهر حيث المسؤولون مصدقون بوجود اللَّه مهما كانوا به مشركين ف «قل للَّه» و كما «لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ» (31: 25)- «... لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ» (43: 9)- «... فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ» (87).

هؤلاء المجاهيل الأقدمون كانوا يعترفون بالربوبية العليا و إن لم يكونوا يرتبون عليها نتائجها المنطقية بإفراد اللَّه في هذه الربوبية دون إشراك، فتلك الجاهلية- إذا- لها الشرف على الجاهلية المادية المتحضرة- المسماة بالعلمية- حيث تنكر حقيقة الربوبية عن بكرتها، حيث تغلق على فطرتها و عقليتها دروبهما دون رؤية الحقيقة الكبرى!.

ذلك و من مخلفات‏ «لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» أنه ذو رحمة واسعة، و قد «كَتَبَ عَلى‏ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ» كتابة الفرض و التحقيق إضافة إلى واقعية الكون كله التي هي من واسع رحمته.

و لقد كررت كتابة الرحمة بكل حلقاتها في القرآن مرارا، هنا مرتان أخراهما «كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى‏ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (54) و ثالثة مصرّحة بتحقيق كتابة الرحمة: «... قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْ‏ءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ» (7: 156).

و تلك الرحمة الربانية الواسعة كلّ شي‏ء، المحلّقة عليها، هي مكتوبة وعدا و تحقيقا للمتقين، و من رحمته الشاملة «لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ» و هو رحمة في حلقات: رحمة لنا في هذه الأدنى أن نروضها بالتقوى و نرفض فيها الطغوى خوفة من الأخرى و طمعا فيها، و رحمة لنا أخرى أن احتمالة الحياة الحساب تكسر من ثورة الطغيان عن أهله، و ثالثة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 350

رحمته في الأخرى، المكتوبة للذين يتقون، و رابعة أن زحمة الظالمين يوم الدين هي رحمة للمظلومين.

ذلك، و كما شملت رحمته كلّ شي‏ء، فقد سبقت رحمته غضبه، سبقا زمنيا و شموليا و في المكانة، و مثلث السبق باهر من الذكر الحكيم في حين لا نجد و لا لحمة لشمولية الغضب، فإنما هو ل «من أشاء» كما في آية الأعراف و ما أشبه.

و لقد رويت هذه السابقة السابغة للرحمة الربوبية عن رسول الرحمة (ص) بألفاظ عدة «1» و ان رحمته يوم القيامة سابقة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 6 بسند عن أبي هريرة عن النبي (ص): «لما خلق الله الخلق كتب كتابا بيده على نفسه ان رحمتي تغلب غضبي»

و

في اخرى‏ «ان رحمتي سبقت غضبي»

و

في ثالثة عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه (ص): إذا فرغ اللَّه من القضاء بين الخلق اخرج كتابا من تحت العرش إن رحمتي سبقت غضبي و أنا ارحم الراحمين فيقبض قبضة أو قبضتين فيخرج من النار خلق كثير لم يعملوا خيرا مكتوب بين أعينهم: عتقاء اللَّه.

و

فيه اخرج ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن باللَّه عن أبي قتادة عن رسول اللَّه (ص) قال: قال اللَّه للملائكة ألا أحدثكم عن عبدين من بني إسرائيل أما أحدهما فيرى بنو إسرائيل انه أفضلهما في الدين و العلم و الخلق و الآخر انه مسرف على نفسه فذكر عنه صاحبه فقال: لن يغفر اللَّه له فقال: ألم يعلم أني ارحم الراحمين ألم يعلم أن رحمتي سبقت غضبي و أني أوجبت لهذا العذاب فقال رسول اللَّه (ص): فلا تألوا على اللَّه.

و

في نور الثقلين 1: 705 في روضة الكافي في رسالة أبي جعفر عليهما السلام الى سعد الخير: «فكتب على نفسه الرحمة فسبقت قبل الغضب فتمت صدقا و عدلا فليس يبتدئ العباد بالغضب قبل أن يغضبوه و ذلك من علم اليقين و علم التقوى».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 351

كأسبغها على رحمته يوم الدنيا «1».

و ترى ما هو موقف «إلى» في‏ «لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ»؟ مهما وردت أيضا «إِنَّ اللَّهَ جامِعُ الْمُنافِقِينَ وَ الْكافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً» (4: 140) و لكنه جمع خاص لمجموعين خصوص.

إن الجمع «إلى» يجمع إلى «في»- اللامح لحضور المجموعة- جمع الأوّلين و الآخرين: «قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَ الْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلى‏ مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ» (56: 50) عناية إلى منتهى المآل لمفترقين زمانا و مكانا، و في أمد الموت و الحياة، أنهم كلهم إلى غاية واحدة هي «ميقات‏ يَوْمٍ مَعْلُومٍ».

ذلك، و قد تشبهه‏ «يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ» (64: 9) عناية إلى نفس الغاية أنها الجمع للحساب دونما أية تفرقة ثم‏ «لا رَيْبَ فِيهِ» قد يعني من «فيه» كلا اليوم و الجمع، فكما لا ريب في يوم القيامة كذلك لا ريب في الجمع إليه حسابا فثوابا أو عقابا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر أخرج ابن أبي شيبة و ابن ماجه عن أبي سعيد قال: قال رسول اللَّه (ص): «إن الله خلق يوم خلق السماوات و الأرض مائة رحمة فجعل في الأرض منها رحمة فيها تعطف الوالدة على ولدها و البهائم بعضها على بعض و آخر تسعا و تسعين إلى يوم القيامة فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة مائة رحمة».

و

أخرج الشيخان عن عمر بن الخطاب قال‏ قدم على رسول اللَّه (ص) بسبي فإذا امرأة من السبي تسعى قد تحلب ثديها إذا وجدت صبيا في السبي فأخذته فألزقته ببطنها فأرضعته فقال (ص): أ ترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا و اللَّه و هي تقدر على ألا تطرحه، قال: فاللَّه تعالى ارحم بعباده من هذه بولدها.

و

عن جرير قال رسول اللَّه (ص): لا يرحم اللَّه من لا يرحم الناس‏ (أخرجه الشيخان و الترمذي).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 352

«الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ» إذ فقدوها و لم يفتقدوها، فقد ضلوا عن فطرهم و عقولهم الإنسانية، فحسبوا أنفسهم حيوانا بل و أضل سبيلا «فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» و الحيوان هو في حقل الإيمان.

[سورة الأنعام (6): الآيات 13 الى 28]

وَ لَهُ ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (13) قُلْ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ يُطْعِمُ وَ لا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (14) قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَ ذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (16) وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَ إِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (17)

وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (18) قُلْ أَيُّ شَيْ‏ءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ أَ إِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى‏ قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَ إِنَّنِي بَرِي‏ءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (19) الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (20) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى‏ عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (21) وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (22)

ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ (23) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (24) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَ جَعَلْنا عَلى‏ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها حَتَّى إِذا جاؤُكَ يُجادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (25) وَ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَ يَنْأَوْنَ عَنْهُ وَ إِنْ يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ (26) وَ لَوْ تَرى‏ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَ لا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (27)

بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (28)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 354

وَ لَهُ ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (13):

«له» ملكا و ملكا و بأصل الكون و الكيان و فرعه، بوصله و فصله «ما سكن ...» و تقدم الظرف هنا و في «لمن» هناك دليل الحصر، أنه كما أنه لا إله إلّا هو، كذلك لا مالك و لا ملك للكائنات إلّا هو.

و ترى ما هو السكون هنا؟ و لا سكون طليقا لأي كائن! حيث الكون بأسره في حراك دائب دونما وقفة، اللهم إلّا وقفات نسبية! فإن الحركة هي لزام الكائنات الحادثة.

و إذا كان «سكن» تقابل الحركة المحسوسة، فله المتحركات في الليل و النهار كما السواكن فلما ذا الإختصاص هنا ب «ما سكن» و مصبّ الحجاج هو الكون بأسره و لا سيما المتحركات قضية حاجتها إلى محرك؟!.

«ما سكن» لا تقابل «ما تحرك» إنّما هو من السكن، لا السكون مقابل الحركة أي: له ما تمكن في الليل و النهار، كما «وَ سَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» (14: 45) حيث لا تعني مقابل تحرّكهم، «وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً» (16: 80) مهما عنيت من السكن هنا اضافة إلى السكونة السكينة و الراحة.

أو يقال‏ «سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَ النَّهارِ» تعني السكينة و الراحة مع السكونة،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 355

إنه هو الذي أسكنهم و طمأنهم، فكما لا سكن في الليل و النهار إلا من اللَّه، كذلك لا سكينة و راحة فيهما لهم إلّا من اللَّه.

ف «سكن» على أية حال تعني سكن المكان و الزمان الشامل لأيّ كان، كما الليل و النهار لهما مكان الآفاق، العارضان هما عليها، و لكن القصد هنا إلى ساكني الكون في كل زمان و مكان، و هو تعالى ليس له زمان و لا مكان.

ثم و لا يخرج أي كائن من ساكن في الليل و النهار، أم في ليل أو نهار، حيث المكان بين سكن الليل و سكن النهار، اللهم إلّا العدم المطلق الذي ليس ليلا و لا نهارا، فلا هو في ليل و لا في نهار سلبا لسلب الموضوع.

ثم اللَّه الذي ليس ماكنا و لا مكانا و هو خارج و بائن عن ظلم الليل وضوء النهار خروجا عن موضوع الزمان و المكان و الليل و النهار، فإنهما من لزامات الكائنة الحادثة المادية، و المجرد الطليق عن كل شئونات المادة لا هو ماكن فيها و لا هو مكان لها.

«ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَ النَّهارِ» عبارة أخرى عن الكون المخلوق بأسره كما السماوات و الأرض و ما بينهما.

فكما الظرف مكانيا يشمل كل الكائنات مستقصيا أي كائن كان، كذلك هو زمانيا حذو النعل بالنعل، ثم الخالق للكون لا مكان له و لا زمان لأنه الخالق لهما و ما فيهما، فكما له‏ «ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» مكانا، كذلك‏ «لَهُ ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَ النَّهارِ» زمانا، و لا كائن مخلوقا دون مكان أو زمان أيا كان و أيان.

و ترى إذا كان‏ «لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» و «ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَ النَّهارِ» فلمن- إذا- ظرف المكان و ظرف الزمان؟.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 356

كما أن‏ «ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» تعني الكائن و المكان، كذلك‏ «ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَ النَّهارِ» تعني الساكن و الزمان، و كما تصرح بذلك آيات خلق المكان و خلق الزمان‏ «اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ» من مثلث الساكن الماكن و الزمان و المكان.

ذلك! و كما أن هناك ملازمة بين خلق الزمان و المكان و الساكن و الماكن، فالخالق للماكن ليس ليخلق إلّا في مكان خلقه من ذي قبل أو معه، كما الخالق لساكن الليل و النهار ليس ليخلقه إلّا بعد خلق الليل و النهار أو معهما، مهما كان خلق الزمان و المكان و الساكن و المكان هو كله في أوّل ما خلق اللَّه جملة، ثم اللَّه خلقها تفصيلا.

ثم و كما أن لكتاب التشريع محكما و مفصلا تلو بعض، كذلك كتاب التكوين، و الكاتب واحد لا شريك له سبحانه و تعالى عمّا يشركون.

ثم و نفس السكون في الليل و النهار دليل حدوث الساكن كما المسكن، كما و نفس التمكن في المكان دليل حدوث الماكن كما المكان، و ذاتية الحدوث للزمان لمكان التصرم الدائم، دليل- و بأحرى- على ذاتية الحدوث لساكن الزمان و المكان.

ذلك‏ «وَ هُوَ السَّمِيعُ» للأصوات كلها «العليم» بالكائنات و الكيانات و الحالات و الصفات و الحاجات كلها، لا تخفى عليه خافية، و قد كتب على نفسه الرحمة، و له العلم المحيط و القدرة الواسعة، إذا «لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ».

قُلْ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ يُطْعِمُ وَ لا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (14):

فحين ثبت بالبرهان أن هناك فاطرا للسماوات و الأرض هو اللَّه‏ «قُلْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 357

أَ غَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ»- «أَ فِي اللَّهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» (14: 10) «فاطِرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ» (12: 101).

ثم و هو الغني ذو الرحمة: «وَ هُوَ يُطْعِمُ» روحيا و ماديا «وَ لا يُطْعَمُ» «1» في أيّ من حقول الطعام، و كل ما في الكون مطعم مهما يطعم، و أين إطعام من إطعام، حيث المطعم من الخلق هو مطعم في أصله و فرعه، في وصله و فصله، و هو مطعم بما يطعم و من حيث يطعم.

«قل» لهؤلاء الذين يتخذون من دون اللَّه وليا، و «قل» لكل من يشعر و يعقل‏ «إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ» أولية في درجة الإسلام لا في الزمان و المكان، حيث سبقه مسلمون كثير على مدار الزمن.

«وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» كما أنت أوّل المسلمين للَّه، فلتكن أوّل المعارضين للإشراك باللَّه، فأنت الأوّل الطليق في كلا السلبية و الإيجابية لكلمة الإخلاص: «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ»: «لا شَرِيكَ لَهُ وَ بِذلِكَ أُمِرْتُ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ» (6: 163).

ذلك، و كما كان محمد (ص) أوّل المسلمين، كذلك- و لزاما له- كان أوّل العابدين: «قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ» (43: 81) و أول العارفين منذ بداية الخلق إلى يوم الدين، أوّلية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 7 بسند عن أبي هريرة قال‏ دعا رجل من الأنصار النبي (ص) فانطلقنا معه فلما طعم النبي (ص) و غسل يده قال: «الحمد لله الذي يطعم و لا يطعم و من علينا فهدانا و أطعمنا و سقانا و كل بلاء حسن أبلانا الحمد لله غير مودع ربي و لا مكافأ و لا مكفور و لا مستغنى عنه الحمد لله الذي أطعمنا من الطعام و شفانا من الشراب و كسانا من العرى و هدانا من الضلال و بصرنا من العمى و فضلنا على كثير من خلقه تفضيلا الحمد لله رب العالمين».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 358

في هذه الزوايا الثلاث لا تساوى و لا تسامى!.

قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15):

لست أنا- لأنني رسول- في أمن من العذاب‏ «إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي» فإن‏ «عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» هو لزام العصيان من أيّ كان، بل و العذاب للأقرب إلى اللَّه- لو عصى- أقرب و أعظم، كما هو للأغرب أغرب، بل و حسنات الأبرار سيئات المقربين.

و لقد كان الرسول (ص) يكرر مقالته هذه في مختلف المجالات، قبل الفتح و بعده، و قد يكون بعده أحرى لاحتمالة النزوة الطارئة نتيجة الفتح المبين، فلا دور خاصا لهذه المقالة و لا نسخ له أبدا خلاف الرواية المختلقة «1».

مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَ ذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (16):

أ ترى صرف عذاب يوم عظيم عن الصالحين- و لا سيما السابقين و المقربين- هو رحمة من العظيم أم هو عدل جزاء وفاقا؟.

إن صرف العذاب عن الصالحين الذين لا ذنب لهم و لا سيما المعصومين هو قضية العدل مهما كانت الجنة قضية الرحمة التي كتب اللَّه على نفسه، و هذه ضرورة عقلية و قرآنية أن استحقاق العذاب خاص بأهله‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 705 في تفسير العياشي عن منصور بن حازم عن أبي عبد اللَّه (ع) قال: ما ترك رسول اللَّه (ص) «إِنِّي أَخافُ ..» حتى نزلت سورة الفتح فلم يعد إلى ذلك الكلام‏

أقول: علّة عناية الى‏ «لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ» و لكن الذنب هنا غير العصيان هنا، إنما هو رسالته ببلاغها و بلوغها حيث الذنب هو كل ما يستوخم عقباه، و كانت عقبى هذه الرسالة السامية مستوخمة من قبل المشركين المحتلين عاصمة التوحيد، فصد اللَّه عنه (ص) مستوخمة العقبى ما دام حيا بفتح تلك العاصمة- راجع تفضيل الكلام في تفسير سورة الفتح-.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 359

الطالحين، إذا «مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ» تتخصص بهؤلاء الأكارم الذين لا ذنب لهم، و تخص بمن له ذنب أيا كان، تاب عنه أم لم يتب، شفع له فيه أم لم يشفع، حيث التوبة من اللَّه و مغفرته و الشفاعة المقبولة لديه و تكفير السيآت بترك الكبائر و ما أشبه، كل ذلك قضية رحمته، فمن يصرف عنه العذاب فقد رحمه بواجب رحمته التي فرضها على نفسه أم راجحها، أم و التي ليست خلاف العدل.

و إذا كان صرف العذاب عن هؤلاء رحمة فالجنة لهم رحمة فوق رحمة، إذ لا يستحق أحد على اللَّه الجنة جزاء أصليا، اللّهم إلّا بما وعد برحمته، حتى «و لا أنت يا رسول الله (ص)» «1» و لكن اللَّه يتغمده و من معه برحمته التي كتبها على نفسه.

ذلك، و أما صرف العذاب عنه (ص) فيما صرف عن نفسه العصيان و كما خص خوفه عنه به: «إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ».

وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ إِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (17):

«وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ إِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» (10: 107)- «ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها وَ ما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (35: 2).

هذه الآيات ترسم صورة وضاءة عن توحيده تعالى في أفعاله، فلا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

مجمع البيان عن الحسن في تفسيره ان النبي (ص) قال: و الذي نفسي بيده ما من الناس احد يدخل الجنة بعمله قالوا: و لا أنت يا رسول اللَّه (ص)؟ قال: و لا أنا إلّا أن يتغمدني اللَّه برحمة منه و فضل و وضع يده على فوق رأسه و طول بها صوته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 360

شريك له في كشف الضر و مسّه، و لا في مس الخير و مسكه، فأنى تؤفكون- إذا- أ إفكا آلهة دون اللَّه تريدون؟ فهنا قضية واحدة لا تنقسم و لا تقبل تميّعا و لا أنصاف حلول، إما إفراد اللَّه في كافة اختصاصات الربوبية، قضيّة الفطرة و العقلية و الفكرة و العملية في شعيرته و شريعته، فهو ذاك الإسلام، و إما الإشراك باللَّه في أيّ من شؤون الربوبية تخلفا عن الآيات الأنفسية و الآفاقية، فالجمع بينه و من سواه إشراك به كيفما كان مهما كان دركات كما التوحيد درجات.

و لقد أمر الرسول (ص)- على محتدة القمة الرسالية- أن يصارح بذلك الاستنكار هؤلاء المشركين الداعين له إلى الملاينة و المداهنة، و جعل البلد شطرين و أخذ العصا من وسطها، ليجعل لآلهتهم مكانا في شرعته لكي يدخلوا في دينه، و الجواب كلمة واحدة «لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ» فلا يقبل دين التوحيد أي تليين و مصالحه و أنصاف حلول، فإنه صراح التوحيد الحق و حق التوحيد، و رفض كل شرك عن ساحته و سماحته.

وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (18):

تلك الفوقية القاهرية الربانية هي فوقية المحتد و المكانة في العلم و القدرة و التقدير و التدبير و في كل ما تتطلبه الربوبية الوحيدة غير الوهيدة «وَ هُوَ الْحَكِيمُ» في قاهريته الفائقة «الخبير» بكل سؤل و سؤال لعباده، قاهر فوقهم عدلا و فضلا، إذا

«ليس القاهر على معنى علاج و نصب و احتيال و مداراة و مكر كما يقهر العباد بعضهم بعضا، فالمقهور منهم قد يعود قاهرا و القاهر قد يعود مقهورا، و لكن ذلك من اللَّه تبارك و تعالى على أن جميع ما خلق ملتبس به الذل لفاعلة و قلة الامتناع لما أراد به، لم يخرج منه طرفة عين، غير أنه يقول له: كن فيكون، و القاهر منّا على ما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 361

ذكرت و وصفت فقد جمعنا الاسم و اختلف المعنى» «1».

و ليس القهر هنا هو الجبر،

«لا جبر و لا تفويض بل أمر بين أمرين»

إنما هو غلبة الإرادة الربانية على كل إرادة و مريد و مراد، حتى في الأمور الاختيارية ما لا ينافي الإختيار، فلا يستطيع المختار من تحقيق ما يختار إلّا- بالمآل- بإرادته تعالى و تقدس دونما تسيير على خير أو شر إلّا فيما يصح و يصلح فيه التسيير.

قُلْ أَيُّ شَيْ‏ءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ أَ إِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى‏ قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَ إِنَّنِي بَرِي‏ءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (19):

«أَيُّ شَيْ‏ءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً» على صادق الوحي إليك؟ طبعا هو اللَّه لأنه الأكبر على الإطلاق، و ان شهادة الوحي راجعة إليه، فلا شاهد أكبر و أحقّ شهادة له منه: «قُلْ كَفى‏ بِاللَّهِ» و لأن الجواب هنا بيّن للمشركين حيث يعتقدون في ألوهيته و ربوبيته الكبرى، لذلك طوي عن ذكره بقولهم و قوله، أم إن «قل اللَّه» جواب و هو مع الوصف مبتدء خبره «شهيد ... «2»».

«قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ» و بماذا يشهد؟ «لكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 706 في كتاب التوحيد عن الرضا (ع) حديث طويل و فيه يقول (ع): «و أما القاهر فانه ليس على معنى ...».

(2)

نور الثقلين 1: 706 عن التوحيد باسناده إلى محمد بن عيسى بن عبيد قال قال لي ابو الحسن (ع) أما تقول إذا قيل لك أخبرني عن اللَّه أ شي‏ء هو أم لا شي‏ء؟ قال:

فقلت له: قد اثبت اللَّه نفسه شيئا يقول: قل أي شي‏ء اكبر شهادة قل اللَّه ..

فأقول: إنه شي‏ء لا كالأشياء إذ في نفي الشيئية عنه إبطاله و نفيه،

قال لي (ع): صدقت و أصبت.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 362

«إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَ كَفى‏ بِاللَّهِ شَهِيداً» (4: 166) «1».

فالقرآن بنفسه شهيد و بينة من ربه و كما هو بنفسه بينة و يتلوه شاهد منه: «أَ فَمَنْ كانَ عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى‏ إِماماً وَ رَحْمَةً أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ» (11: 17).

و هنا «أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ» تجعل القرآن المحور الأصيل للشهادة الإلهية على وحيه‏ «لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ» عن عذاب اللَّه في يوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

«وَ مَنْ بَلَغَ»: من بلغ مبلغي منذرا كالأئمة المعصومين‏ «2»، و من بلغ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 7 عن ابن عباس قال‏ جاء النحام بن زيد و قردم بن كعب و بحري بن عمرو فقالوا يا محمد ما تعلم مع اللَّه إلها غيره؟ فقال رسول اللَّه (ص): «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» بذلك بعثت و إلى ذلك ادعو فانزل اللَّه في قولهم‏ «قُلْ أَيُّ شَيْ‏ءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً ...».

و

في نور الثقلين 1: 706 في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليهما السلام في الآية و ذلك ان مشركي اهل مكة قالوا يا محمد ما وجد اللَّه رسولا يرسله غيرك؟ ما نرى أحدا يصدقك بالذي تقول، و ذلك في أوّل ما دعاهم و هو يومئذ بمكة، قالوا: و لقد سألنا عنك اليهود و النصارى فزعموا انه ليس لك ذكر عندهم فأتنا من يشهد أنك رسول اللَّه قال رسول اللَّه (ص): «اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ ...».

(2)

نور الثقلين 1: 707 في أصول الكافي بسند متصل عن مالك الجهني قال‏ قلت لأبي عبد اللَّه (ع) قوله عزّ و جلّ: الآية، قال: من بلغ أن يكون إماما من آل محمد عليهم السلام فهو ينذر بالقرآن كما أنذر به رسول اللَّه (ص)، و رواه مثله العياشي عن الصادقين عليهما السلام،

و

في تفسير البرهان 1: 520 عن تفسير العياشي عن أبي خالد الكابلي قال‏ قلت لأبي جعفر عليهما السلام‏ «وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ ..» حقيقة أي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 363

مبلغ الإنذار بعدي و بعدهم من العلماء الربانيين‏ «1»، فلا بد- إذا- للمنذر بالقرآن من بلوغ هو بلوغ العقلية القرآنية تلقيا و تطبيقا و إلقاء، و ذلك مثلث لهندسة الإبلاغ و الإنذار بالقرآن، عطفا ل «من بلغ» بفاعل «أنذركم».

ثم «من بلغ» من المنذرين، بلغ عقليا إذ لا تكليف للصغار و المجانين، و من بلغه منهم طول الزمان و عرض المكان منذ بزوغه إلى يوم الدين، و من بلغ به‏ «2» عطفا له بمفعوله «كم».

إذا- «من بلغ» دون تقيد أدبي بالمنذر و المنذر، أو كونه لازما أو متعديا، إنّه تعبير قاصد إلى مسدّس المعاني: لأنذركم به و ينذركم من بلغ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

شي‏ء عنى بقوله: «وَ مَنْ بَلَغَ» قال: فقال من بلغ أن يكون إماما من ذرية الأوصياء فهو ينذر بالقرآن كما أنذر به رسول اللَّه (ص)، و عنه (ع) قال: علي (ع) ممن بلغ.

(1).

تفسير البرهان 1: 519- العياشي عن زرارة و حمران عن أبي جعفر و أبي عبد اللَّه عليهما السلام في الآية «يعني من بعده و هم ينذرون به الناس».

(2) الدر المنثور 3: 7 عن ابن عباس و أوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به و من بلغ يعني من بلغه هذا القرآن فهو له نذير، و

فيه أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية كتب رسول اللَّه (ص) إلى كسرى و قيصر و النجاشي و كل جبار يدعوهم إلى اللَّه عزّ و جلّ و ليس بالنجاشي الذي صلى عليه،

و

فيه أخرج أبو الشيخ عن أبي بن كعب قال‏ أتي رسول اللَّه (ص) بأسارى فقال لهم هل دعيتم إلى الإسلام قالوا لا فخلى سبيلهم ثم قرأ: «وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ» ثم قال «خلوا سبيلهم حتى يأتوا مأمنهم من اجل أنهم لم يدعوا»

و

فيه أخرج ابن مردويه و أبو نعيم و الخطيب عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه (ص): «من بلغه القرآن فكأنما شافهته به ثم قرأ هذه الآية»

و

فيه عن قتادة في الآية ان النبي (ص) كان يقول‏ بلغوا عن اللَّه فمن بلغته آية من كتاب اللَّه فقد بلغه أمر اللَّه.

و

في نور الثقلين 1: 707 في كتاب علل الشرايع بسند متصل عن أبي عبد اللَّه (ع) سئل عن قول اللَّه عزّ و جلّ: «وَ أُوحِيَ‏ ... وَ مَنْ بَلَغَ» قال: «لكل إنسان».

أقول: و في نسخة أخرى «بكل لسان» رواه هكذا في تفسير البرهان 1: 520.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 364

في مثلثه، و من بلغ في نفسه منذرا، و بلغه هذا الوحي، و ذلك من ميزات القرآن أن يجمع معاني عدة بلفظ واحد يتحملها «1».

إذا فالبالغ بالقرآن ينذر به و ذلك بعد بلوغه و بلوغ القرآن إليه، و البالغ عقل التكليف ينذر به، و البالغ إليه القرآن و هو بالغ منذر به فمنذر به، فلا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و «بلغ» فاعلا و مفعولا لازما و متعديا تعني المعاني التالية: من بلغ مثلي، أم تلى تلوي، من بلغ مبلغ العقل و بلغه القرآن ثم بلغ بالقرآن، فشرط الإنذار بالقرآن هو البلوغ به مبلغ الرسول (ص) قدر المستطاع، و شرط المنذر بلوغ حد التكليف، فهنا احتمالات في جملتي هذه الجملة، الصالحة منها معنية و غيرها غيرها.

ف «كم» قد تعني خطاب الحاضرين من أم القرى، أم كافة المكلفين ممن حولها، و «بلغ» عطفا على المفعول قد تعني بلوغ المعرفة و جاه قوم لد في الوجه الأول من الخطاب، فهم البالغون مختلف مدارج العقل و العلم و المعرفة، ما بلغوا، لمحة إلى أن القرآن لا يغتنم المجاهيل لأنهم يقبلونه بجهلهم، بل من بلغ ما بلغ.

و «بلغ» اللازمة في هذا الاحتمال قد تعني معه بلوغ عقل التكليف، و بلوغ حالة التقبل للحق، ثم هي المتعدية «بلغه» بين بلوغ نبإ القرآن إليه، أو بلوغه نفسه إليه، أو بلوغه- إذا- بذلك البلوغ، و هذه احتمالات ست في الأولين تصبح اثنى عشر.

ثم «بلغ» عطفا على الفاعل قد تعني نفس الاحتمالات الست فهي مضروبة على الأولين اثنى عشر آخر فالمجموع اربعة عشرون.

و في تقسيم آخر «من بلغ» فاعل أو مفعول و المفعول اما مفعول له أو بواسطة الجار بلغ إليه- فيه- به- و اما بلوغ الفطرة أو العقل أو العلم أو المعرفة أو بالقرآن و هي مضروبة على وجهي «كم» خمسون، و قد تعني «كم» في «لأنذركم» هؤلاء القوم اللد المجاهيل، و لكيلا يظن اختصاص الدعوة القرآنية بهؤلاء المنحطين ثناهم ب «من بلغ» عقليا و علميا مهما كان عليا غاليا و لا على قمم العصمة البشرية فطرية و عقلية و علمية.

ف «من بلغ» في احتمالات كثيرة على وجهي الفاعلية و المفعولية و على وجهي اللزوم و التعدية، بلوغا في نفسه في أية مرحلة من درجاته و بلوغا إليه و بلوغا به.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 365

بد من حمل القرآن لحد البلوغ به، ثم إبلاغه إلى كل من يعقل عنه.

صحيح أن الرسول (ص) هو الصادع الأول لهذا البلاغ المبين، و لكن الإنذار بالقرآن لا ينحصر فيه و في المعصومين من أهل بيته الكرام عليهم السلام، لأنه يحمل دعوة عالمية تشمل الطول التاريخي و العرض الجغرافي.

ذلك و «كم» في «لأنذركم» تعني مع الحاضرين زمن الخطاب كلّ المكلفين في وجهي الخطاب، فإن «من بلغ» في وجه الفاعلية تجعل «كم» هم المنذرين ككل، و هي في وجه المفعولية تخص الحاضرين، فانها من بلغه القرآن و هو بالغ لحمل التكليف بالقرآن.

كما و ان «بلغ» تعني وجهي اللزوم و التعدي، «من بلغ» في نفسه و «من بلغه» وحي القرآن، و وجه اللزوم ألزم فانه أعم فهو أتم.

و الدعوة الإسلامية تتمحور القرآن لمكان آيات التذكير و الإنذار بالقرآن و «إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ» (17: 9) «وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَ أَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ» (27: 92) «فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ» (50: 45) «إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ» (4: 105) «وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ» (7: 170) «كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ» (14: 1) «وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْ‏ءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً ..» (16: 89) «أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى‏ عَلَيْهِمْ» (29: 51)، ذلك و لا نجد حتى لمحة في القرآن لسماح الدعوة بغير القرآن إلّا طاعة للرسول و أولي الأمر لتفهّم القرآن فيما عضل من تأويل تطبيق القرآن.

و هكذا نسمع آيات الإنذار أنها تخصه بالقرآن أو بالوحي الشامل للسنة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 366

كهامش‏ «قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ» (21: 45).

و من لطيف الوفق بين القرآن و الإسلام و الوحي و الملائكة و يوم القيامة أن ذكر كلّ (70) مرة مما يلمح كأن القرآن هو الوحي كله و الإسلام كله، الذي يحمله الملائكة، ثم يظهر يوم القيامة كما لمحت آية الشورى: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى‏ وَ عِيسى‏ ...» (42: 13) حيث اختص الوحي من بين الخمس بوحي القرآن.

فعدم البلوغ بالقرآن ذنب، و عدم إبلاغه ذنب على ذنب، فان كتاب الدعوة لا ينتشر إلّا بحملته البالغين به و كما أمر الرسول (ص) «فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ» (50: 45) «وَ ذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ» (6: 70).

و ترى كيف يبلغ القرآن العربي إلى من لا يعرف لغته؟ و الجواب أن التبليغ بكل لغة واجب حملته البالغين به ترجمة له صالحة و ترجمانا صالحا.

و ليس من المفروض في كتاب الوحي الداعي أن ينزل بكل لسان، و إنما الدعوة و البلاغ بكل لسان هو واجب المنذرين به، كما و أن تفهمه بكل لغة هو واجب المنذرين به.

و هنا نتأكد واجب السيادة القرآنية في لغته كما في أصله، فعلى المسلمين به ككل أن يحملوا لغته جادّا صالحا، ثم يحملوه بكل لغة بلاغا لأهلها ككل.

ف «من بلغ» في كل حقوله لا يخلوا عن منذر به و منذر به، فمن لم يبلغه القرآن بلغته غير العربي فانما إثمه على حملة القرآن الذين لم يبلغوه بلغته، كما أن من بلغه بلغة عربية و سواه و لم تبلغه معانيه الحقة و مغازيه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 367

فإثمه على من لم يبينه، ثم الذين لم يبلغهم و هم عارفون بحجته أم علّه من اللَّه هم شركاء مع سائر المقصرين في الإثم.

إذا مسئولية بلوغ القرآن ليس فقط على عواتق حملته، بل و الذين يعرفون وحيه أو يحتملون ثم لا يفحصون عن بالغة حجته و حالقة محجته.

فالمتحري عن الحق أيا كان عليه التحري عن بالغ حجة القرآن بكل الإمكانيات المستطاعة له، كما على حملة القرآن أن يبلغوه إلى كل من بلغ‏ «قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ».

«أَ إِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى‏» شهادة أنفسية: بالوجدان فطرة أو عقلية أو علمية، أو آفاقية، أم بوحي من اللَّه؟ و كل هذه منفية تدل الآيات الآفاقية و الأنفسية على خلاف هذه الشهادة الكاذبة، إضافة إلى شهادة اللَّه بذاته و بكتابه على وحدته.

«قُلْ لا أَشْهَدُ» بأية شهادة «أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى‏» «قُلْ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ» على ضوء كافة الشهادات الصالحة الصادقة «وَ إِنَّنِي بَرِي‏ءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ».

هنا «لا أشهد» دليل عدم الشريك للَّه وحيا، إضافة إلى سائر الأدلة، لأن الموحى إليه شاهد قبل كل شي‏ء كيان الربوبية للموحي و إلّا فكيف يرسل من عنده، فكما «لا يعلم» هي من اللَّه دليل عدم المعلوم عن بكرته لأنه يحيط علمه بكل شي‏ء: «وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَ لا يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ سُبْحانَهُ وَ تَعالى‏ عَمَّا يُشْرِكُونَ» (10: 18) كذلك‏ «لا أَشْهَدُ» هي من رسول اللَّه (ص) دليل على عدم وجود المشهود عن بكرته،

«و أعلم يا بني أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله و رأيت آثار ملكه و سلطانه و لعرفت أفعاله و صفاته و لكنه إله واحد كما وصف نفسه

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 368

لا يضاده في ملكه أحد و لا يزول أبدا» «1».

ثم من‏

يقول: «إني أقول إن صانع العالم اثنان فما الدليل على أنه واحد- يقال له:- قولك إنه اثنان دليل على أنه واحد لأنك لم تدع الثاني إلا بعد إثباتك الواحد فالواحد مجتمع عليه و الثاني مختلف فيه» «2».

ذلك طرف طريف عريف من شهادة اللَّه لهذه الرسالة السامية، و من ثم‏ «الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ» مدى معرفتهم بوحي الكتاب، حيث الوحي نمط واحد مهما تفاضلت الدرجات، كما الرسل و الرسالات درجات، كما و ان هذه الكتب تحمل له شهادات:

الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (20):

هذه و التي في البقرة: «... وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» (146) «شهادة كتابية ذات بعدين على هذه الرسالة السامية، فصلناها هناك فلا نعيد.

فكما أن اللَّه شهيد للرسول بنفس الرسول و قرآنه المبين و «وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ» كذلك هو شاهد بسائر كتاباته بطبيعة وحيها و البشائر التي تضمها.

إذا فهو مشحون بمثلث الشهادة الصادقة القاطعة القاصعة في هندسة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة عن الامام علي امير المؤمنين (ع).

(2) نور الثقلين 1: 707 في كتاب التوحيد باسناده الى الفضل بن شاذان قال: سأل رجل من الثنوية أبا الحسن علي بن موسى الرضا (ع) و أنا حاضر فقال: «اني أقول: ... فقال: قولك: ...».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 369

الرسالة الختمية و لا ينبئك مثل خبير «1».

«الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ» فقدانا لنفسياتها العاقلة و فطرياتها الكاملة، و معرفتها الشاملة، فلم يفتقدها لمّا فقدوها «فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» بهذا الرسول (ص) قضية المتاركة لأثافيّ الايمان و دلالاته.

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى‏ عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (21):

أجل إنه لا أظلم ممن افترى على اللَّه كذبا كما افترى من أهل الكتاب على اللَّه أنه ختم بكتبهم الوحي و ما أشبه‏ «أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ» رسالية و رسولية كما كذبوا بآيات الرسالة المحمدية في كتبهم و فيه نفسه و في كتابه الذي كله آيات رسالته فإنه آيته الخالدة.

«إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» مهما أبرقوا و عربدوا و حاولوا كل المحاولات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 708 عن تفسير القمي عن حريز عن أبي عبد اللَّه (ع) قال: نزلت هذه الآية في اليهود و النصارى يقول اللَّه تبارك و تعالى: «الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ» يعني رسول اللَّه (ص) «كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمُ» لأن اللَّه عزّ و جلّ قد أنزل عليهم في التوراة و الإنجيل و الزبور صفة محمد (ص) و صفة أصحابه و مبعثه و مهاجره و هو قوله تعالى: «محمد رسول الله ... ذلك مثلهم في التوراة و مثلهم في الإنجيل ...» فهذه صفة رسول اللَّه (ص) في التوراة و الإنجيل و صفة أصحابه فلما بعثه اللَّه عزّ و جلّ عرفه أهل الكتاب كما قال جلّ جلاله: «فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ».

و

في تفسير البرهان 1: 520 قال علي بن إبراهيم ان عمر بن الخطاب قال لعبد اللَّه بن سلام‏ هل تعرفون محمدا (ص) في كتابكم؟ قال: نعم و اللَّه نعرفه بالنعت الذي نعته اللَّه لنا إذا رأيناه فيكم كما يعرف أحدنا ابنه إذا رآه مع الغلمان و الذي يحلف به ابن سلام لأنا بمحمد هذا أشد معرفة مني بابني قال اللَّه: «الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 370

لكل الحيل الحائلة بين آيات اللَّه و بيناته و رسالته المدلول عليها بها.

و هنا «من أظلم» يعرّف بالبعض ممن لا أظلم منهم، و منهم: «وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ» (2: 140) «وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها» (18: 57) «وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَ سَعى‏ فِي خَرابِها» (2: 114).

ذلك، و هذه الثلاث أيضا راجعة إلى افتراء الكذب على اللَّه و التكذيب بآيات اللَّه، و هذه من محادة اللَّه و مشاقته تعالى مهما كانت دركات كما الايمان به درجات.

و الظلم- في ثالوثة مادة و حالة للظالم و محتدا للمظلوم- دركات أسفلها ظلم المفتري على اللَّه كذبا أو تكذيبا بآياته، و ليس هنا اللَّه هو المظلوم المنتقص، إنّما الحق و آيات الحق هي المظلومة، حيث الظلم هو الانتقاص و لا ينتقص عن اللَّه شي‏ء، فقد ظلموا أنفسهم بما ظلموا آيات الحق المبين!.

ذلك و من افتراءهم الكذب على اللَّه أنه اتخذ لنفسه شريكا أو شركاء، و أمرهم أن يعبدوها من دون اللَّه، و يتخذوها شفعاء عند اللَّه، و أنه لم يوح بشي‏ء إلى أحد، و أن الملائكة بنات اللَّه، و أنه أحلّ ما أحلوه و حرّم ما حرموه افتراء الكذب على اللَّه، و أنه امر بالفاحشة، ثم و لا يعذب اليهود و النصارى لأنهم أبناء اللَّه و أحباءه!.

و من تكذيبهم بآيات اللَّه تكذيب الآيات الرسولية و الرسالية، و تكذيب الآيات التي تحمل بشارات بحق محمد (ص) و ما أشير من سائر الآيات.

فقد ظلموا آيات اللَّه و ظلموا ناصع الحق حين افتروا الكذب على اللَّه، فحين يعذبهم اللَّه بما ظلموا «وَ ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» لأن ظلمهم- أيا كان- راجع إلى أنفسهم و هم لا يفلحون وصولا إلى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 371

بغيتهم اللئيمة، و هي واقع الظلم الانتقاص في افتراءهم على اللَّه و تكذيبهم بآيات اللَّه، فقد ظلموا بما ظلموا أنفسهم و لم ينتقصوا من اللَّه و لا من آياته.

فلا أن اللَّه ينتقص بظلمهم في فريتهم عليه، لا في ذاته و لا في صفاته أو أفعاله، «وَ اللَّهُ غالِبٌ عَلى‏ أَمْرِهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» و لا أن آيات اللَّه تنتقص في واقعها الدلالي على اللَّه، اللهم إلّا تغطية إياها على أنفسهم و أنفس الضعفاء و المستضعفين، فهم- على أية حال- لا يفلحون و يفلجون، بل و يفلجون و لا ينجون.

فكما الظلم في نفسه هو أقبح الأمور، و لا عصيان و لا تخلف إلّا و هو ظلم، كذلك الافتراء الكذب على اللَّه و التكذيب بآياته هو من أظلم الظلم‏ «لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ».

فلا عبرة بما تراه العيون القاصرة المائرة في قريب الأمد فلاحا للظالمين و نجاحا، فإنه الاستدراج المؤدي إلى خسار أخسر و بوار أبور «وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً».

وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (22):

«نحشرهم» من موحدين و مشركين‏ «ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا» أيا كان إشراكهم في ثالوثة، عبادة أوثان و طواغيت، أم انحرافا ثنويا أو ثالوثيا و ما أشبه عن التوحيد، أم انحرافا عن إسلام التوحيد كملامح الشرك في المسلمين في فلسفاتهم و عرفاناتهم المتحللة عن الوحي.

ذلك، و لكن مصبّ السؤال التنديد هنا- كأصل- هو رأس زاوية الإشراك، ف «نقول» لهم‏ «أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ» دون شركائي، فإنهم مختلقون من عند أنفسهم دون رباط لهم باللَّه، أين هم حيث‏ «كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ» و لا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 372

بد لهم أن يكونوا أبرز أهل الحشر، سواء أ كانوا من الآلهة الأصول كما اللَّه! أم الشفعاء،- على زعمهم- عند اللَّه، فكيف تضل الآلهة الشفعاء أو المحاسبون كأصول الألوهة عن محشر الحساب؟.

و ترى‏ «أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ» استحالة لبروز شركائهم هناك؟ و لا بد من بروزهم لمشافهة ذلك الحوار البوار! استفهام الإنكار هنا منصب على كيان الشركاء دون كونهم كخلق من خلق اللَّه: «وَ إِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ قالُوا رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ» (16: 86) «فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ وَ قالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ» (10: 28) لذلك و قد زيّل بينهم و زالت عنهم ألوهتهم المزعومة: «وَ قِيلَ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ» (28: 64).

و هل تحشر- مع سائر أهل المحشر- الشركاء غير العاقلة كالجمادات؟

و لماذا! إنها تحشر للمقابلة، بل و تحرق حرقا قلوب عابديها «إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ. لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وَ كُلٌّ فِيها خالِدُونَ» (21: 99).

و ترى هل لهم من فتنة أمام ذلك الاستجواب الحاسم القاصم؟:

ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ (23) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (24):

هنا هم‏ «كَذَبُوا عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ» و كذلك شركاءهم‏ «وَ قالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ» (10: 28)! تكاذب و تسالب في استجواب‏ «وَ لاتَ حِينَ مَناصٍ» و قد فات يوم خلاص.

إن يوم القيامة مواقف لكلّ حكمه دون تضاد و منها «ثم يجتمعون في مواطن أخرى فيستنطقون فيه فيقولون‏ «وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ» فيختم اللَّه تبارك و تعالى على أفواههم و يستنطق الأيدي و الأرجل و الجلود فتشهد بكل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 373

معصية كانت منهم ثم يرفع عن ألسنتهم الختم فيقولون لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا اللَّه الذي أنطق كل شي‏ء» «1».

و ترى كيف يكذبون على أنفسهم و هو في العمق كذب على اللَّه في استجوابهم قضية شركهم؟ و ذلك يوم‏ «لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ قالَ صَواباً» (78: 38) «وَ لا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ» (77: 36)! إنهم في ذلك الموقف يتكلمون بكذبهم حيث هم مأذونون فضحا لهم بما يكذبون‏

«إن اللَّه يعفو يوم القيامة عفوا لا يخطر على بال حتى يقول أهل الشرك: «وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 708 في كتاب التوحيد عن امير المؤمنين (ع) حديث طويل يذكر فيه احوال اهل المحشر و فيه.

(2)

المصدر عن تفسير العياشي عن هشام بن سالم عن أبي عبد اللَّه (ع) قال: «ان الله يعفو ..».

و

في تفسير البرهان 1: 520 عن تفسير العياشي عن أبي معمر السعدي قال: أتى عليا (ع) رجل فقال: يا أمير المؤمنين إني شككت في كتاب اللَّه المنزل فقال علي (ع): ثكلتك أمك و كيف شككت في كتاب اللَّه المنزل؟ فقال له الرجل: إني وجدت الكتاب يكذب بعضه بعضا و ينقض بعضه بعضا؟ فقال: هات الذي شككت فيه فقال: لأن اللَّه يقول: «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ قالَ صَواباً» و يقول حيث استنطقوا قال اللَّه‏ «وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ» و يقول‏ (يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً) و يقول لا: «إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ» و يقول: «لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ» و يقول: «الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى‏ أَفْواهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ».

فمرة يتكلمون و مرة لا يتكلمون و مرة ينطق الجلود و الأيدي و الأرجل و مرة لا يتكلمون إلّا من أذن له الرحمن و قال صوابا، قال: فأنى ذلك يا أمير المؤمنين؟ فقال له علي (ع): إن ذلك ليس في موطن واحد و هي في مواطن في ذلك اليوم الذي مقداره خمسون الف سنة فجمع اللَّه الخلائق في ذلك اليوم في موطن يتعارفون فيه فيكلم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 374

ذلك، و أما الكذب الذي به يحتجون على اللَّه فلا، و لا حتى سؤلهم الكذب بسؤالهم الخاوي حين يسألون: «رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ. قالَ اخْسَؤُا فِيها وَ لا تُكَلِّمُونِ» (23: 108).

ذلك بالنسبة للمشركين الأصلاء الرسميين، و أما الموحدون الذين تخلفوا عن شرعة التوحيد تخلفا مّا عقيديا أو عمليا، فقد تكون لمقالتهم صحة مّا إذ لم يكونوا و ثنيين، و لكنهم- أيضا- يعتبرون من المشركين مهما بان بينهم بون.

و الشرك المتفرع يعم الشرك الكتابي، و التجسيم و المشاقة في الرسالة الربانية أو الخلافة المعصومة إلى المرسومة بالأهواء و الآراء «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

بعضهم بعضا و يستغفر بعضهم بعضا من الذين بدت منهم المعاصي في دار الدنيا و تعاونوا على الظلم و العدوان في دار الدنيا و المستكبرون منهم و المستضعفون يلعن بعضهم بعضا و يكفر بعضهم ببعض ثم يجتمعون في موطن يفر بعضهم من بعض و ذلك قوله: «يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ وَ صاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ» إذا تعاونوا على الظلم و العدوان في دار الدنيا «لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ» ثم يجتمعون في موطن يبكون فيه فلو أن تلك الأصوات مدّت لأهل الدنيا لأذهلت جميع الخلائق عن معايشهم و انصدعت قلوبهم إلّا ما شاء اللَّه فلا يزالون يبكون حتى يبكون الدم ثم يجتمعون في موطن فيستنطقون فيه فيقولون و اللَّه ربنا ما كنا مشركين و لا يقرون بما عملوا فيختم على أفواههم و يستنطق الأيدي و الأرجل و الجلود فتنطق فتشهد بكل معصية كانت منهم ثم يرفع عن ألسنتهم الختم فيقولون لجلودهم و أيديهم و أرجلهم لم شهدتم علينا؟ فتقول: «أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ» ثم يجتمعون في موطن يستنطق فيه جميع الخلائق فلا يتكلم أحد إلّا من اذن له الرحمن و قال صوابا و يجتمعون في موطن يختصمون فيه و يدان الخلائق من بعض و هو القول و ذلك كله قبل الحساب فإذا أخذ بالحساب شغل كل امرئ بما لديه نسأل اللَّه بركة ذلك اليوم.

(1).

نور الثقلين 1: 708 في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن امير المؤمنين (ع) حديث‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 375

و ترى كيف أصبح كذبهم على أنفسهم هناك فتنتهم؟ لأن الفتنة هو إخلاص الحق عن شوب الباطل كما تفتتن الذهب الخليط لتصبح من الخليص، فهم لم يكن لهم إخلاص لأنفسهم في ذلك الموقف الحاسم إلّا كذبهم على أنفسهم: «وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ» فالحقيقة التي تجلت عنها و تبلورت فيها «فتنتهم» هي تخليهم عن ماضي شركهم كله و إقرارهم بربوبية اللَّه الوحيدة غير الوهيدة، و لكن قد فات الأوان!.

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَ جَعَلْنا عَلى‏ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها حَتَّى إِذا جاؤُكَ يُجادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (25):

هذه مع‏ «وَ لَوْ تَرى‏ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ» هما صفحتان متقابلتان من صحيفتي الأولى و الأخرى، يرتسم في أولاهما العناد و الإعراض و في أخراها الندم و الحسرة، يرسمها القرآن الآن، خطابا للفطر الجاسية هزّا لها تساقطا للركام الذي ران عليها، علّ مغاليقها الصّلدة تنفتح و تفي‏ء إلى تدبر هذا القرآن قبل فوات الأوان.

«وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ» دون تدبر و تذكر، فإن «إلى» هنا لامحة إلى ظاهر الاستماع دون واقعة، حيث الاستماع الحق متعد بنفسه ك «فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ» (39: 18) و «إِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

طويل يذكر فيه احوال يوم القيامة و فيه: ثم يجتمعون في مواطن أخر فيستنطقون فيه فيقولون: و اللَّه ربنا ما كنا مشركين، و هؤلاء خاصة هم المقرون في دار الدنيا بالتوحيد فلم ينفعهم إيمانهم باللَّه تعالى لمخالفتهم رسله و شكهم فيما أتوا به عن ربهم و نقضهم عهدهم في أوصيائهم و استبدالهم الذي هو أدنى بالذي هو خير فكذبهم اللَّه فيما انتحلوه من الايمان بقوله: «انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ».

و

فيه عن تفسير القمي و روضة الكافي عن الصادقين عليهم السلام في الآية قال: يعنون بولاية علي (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 376

«نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ» (46: 29).

فالمستمع القول له أذن واعية صاغية، و المستمع «إلى» هو من الصّمّ عن استماع الحق المبين: «وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ» (10: 42) «جَعَلْنا عَلى‏ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً وَ إِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى‏ أَدْبارِهِمْ نُفُوراً. نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَ إِذْ هُمْ نَجْوى‏ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً» (17: 47).

و هنا أكنة القلوب ألّا تعي القرآن، و وقر الآذان ألّا تسمع مهما استمعت، هما من الجزاء الوفاق يوم الدنيا «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» استدراجا فيما هم درجوا فيه من ضلال، ضلالا على ضلال.

فالأكنة هي الأغلفة النفسية التي تحول دون تفتح القلوب المقلوبة بما قلبوها، و الوقر هو الصم الذي يحول دون آذانهم أن تؤدي واجب السمع إنسانيا.

فهذه نماذج شريرة من البشرية المعاندة التي‏ «لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ» (7: 179).

فلما ترك هؤلاء الأوغاد المناكيد فقه قلوبهم و إبصار أعينهم و سمع آذانهم‏ «خَتَمَ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ وَ عَلى‏ سَمْعِهِمْ وَ عَلى‏ أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ» (2: 7).

أ ترى‏ «قالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ» اعتذار صادق بما ختم اللَّه عليها فهم يحتجون؟ كلّا و إنّهم محجوجون بما أجابهم اللَّه‏ «بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا ما يُؤْمِنُونَ» (2: 88).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 377

فلم تكن غلف قلوبهم بداية من اللَّه حتى يحتجوا، إنما هو لعن من اللَّه بكفرهم أن أزاغ اللَّه قلوبهم لما زاغوا.

و لأن ثالوث وقر الآذان و غشاوة الأعين و أكنة القلوب، سدت عليهم منافذ الدرك إنسانيا مهما أدركوا دركات الحيوانية النحسة، لذلك:

«وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ» رؤية بالبصر أو بالبصيرة «لا يُؤْمِنُوا بِها» لمكان مضاعف الوقر و الكنّ و الغشاوة «حَتَّى إِذا جاؤُكَ يُجادِلُونَكَ» كأبي جهل و أضرابه من آباء الجهالات‏ «يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ».

فهم لا يجيئونك مفتوحي الأعين و الآذان و القلوب ليتدبروا ما تقوله من وحي ربك، و لكن ليجادلوك التماسا لأسباب الرد و التكذيب، و التحريف و التجديف، و منها «إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ» و أباطيلهم و خرافاتهم التي سطروها: «وَ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى‏ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا. قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً» (25: 6).

فمعالم السر في السماوات و الأرض التي يحويها القرآن العظيم، فضلا عن معالم الواقع العلن، تدل أصحاب السّر الرباني و العلن أن لن يكون القرآن من منتوجات التعقلات و التفلسفات البشرية، فضلا عن أساطير الأولين.

فقضية وحي القرآن هي من القضايا التي قياساتها معها، دون حاجة له إلى برهان سوى نفسه: «أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى‏ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَ ذِكْرى‏ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. قُلْ كَفى‏ بِاللَّهِ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَ كَفَرُوا بِاللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ» (29: 51) ذلك!:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 378

وَ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَ يَنْأَوْنَ عَنْهُ وَ إِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ (26):

«وهم» أولاء المفترون على اللَّه الكذب، المكذبون بآياته، الذين على قلوبهم أكنة أن يفقهوه و في آذانهم وقر، المفترون على القرآن أنه من أساطير الأولين، هؤلاء حين يستمعون إليك‏ «يَنْهَوْنَ عَنْهُ» من سواهم من المستضعفين و سواهم، كما وهم أنفسهم «ينأون عنه» ظلمات بعضها فوق بعض» «وَ إِنْ يُهْلِكُونَ» بالمآل‏ «إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ» إذ يخيّل إليهم أنّهم يهلكون المؤمنين به الصادقين، فهم- رغم أنفهم- ليسوا لينأوا عنه بنهيهم أو الضعفاء، فإنّهم هم أنفسهم في ضلال، أو أنهم يهلكون القرآن بدعوته و داعيته، و ليس القرآن ليهلك بما هم ينهون عنه و ينأون عنه:

«يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَ يَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ. هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى‏ وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» (9: 33).

و ترى‏ «يَنْهَوْنَ عَنْهُ» يحتمل النهي عن أذاه لتصدق الرواية المختلقة أنها نازلة في أبي طالب رحمه اللَّه حيث كان ينهى المشركين أن يؤذوا رسول اللَّه (ص) و يتباعد عما جاء به‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 8- اخرج جماعة عن ابن عباس في الآية قال: نزلت في أبي طالب كان ينهى المشركين ...» و عن القاسم بن مخيمرة في الآية قال مثله .. و لا يصدق به، و عن عطاء بن دينار في الآية قال مثله ... و ينأى عما جاء به من الهدى.

و فيه أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية قال: ينهون الناس عن محمد أن يؤمنوا به و ينأون عنه يتباعدون عنه، و مثله عنه من طريق العوفي و عن محمد بن الحنفية و عن مجاهد و عن قتادة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 379

«وهم» يعني- ككل- المشركين المفترين المكذبين الذين كانوا يؤذونه حياتهم، و يتربصون به كل دوائر السوء.

ثم و «يَنْهَوْنَ عَنْهُ» كما «يَنْأَوْنَ عَنْهُ» هما في مصب الذم و التنديد على سواء، كما «إِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ» يهددهم بالهلاك بما «يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَ يَنْأَوْنَ عَنْهُ».

و من ثم لم ينه عنه- فيما يختلقون من إضافة النأي عنه- إلّا أبو طالب و عوذا باللَّه، فكيف يقول‏ «وَ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ» و لو أن‏ «يَنْأَوْنَ عَنْهُ» هم غير من‏ «يَنْهَوْنَ عَنْهُ» لتساقط النظم إلى أسفل دركات الركاكة، و ماهية إلّا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فالروايتان متعارضتان و لا تقبل الآية إلّا الثانية، و الأولى معروضة عرض الحائط.

ذلك و لقد اجمع أئمة أهل البيت عليهم السلام على ايمان أبي طالب رحمه اللَّه، و فيه روايات تبلغ حد التواتر و منها ما

رواه ابن عمران أبا بكر جاء بأبيه أبي قحافة يوم الفتح إلى رسول اللَّه (ص) فقال: ألا تركت الشيخ فآتيه؟ و كان أعمى، فقال أبو بكر: أردت ان يأجره اللَّه تعالى و الذي بعثك بالحق لأنا كنت بإسلام أبي طالب أشد فرحا مني بإسلام أبي التمس بذلك قرة عينك فقال (ص) صدقت.

و

روى الطبري بإسناده أن رؤساء قريش لما رأوا ذب أبي طالب عن النبي (ص) اجتمعوا عليه و قالوا: جئناك بفتى قريش جمالا وجودا و شهامة عمارة بن الوليد ندفعه إليك و تدفع إلينا ابن أخيك الذي فرق جماعتنا و سفه أحلامنا فنقلته فقال أبو طالب:

ما انصفتموني تعطونني ابنكم فأغذوه و أعطيكم ابني فتقتلونه بل فليأت كل منكم بولده فأقتله و قال:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| منعنا الرسول رسول المليك‏ |  | ببيض تلألأ كلمع البروق‏ |
| أذود و أحمي رسول المليك‏ |  | حماية حام عليه شفيق‏ |

و أقواله و أشعاره المصرحة بإيمانه كثيرة لا تحصى و منها:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ألم تعلموا أنا وجدنا محمدا |  | نبيا كموسى خط في أوّل الكتب‏ |

و منها:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ألا إن أحمد قد جاءهم‏ |  | بحق و لم يأتهم بالكذب‏ |

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 380

قضية بغضهم لأبي طالب رحمه اللَّه، لأنه أبو علي عليه السلام!.

و ترى‏ «يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَ يَنْأَوْنَ عَنْهُ» تختص بهؤلاء المشركين، و لا تشمل معهم هؤلاء المسلمين! الذين ينهون عن القرآن باعتذار أنه لا يفهم، و أن التدبر فيه لتفهمه تفسير له بالرأي، و كما هم ينأون عنه، فأصبحت الحوزات العلمية خلوا عن القرآن كأصل حيث يجب أن تتبناه كل الحوزات الإسلامية في كل الإسلاميات عقيدية و فقهية و فلسفية و سياسية أماهيه من حيوياتهم؟!.

و كل نهي عن القرآن و نأي عنه- أيا كان و من أيّ كان و أيان- قضيّته هلاك الأنفس الناهية النائية، فالناهي عن القرآن و النائي عنه أيّا كان هالك كما أن علومه حلوم هالكة حالكة.

و هنا المنهي عنه و المنتهى عنه هو القرآن و هو رسول القرآن، و لكن القرآن هو الأصل الخالد طول حياة التكليف منذ بزوغه إلى يوم الدين، فالنهي و النأي عنه، نهي و نأي عن الرسول، كما النهي عن الرسول و النأي عنه، نهي و نأى عن القرآن، و النهي عن القرآن أنحس من النهي عن رسول القرآن.

فقرآن محمد و محمد القرآن هما اللذان يبنيان صرح الإسلام، فالمفروض أن تتبناهما الحوزات الإسلامية، فالقرآن إمام محمد (ص) و هو أمامه، هما المحوران الأصيلان للأمة الاسلامية في قرونها دون فصال اللّهم إلّا فصالا عن أصل الإسلام و أثافيّه.

وَ لَوْ تَرى‏ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَ لا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (27):

ذلك المشهد هناك خزيا و استخذاء و انتداما يقابل مشهد الاعراض هنا و الجدال و النهي و النأي و أين مشهد من مشهد؟!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 381

«وَ لَوْ تَرى‏» يا رسول الهدى‏ «إِذْ وُقِفُوا» هؤلاء الناهون عنه و النائون عنه‏ «عَلَى النَّارِ» التي أججوها على القرآن و رسالتك القرآنية، بروزا لملكوتها يوم الدين «فقالوا» لما رأوها متندمين متحسرين‏ «يا لَيْتَنا نُرَدُّ» إلى حياة التكليف ثم‏ «وَ لا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ».

و ترى‏ «وُقِفُوا عَلَى النَّارِ» تعني وقوفهم عندها؟ و عبارته الصالحة «وقفوا عند النار»! أم وقوفهم في جوف النار؟ و عبارته «وقفوا»- أو- «ادخلوا في النار»! أم وقوفهم فوق النار؟ و عبارتهم عبارته! أم وقوفهم على حقيقة النار تعريفا بها لهم عريفا عريقا دخلوها أو لما؟ و هو الصالح لعناية «وُقِفُوا عَلَى النَّارِ» مهما عنيت معه المعاني الأخرى جمعا بين الوقوفات.

بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (28):

«بل» لا طائل تحت قول قائلهم‏ «يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَ لا نُكَذِّبَ ..» «بل» خلاف ما يدعون أنهم لم يكونوا مشركين، و خلاف‏ «ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ» الموت من عبادتهم و أعمال دون ذلك «بل» لا يريدون الرجوع إذ يعلمون من أنفسهم استمرارية الكفر، فانما خوفهم من النار التي وقفوا عليها مناهم ذلك التمني كاعتذار.

و جملته انهم كانوا مفترين على اللَّه مكذبين بآيات اللَّه مهما كانوا يظهرون واجهة من الايمان و آمن من أهل الإيمان، يخفون في زعمهم الكفر مظهرين أنه إيمان!.

و لأن الإخفاء هنا هو طليقه عارفين و غير عارفين، فمنه إخفاء النار التي كانوا يؤججونها يوم الدنيا و بصرهم عنها كليل، و هناك‏ «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» (50: 22)- «وَ بَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» (45: 33).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 382

و منه إخفاء الحق على المستضعفين و إظهاره مظهر الباطل‏ «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَ الْهُدى‏ مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتابِ أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ» (2: 159) و منه ما كان يخفيه المنافقون من باطن الكفر متظاهرين بالإيمان‏ «يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ما لا يُبْدُونَ لَكَ» (3: 154) و على الجملة «بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ» من سيئات أو من الحقائق يوم الدنيا، و ما كانوا يخفون يوم الدين من إشراكهم، و ما كانوا يخفون من أعمالهم زعما أنها لا تبقى، فإنه‏ «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ» (3: 30) فقد تشمل «يخفون» كل إخفاء شرير عن أنفسهم أو غيرهم أم عن اللَّه في زعمهم، فلا تخفى يومئذ خافية إذ تبدى السرائر.

«وَ لَوْ رُدُّوا» و محال أن يردوا إلى حياة التكليف‏ «لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ» لا «إلى ما نهوا عنه»- فقط- من سيئات، بل لكان عودهم لما نهوا عنه حتى يستزيدوا من عنادهم، فللّام هنا دور حاسم لمتخيل إيمانهم و صالحاتهم، أن ردهم لا ينتج إلّا عودهم لهدف استزادة و استدامة ما نهوا عنه‏ «وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ».

أجل «و إن الله ليعلم ما لو كان كيف هو كما يعلم ما كان و ما يكون و ما هو كائن فإنه بكل شي‏ء عليم» «1».

و ترى إذا كانت الرجعة إلى حياة التكليف مستحيلة- إذا- فما هو دور الرجعة في دولة المهدي عليه السلام؟.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 709 في عيون الأخبار باسناده الى الحسين بن بشار عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا (ع) قال: سألته أ يعلم اللَّه الشي‏ء الذي لم يكن أن لو كان كيف يكون؟ فقال: ان اللَّه تعالى هو العالم بالأشياء قبل كون الأشياء قال عزّ و جلّ:

إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون- و قال لأهل النار: و لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه و انهم لكاذبون- فقد علم اللَّه عزّ و جلّ انه لو ردهم لعادوا لما نهوا عنه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 383

إن بين الرجعتين لبونا شاسعا، فالرجعة الكائنة هي قبل يوم القيامة، و هي ليست لاستدراك الطالحات بالصالحات التي أحيلت و «لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ» و أما الصالحون من الراجعين فهي لهم حظوة و نصرة للقائم عليه السلام.

فالمنفي- كلمة واحدة- من الرجعة في حياة التكليف هي التي يظن الراجع أو يدعي بقوله: «رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ» حيث الجواب‏ «أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ» (35: 37)- «قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها وَ مِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى‏ يَوْمِ يُبْعَثُونَ» (23: 100).

و المثبت كما في لمحات أو تصريحات لآيات هو رجوع من مّحض الإيمان محضا و من محض الكفر محضا، رجعة مفروضة، أو المتوسطين في الإيمان و هو رجعة بالاستدعاء، و المرفوضة هي رجعة المتطلبين إياها استدراكا لما كفروا، سواء أ كانت من البرزخ كما في آيات، أم من القيامة كما في أخرى و هذه منها.

ذلك، و من ثمّ استحالة أخرى للرجعة من القيامة إلى الدنيا حتى للصالحين، أن قضيتها تحوّل الآخرة إلى الدنيا رجوع القهقرى.

و ترى كيف‏ «إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ» و التمني إنشاء و ليس إخبارا، فقد تمنوا أن لو ردوا لم يكذبوا و يكونوا من المؤمنين؟ و لكنه إنشاء يتضمن الإخبار، فإن تمني أمر ليس إلّا التصميم عليه إن فسح المجال، و لكنهم كاذبون في تمنيهم الكذب‏

«و انهم ملعونون في الأصل» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 710 عن تفسير العياشي عن خالد عن أبي عبد اللَّه (ع) في الآية:

أنهم ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 384

[سورة الأنعام (6): الآيات 29 الى 37]

وَ قالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الدُّنْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (29) وَ لَوْ تَرى‏ إِذْ وُقِفُوا عَلى‏ رَبِّهِمْ قالَ أَ لَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى‏ وَ رَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (30) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قالُوا يا حَسْرَتَنا عَلى‏ ما فَرَّطْنا فِيها وَ هُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى‏ ظُهُورِهِمْ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ (31) وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ لَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (32) قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَ لكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (33)

وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلى‏ ما كُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا وَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ وَ لَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (34) وَ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى‏ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ (35) إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَ الْمَوْتى‏ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (36) وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قادِرٌ عَلى‏ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (37)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 385

وَ قالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (29):

«وَ قالُوا ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ وَ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ» (45: 24)- «إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ» (23: 37).

لقد تحدثنا عن الآيتين الأخريين في مجالتهما بما يحلق على الآيات الثلاث فلا نعيد، إلّا أن آية الجاثية هي الوحيدة بين هذه الثلاث و بين سائر الآيات التي تتحدث عن حصر الحياة في هذه الأدنى، وحيدة في استعراض مذهب الماديين الناكرين لأصل المبدء، و هم أنحس و أركس من المشركين.

ذلك! و لكن الحياة في العقلية و التصور الإسلامي السامي تمتد طولا في الزمان و عرضا في الآفاق و عمقا في العوالم و تنوعا في الحقيقة، دون أن تقف في حيونتها الدانية الفانية كما يتقوله الماديون و المشركون و أضرابهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 386

صحيح أن المسلكين مشتركان في نكران المعاد، و بذلك هما مشتركان في نحوسة العقيدة و يبوستها، و لكن الأكثرية الساحقة- في ثاني المسلكين في الطول التأريخي- التي جعلت مصب التنديد و الاعتراض في كثير من الآيات هم المشركون.

أو يقال إن الإشراك باللَّه مع الاعتراف به هو- في واجهة- أنحس من نكران وجود اللَّه، لأنه تسوية بين اللَّه و خلقه، بل و تفضيل له عليه تعالى في واقع الحياة العقيدية و العملية، مهما كان نكران جوده تعالى أنحس من واجهة أخرى.

ذلك، و في الحق إن تصور اختصاص الحياة بهذه القصيرة الدانية، يستحيل أن تنشأ في ظله حياة إنسانية رفيعة كريمة.

فهذه الآفاق الضيقة في كل آمادها و أبعادها- هنا- التي تلصق الإنسان و تخلده إلى الأرض، اختصاصا لتصوره بالمحسوس منها كالبهيمة المربوطة همها علفها أو المرسلة شغلها تقممها، و هذه الرقعة الأرضية الضيقة زمانا و مكانا التي تطلق السّعار البهيمي في النفس و التكالب على المتع المحدودة و العبودية لها، كما تطلق الشهوات من عقالها تعربد وحدها بلا كابح و لا هدنة و لا أمل في تعريض، و هذه الأنظمة المادية الحيوانية التي تنشأ في الأرض منظورا فيها إلى هذه الحياة القصيرة القاصرة الحيوانية، بتصارع الطبقات و الأجناس، انطلاقا في الغابة كالوحوش و الغيلان كما نشهده اليوم في الحياة الراقية المتحضرة للجاهلية الحاضرة.

هذه و تلك كان اللَّه يعلمها كلها، و لذلك يؤكد مرارا و تكرارا على مستقبل الحياة الخالدة للإنسان و كافة المكلفين ليأخذوا حذرهم عن الحياة الدنيا و متاعهم منها للأخرى.

هذه واجهتهم الجاهلة القاحلة في حياة الغفلة و النشوز، و من ثم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 387

واجهة تضادها يوم النشور:

وَ لَوْ تَرى‏ إِذْ وُقِفُوا عَلى‏ رَبِّهِمْ قالَ أَ لَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى‏ وَ رَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (30):

هناك‏ «إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ» في دار القرار بعد ما استغفلوا عنها في دار الفرار، و هنا «إِذْ وُقِفُوا عَلى‏ رَبِّهِمْ» وقوفا على حقه بربوبيته التي قضيته الضرورية عدلا و فضلا و رحمة منه إرسال الرسل و إنزال الكتب و إقامة يوم الحساب.

«وُقِفُوا عَلى‏ رَبِّهِمْ» شاءوا أم أبوا و لات حين فرار أو إنكار، بعد «إِذْ وُقِفُوا عَلى‏ رَبِّهِمْ» يوم الدنيا و هم منكرون، و أين وقوف من وقوف؟!.

و الوقوف على الرب وقوفا على ربوبيته هو من لقاء اللَّه، فهو يوم الدنيا فرض هيأ اللَّه أسبابه، ثم هو يوم الأخرى لا مرد عنه، و لكنه باستثناء القرب الزلفى، حيث الكافر- هناك- بعيد عن اللَّه كما هنا، و المؤمن قريب إليه هناك كما هنا و فيه مزيد و كما وعد «وَ لَدَيْنا مَزِيدٌ».

«... أَ لَيْسَ هذا بِالْحَقِّ»؟ و قد وقفتم الآن عليه، و كنتم واقفين من ذي قبل و لكنكم كذبتم به جاحدين: «وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا».

«قالُوا بَلى‏ وَ رَبِّنا» الذي وقفنا عليه الآن مهما كنا به كافرين‏ «قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ».

ذلك و ليس الوقوف على الرب هنا أو هناك حيطة عليه علمية و معرفية فضلا عن الحسية، إنما هو الوقوف على ربوبيته قدر المستطاع هناك، كما هو المفروض هنا، فمعرفة اللَّه و عبادته و الزلفى إليه كلها وقوف على الرب دون إيقاف على حيطة مّا في أي حقل من حقولها، «لا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً» و «لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 388

و مهما كان الوقوف على الرب بربوبية التكليف و الجزاء هنا في غطاء و غشاء، فليس للوقوف عليه هناك غشاء و غطاء «فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ».

و هناك مصبّ الوقوف على ربهم هو ربوبية الجزاء، كما تلمح لها «أَ لَيْسَ هذا بِالْحَقِّ».

و ترى كيف يكلمهم اللَّه هناك: أليس هذا بالحق؟ «وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» (2: 174)؟!.

التكليم الرباني المنفي هو الذي فيه تزكية لهم و رحمة و هو من ثوابهم و زلفاهم، و أما تكليم التنديد و هو من عذابهم فهو وارد ورد العذاب الشديد.

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قالُوا يا حَسْرَتَنا عَلى‏ ما فَرَّطْنا فِيها وَ هُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى‏ ظُهُورِهِمْ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ (31):

هنا و في عديدة أخرى‏ «بِلِقاءِ اللَّهِ» و هناك في أخرى «لقاء الرب» و طبعا كما هما مشتركان في أصل المعني من اللقاء قد يختلفان في قسم من حواياه و زواياه و بينهما عموم مطلق‏ «1».

و من الضروري في هذا البين أن لقاء ذاته تعالى مسلوب على الإطلاق إذ لا حد له و لا زمان و لا مكان و لا حلول و لا اتحاد في الذات، فلقاءه لنا معرفيا بمعنى إدراكه و الحيطة العلمية أو المعرفية به، إنه مستحيل حيث المحدود لن يحيط باللّامحدود بأية حيطة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). من لقاء اللَّه الوقوف على الرب بربوبيته وقوفا معرفيا قدر الإمكان و كما تدل عليها الآيات آفاقية و أنفسية، و قد يلاقي اللَّه بألوهيته دون ربوبيته و لكن لقاء ربوبيته يلازم لقاء ألوهيته من ذي قبل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 389

ثم اللقاء الممكن و المفروض هو بين لقاءنا إياه و لقاءه إيّانا، و قد يتحملهما لقاء اللَّه و لقاء الرب في وجهي الإضافة إلى المفعول و الفاعل، أننا نلاقيه و هو يلاقينا.

فلقاءه خلقه ككلّ في واجهة العلم و القدرة و الرحمة الرحمانية العامة هو لزام الخلق‏ «وَ هُوَ مَعَكُمْ» في هذا المثلث‏ «أَيْنَ ما كُنْتُمْ» و لا يعني لقاءهم بذاته في زمان أو مكان أو أيّا كان حيث لا يحويه زمان و لا مكان، فالمعية في لقاءه خلقه لا تعني إلّا القيوميّة بكل قواماتها.

و لقاء خلقه إياه في كل ما لديهم فقرا ذاتيا و أفعاليا و صفاتيا إليه- كذلك- لزام كياننا، فإنهم متعلقون باللَّه تعلق اللّاشي‏ء بكل شي‏ء، فلنا أن نلاقيه معرفيا فعبوديا فزلفى فثوابا آجلا و عاجلا، فطريا و عقليا و علميا و شرعيا.

ثم هناك لقاء له إيانا بربوبية التكليف هنا في شرائعه و بربوبية الجزاء هناك بالحساب و الثواب و العقاب، و لقاء لنا إياه فيهما حيث نربّى بهما.

و لقاء له آخر- على ضوء ربوبية التكليف- إيانا، أن يقربنا إليه زلفى معرفيا و عبوديا، ثم جزاء لنا وفاق ولديه مزيد هناك معرفيا و ثوابا، و هذا على قدر لقاءنا إياه‏ «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏».

و التكذيب بلقاء اللَّه يعم كل هذه اللقاءات في مثلث النشآت، فمن مكذب بلقاء اللَّه، نكرانا لألوهيته كما الدهريون، أو مكذب بلقاء الرب نكرانا لربوبيته الوحيدة تكليفا و جزاء، و ثالث يكذب بأن عبادته وحده على معرفته و معرفته على عبادته تسبب لقاءه معرفيا هنا زلفى، و ثوابا في كل جنباته في الأخرى.

فهذه قيلة عليلة أن معرفة اللَّه مستحيلة، فالإقرار به مستحيل فضلا عن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 390

عبوديته، فكيف يصدّق من لا يعرف، و كيف يعبد من لا يصدّق بما لا يعرف؟.

حيث المعرفة المنفيّة هي المنهية المرفوضة، و المعرفة المثبتة الممكنة للخلق على مراتبهم، هي مفروضة، و لا نصيب لنا في معرفته إلّا جانب السلب مع إثبات الأصل أنه: موجود لا كوجوداتنا، قادر لا كقدراتنا ...

ثم «لقاء الله» هو لقاءه إيّانا و لقاءنا إيّاه في ألوهيته، و «لقاء الرب» هو اللقاءان في ربوبيته، و لأن ألوهيته و ربوبيته فرقدان لا يتفاصلان، فنكران كلّ هو كنكران الآخر، فالناكر لربوبيته ناكر لألوهيته، كما الناكر لألوهيته هو- طبعا و بأولى- ناكر لربوبيته.

تقوى اللَّه هنا سبب صالح للقائه تعالى برحمته الخاصة: «وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» (2: 223) لقاء في الدارين: «قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى‏ إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً وَ لا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً» (18: 11).

و آيات لقاء اللَّه و لقاء الرب- التي تعني كأصل لقاء يوم اللَّه و يوم الرب، مهما عنت سائر اللقاء بضمنه- كثيرة منبثة في سائر القرآن سيرا أدبيا مزيجا، و من أبرزها: «مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ» (29: 5).

و ليس رجاء ذلك اللقاء إلّا بواقع اللقاء يوم الدنيا في كل حلقاته المستطاعة، و بين اللقائين عقيديا عموم مطلق، فالراجي لقاء اللَّه في الأخرى محقّق لقاءه في الأولى، و ليس كل محقق لقاءه في الأولى راجيا لقاءه في الأخرى، كالذين لا يؤمنون باليوم الآخر من موحدين و مشركين، فإنما اللقاء الصالح هنا يخلّف رجاء اللقاء قدره هناك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 391

فمن حظى حظوة لقاءه تعالى ربا في الأولى فقد رجى لقاءه ربا في الأخرى، و لكن ملاقيه إلها- فقط- لا ربا كما يحق، قد لا يرجوا لقاءه هناك ربا و هؤلاء كثير: «وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ» (30: 8)- «أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ مُحِيطٌ» (41: 54) إنما لقاءه تعالى في الأخرى هو قدر لقاءه في الأولى اللّهم إلّا في الثواب فإنه قضية فضل اللَّه.

«قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ» في أية دركة من دركات تكذيبهم، و لا سيما لقاء ربوبيته يوم الجزاء مهما اعتقدوا في وحدته إلهيا و ربوبيا، فضلا عما أنكروه من ملحدين و مشركين‏ «حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً» إذ «لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً» (7: 187) و لكن اين بغتة عامة تحلّق على فريقي الإيمان و الكفر، و بغتة خاصة لمن ينكرونها، فهي- إذا- لهم مباغتة مضاعفة.

ذلك فغير المؤمنين ككل يشملهم التنديد المديد في‏ «قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ» فالمادي ناكر لقاءه نكرانا لكونه، استبدالا للمادة باللَّه، و المشرك ناكر لقاءه كما هو واحد لا شريك له، كما هما ناكران لوحيه الرسالي و ليوم الجزاء، و الكتابي المنحرف عن توحيده أو وحيه أو جزاءه هو ثالث ثلاثة، فنكران كل لقاء للَّه و للرب فيما يجب أو يجوز خسران، و تصديقه نفع و إيمان، و المحور الأصيل الذي ليس له بديل في واجب اللقاء هو حياة الحساب يوم الحساب.

«قالُوا يا حَسْرَتَنا عَلى‏ ما فَرَّطْنا فِيها» تقصيرا في الإعتقاد بها فقصرنا- إذا- في سائر عقائدنا و أعمالنا، و قدير جمع ضمير التأنيث- إضافة إلى الساعة- إلى الدنيا حيث فرطوا فيها بجنب اللَّه، إذ لم يتزودوا في ساعة الدنيا لساعة لقاء اللَّه برزخا و للأخرى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 392

«وَ هُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى‏ ظُهُورِهِمْ» أنفسهم حيث‏ «لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى‏» «أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ» تقصيرا في يوم لقاء اللَّه، و هم في حملهم أوزارهم كالدواب الموقرة بالأحمال و أضل سبيلا، فإن حمل الدواب هو لصالحها و صالح أصحابها، و حمل هؤلاء طالح لطالح حالهم و مآلهم.

و هنا «يا حَسْرَتَنا» بما يرون من منازل الثواب و العقاب، لا سيما على‏

حد المروي عن الرسول (ص): «الحسرة أن يرى أهل النار منازلهم من الجنة في الجنة فتلك الحسرة» «1».

ذلك و الحسرة يومئذ تحيط بأهلها لحد سمي ذلك اليوم يوم الحسرة:

«وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ وَ هُمْ لا يُؤْمِنُونَ» (19: 39)- «وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ. أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى‏ عَلى‏ ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَ إِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ» (39: 56) «كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ» (2: 167)- و ترى «لقاء الله» هنا هو فقط لقاء الآخرة؟ فما ذا تعني‏ «حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً» و هم لا يكذبون به في البرزخ!.

إنه لقاء اللَّه يومي الجزاء، ف «حتى» لمن هو حي عند قيام الساعة هي منتهى الغاية لتكذيبهم أولاء، و لمن هو ميت قبله فالموت هو منتهى غايتهم.

فقد «كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً» ساعة الموت و ساعة القيامة.

و لكن الحسرة الحاسرة الأصيلة الحاصرة هي التي تحصل لأهلها يوم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 9- اخرج جماعة بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري قال:

قال رسول اللَّه (ص): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 393

الآخرة حيث‏ «يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى‏» ذلك!:

وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ لَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (32):

«وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا»- و هي الدانية دنيئة و دنوا- حياة «إِلَّا لَعِبٌ» هو للطفولة «و لهو» هو لأشباه الطفولة و أضل سبيلا حيث يلتهون بها عما يعنى إنسانيا و إيمانيا «وَ لَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ» من الدنيا، لمن؟ «لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ» دون الذين يطغون، فان الدنيا خير لهم من الآخرة، فالدنيا سجن للمؤمن و جنة للكافر «أَ فَلا تَعْقِلُونَ» أخذا لهذه الحقائق المعقولة، لأن عقولكم معقولة بعقالات الهوى.

و ترى الحياة الدنيا- و هي مدرسة الصالحين و مبعثة المرسلين- هي- فقط- لعب و لهو، فأين يحصل- إذا- ثواب اللَّه يوم الآخرة لو لا الحياة الدنيا؟.

هذه الحياة لها واجهتان اثنتان، دني دنية هي للذين رضوا بالحياة الدنيا و اطمأنوا بها، و دني عالية هي للمطمئنة نفوسهم باللَّه، فالدنيا لهم مدرسة و مكرسة و مزرعة للآخرة، فالمؤمن دنياه آخرة لأنها مزرعة الآخرة، و الكافر آخرته دنيا لأن دنياه مزرءة الآخرة.

إذا فدنيا المتقين هي الحياة الأدنى دنوا إليهم، و هي في نفس الوقت لهم حياة عالية تتلوها أخرى هي العليا، و دنيا الطاغين هي الحياة الدنيئة إذ يخسرون فيها أنفسهم و يخسرون الآخرة و هي لهم أخزى.

ذلك و لأن النتيجة الحسنى خير من الأعمال المنتجة لها، «لَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ» و «خير» هنا- كضابطة- أفعل تفضيل، فلو لم تكن الحياة الدنيا لهم فضيلة لما كانت الآخرة لهم الفضلى.

فإن‏

«أهل الدنيا ركبتهم و عبّدتهم فتدللوا لسلطانها فخسروا الدنيا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 394

و الآخرة و ذلك هو الخسران المبين، و لكن أهل الآخرة ركبوا الدنيا و عبّدوها فتذللت لسلطانهم و استعبدت لهم فربحوا الدنيا و الآخرة «1»: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً» (18: 104).

فالدنيا- إذا- محظورة و محبورة من أبصر بها بصرته و من أبصر إليها أعمته» «2».

فقد يسمع الامام علي (ع) رجلا يذم الدنيا فيقول له: «أيها الذام للدنيا، المغتر بغرورها، المخدوع بأباطيلها، أ تغتر بالدنيا ثم تذمها؟

أنت المتجرم عليها أم هي المتجرمة عليك؟ متى استهوتك أم متى غرتك؟

أ بمصارع آبائك من البلى، أم بمضاجع أمهاتك تحت الثرى؟ كم عللت بكفيك؟ و كم مرضت بيديك؟ تبغي لهم الشفاء، و تستوصف لهم الأطباء، غداة لا يغني عنهم دواؤك، و لا يجدي عليهم بكاءك، لم ينفع أحدهم إشفاقك، و لم تسعف فيه بطلبتك، و لم تدفع عنه بقوتك، و قد مثلت لك به الدنيا نفسك، و بمصرعه مصرعك.

إن الدنيا دار صدق لمن صدقها، و دار عافية لمن فهم عنها، و دار غنى لمن تزود منها، و دار موعظة لمن اتعظ بها، مسجد أحباء الله، و مصلى ملائكة الله، و مهبط وحي الله، و متجر أولياء الله، اكتسبوا فيها الرحمة، و ربحوا فيها الجنة، فمن ذا يذمها و قد آذنت ببينها، و نادت بفراقها، و نعت نفسها و أهلها، فمثلت لهم ببلاءها البلاء، و شوقتهم بسرورها إلى السرور، راحت بعافية، و ابتكرت بفجيعة، ترغيبا و ترهيبا، و تخويفا و تحذيرا، فذمها رجال غداة الندامة، و حمدها آخرون يوم القيامة، ذكرتهم فتذكروا، و حدثتهم فصدقوا، و وعظتهم فاتعظوا».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة 131 ح/ 590.

(2) هذا من كلمات الامام علي أمير المؤمنين (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 395

و له من ذم الدنيا بما يعاملها أهلوها

قوله عليه السلام: «أما بعد فإنّي أحذركم الدنيا فانها حلوة خضرة، حفت بالشهوات، و تحببت بالعاجلة، و راقت بالقليل، و تحلت بالآمال، و تزينت بالغرور، لا تدوم حبرتها، و لا تؤتمن فجعتها، غرّارة ضرّارة، حائلة زائلة، نافذة بائدة، أكالة غوّالة، لا تعدوا إذا تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها و الرضا بها أن تكون كما قال اللَّه تعالى سبحانه: «كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ» لم يكن امرء منها في حبرة إلّا أعقبته بعدها عبرة، و لم يلق في سرائها بطنا إلّا منحته من ضراءها ظهرا، و لم تطلّه فيها ديمة رخاء إلّا هتنت عليه مزنة بلاء، و حريّ إذا أصبحت له متنصرة ان تمسي له متنكرة، و إن جانب منها اعذوذب و احلولى أمرّ منها جانب فأوبى، لا ينال امرؤ من غضارتها رغبا إلّا أرهفته من نوائبها تعبا، و لا يمسي منها في جناح أمن إلّا أصبح على قوادم خوف، غرّارة غرور ما فيها، فانية فان من عليها، لا خير في شي‏ء من أزوادها إلّا التقوى، من أقل منها استكثر مما يؤمنه، و من استكثر منها استكثر مما يوبقه و زال عما قليل عنه، كم من واثق بها قد فجعته، و ذي طمأنينة إليها قد صرعته، و ذي أبّهة قد جعلته حقيرا، و ذي نخوة قد ردته ذليلا، سلطانها دول، و عيشتها رنق، و عذبها أجاج، و حلوها صبر، و غذائها سهام، و أسبابها رمام، حيّها بعرض موت، و صحيحها بعرض سقم، ملكها مسلوب، و عزيزها مغلوب، و موقورها منكوب، و جارها محروب» (الخطبة 109/ 214).

و

«أيها الناس إنما أنتم في هذه الدنيا غرض تنتصل فيه المنايا، مع كل جرعة شرق، و في كل أكلة غصص، لا تنالون منها نعمة إلا بفراق أخرى، و لا يعمر معمر منكم يوما من عمره إلا بهدم آخر من أجله، و لا تجدد و له زيادة في أكله إلا بنفاد ما قبلها من رزقه، و لا يحيا له أثر إلا مات له أثر، و لا يتجدد له جديد إلا بعد أن يخلق له جديد، و لا تقوم له‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 396

نابتة إلا و تسقط منه محصودة، و قد مضت أصول نحن فروعها، فما بقاء فرع بعد ذهاب أصله» (الخطبة 143/ 256).

و

حين يقال له: «كيف نجدك يا أمير المؤمنين؟ يقول: كيف يكون حال من يفنى ببقائه و يسقم بصحته و يؤتى من مأمنه» (615/ 586).

و

«لا ينبغي للعبد أن يثق بخصلتين: العافية و الغنى، بينا تراه معافى إذ سقم و بينا تراه غنيا إذا افتقر» (2426/ 653).

«و لبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمنا، و مما لك عند الله عوضا» (الخطبة 32/ 86).

«فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من حثالة القرظ و قراظة الجلم، و اتعظوا بمن كان قبلكم قبل ان يتعظ بكم من بعدكم، و ارفضوها ذميمة فانها قد رفضت من كان أشغف بها منكم» (الخطبة 32/ 87).

«و الدنيا دار مني لها الفناء، و لأهلها منها الجلاء، و هي حلوة خضراء، و قد عجلت للطالب، و التبست بقلب الناظر، فارتحلوا منها بأحسن ما بحضرتكم من الزاد، و لا تسألوا فيها فوق الكفاف، و لا تطلبوا منها أكثر من البلاغ» (الخطبة 45/ 103).

«فإن الدنيا رنق مشربها، ردغ مشرعها، يونق منظرها، و يوبق منظرها، غرور حائل، و ضوء آفل، و ظل زائل، و سناد مائل، حتى إذا أنس نافرها، و اطمأن ناكرها، قمصت بأرجلها، و قنصت بأحبلها، و أقصدت بأسهمها، و أعلقت المرء أوهاق المنية، قائدة إلى ضنك المضجع، و وحشة المرجع، و معانية المحل، و ثواب العمل، و كذلك الخلف بعقب السلف، لا تقلع المنية اختراما، و لا يرعوى الباقون اجتراما، يحتذون مثالا، و يمضون أرسالا، إلى غاية الانتهاء، و صيور الفناء» (الخطبة 181/ 137).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 397

«ما اصف من دار أولها عناء، و آخرها فناء، في حلالها حساب و في حرامها عقاب، من استغنى فيها فتن، و من افتقر فيها حزن، و من ساعاها فاتته، و من قعد عنها واتته، و من أبصر بها بصرته، و من أبصر إليها أعمته» (الخطبة 80/ 135).

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَ لكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (33):

«قد نعلم» محققا دون ريب‏ «إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ» من تكذيبك في رسالتك و فيما أرسلت به، تكذيبا و استهزاء، و لكنك لست أنت كمحمد مصبّ تكذيبهم‏ «1»، إنّما أنت المكذّب كرسول، فاللَّه هو المكذّب‏ «فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَ لكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ» و أنت برسالتك منها «يجحدون»، و لكن «لا يستطيعون إبطال قولك» «2»، حيث الحق يملك من البراهين ما لا يستطيع أحد تكذيبه بحجة، فإنّما «جَحَدُوا بِها»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 10- اخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن مردويه عن أبي ميسر قال: مر رسول اللَّه (ص) على أبي جهل فقال و اللَّه يا محمد ما نكذبك انك عندنا لصادق و لكنا كنا نكذب بالذي جئت به فأنزل اللَّه: «فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ ..»

و

فيه اخرج ابن جرير عن أبي صالح في الآية قال: جاء جبرائيل الى النبي (ص) و هو جالس حزين فقال له: ما يحزنك؟ فقال: كذبني هؤلاء فقال له جبرائيل: «فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ‏ انهم ليعلمون انك صادق‏ وَ لكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ».

(2)

نور الثقلين 1: 712 في تفسير العياشي عن الحسين بن المنذر عن أبي عبد اللَّه (ع) في قوله: «فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ»

و

في تفسير الفخر الرازي 12: 205- ان الحرث بن عامر من قريش قال‏ يا محمد و اللَّه ما كذبتنا قط و لكنا إن اتبعناك نتخطف من أرضنا فنحن لا نؤمن بك لهذا السبب‏

و

فيه روى أن الأخنس بن شريق‏ قال لأبي جهل: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد (ص) أصادق هو أم كاذب فانه ليس عندنا أحد غيرنا؟

فقال له: و اللَّه إن محمدا لصادق و ما كذب قط و لكن إذا ذهب بنو قصي باللواء و السقاية و الحجابة و النبوة فما ذا يكون لسائر قريش؟ فنزلت هذه الآية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 398

«وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا».

فتكذيب رسول اللَّه تكذيب بآيات اللَّه، و التكذيب بآيات اللَّه تكذيب باللَّه فهم- إذا- في ثالوث من التكذيب.

و تراه (ص) هنا ينهى عن أن يحزن بما يقولون‏ «فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ» حتى تحزن على نفسك «و لكن ...»؟ لكن الحزن على تكذيب آيات اللَّه أحزن للرسول من حزنه على نفسه! فكيف التفاصل بينهما؟!.

و لكنه لم ينه عن حزنه كأصل، بل المنهي عنه هنا هو حزن المظلوم المغلوب في أمره، فإذا كان المكذّب آيات اللَّه و اللَّه لا يظلم و هو ناصر لآياته رسولية و رسالية و سواها، ثم و لا مبدل لكلماته عن دلالاتها و تحققاتها فلما ذا الحزن- إذا- على ذلك التكذيب: «وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ» (27: 70).

فالحزن منه محظور كأن يحزن الرسول على تكذيبه لأنه هو، أو يحزن على تكذيب اللَّه خوفة على انتقاض من سماحته و انتقاص من ساحته، أو يحزن عليهم بما يوعدون، فكل ذلك محظور، تدل على حظره آيتنا و آية النمل.

و منه محبور كأن يحزن حامل الرسالة على ان اللَّه يعصى، فمن قضايا الإيمان فضلا عن رسالة الإيمان، أن يحب الرسول تحقيق رسالة اللَّه و يبغض و يحزن على تكذيبها، و هنا «ليحزنك ..» تسلية لخاطره الخطير ألا يشتغل بذلك الحزن عن كامل البلاغ لرسالته أو يستملّ عنه.

ثم لست أنت بدعا من الرسل في ذلك التكذيب التعذيب بل هو طبيعة الحال في رسالات اللَّه كلها:

وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلى‏ ما كُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 399

نَصْرُنا وَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ وَ لَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (34):

فإنّما الزاد و الراحلة في طريق الرسالة الشائكة المليئة بالعقبات و العقوبات، إنّما هو مواصلة الدعوة و الصبر القوة و الصمود- دون صبر الذلة، التخاذل- «عَلى‏ ما كُذِّبُوا وَ أُوذُوا» فإن اللَّه كافل لفلاح الدعوة إذا الداعية يحقق الدعوة كما يرام.

«فَصَبَرُوا ... وَ أُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا» في جنبات من الدعوة للداعية و الذين معه ثم‏ «وَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ» الحاملة لوعده نصرا للصابرين في سبيله، الماضين في دعوته، كما «لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ» الدالة عليه تكوينية و تشريعية، فلما ذا الحزن- إذا- على تكذيبهم بآيات اللَّه و هي قويمة مستقيمة لا تنمحي بما يمحون و لا تنقضي بما يقضون!.

فيا سالك سبيل الهدى و تارك سبيل الردى «إنّ من صبر صبر قليلا و إن من جزع جزع قليلا، عليك بالصبر في جميع أمورك فان اللَّه عزّ و جلّ بعث محمدا (ص) فأمره بالصبر و الرفق فصبر حتى نالوه بالعظائم و رموه بها فضاق صدره فأنزل اللَّه عزّ و جلّ: «وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ» ثم كذبوه و رموه فحزن لذلك فانزل اللَّه عزّ و جلّ ... فإنهم ...» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 711 عن اصول الكافي عن حفص قال قال لي ابو عبد اللَّه (ع) يا حفص: ان من صبر ...- ثم قال لي: عليك بالصبر ..

و

فيه (712) عن روضة الكافي عن حفص المؤذن عن أبي عبد اللَّه (ع) في رسالة طويلة الى أصحابه: أنه لا يتم الأمر حتى يدخل عليكم مثل الذي دخل على الصالحين قبلكم و حتى تبتلوا في أنفسكم و أموالكم و حتى تسمعوا من اعداء اللَّه أذى كثيرا فتصبروا و تعركوا بجنوبكم و حتى يستذلوكم و يبغضوكم و حتى يحملوا عليكم الضيم فتحتملوه منهم تلتمسون بذلك وجه اللَّه و الدار الآخرة و حتى تكضموا الغيظ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 400

ذلك! و

«إن رضا الناس لا تملك و ألسنتهم لا تضبط و كيف يسلمون ما لم يسلم منه أنبياء اللَّه و رسله و حجج اللَّه عليهم السلام، ألم ينسبوه إلى الكذب في قوله إنه رسول من اللَّه إليهم حتى انزل اللَّه عزّ و جلّ عليه‏ «وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ ..»؟!. «1».

إن الصبر على التكذيب و الأذى للداعية في سبيل الدعوة لا يعني إلّا الصمود و المواصلة فيها، فلا يكسل و لا يفشل، بل و يظل صامدا مغوارا في سلوك هذه السبيل، أو لا يزداده التكذيب إلّا تكرارا و إصرارا في الدعوة الصامدة، فإن جوّ التكذيب، و لا سيما الذي ليس لينال الحق بحجة، إنه مما يحرض حامل الحق على عزم أعزم و همّ أعظم و صمود أتم.

ذلك، و لا سيما ان اللَّه واعد نصره عاجلا أم آجلا، فرصيده مضمون عند اللَّه، مشحون برحمة اللَّه، مأمون بما أتمنه اللَّه، و قد «كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي» (58: 21)- «وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَ إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ» (37: 173)- «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ» (40: 51).

فحين يتصبر الداعية على كل أذى و لظى في سبيل الدعوة، فهو موعود بنصر اللَّه تعالى مستقبلا، و كما أن‏ «لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ» قبلا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الشديد في الأذي في اللَّه جلّ و عزّ يجترمونه إليكم و حتى يكذبوكم بالحق و يعاندوكم فيه و يبغضوكم عليه فتصبروا على ذلك و مصداق ذلك كله في كتاب اللَّه الذي أنزله جبرائيل على نبيكم (ص) سمعتم قول اللَّه عزّ و جلّ لنبيكم (ص) «فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ» ثم قال: «وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ ...» «فقد كذب نبي الله و الرسل من قبله و أوذوا مع التكذيب بالحق».

(1). نور الثقلين 1: 713 في أمالي الصدوق باسناده أبي عبد اللَّه (ع) انه قال يا علقمة: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 401

فمهما بلغت التكذيبات و الأذيات في هذه الطريق الشائكة الطويلة مداها، فالحجة البالغة لآيات اللَّه دوما، و النصر الموعود لغلبها على من يريد أن يتغلبها، هذان العمادان يوطدان من اعمد الدعوة الرسالية ما لا قبل لها، فيا رسول الهدى، الحامل للرسالة العليا «فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ» (46: 35) اصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا «وَ لَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ» ما ينبئك بحالهم، و حلهم في دعوتهم و ترحالهم.

أجل، و ان موكب الدعوة إلى اللَّه موغل في القدم، ضارب في شعاب الزمن، ماض في الطريق اللّاحب، مستقيم على الخط الواصب، يعترض طريقه المجرمون من كل صنوفهم، في متراصة صفوفهم، برصاصة لهم متواترة، و هناك تسيل الدماء و تمزق الأشلاء، و لكن الموكب ماض في طريقه دونما انحناء و لا انتكاص و انثناء، و مهما يكن من أمر إمر في البداية فإن نصر اللَّه في نهايات المطاف يترقبهم.

و من غريب الوفق بين الشدة و الصبر- مكافحة في كلّ شدة بالصبر- أن عديد كلّ في القرآن (102) مما يلح بواجب المكافحة في كل شدة بصبر يناسبها.

وَ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى‏ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ (35):

لقد كبر على الرسول (ص) إعراضهم لحد كأنه يتطلب من اللَّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 402

بإصرار أن يأتيهم بآية يتطلبونه حتى يؤمنوا «1»، و لأن إيتاء الآية المقترحة غير صالح كما يعلم اللَّه، و «إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ» (39: 50) لذلك فقد يعرض اللَّه عليه- كمعترض- أن يأتيهم بآية بنفسه، إعلاما بأمرين اثنين في جو عدم المصلحة لإتيان آية: أن الآيات مختصة باللَّه، و أن السماء و الأرض هما المجالان و المخرجان لإتيان آية، فمن الأرض آية أرضية:

«فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ» و من السماء آية سماوية: «أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ».

ثم و لا يريد اللَّه ليحملهم على الهدى تسييرا، و إنما مسايرة باختيار دون تسيير بإجبار، سواء أ كان دون أيّة آية أن يقلب أفئدتهم إلى الهدى، أم و بآيات يقترحونها أن يكون اللَّه عند مقترحاتهم الطائلة التي لا طائل نحتها إلّا أعذارا قاحلة جاهلة و «لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ. إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ. وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 713 عن تفسير القمي في روآية أبي الجارود عن أبي جعفر عليهما السلام في الآية قال‏ كان رسول اللَّه (ص) يحب إسلام الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف دعاه رسول اللَّه (ص) و جهد به أن يسلم فغلب عليه الشقاء فشق ذلك على رسول اللَّه (ص) فأنزل اللَّه: «إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ ..».

أقول: مهما كان الايمان باللَّه محبوبا للَّه كما الجمع على الهدى و لكنه ليس ليجمع الناس على الهدى دون اختيار و كما

في كتاب المناقب باسناده إلى سلمان الفارسي عن النبي (ص) حديث طويل يقول فيه: يا علي ان اللَّه تبارك و تعالى قد قضى الفرقة و الاختلاف على هذه الأمة فلو شاء اللَّه لجمعهم على الهدى حتى لا يختلف اثنان من هذه الأمة و لا ينازع في شي‏ء من امره و لا يجحد المفضول لذي الفضل فضله.

و

في تفسير الفخر الرازي 12: 207 المروي عن ابن عباس‏ ان الحرث بن عامر أتى النبي (ص) في نفر من قريش فقالوا: يا محمد ائتنا بآية من عند اللَّه كما كانت الأنبياء تفعل فانا نصدق بك فأبى اللَّه ان يأتيهم بها فأعرضوا عن رسول اللَّه (ص) فشق ذلك عليه فنزلت هذه الآية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 403

(26: 5).

«فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ» أن يكبر عليك إعراضهم لحد الإصرار بتطلّب آية، أم أن يجبرهم اللَّه على الهدى بأيّة وسيلة أماهيه من خلاف المصلحة رسولية و رسالية، أ ترى ربنا يهدد رسوله الأمين هكذا أمام الكافرين؟ كلّا! و إنّما يعني بذلك أن يعلموا كما يعلم الرسول أنه ليس إلّا رسولا فليست بيده أيّة آية، فليس عدم إجابته لمتطالباتهم المقترحة دليلا على عدم رسالته بعد ما جاءتهم الآية الكافية.

فمن الجهل أو التجاهل الإصرار بإتيان آية و اللَّه تعالى هو الذي يبعث الرسل بآيات كافية، فتطلّب آية بعد آيات الرسالة الكافية تجهيل للَّه كأنه لم يكمل آية الرسالة، بخلا عن تكميلها، أو لا يقدر على إتيانها، أو أنه ضنين برسوله أو برسالته فلم يزوّده بآية كافية، أماهيه من جهالات بحق الرسل و الرسالات و المرسل إليهم.

أو بعد ما أرسل محمد (ص) بآية القرآن الكافية فما هو المعني من تطلب آية بعده إلّا تجاهلا عن كون القرآن آية و هي الآية الخالدة، فقد يتجاهلون بأحرى عن سائر الآيات مقترحة و سواها لأنها دون القرآن في قاطع الدلالة.

و من ثم و حتى لو كانت هناك آية مبصرة كما القرآن في الدلالة فقضية خلود الرسالة الإسلامية تخليد آيتها الدالة عليه، فلا بد- إذا- من التركيز على آية القرآن دون أية تحولة إلى آية أخرى، اللهم إلّا استطرادية و على هامش القرآن.

كلام حول نفق الأرض و سلّم السماء.

«نفق الأرض» و هو سرب فيه له مخلص إلى غير ما هو ظاهر، و هو السبب الأرضي استبطانا فاستنباطا لما في الأرض ظاهرها و باطنها، غورا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 404

في أغوار المادة الأرضية، ذلك من الوسائل الربانية لاستكشاف المخبوء في العالم الأرضي لما دون حد الإعجاز لسائر المكلفين، و آية ربانية رسولية أو رسالية للَّه رب العالمين.

كما و أن‏ «سُلَّماً فِي السَّماءِ» هو السبب السماوي بنفس الاستبطان و الاستنباط غورا في أغوار السماء، إذا فآيات اللَّه غير خارجة عن الأسباب، لكنها خفية في أسباب الأرض و السماء الكامنة فيهما، لا يعلمهما أو يقدر عليهما إلّا اللَّه.

و ليس اللَّه ليسلّم نفق الأرض أو سلّم السماء لاستنباط الآية المعجزة لأحد من رسله تخويلا، لأنه- فقط- فعله، الدال على رسالة الوحي لحملته.

ذلك، مهما كان نفق الأرض و سلم السماء فيما دون الآية المعجزة لكل من يستبطنهما فيستنبط منهما خبايا الخلقة المحيرة للعقول، كسائر المخترعات و المكتشفات الحاصلة على ضوء تقدم العلم البارع الشاسع المحلّق على خبايا الأرض و السماء.

و كما أن‏ «أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ» (52: 38) تصريحة بسلاليم الوحي الرباني، المستمع فيها محادثات الملإ الأعلى، و إشارة إلى سلاليم الإذاعة و الاستذاعة صوتية و صورية.

و كما ان «سببا» لذي القرنين كان من الأسباب الغيبية المخصوصة بمن هباه اللَّه إياه، كذلك نفق الأرض و سلم السماء في درجاتهما هما من العطيات الخفيات الربانية، قد يتسبب بها على ضوء العلم إلى متبغيات من الحياة، و أخرى على ضوء الإيمان باللَّه إلى كرامات ربانية هي العوان بين مسببات العلم و مسببات الآيات الربانية الخاصة الرسالية، و ثالثة يتسبب بها إلى إثبات الرسل و الرسالات بإذن اللَّه دون أي تخويل لأحد من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 405

المرسلين فضلا عمن سواهم.

و هنا «سُلَّماً فِي السَّماءِ» دون «سلما إلى السماء» كما في الطور «سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ» دون «يستمعون عليه» ينبهنا أن ليسا هما كسائر السلاليم التي نعرفها، إنما هي سلاليم خفية بحاجة إلى استنباط، كما و أن الحصول على تلك المبتغيات بحاجة إلى استعمال تلكم السلاليم.

فيا للهول الهائل، المنسكب من خلال هذه الإيحاءات الجليلة الجميلة إلى حامل الرسالة الأخيرة، إيحاءات ذات جنبات عدة، ليست لتختص بصاحب الوحي.

فلا يكبر عليك إعراضهم يا رسول الهدى، فإنّهم صمّ بما صموا و ميت بما أماتوا قلوبهم فكيف- إذا- يستجيبون؟.

إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَ الْمَوْتى‏ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (36):

«أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ» (10: 42) عقل السمع و سمع العقل؟ «إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى‏ وَ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ‏ ... إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ» (27: 81) «إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ وَ ما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ» (35: 22) حيث قبروا أنفسهم في مقابر الشهوات و الإنيات، فغبروها بغبارات الجهالات.

ذلك «و الموتى» و هم أحياء، كما الموتى عن الحياة «يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ» يوم القيامة «ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ».

و كما لا بعث لعامة الأموات ليوم الحساب إلّا من اللَّه، كذلك لا بعث عن موت القلوب إلّا باللَّه‏ «إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏9، ص: 406

وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قادِرٌ عَلى‏ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (37):

«و قالوا» هؤلاء المتعنّتون‏ «لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ» نبصرها كما أرسل الأولون؟ و قد جاءتهم آية القرآن الكافية: «وَ إِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى‏ مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما كانُوا يَمْكُرُونَ» (6: 124) «فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا لَوْ لا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى‏ أَ وَ لَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى‏ مِنْ قَبْلُ ...» (28: 48).

«و قالوا ...» مستضعفين رسول اللَّه كأنه ليس رسولا من اللَّه، أو مستعجزين اللَّه كأنه ليس بقادر على أن ينزل على رسوله آية! «قُلْ إِنَّ اللَّهَ قادِرٌ عَلى‏ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً» كما يراها صالحة مصلحة في أيّة مصلحة «وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ» حيث يجهلون تقصيرا أو يتجاهلون.

فالآية الرسالية كما الرسولية إنّما هي بعلم اللَّه و قدرته: «وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِها قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَ ما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ» (6: 109)- «فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ» (11: 14)- «وَ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً. أَوْ ... قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا» (17: 94).